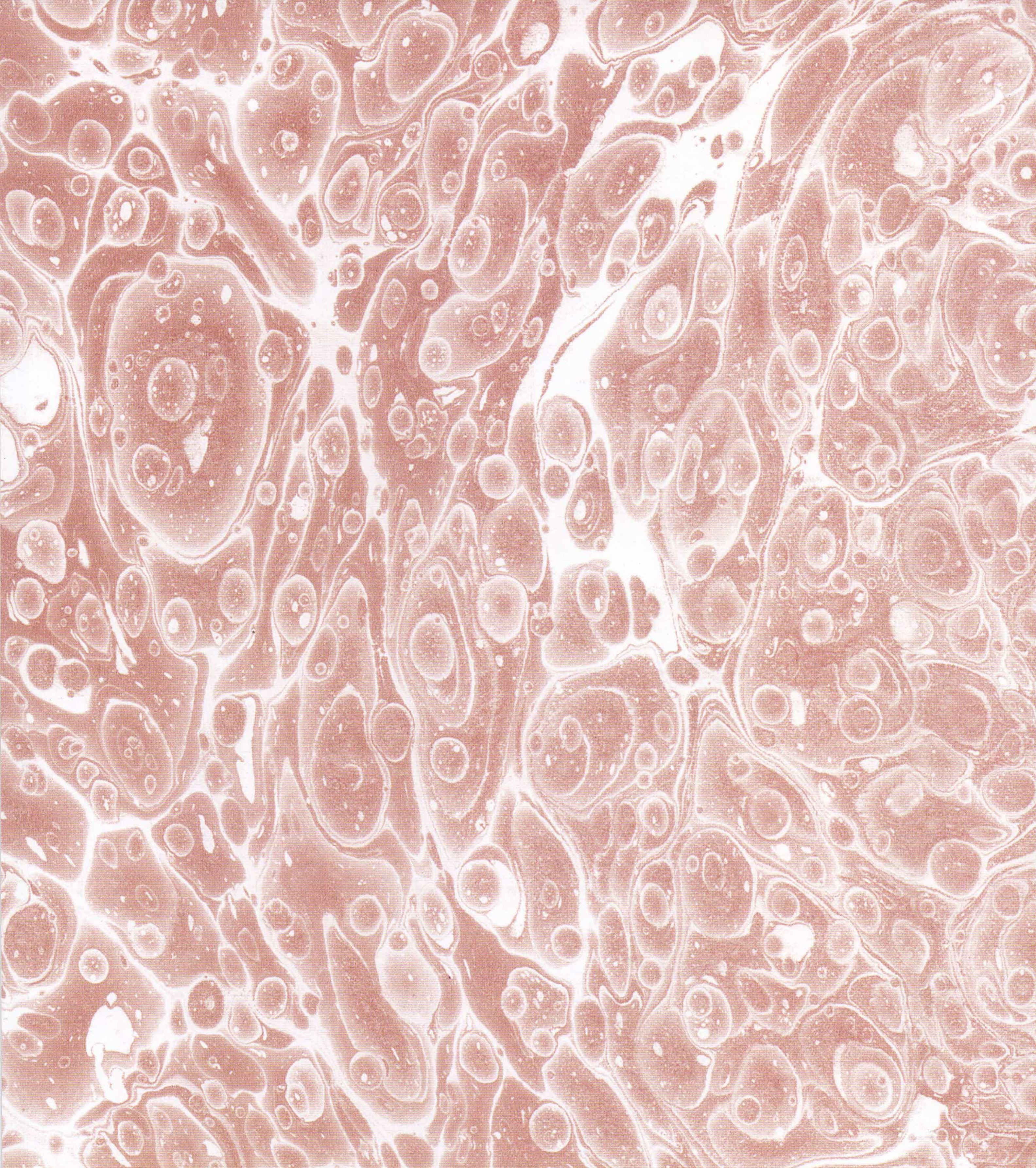
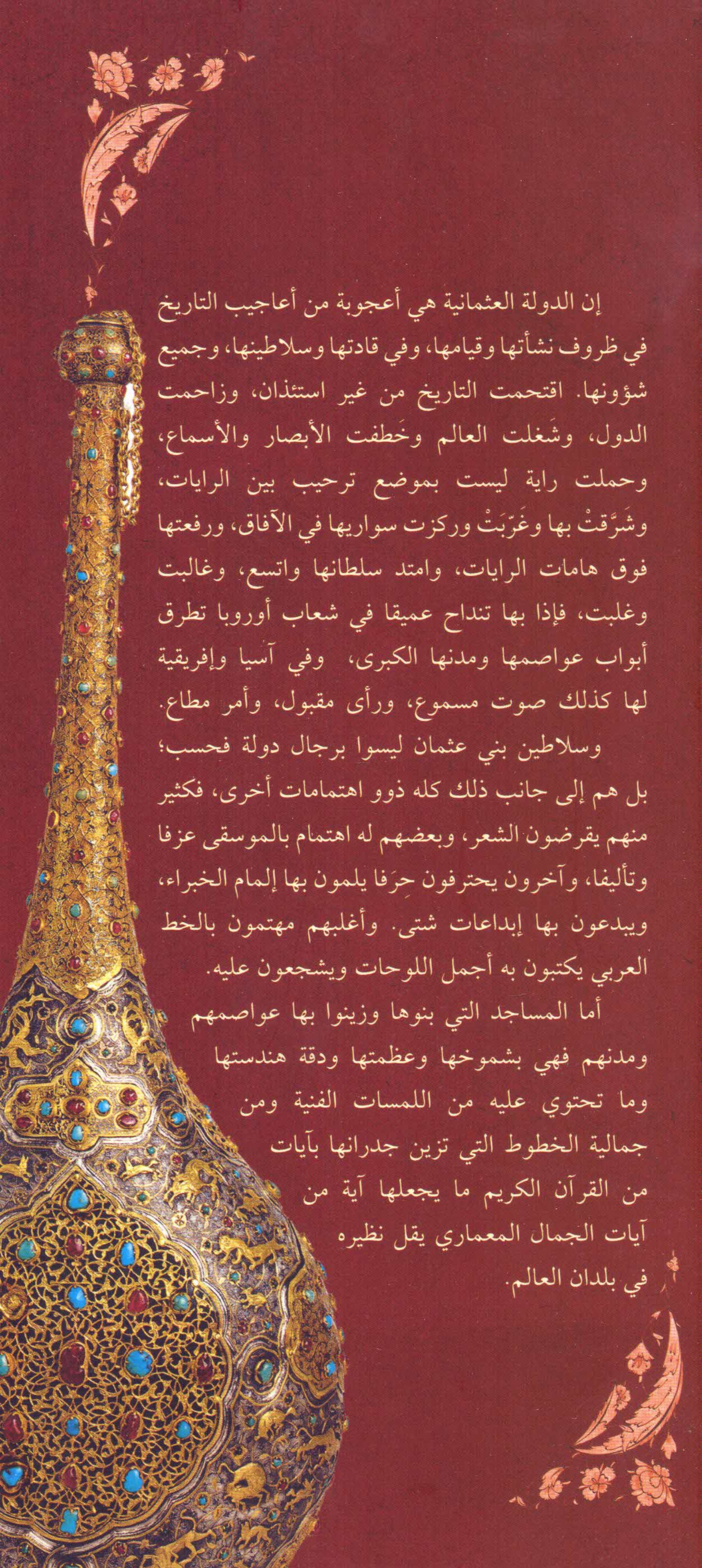
صالح كولن



# سلاطين الدولة العثمانية

دار النيل

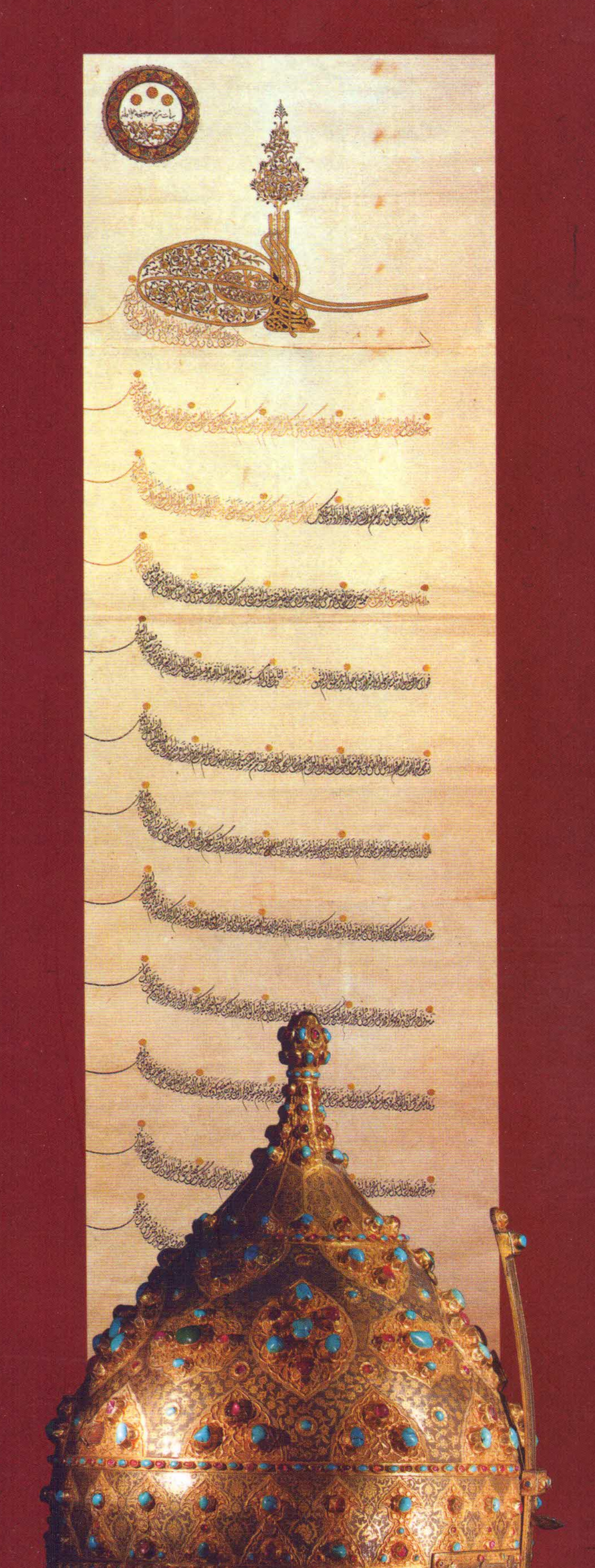




إن الدولة العثمانية هي أعجوبة من أعاجيب التاريخ في ظروف نشأتها وقيامها، وفي قادتها وسلاطينها، وجميع شؤونها. اقتحمت التاريخ من غير استئذان، وزاحمت الدول، وشَغلت العالم وخَطفت الأبصار والأسماع، وحملت راية ليست بموضع ترحيب بين الرايات، وشَرَّقتْ بها وغَرَّبَتْ وركزت سواريها في الآفاق، ورفعتها فوق هامات الرايات، وامتد سلطانها واتسع، وغالبت وغلبت، فإذا بها تنداح عميقا في شعاب أوروبا تطرق أبواب عواصمها ومدنها الكبرى، وفي آسيا وإفريقية لها كذلك صوت مسموع، ورأى مقبول، وأمر مطاع.

وسلاطين بني عثمان ليسوا برجال دولة فحسب؛ بل هم إلى جانب ذلك كله ذوو اهتمامات أخرى، فكثير منهم يقرضون الشعر، وبعضهم له اهتمام بالموسقى عزفا وتأليفا، وآخرون يحترفون حِرَفا يلمون بها إلمام الخبراء، ويبدعون بها إبداعات شتى. وأغلبهم مهتمون بالخط العربي يكتبون به أجمل اللوحات ويشجعون عليه.

أما المساجد التي بنوها وزينوا بها عواصمهم ومدنهم فهي بشموخها وعظمتها ودقة هندستها وما تحتوي عليه من اللمسات الفنية ومن جمالية الخطوط التي تزين جدرانها بآيات من القرآن الكريم ما يجعلها آية من آيات الجمال المعماري يقل نظيره في بلدان العالم.








دار النيل
ISBN 978-975-315-462-8
9 789753 154628



من خط السلطان أحمد الثالث

# سلاطين الدولة العثمانية




**دار النيل للطباعة والنشر**

الطبعة الأولى: ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

**تحرير**

أجير أشيوك

**مراجعة**

أديب إبراهيم الدبّاغ، بهاء الدين نعمة الله

**تصميم وغلاف**

مراد عرباجي

DAR AL-NILE
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No: 1
34696 Üsküdar – İstanbul / Türkiye
Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185220

Neşe Basım-Yayım
Akçaburgaz Mah.
Mehmet Deniz Kopuz Cad. No: 17
Esenyurt/İSTANBUL
Tel.: (0212) 886 83 30 Faks: (0212) 886 83 60
www.nesematbaacilik.com.tr

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

# سلاطين الدولة العثمانية



تأليف

صالح كولن

ترجمه

منى جمال الدين

دار النيل

# المحتويات

# كلمة الناشر

الدول المرصودة لحمل الرسالات الكبرى إلى العالم تُصنَعُ على عين القدر، وتتشكل على مهل حتى تبلغ أشدها وتقوى شوكتها. فتحتل عندئذ مكانا مرموقا بين الدول، فيُسمع صوتها ويحسب بين دول العالم حسابها.

فالدولة العثمانية هي من هذا النوع من الدول الرسالية. أعجوبة من أعاجيب التاريخ في ظروف نشأتها وقيامها، وفي قادتها وسلاطينها، وجميع شؤونها. إنها دولة اقتحامية اقتحمت التاريخ من غير استئذان، وزاحمت الدول، وشَغلت العالم وخَطفت الأبصار والأسماع، وحملت راية ليست بموضع ترحيب بين الرايات، وشَرَّقتْ بها وغَرَّبَتْ وركزت سواريها في الآفاق، ورفعتها فوق هامات الرايات وامتد سلطانها واتسع، وغالبت وغلبت، فإذا بها تنداح عميقا في شعاب أوروبا تطرق أبواب عواصمها ومدنها الكبرى، ويكون لها فيها شأن أي شأن، وفي آسيا وإفريقية لها كذلك صوت مسموع، ورأى مقبول، وأمر مطاع.

وسلاطين بني عثمان ليسوا برجال دولة فحسب؛ يديرون الدول ويجيشون الجيوش، ويقودونها في الحروب والفتوح، بل هم إلى جانب ذلك كله رجال ذوو اهتمامات أخرى، فكثير منهم يقرضون الشعر، وبعضهم له اهتمام بالموسقى عزفا وتأليفا، وآخرون يحترفون حِرَفا يلمون بها إلمام الخبراء، ويبدعون بها إبداعات شتى. وأغلبهم مهتمون بالخط العربي يكتبون به أجمل اللوحات ويشجعون عليه ويجيزون المتفوقين فيه.

أما المساجد التي بنوها وزينوا بها عواصمهم ومدنهم فهي بشموخها وعظمتها ودقة هندستها وما تحتوي عليه من اللمسات الفنية ومن جمالية الخطوط التي تزين جدرانها بآيات من القرآن الكريم ما يجعلها آية من آيات الجمال المعماري يقل نظيره في بلدان العالم.

وأما اهتماماتهم بالحرمين الشريفين (مكة والمدينة) فينمُّ عن عاطفة دينية عميقة الغور في نفوسهم، فلهم معامل نسيج خاصة تختص بنسج كسوة الكعبة الشريفة في كل سنة ولهم احتفال ديني ومهرجان عظيم عندما يحين وقت حملها إلى الكعبة الشريفة لتُكسى بها، وكم من سلطان أشرف بنفسه على ترميم ما يحتاج إلى ترميم من المسجد النبوي الشريف. وكان اهتمامهم بطريق الحج وحمايته وحماية أمنه، وتوفير الماء والزاد وأماكن الاستراحة للحجاج مما يشغل بالهم. وكانوا يعطون الأعطيات والمعاشات والهدايا لفقراء مكة والمدينة، ويخصصون لشريف مكة راتبا مجزيا وينفحون العطايا والهبات، فهم يقدسون كل ما يأتي من هذه الديار، وكل ما يذهب إليها. إنهم لم يكونوا يفعلون من أجل آماد الدنيا القصيرة، بل كانوا يريدون أن يخلدوا أنفسهم بما يصنعونه من آيات الخلود. إنهم محاطون دائما بهذا الهاجس إذا فعلوا شيئا أو إذا أقدموا على فعل شيء، لقد كانوا يمثلون ضمير مجتمعاتهم

المؤمنة؛ فكلماتهم حارة دافقة، ونفوسهم مشتعلة، إنهم يبعثون الحياة في الأرواح الثقيلة والعقول الميتة.

أما أعظم ما أنجزته هذه الدولة وأنجزه سلطانها العظيم "محمد الفاتح" فهو فتحه للقسطنطينية، هذه المدينة التي قال عنها نابليون: "إن من يملكها يملك العالم"، والتي قال فيها رسولنا الحبيب عليه الصلاة والسلام "لتفتحن القسطنطنية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش". (رواه ابن عبد البر والهيثمي).

فكانت سنة سقوطها ١٤٥٣م منعطفا تاريخيا هاما غيَّر الكثير من موازين القوى في العالم، وصار المؤرخون يأخذون هذا الحدث العام بعين الاعتبار. وأصبح لما قبل هذا التاريخ عندهم شأن ولما بعده شأن آخر.

ونريد أن ننبه بعد هذا الذي قلناه أن هذه الدولة وسلاطينها وقع عليهم ما يقع على الدول كافة من آفات ومن سقطات ومن وقوع لبعضهم في الآثام ومن ارتكاب فظاعات واقتراف قساوات، لكنها مع ذلك تظل متميزة بكونها حملت رسالة الإسلام وعانت من جراء حمله ما عانت، وقاومت وتعذبت. ولكنها ظلت محافظة على الراية ولم تسقط من يدها حتى آخر سلطان أو آخر خليفة من خلفائها.

**دار النيل**

# مُقدِّمة

السلالة العثمانية الحاكمة سلالة فريدة من نوعها، من حيث إنها السلالة الذكورية الحاكمة الوحيدة التي استمرت دون انقطاع طوال أكثر من ٦٠٠ سنة. ولأنني أتشرف، بكل تواضع، بانتمائي لهذه السلالة، أعتقد أنه من المهم تماما أن يتعرف الناس اليوم بشكل دقيق على الدور المهم الذي لعبته، ليس في تاريخ الأتراك والإسلام فحسب، ولكن أيضا في تاريخ العالم كله. ومن بين السلاطين الستة والثلاثين الذين حكموا الدولة العثمانية كان هناك قادة عسكريون يمتلكون مهارة استثنائية، ورجالُ دولةٍ عباقرة، ورجال ذوو براعة رياضية كبيرة، وموسيقيون مهرة، وشعراء موهوبون، وخطاطون مشهورون. وقد جعل هؤلاء الحكام هدفهم الرئيس، -لقرون عدة،- أن يحموا رعاياهم ويرعوهم، وأن يدعموا رخاءهم، وأن يحموا دار الإسلام، وأن يعززوا من تطور الحضارة الإسلامية.

وعند التأمل في أسلوب حكم السلاطين العثمانيين نجد أن جميع الرعايا الذين كانوا ينتمون إلى أديان مختلفة، وأعراق مختلفة، ويتكلمون بلغات مختلفة، كانوا يُعطَون، طوال قرون من حكم السلاطين العثمانيين، الوسيلةَ والفرصة للتعايش بسعادة. وأعتقد أن طريقة الإدارة "الإنسانية" للسلاطين العثمانيين كانت إلى حد كبير هي السببَ في أنهم ما زالوا يَحظَون حتى اليوم بالتقدير والاحترام في تركيا، وأنهم ما زالوا يُذكرون بالدعاء والرحمة في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي، وأنهم مازالوا معروفين على نطاق واسع في البلقان والشرق الأوسط وإفريقيا والشرق الأقصى ووسط آسيا. وقد تكون إنسانيتهم أيضا هي التي ساعدت على صون التراث العثماني، بينما حُكم على إمبراطوريات وممالك مشابهة بأن يُحط من قدرها بعد زوالها.

في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر كانت الدولة التي يحكمها السلاطين العثمانيون أقوى دولة في العالم. ولكن رغم أن العثمانيين كانوا يَحكمون عددا كبيرا من الشعوب في مناطق تمتد عبر ثلاث قارات، فإنهم لم يستغلوا رعاياهم على الإطلاق، سواء بأساليب مادية أو معنوية. وحقيقةُ وجود القليل جدا من الناس الذين يتحدثون اللغة التركية اليوم في مناطق مختلفة من البلقان أو الشرق الأوسط-وهي المناطق التي ظلت تحت الحكم العثماني لأكثر من أربعمائة عام- تُظهر بوضوح عدمَ وجود أية محاولة للهيمنة الثقافية. وفي المقابل يتكلم الناس في جنوب آسيا وفي إفريقيا، على سبيل المثال، اللغات الغربية

بشكل واسع، تماما كما يتكلمون اللغات الأصلية في تلك المناطق، وهذا دليل إضافي على الاختلاف الملحوظ في الأسلوب بين العثمانيين والقوى الأوروبية الاستعمارية، وعلى التسامح الذي كان يعيش فيه رعايا الدولة العثمانية مقارنة بفترة الاستعمار الغربي.

وقد سمح شكل الإدارة العثمانية بوجود عدة أنظمة قانونية مختلفة جنبا إلى جنب، بحيث كان لكل مجموعة مَحاكمها الخاصة تصدر فيها الأحكام وفقا لقوانين هذه المجموعة. كما سمح هذا النظام بتعايشٍ ناجح للغات والأديان والطوائف المختلفة لمئات السنين، وهذا رقم قياسي لا يكافئه إلا القليل جدا من الديمقراطيات "المتقدمة" في عصرنا الحالي. وقد يفوق أيضا التركيبُ الثقافي والقانوني الذي أنجزه العثمانيون الأنظمةَ المعمول بها في كثير من الدول المعاصرة لها.

لقد نجحت الإدارة العثمانية في مَأْسَسَة التناغم الاجتماعي والعدالة الاجتماعية والوعي البيئي. وظل العديد من المؤسسات الخيرية التي أقامها السلاطين وأشخاص آخرون من الأسرة العثمانية قائمة حتى وقتنا هذا. فمجمَّع المباني الذي كان يسمى (külliye)(مُجَمَّعات)، والذي كان يتركز حول المساجد، ويَضُم المدارس والكليات والمكتبات ومنشآت الرعاية الصحية وأسبلة المياه العامة والحمامات العامة والملاجئ والمطابخ العامة للفقراء، بالإضافة إلى الخانات التي كانت تستضيف المسافرين والإسطبلات لخيولهم..كان يُبنى في كل ركن من أركان الأراضي العثمانية، وبخاصة في الحرمين، وكان يجري تمويل كل هذا من قبل المؤسسات الخيرية من هذا النوع، مما يعطي مثالا حول كيفية قيام الدولة بمسؤولياتها الاجتماعية بشكل مثالي. ولقرون طويلة كانت جميع هذه المؤسسات تقدِّم الخدمات للفقراء والمسافرين والطلاب من دون مقابل. وتبيِّن هذه الخدمات الخيرية والأعمالُ الاجتماعية، التي كانت تُقدَّم للناس، كيفيةَ فهم العثمانيين للإسلام، وكيف أن الإيمان كان يُطبَّق على أرض الواقع في العالم العثماني في ذلك الوقت.

عندما كان سلاطين الدولة العثمانية يقومون بتأسيس حضارتهم في المناطق التي فتحوها كانوا يتعاملون باحترام مع ما تبقى من آثار الحضارات القديمة في تلك المناطق، وكانوا يحاولون دومًا تكييفها والبناء عليها، في محاولة للحفاظ على "الميراث المشترك" للبشرية. وهذا العمل منهم يحظى الآن بالاعتراف والتقدير.

ويرجع الفضل في بقاء الكثير من مباني العصور الرومانية والبيزنطية إلى الاحترام الذي أظهره العثمانيون تجاه تلك الحضارات.

وعند المقارنة بين القصور في الدولة العثمانية وبين نظائرها الأوروبية والآسيوية يتجلى لنا أن السلاطين العثمانيين عاشوا حياتهم بطريقة أكثر تواضعا. ورغم هذا فإنهم تمكنوا من الحكم على منطقة تمتد عبر ملايين الكيلومترات المربعة من خلال غرفة صغيرة تسمى "غرفة المجلس السلطاني" (قُبّه آلْتِي). والواقع أن السلام لم يسُدْ بشكل دائم في أراضي الدولة العابرة للقارات -التي امتدت من جبال البلقان إلى القوقاز ومن الصحراء الكبرى إلى الشرق الأوسط- مثلما ساد إبان حكم الدولة العثمانية لهذه الأراضي. وينبغي على من يدرسون الاضطرابات القائمة اليوم في هذه الأماكن أن يدرسوا بتمعنٍ حكمَ العثمانيين المسالم لتلك المناطق طوال عدة قرون.

وبعكس ما يزعم البعض لم يقم أي سلطان بالعمل ضد دولته أو شعبه أو دينه الذي يعتنقه. واستمر هذا التقليد من الوفاء حتى بعد الهجرة الجبرية للسلالة العثمانية في أعقاب إلغاء السلطنة. وأخيرا لم يقم أي من أفراد العائلة بأي نشاط قد يسبب صعوبات للجمهورية التركية حديثة العهد.

ويعيش عدد من أفراد الأسرة العثمانية خارج تركيا اليوم، بينما يقيم بعضهم في أرض الوطن، والواقع أن عددا كبيرا منهم مواطنون في الجمهورية التركية. وثمة رغبة عامة بين جميع أفراد الأسرة العثمانية أن تكون جمهورية تركيا، التي قامت من رفات الدولة العثمانية، دولة قوية لها صوت مسموع على الصعيد العالمي.

وهذا الكتاب، الذي يحمل عنوان "سلاطين الدولة العثمانية" يعد عملا مهما من حيث إنه يقدم للقراء إسهامات السلاطين لتنمية الأمة الإسلامية. ومن هنا فإنني أقدم الشكر والتقدير للمؤلف صالح كولن ودار النشر "دار النيل".

وأخيرا أود أن أحتفي بكل إجلال واحترام بذكرى أسلافي وأجدادي الذين "حلوا ضيوفا" على العرش العثماني لفترة تمتد من عام ١٢٩٩ وحتى عام ١٩٢٢.

**عثمان عثمان أوغلو**

سليل الأسرة العثمانية وحفيد السلطان مراد الخامس

بَيْلَرْبَـيِي، ٢٩ مايو/أيار ٢٠٠٩



# تمهيد

إن اعتلاء عرش دولة مثل الدولة العثمانية، التي امتدت أراضيها في ثلاث قارات وقدرت بأكثر من ٢٠ مليون كيلومتر مربع، كان مسؤولية ضخمة أثرت في العالم بأسره في ذلك الوقت. ولا يستطيع أحدٌ أن يعرف مسؤوليات هذه القوة العظيمة أفضل من أفراد الأسرة العثمانية، والسلاطين بشكل خاص.

ولا يهدف هذا العمل إلى فحص عمل السلاطين السياسي فقط، ولكن أيضا دراسة الجهود التي بذلوها في إثراء الثقافة الإسلامية، وبشكل أهم، إسهاماتهم في التراث المشترك للحضارة الإنسانية.

لقد منعت صعوبة تقديم جميع السلاطين في النطاق المحدود لهذه الدراسة من مناقشة الكثير من التفاصيل المهمة، وقد اضطُر فريق بحثنا بشكل خاص إلى اختصار بعض الحقائق حول السلاطين الذين حكموا الدولة لأكثر من عقدين.

وقد تم الرجوع في توثيق المعلومات الواردة في هذا الكتاب إلى أحدث الدراسات في هذا المجال. كما قمنا بمحاولة البت في المواضيع المختلف فيها بالرجوع إلى المصادر الصحيحة، غير أن العمل لم يستطع، وهذا أمر مفهوم، أن يعكس جميع وجهات النظر المتاحة. وفي النهاية يسعى هذا البحث إلى مناقشةِ أحداث كبيرة للتاريخ العثماني وتحديد مكان السلاطين فيها.

ومما يميز هذا العمل عن الأعمال الأخرى التي تناولت حكم السلاطين السياسي أنه يحلل مسؤوليات السلاطين المختلفة كأبطال للعالم الإسلامي ويركز على إنجازاتهم كخلفاء.

وتأتي وسائل الإيضاح المرئية في هذا العمل من منظومة واسعة من المصادر الأصلية. وتعطي الأمثلة المنتقاة تأكيدا أكبر على الفنون وعلى إسهامات السلاطين، لكنها تركز بقدر أقل على مشاهد المعارك. وفي هذا الإطار نُشرت العديد من الصور التاريخية المختلفة، إضافة إلى منمنمات وفنونِ حفرٍ تُنشر هنا لأول مرة. كما صورت بعض الأعمال الفنية الباقية من هذا العصر وأضيفت إلى هذه المجموعة، وهذا كله يوضح تفاصيل جمال هذه الأعمال وجاذبيتها التي قد لا يمكن فهمها من النظرة الأولى.

وأخيرا أود أن أعبر عن شكري وتقديري للأشخاص الكُثر الذين عملوا على إنجاز هذا الكتاب. ومن الواضح أنهم لم ينالوا التقدير الذي يستحقونه، لأن اسمي هو الاسم الوحيد الذي يظهر على الكتاب. ولذلك فإنني أود أن أعبر عن امتناني بشكل خاص للبروفيسور "إيلبر أورْتَايْلِي"، مدير قصر "طوب قابي"، الذي أَطْلعني على الكثير من التفاصيل غير المعروفة حول القصر، وعن العلاقات بين السلاطين وأسرهم، وأن أشكر أيضا "شاه زاده (الأمير) عثمان عثمان أوغلو" أفندي، سليل النسب العثماني، الذي عَرَض بكرمٍ مجموعتَه الفنية

العائلية، وأَطْلعني على خبرته المتمرسة عن تقاليد الدولة العثمانية والجوانب غير المعروفة حول سلاطين العصور المتأخرة، وبخاصة جده لأبيه السلطان مراد الخامس وجده لأمه السلطان محمد رشاد. كما أود أن أشكر أيضا الدكتور "رشيد هايْلامَازْ"، رئيس تحرير مجموعة كَايْنَاكْ للنشر، الذي ساند المشروع بشكل مستمر طوال أكثر من عامين، حتى نشر هذا الكتاب. كما أتوجه بالشكر لموظفي قصر "طوب قابي" لمساهماتهم الكريمة والغنية والواضحة، وجامعة إسطنبول، والمصوِّرين الذين أضْفت رؤاهم ولقطاتهم اللونَ والروح على هذا الكتاب.

**صالح كولن**

إسطنبول في يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩

# شجرة العائلة لسلاطين الدولة العثمانية

كوندوز آلب

أرطغرل غازي

١. عثمان غازي (١٢٩٩-١٣٢٤)

٢. أورخان غازي (١٣٢٤-١٣٦٢)

٣. مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩)

٤. بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢)

٥. محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١)

٦. مراد الثاني (١٤٢١-١٤٤٤؛١٤٤٦-١٤٥١)

٧. محمد الثاني (١٤٤٤-١٤٤٦؛١٤٥١-١٤٨١)

٨. بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥٥٢)

٩. سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠)

١٠. سليمان الأول (١٥٢٠-١٥٦٦

١١. سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤)

١٢. مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥)

١٣. محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣)

١٤. أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧)

١٥. مصطفى الأول (١٦١٧-١٦١٨؛١٦٢٢-١٦٢٣)

١٦. عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢)

١٧. مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠)

١٨. إبراهيم (١٦٤٠-١٦٤٨)

١٩. محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧)

٢٠. سليمان الثاني (١٦٨٧-١٦٩١)

٢١. أحمد الثاني (١٦٩١-١٦٩٥)

٢٢. مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣)

٢٣. أحمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠)

٢٤. محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤)

٢٥. عثمان الثالث (١٧٥٤-١٧٥٧)

٢٦. مصطفى الثالث (١٥٥٧-١٥٧٤)

٢٧. عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩)

٢٨. سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧)

٢٩. مصطفى الرابع (١٨٠٧-١٨٠٨)

٣٠. محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩)

٣١. عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١)

٣٢. عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦)

٣٣. مراد الخامس (١٨٧٦)

٣٤. عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩)

٣٥. محمد رشاد (١٩٠٩-١٩١٨)

٣٦. محمد وحيد الدين (١٩١٨-١٩٢٢)

عبد المجيد (١٩٢٢-١٩٢٤)



SELIM
BAYEZID
MOURAD
AHMED
SULEYMAN
OSMAN



# عثمان غازي

**فترة الحكم: ١٢٩٩-١٣٢٤**

**السلطان العثماني الأول**

**الألقاب والأسماء الشعرية:** غازي، وفخر الدين، "عُثْمَانْجِك" أي العثماني الصغير (صيغة التصغير في اللغة التركية تعبر عن التحبيب والعاطفة)، و"كَارَا" [كانت بسالته ولون شعره وذقنه وحاجباه الأسودان الداكنان أسبابا لتسميته في شبابه باسم "كَارَا" عثمان (عثمان الأسود)]

**اسم الأب:** أَرْطُغْرُل غازي

**اسم الأم:** هَايْمَهْ آنَا

**محل وتاريخ الميلاد:** سُغوت، في شمال غرب الأناضول، ١٢٥٨

**العمر عند تولي الإمارة:** ٤١ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** النقرس، ١٣٢٤

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** توفي في سُغوتْ، ودفن في بورصا ١٣٢٤

**أبناؤه:** أورخان، وجُوبان، ومَلِك، وحميد، وبَازَارْلُو

**بناته:** فاطمة، ومَلك

صورة قديمة لمقبرة عثمان غازي أُخذت بعد تجديدها على يد السلطان عبد الحميد الثاني.

يعد عثمان غازي، الذي سميت الدولة العثمانية باسمه، السلطان الذي ترك وراءه أقل عدد من السجلات التاريخية، حيث لم يتوقع أحد أن إمارته غير المهمة قد يتمخض عنها في النهاية دولة بهذه العظمة. فجزء كبير من المصادر التركية عنه ليست معاصرة له، ولكن تم تشكيلها من أجزاء من التاريخ الشفهي جمعت بعد ذلك. تقول الروايات التقليدية إن علاء الدين "كَيْكُوبَاتْ"، سلطان الأتراك السلاجقة بالأناضول،[1] منح قبيلة "قَايِي" المنحدرة من أصول الأتراك الأوغُوز منطقتي كَارَاجَادَاغْ وسُغُوت، لتكونا موطنا أصليا لهم، كما منحهم منطقة دُومَانِيج لرعي الماشية، وذلك مكافأة لأَرْطُغْرُلْ غازي، زعيم القبيلة ووالد عثمان غازي، ورجاله على شجاعتهم في أرض المعركة.

وأقام عثمان غازي إمارته الحدودية في سغوت في شمال غرب الأناضول بالقرب من بيزنطة. وكانت هذه أقرب إمارة حدودية لبيزنطة مما أعطاها فرصة عظيمة للتوسع الإقليمي السريع. ومن بين الإنجازات العظيمة الأخرى لعثمان غازي هو أنه رحب بأعداد كبيرة من اللاجئين التركمانيين الذين عرفوا باسم "غَرِيبْلَر" (الغرباء) الذين سُلبوا موطنهم. وقام بتدريب هؤلاء الغرباء التركمان الذين تدفقوا إلى منطقة حكمه ووحَّدهم تحت راية واحدة.

ومن بين الروايات، التي تربطها المصادر بحكم عثمان، تظهر النادرة التالية، والتي تقول إن التركمان الذين تحركوا تجاه الحدود الغربية أعلنوا أن السيادة على المنطقة لا يمكن أن تؤول إلى قبيلة غير قبيلة قايِي من الأتراك الأُغُوز بعد ضعف دولة سلاجقة الأناضول التي فَقدت قوتَها نتيجة لاجتياحات المغول المدمرة من الشرق. وقالوا لعثمان غازي: "ستكون أنت الحاكم وسنكون نحن رعاياك وسوف نشارك في الغزوات". فقبل عثمان بك[2] هذا العرض.

ولا يوجد إجماع بين المصادر المعاصرة على نسب عثمان غازي الذي اشتهر بأنه كان وفقا للترتيب التالي: أُوغُوزْ، ثم كُوكَالْبْ، ثم قِزِلْ بُوغا، ثم قايا آلْبْ، ثم مِير سليمان آلب، ثم شاه ملك، ثم كونْدُوزْ آلب، ثم أَرْطُغْرُلْ غازي، ثم عثمان غازي. ووفقا للروايات التاريخية، كان لأَرْطُغْرُل غازي ثلاثة ورثة هم: كُونْدُوزْ آلب وسارُوباتو وعثمان. وعلى فراش موته أعلن أَرْطُغْرُلْ غازي أنه يرغب في أن يخلفه ابنه الأصغر عثمان ليكون "البك" الجديد، وهو اللقب التركي للقائد الأكبر. فوافق إخوة عثمان الكبار ولم يترددوا في الخدمة تحت حكم

---

[1] مَثَّل انتصار الأتراك السلاجقة على الجيش البيزنطي في موقعة مَالاذْكِيرْت عام ١٠٧١ بداية الوجود التركي في الأناضول بقوة. فقد أقاموا دولة السلاجقة بالأناضول في عام ١٠٧٥ وحكموا آسيا الصغرى بدءًا من القرن الحادي عشر وحتى أوائل القرن الرابع عشر.

[2] "بك" لقب تركي يتخذه حكام الإمارات المستقلة.

أخيهم الأصغر. وخلال سنوات تشكيل نطاق حكم البك العثماني، كان أبرز رفقاء عثمان غازي من الأبطال مثل: تُورْغُوتْ آلْبْ، وآيْكُوت آلب، وسَالْتُوكْ آلْبْ، وحسن آلب، وكُونُوْر آلب، وعبد الرحمن غازي، وآكْجَا كُوجَا. وأخيرا وصل أبناء هؤلاء الغازين وأحفادهم لاحقا إلى المناصب العليا في الإدارة العثمانية والجيش.

تبنى عثمان غازي منهجين أساسيين في فتح بيزنطة، وهما الغزو والاستمالة، أي "تأليف" القلوب تجاه الإسلام. وقد استهدف الغزوُ فتح أراضٍ جديدة، بينما استُخدمت الاستمالة لكسب دعم البلاد التي فتحت حديثا.

ولم تُجبَر الشعوب الأصلية في المناطق التي فُتحت على اعتناق الإسلام، بعكس الافتراضات الخرافية الشائعة. بل إن العثمانيين لم يَعتبروا من أُجبروا على اعتناق الإسلام مسلمين. فقد كانت الطريقة الوحيدة لكسب معتنقين جدد للإسلام، بالنسبة لهم، هي كسب ود سكان المناطق المفتوحة، وزخرفة مدنهم، وتسهيل أنشطتهم التجارية، وتوفير سبل الرخاء لهم، بينما كان يُسمح لهم بممارسة دياناتهم الخاصة. وبهذا الأسلوب كانوا يُظهرون لهم تميز الإسلام، وقد اعتنق كثيرون الإسلام طواعية على هذا النحو.

إن البوسنيين والألبان المسلمين اليوم هم أحفاد هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام بُعَيْد الفتوح العثمانية في البلقان. وفي هذه الفتوح، احترم العثمانيون الشعار المهم الذي يقول: "من يواصل الظلم فعاقبته وخيمة".



لوحة بفن المنمنمات تصوّر عثمان غازي، وعلى يمينه كُونُورْ آلْبْ، وعلى يساره آقْجا كُوجَا بَي.

وكان عثمان غازي كثيرا ما يستشير الشيخ أَدَبَالِي (أدب عالي) والفقيه دُورْسُونْ -وهما من كبار العلماء في عصره- في أمور الغزو وشؤون الإدارة، ويطلب مشورتهم فيما يتعلق بتوافق سياساته مع الإسلام. وكان حريصا تمام الحرص في العموم على حكم إمارته بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية.

وربما كان أكبر إنجاز عسكري لعثمان غازي أنه وحّد بنجاح كل جنوده تحت راية واحدة بغض النظر عن خلفياتهم المختلفة. وتعرِّف المصادر البيزنطية عثمان غازي بأنه القائد الأكثر شهامة بين كل من غزا أراضي بيزنطة. وقد توحد الغازون والآلْبْ (الأبطال) جميعهم، تحت رايةِ عثمان غازي، القائد الأكثر نجاحا بينهم. ولم يتوحد تحت رايته المسلمون فقط، بل اللوردات المسيحيون الكبار في الأراضي المفتوحة، الذين كانوا يُعرَفون بـ"التَّكْفُورْ"، هم أيضا تحولوا إلى رفقاءِ جدد لعثمان وجنوده المحاربين.

ولعب الاعتدال والحوار والتفاهمات دورا عميقا في نجاح قيادته تماما كما فعلت فكرة الغزوات. لكن فكرة الغزوة كانت عاملا مهما في تطور الدولة العثمانية. إلا أن هذا الأسلوب أصبح فيما بعدُ أكثر تعقيدا إلى حد استخدامه لتوليد وحدات عسكرية جديدة مثل قوات الانكشارية[٣] والسباهي.[٤]

وحصّن عثمان غازي القوة المادية لإمارته بفضل القدرة العسكرية والفرص الاقتصادية والدبلوماسية التي اتبعها. كما عزز المؤسسات الدينية في إمارته من خلال كسب دعم دراويش آهِي (أخي)، وهم القادة الروحيون لطوائف التجار والحرفيين المتدينين، بالإضافة إلى القضاة الشرعيين، ومن خلال تقريب الشيخ أَدَبَالي (أدب عالي) باعتباره معلمه الروحي، وهو أحد القادة الدينيين الأكثر قبولا في ذلك الوقت. وكان القضاة مثل الفقيه دُورْسُون، الذي كان يتمتع بفهم عميق للشريعة الإسلامية والمبادئ السنية، لهم دور بارز في تأسيس الإمارة العثمانية على مبادئ الإسلام وإضفاء الطابع المؤسسي عليها. وبعد ذلك خدموا كأئمة في المدن والبلدات والقرى المؤسَّسة حديثا، كما لعبوا دورا ضخما في تثقيف وتنوير العامة. ومن أجل توفير وسائل المحافظة على خدماتهم، منحهم كل من عثمان غازي وابنه أورخان غازي أراضيَ لإقامة مؤسساتهم الدينية. وتقدم سجلات الدولة (أو ما كان يعرف بـ"دفاتر التحرير") التي بقيت حتى اليوم دليلا على أراضي الوقف الكثيرة التي منحها عثمان غازي وابنه أُورْخَان. والواقع أن وزراء أو مستشاري الإمارة كان يتم اختيارهم من بين هؤلاء القضاة الشرعيين.

وخلال سنوات تشكيل دولة العثمانيين هَزم المغولُ (الإلخانيون) دولةَ سلاجقة الأناضول، وأصبحوا القوة المهيمنة في الأناضول (آسيا الصغرى). وأسفرت سيطرة المغول في الأناضول عن عدم رضا شديد. وبالتحالف مع التركمان دعم المماليك[٥] سلسلة من التمردات التي قادها الحكام المحليون التابعون للمغول

---

[٣] الانكشارية تعني حرفيا "القوة الجديدة". وقوات الانكشارية هي سلاح المشاة النخبة الدائم للسلطان.

[٤] السباهي أو (تِيمَارْلي سباهي) هو سلاح الفرسان الذي يتكون من فرسان مُنحوا إقطاعيات في الأقاليم تسمى (تيمار).

[٥] جنود من أصل تركي خدموا كجنود "مملوكين" أي في حكم العبيد للعباسيين. ومع الوقت هؤلاء المماليك الأتراك أصبحوا طبقة عسكرية قوية واستولوا على السلطة

في الأناضول ضد الإلخانيين. فأعطى هذا الموقف المشوش فرصة ذهبية لعثمان غازي كي يتقدم نحو بيزنطة من دون وجود تهديد مغولي خطير في الأناضول.

وخلال العقود الأولى كان عثمان غازي منشغلا بشكل أساسي بتوحيد عشائره وتدريبها. وفي معركته الأولى ضد اللوردات المسيحيين المحليين، واجه لوردَ "إينكُولْ" بمنطقة تسمى "أَرمَنِي بَلِي" في الطريق بين سُغُوتْ ودُومَانِيك. لكن قوات عثمان غازي خسرت تلك المعركة وسقط ابن أخيه شهيدا.

كانت هذه هي معركة عثمان غازي الأولى ضد اللوردات البيزنطيين. وكي يفتح "إينكُولْ"، استولى أولا على "كُولاجَا حِصارْ" بالقرب من "إينكُولْ" عام ١٢٨٥. فأجبر هذا لوردات "إينكُولْ" و"كَرَجا حصار" على توحيد قواتهم ضد العثمانيين. ونشبت معركة عنيفة بالقرب من "أَكِنْجِي" عام ١٢٨٦. وربح العثمانيون المعركة، لكن "سَارُوبَاتُو سَاوْجي"، شقيق عثمان غازي، استشهد. وبعد عامين فتح عثمان غازي " كَارَاجا حصار" واحتل المنطقة المحيطة بها. وتم الإقرار في خطب الجمعة بسيادته وإعلان استقلال إمارته عام ١٢٩٩. وتحولت " كَارَاجا حصار" في نهاية المطاف إلى مدينة مسلمة حصينة تستضيف المهاجرين من المناطق القريبة بالإضافة إلى الإمارات الأناضولية التركية الأخرى.[٦]

وما لبث عثمان غازي أن انتقل إلى فتح جديد على الجانب الشرقي من نهر سَاقَارْيَا. وقَدم له دعمَ حليفيه المحليين "كُوسَهْ مِيهَالْ" و"سامسا جاويش" مفاتيح بلدات عديدة في المنطقة. ودَفعت فتوحاتُه الحكامَ المسيحيين المحليين إلى الاستسلام.

ومع التوسع الإقليمي السريع لإمارته حان وقت تقاعُد عثمان غازي. فقسم غازي الأراضي المفتوحة حديثا بين عائلته ورفقائه الذين حققوا هذا التوسع، وعهد بالعرش إليهم. وفي عام ١٢٩٩، منح عثمان غازي منطقة "إِينُونُو" لأورخان بك، ومَنَح "حسن ألب" أراضيَ "يار حصار"، ومنح أراضي "إينكُولْ" لـ"تُورْغُوتْ آلْبْ". وبمرور الوقت، جرى تطبيق أسلوبِ منحِ أراضيَ بعينها للقادة الذين فتحوها في منطقة "الرُومَلِي" باعتباره الأسلوب الرئيسي للفتوحات.

في السنوات الأولى من إمارته، لم يعتمد عثمان غازي على الحرب فقط بل على الدبلوماسية أيضا. حيث قدم الحوار والتحالف الذي أقامه غازي مع ميهال لورد "هَارْمَانْ قَايَا" -الذي سيعرف لاحقا باسم غازي كُوسَهْ مِيهَالْ- حليفا لغازي، أثبت أنه مصدر موثوق به للمعلومات الاستخباراتية عن بيزنطة كما أصبح مقاتلا في صف غازي أيضا. وسيكون ميهال لاحقا من أوائل معتنقي الإسلام، كما سيصبح مقاتلا مخلصا في الدفاع عن الإسلام.

---

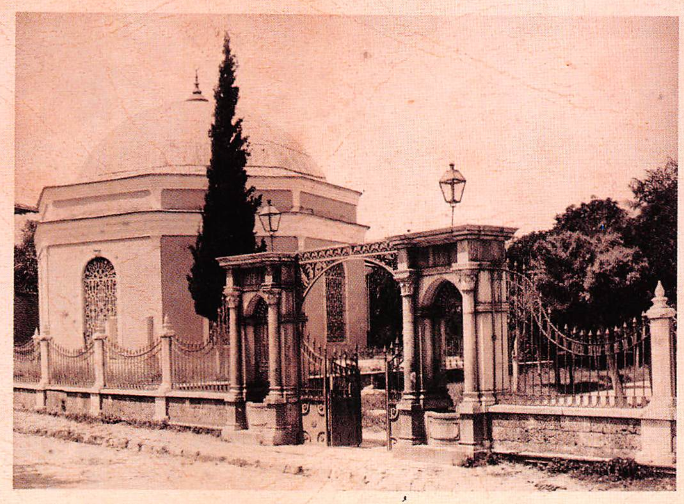
وحكموا، على سبيل المثال، مصر في فترة سلطنة المماليك من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧.

[٦] خلال السنوات الأولى من القرن الرابع عشر، كانت غالبية شبه جزيرة الأناضول تحكمها الإمارات التركية التي تم تأسيسها بعد انهيار دولة السلاجقة الأناضولية (١٠٧٥-١٣١٨) بسبب غزو المغول.

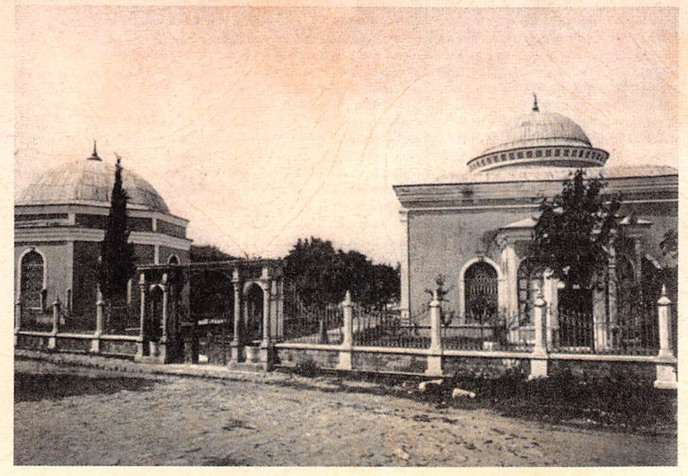
واختار عثمان غازي، الذي أقام في "يني شهر"، مدينة "إِزْنِيقْ" ليفتحها بعد ذلك. فحاصر "إِزْنِيقْ" بعد سلسلة من الغارات المبدئية. وما أن سمعت بيزنطة عن حصار المدينة حتى قامت بحشد القوات لمهمة إنقاذ. وعلاوة على ذلك بدأ اللوردات البيزنطيون المحليون في بُورْصا و"أُورْخان أَلِي" و"كَسْتَلْ" هجوما على قبيلة قَايِي. وما إن علم عثمان غازي بجهود الإنقاذ الجماعية التي يقوم بها العدو حتى هاجم بكل قواه في معركة "قُويُونْ حِصَار"، ليعلن انتصارا نهائيا في يوم ٢٧ يوليو/تموز عام ١٣٠٢. ولجأ الناجون اليونانيون إلى حصن إِزْمِيتْ. ورغم استمرار عثمان غازي في الحصار وانتظاره استسلام المدينة النهائي في صبر، فإنه لم يتمكن من فتح إِزْنِيقْ، حيث استطاع أُورْخَان غازي السيطرة عليها عام ١٣٣١.

أعطى الانتصارُ في "قُويُونْ حصار" التقديرَ والشهرةَ لعثمان غازي وقبيلتِه قَايِي، كما جلب مقاتلين آخرين تحت رايته. وأصبحت سيطرة البيزنطيين في جنوب مرمرة مهددة؛ فقد استولى العثمانيون الآن على الضواحي، فأصبحت مدينة بورصا "التفاحة الحمراء"، أو "أرض الميعاد" الجديدة. ووقعت المدينة تحت الحصار بعد الحرب عام ١٣٠٣. وتظهر السجلات البيزنطية أنه كان من الممكن رؤية الأتراك في كل مكان وصولا إلى مضايق القسطنطينية حتى قبل عام ١٣٠٤.

أشرك عثمان غازي أفرادا آخرين من عائلته في حكم إمارته. وكان هذا أمرا استثنائيا؛ حيث لم يكن يطبق هذا الشكل من نظام الحكم حتى الحقب المتأخرة. بل على العكس من هذا، كان العرف اللاحق يفرض هيكلا ملكيا، يحكمه السلطان باعتباره رأس الإدارة المركزية.



صورة قديمة لمقبرة عثمان غازي أُخذت بعد تجديدها على يد السلطان عبد الحميد الثاني.



عثمان وأورخان، الأب والابن، دفنا في مقبرتين أعلى تلة توفين، (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).



منظر عام لمدينة بُورْصَا من جهة طُوبْخانه في المدينة، (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).

وكرمز للسيادة طبع العثمانيون على أعلامهم ختم قَايِي (على شكل ثلاثة سهام وقوس)، كما صكوه على عملاتهم منذ بداية إقامة دولتهم.

ونصب عثمان غازي ابنه أُورْخان ليكون خليفته الفعلي في سنوات حياته الأخيرة عندما أقعده المرض عن إدارة شؤون الحكم. ويُروى أن عثمان غازي كان يتطلع إلى أن يسمع من أورخان غازي الأنباء السارة بفتح بورصا. وبعد ذلك طلب أن يُبنى قبره هناك.

وفي عام ١٣٢٤ توفي بعد ما خدم لمدة سبعة وعشرين عاما كزعيم لقبيلة كايي.

كان عثمان غازي يتمنى أن يحكم ابنه دائما وفقا للشريعة الإسلامية، وأن يحمي رعاياه ويخدمهم، ويطلب المشورة في شؤون الدولة، وأن يظل عادلا، ويحمي شعبه مهما كلفه الأمر.

كان عثمان غازي قائدا يهتم دائما بإمارته ورعاياه. وقد عاش حياة محترمة، وكان دائما ما يسر سرورا عظيما عندما يكون بين شعبه. وقد أعطى اهتماما عظيما بالشورى في أمور الدولة، وكان يطبق القرارات التي تصدر عن الهيئة الاستشارية. ولم يترك عثمان غازي وراءه أكثر من قطعة قماش طولها حوالي ستة أقدام كان يستعملها كعمامة، ودرع لفرسه، وخُرْج لفرسه، وثوب واحد فقط، ومِرَشَّة ملح، وأداة لحمل الملعقة، وحذاء، ومسبحة، وسيف أنيق، ودرع، ورمح، وبعض الخيول، وعدة خراف للذبح من أجل ضيوفه. لقد ضرب عثمان غازي مثالا جيدا لمن سيتولون الحكم من بعده، وكيف يعيش السلطان حياة بسيطة.





رسم يبلغ عمره نحو قرن، يصوّر مقبرة أرطغرل غازي، والد عثمان غازي، في سُغوت.

# أورخان غازي

## فترة الحكم: ١٣٢٤-١٣٦٢

### السلطان العثماني الثاني



الألقاب والأسماء الشعرية: غازي، اختيار الدين، سيف الدين، شجاع الدين

اسم الأب: عثمان غازي

اسم الأم: مَالْهُونْ خَاتُونْ

محل وتاريخ الميلاد: سُغُوتْ، عام ١٢٨١

العمر عند تولي الإمارة: ٤٥ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: الكرب النفسي، عام ١٣٦٢

مكان الوفاة وموقع الضريح: بُورْصَا، بُني قبره في العاصمة الجديدة بُورْصَا

أبناؤه: سليمان، ومراد، وإبراهيم، وقاسم

بناته: فاطمة خَاتُونْ، وخديجة خَاتُون



لوحة بفن المنمنمات تصوّر أورخان غازي، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "كبيرْ مُصَوَّر سلسله نامه" أي (صور متخيلة لشجرة العائلة العظمى).



تربى أورخان غازي وتدرب ليكون البك القادم؛ فقد أرسله أبوه عثمان غازي على رأس سلسلة من الحملات مع قادة متمرسين مثل "آكْجا كُوجَا" و"كونورْ آلب" و"كُوسَهْ مِيهَالْ" حتى يكون مستعدا لتولي منصبه الجديد. بعد ذلك سلم عثمان غازي ابنه أورخان الإمارة بعد معاناته من مرض النقرس الذي أفقده القدرة على المشي. وبعد أن مات الأب، اعتلى أورخان العرش دون منافس في المستقبل. والواقع أن أحدا لم يشكك في صحة توليه السلطة رغم أنه كان لديه إخوة آخرون.

وشكل فتح بُورْصَا العظيم في ١٣٢٤ بداية اعتلاء أورخان غازي العرش. وأصبحت بُورْصا -التي تقع على الجانب الآخر من بحر مرمرة قبالة القسطنطينية- المركزَ الجديد للإمارة العثمانية. وجرى تجديد المدينة مباشرة بعد الفتح من خلال العديد من مشروعات الإنشاءات في بورصا. وقد بنى أورخان غازي منشآت تجارية بالإضافة إلى أسواق مفتوحة ومغطاة في محاولة للارتقاء بمدينة بُورْصا لتكون مركزا للتجارة. ويصف الرحالة ابن بطوطة مدينة بورصا بُعيد رحلته إليها، بعد عشر سنوات من فتحها، بقوله إنها "مدينة كبيرة بها أسواق نشطة وشوارع واسعة".

لم تكن الإمارة العثمانية الحدودية سوى واحدة من عدة إمارات خلال مرحلة التكوين عندما أصبح عثمان غازي هو الحاكم أو "البك". غير أن الأحداث والنجاحات التاريخية التي بدأت خلال عهد أورخان غازي هيأت للإمارة العثمانية موقعاً يسمح لها بإيجاد منطقة مرشحة للفتح تجاه البلقان مما جعل جميعَ الإمارات الأخرى تنضوي تحت حكمها في السنوات الثلاثين اللاحقة.

بعد فتح بُورْصا، فتح العثمانيون الحصون الواقعة على الساحل الشمالي الغربي الأناضولي، بما فيها كُوجَا أَلِي (Kocaeli) وكارْتَال (Kartal) وآيْدُوسْ (Aydos)، وصولا إلى مضايق القسطنطينية على الجانب الأناضولي. وفي عام ١٣٢٩ انتصر العثمانيون في معركة بالِيكَانُونْ التي بدأها الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس الثالث بالقرب من "دَارِيجَا" (Darıca) بهدف كسر الحصار حول "إِزْنِيقْ" واسترداد الأراضي التي خسرها على أيدي العثمانيين. وأظهر هذا الانتصار أيضا مدى قوة العثمانيين في ذلك الوقت. وفتحت "إِزْنِيقْ" عام ١٣٣١، وكَمْليكْ في ١٣٣٤، و"إِزْمِيتْ" في ١٣٣٧. ونتيجة لذلك لم تتبق "أية منطقة في الجوار تخضع للوردات البيزنطيين". وقد جاء النجاح العثماني المتجسد في شخصية أورخان غازي في شكل سلسلة من الأحداث المرتبطة ببعضها



البعض، فمنحه القدرة على الوصول للعديد من الأبواب التي ربما لم يكن يتوقعها أبدا. فقد قَدَّم النزاع الداخلي الذي كانت تعاني منه إمارة بني كَارَسِي (Karesioğulları) التركمانية على الجانب الشرقي من الدردنيل الفرصة لعثمان غازي لضم هذه الإمارة. وكان ضم إمارة الكَارِسيين، وهي الإمارة الأناضولية الأولى التي تنضم إلى الحكم العثماني عام ١٣٤٥، انطلاقة للأنشطة البحرية حيث بدأ الغازون في الكارسيين يدعون إلى القيام بحملة على الجانب الآخر من مضيق الدردنيل.

واستجابة لطلب "يوهانّيس كانتاكوزينوس"، الذي أراد أن يصبح الإمبراطور البيزنطي بعد موت الإمبراطور أندرونيكوس باليولوغوس الثالث، أرسل أورخان غازي جيشا بقيادة ابنه سليمان باشا إلى "أدِرْنه" وساعد كانتاكوزينوس على تخفيف الضغط الصربي والبلغاري في عام ١٣٥٢. ومن خلال هذه العلاقة، عَبَر العثمانيون إلى أوروبا واستقروا في حصن جِيمْبَه في كَلِيبُولُو/كَلِيبُولِي/غَالِيبُولُو (Gelibolu) عام ١٣٥٣. وكان هذا هو مقرهم الأول في البلقان على الجانب الآخر للدردنيل، حيث كان لهم قاعدة عسكرية يستخدمونها في فتوحاتهم الأخرى في البلقان. وعلى عكس الافتراضات التقليدية، فإن مطالب كانتاكوزينوس المتكررة للعثمانيين بإخلاء القلعة تثبت أن هذه القلعة لم يسلمها الإمبراطور البيزنطي ببساطة. وبعد ذلك حاصر سليمان باشا قلعة كَلِيبُولُو وبدأ ينتظر استسلامها. غير أن زلزالا عنيفا حدث ليلا وتسبب في انهيار جدران القلعة. واستولى العثمانيون على القلعة بسهولة أكبر بكثير مما توقعوا، وقاموا بالترميمات والإصلاحات، وتحركوا فيها بحرية كما لو كانت موطنهم. وكان هذا الاستيطان الدائم الأول للمسلمين في البلقان وأول وجود للإسلام في المنطقة لن يُمحى أبدا.

وقد وصلت الأخبار إلى بيزنطة والعالم المسيحي الأوسع فقوبلت بقلق كبير. وكانت أوروبا تخطط للقيام بحملة صليبية، ولكن ليس من أجل المطالبة بالقدس هذه المرة، وإنما لإنقاذ القسطنطينية من العثمانيين. ونقل "جريجوري بالاماس"، رئيس أساقفة سَلانِيك الذي أُسر أثناء تلك الأعوام، أن العثمانيين قالوا له إن "الله هو معينهم الأكبر على نشر الإسلام بشكل مستمر من الشرق إلى الغرب، وهذا دليل واضح على أن الإسلام هو الدين الحق".

اتبع أُورْخَان غازي سياسة استيطان رائعة لضمان استمرار الفتوحات في البلقان،



يشتهر المسجد الأخضر، الذي بُني في إِزْنِيقْ (نيقية) خلال أوائل العهد العثماني، بالقرميد الأخضر، الأقدم في التاريخ العثماني، والذي يزين مئذنته.

حيث قام بتوطين الكثير من العائلات المسلمة القادمة من الأناضول في الأراضي المفتوحة حديثا، وأقام مدنا إسلامية جديدة في البلقان. وقد لعب هؤلاء المهاجرون الذين ضحوا بالانتقال من بيوتهم الدائمة إلى مكان مجهول دورا أساسيا في نشر الإسلام ونمو إمارتهم.

ولكن وقعت حادثتان خلال تلك الفترة اعترضت التقدم العثماني في البلقان، أولاهما خطف "شَهْزَادَه خليل"[٧] في سن صغيرة عام ١٣٥٦ على أيدي قراصنة من جنوا خلال رحلة بالقارب بموازاة شواطئ إزميت. وأبحر الإمبراطور البيزنطي يوأنس الخامس (V. İoannes) -بعد مساومة بينه وبين العثمانيين- في عام ١٣٥٩ مع قواته البحرية إلى فُوجَا (بالقرب من إزمير)، ودفع ١٠٠ ألف عملة ذهبية لإنقاذه، وسلمه إلى والده أورخان غازي في إزميت. أما الحدث الثاني فكان غياب سليمان باشا، الذي توفي بطريقة مأساوية عندما سقط عن فرسه خلال رحلة صيد. بعدها كلّف أورخان غازي ابنه "شَهْزَادَه مراد" بقيادة الفتوحات القادمة في البلقان. وقد قام شَهْزَادَه مراد بكل ما في وسعه، حتى لا يشعر أحد بغياب أخيه الأكبر، ونفذ الفتوحات في "الرُّومَلِي" مع معلمه "شَاهِينْ باشا".

وكاد خبر أورخان غازي فقده لابنه الأكبر الذي يحبه حبا جما يدمر الأب المكلوم، الذي كان عمره يناهز السبعين عاما في ذلك الوقت؛ فطلب من شاه زاده مراد أن يدير شؤون الدولة، ثم آثر العزلة ليموت بعد ذلك بسنوات قليلة عام ١٣٦٢ في بورصا على الأرجح.

وقام أُورْخَان غازي بفتح ثلاث مدن كبرى في ذلك الزمن، وهي بُورْصا وإِزْنِيقْ وإِزْمِيت، ولعب بذلك دورا رئيسيا في نمو الإمارة العثمانية، وحمل المسلمين إلى القارة الأوروبية بفضل فتوحاته في الروملي، بعدما كانوا حبيسي الأناضول طوال ثلاثة قرون.

وبهذا يمكن القول إن عثمان غازي حوّل قبيلته قَايِي الصغيرة إلى إمارة عظيمة، فيما بدأ ابنه أورخان غازي عملية تحويل هذه الإمارة إلى دولة. وقد تأسست أجهزة الإدارة والجيش والتشريع للمرة الأولى في عهده، كما سيصبح مجلس الدولة، الذي كان يجتمع بقيادته، نقطة الانطلاق للمجلس العثماني السلطاني فيما بعد. ورغم أن الأقاليم التي فتحت في السابق قُسّمت ووُزّعت على الغازين الفاتحين، وهو ما شكل بطريقة ما نظاما إقطاعيا خلال حكم أبيه، فإن أورْخان غازي أنشأ إدارة مركزية عينت مسؤولين عن الأراضي المفتوحة تحت مشورة وزراء من طبقة النخبة المثقفة.

بعد حصار إِزْمِيت، أصر أورْخان غازي على أن يكون لإمارته جيش محترف؛ ولذلك فقد أسس جيشا نظاميا يتألف من وحدات مشاة وفرسان. وبالإضافة إلى ذلك فُتحت أول مدرسة، أو مؤسسة للتعليم العالي، في إِزْنِيقْ عام ١٣٣١، برئاسة داوود قيصري، وهو أحد أكبر العلماء في ذلك الوقت. وتروي المصادر أن أورْخان غازي بنى مجمعين لمسجدين في بورْصا وإِزْنِيقْ لتقديم الخدمات

هذه الوثيقة الخاصة بالمُلكية (تمليك نامة)، والتي منحها أورخان غازي، هي أقدم وثيقة عثمانية، ومازالت محفوظة في السجلات العثمانية المركزية.

[٧] كان ورثة السلاطين العثمانيين الذكور الذين يستحقون العرش يحصلون على لقب "شَهْزَادَه" / شاه زاده، بينما كانت بناتهم يحملن لقب "سلطان"، مثل فاطمة سلطان وعائشة سلطان.



مسجد أورخانية بناه أورخان غازي في بُورْصَا.

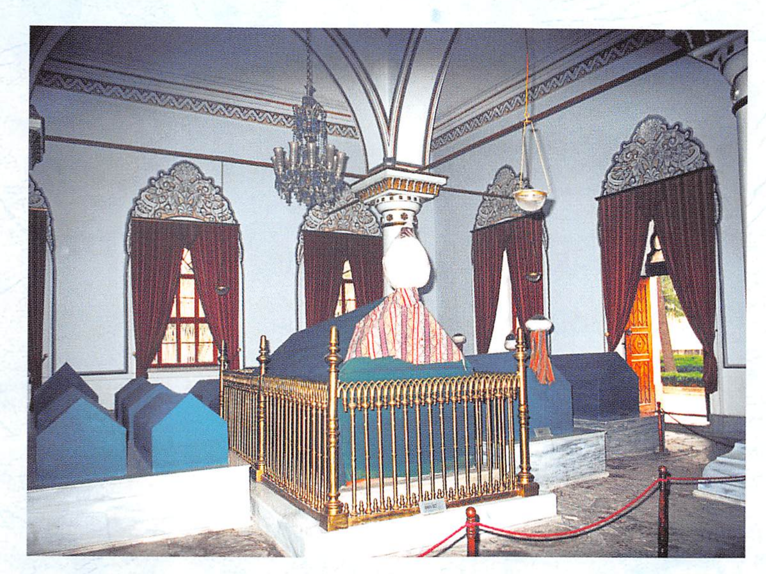
الخيرية المختلفة للمجتمع. وكان يقوم أحيانا بتقديم الحساء للفقراء في مطبخ للمحتاجين داخل هذين المجمعين. كان أورْخان غازي حاكما تقيا، كما كان قائدا ذكيا أيضا. بل كان قائدا شجاعا للغاية حتى إنه اعتاد أن يقود فرسه ويقود الجيش من صفوفه الأولى. وقد نفذ وصية أبيه من خلال وجوده دائما بين الناس ومن أجل الناس.

وبسبب شهرة أورْخان غازي كشخص متواضع، رشحه أخوه "علاء الدين" علي ليكون خليفة أبيه على العرش. وتُبين المصادر العثمانية أنه لم يطلب العرش، وإنما وافق عليه بعد إلحاح أخيه. يقول الرحالة ابن بطوطة عن أورخان غازي، الذي التقى به في بورصا، إنه "الأكثر مهابة بين كل السلاطين التركمان"، كما سجّل عنه أنه كان دائما ما يخوض الفتوحات، ولم يمكث أكثر من شهر في مكان.

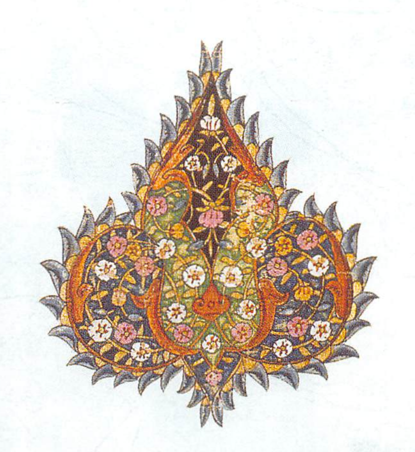





"عمارة" (مؤسسة خيرية لتوزيع الطعام على الفقراء) يعود بناؤه إلى القرن الرابع عشر، يحمل اسم نِلُوفَرْ خاتون، زوجة أورخان غازي، ويستخدم اليوم كمتحف.



التابوت الحجري لعثمان غازي داخل مقبرة عثمان غازي في بورصة، أول عاصمة عثمانية.







# السلطان مراد الأول

## فترة الحكم: ١٣٦٢- ١٣٨٩

### السلطان العثماني الثالث



**الألقاب والأسماء الشعرية:** غازي خُنْكَارْ (السلطان المقاتل)، وخُدَاوَنْدكَارْ (مولانا)، و بَيْ (الأمير)، والأمير الأعظم)، وخان (الحاكم)، بَادشَاه (السلطان العظيم)، وسلطان السلاطين، وملك ملوك العرب والعجم

**اسم الأب:** أورْخان غازي

**اسم الأم:** نِيلُوفَرْ خَاتُونْ

**محل وتاريخ الميلاد:** بورْصا، ١٣٢٦

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٣٦ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** استشهد في ساحة المعركة بكوسوفا، عام ١٣٨٩

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** كوسوفا، وبني له ضريحان في كوسوفا وبورصا

**أبناؤه:** يعقوب جَلَبِي، ويِلْدِرِمْ بايَزِيدْ، وسَاوْجِي بك، وإبراهيم بك

**بناته:** نِيلُوفَرْ خاتون، ومَلَكْ خاتون



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مراد الأول، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صوَر متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



كان السلطان مراد الأول، السلطان العثماني الثالث، في فترة ولايته للعهد حاكمَ بورصا ثم "أَسْكِي شَهِيرْ" (Eskişehir). وبعد وفاة شقيقه سليمان باشا، (فاتح الرُومَلِي)، تولى مراد الأول المهمة وأكمل الفتوحات في الرومَلي. وقد منع مراد الأول نزول أساطيل السفن الحربية البابَاوية والبيزنطية في خَلِيجِي لابْسَكي(Lapseki) وسَارُوسْ (Saros)، وقام بحشد وحدات المشاة الرائدة الخفيفة التي تسمى " آقِنْجِيلاَرْ"[٨] طوال الطريق حتى الشمال بالقرب من إسطنبول لحصار المدينة خلال فتح "أدِرْنه"، التي سوف تصبح العاصمة العثمانية الثانية بعد بورصا. وأرسل مراد الأول القوات إلى أدِرْنه بقيادة "لاَلاَ شاهين" (Lala Şahin) كطليعة للجيش. وما إن تمكن جيش "لاَلاَ شاهين" من هزيمة قوات حاكم أدِرْنه البيزنطي المحلي في وادي "سَازْلِي دَرَهْ" حتى سار الأمير مراد بجيشه إلى أدِرْنه في ٥ مايو/أيار عام ١٣٦١. وفيما كان مراد الأول يستعد لفتوحات أخرى من أدِرْنه، تلقى الأنباء الحزينة بوفاة والده.

خلال سنوات حكمه الأولى، قاد مراد الأول سلسلة من المعارك ضد الكرمانيين ودولة أَرَتْنَا في وسط الأناضول. وأصبحت أنقرة تحت السيطرة العثمانية في عهده. وعلى الحدود الغربية أدت فتوحات مراد الأول بالقرب من القسطنطينية إلى أن تقوم بيزنطة بتنظيم حملة صليبية ضد العثمانيين. وفي عام ١٣٦٦ استعاد جيش صليبي كَلِيبُولُو الواقعة على الجانب الأوروبي من الدردنيل وسلمها إلى بيزنطة. فقام السلطان مراد الأول بالضغط على بيزنطة لإعادة كَلِيبُولُو كشرط مسبق لأي اتفاق سلام، وذلك اعتقادا منه بأن سيطرة البيزنطيين على كَلِيبُولُو يعرض الوجود العثماني في الروملي للخطر.

ورغم أن بيزنطة أصبحت محاصَرة من الجانبين من قبل العثمانيين، فإن الإمبراطور البيزنطي اختار عدم إعادة كَلِيبُولُو، مفضلا إقامة تحالف مع الصرب كي يخلص الروملي من العثمانيين نهائيا.

تجمَّع الصرب بجيشهم القوي المؤلف من قوات صربية وقوات مسيحية محلية أخرى على طول الطريق من تراقْيَا إلى ألبانيا وساروا لمواجهة "لاَلاَ شاهين". كان السلطان مراد الأول في بورصا في ذلك الوقت، فقام بحشد قواته بمجرد تلقيه نداء طلب المساعدة من قائده لالا شاهين. لكن البيزنطيين الذين سيطروا على كَلِيبُولُو لم يسمحوا بمرور الجيش العثماني. وعلى مسرح آخر للحرب، تقدم الجيش الصربي ليصل إلى "جِيرْمَنْ" على نهر مَرِيجْ وبدأ يتحدى مدينة أدِرْنه. وفي هذه الأثناء لم يتلق "لالا شاهين"، مسؤول الدفاع عن أدِرْنه، المساعدة التي طلبها من الأناضول. وعرف أنه سوف يحارب الصرب بمفرده. فقرر أن يرسل وحدات المشاة الرائدة الخفيفة (آقِنْجِيلاَرْ) لتشتبك في قتال مباشر مع

---

[٨] "آقِنْجِيلاَرْ ": هي قوات المشاة الأمامية في الجيش العثماني وكانوا معروفين بقدرتهم على التحرك وبراعتهم الفائقة على أرض المعركة.

الصرب، وكان ذلك في ٢٦ سبتمبر/أيلول ١٣٧١. فقامت الوحدات العثمانية بقيادة "حَاجِي إِلْبَيِي" بشن هجوم مفاجئ، وواجهت الجنود الصرب أثناء الليل وهم في حالة ضعف. وفي خضم الفوضى الناتجة عن الهجوم المفاجئ وقع الصرب في حالة من الارتباك، فقتل بعضهم في المعركة بينما سقط آخرون في نهر مَرِيجْ. وكانت النتيجة هزيمة ساحقة. وعرفت تلك المعركة في التاريخ العثماني باسم "الهزيمة الصربية"، حيث كشف هذا الحدث عن حقيقة غير قابلة للتصديق وهي أن القوات العثمانية الحبيسة التي لم تحصل على مساعدة تمكنت من هزيمة الجيش الصربي ا المؤلف من ٦٠ ألف جندي، وهو ما عزز من الإحساس بالذهول والرعب في العالم المسيحي.

اعترف الأمراء الصرب وعائلات البلقان الحاكمة بتفوق السلطان مراد الأول، ووافقوا على دفع الضرائب. وأُخبر البابا بهزيمة الجيش المسيحي بعد ستة أشهر. وفي خطابه لملك المجر، أكد البابا جريجور الحادي عشر على خوفه من تقدم الأتراك إلى داخل المجر وصربيا وألبانيا بعد هزيمة الصرب، ومن أنهم قد يتقدمون باتجاه البحر الأدرياتيكي، وحثه في الخطاب على إخراج الأتراك من الأراضي المسيحية.

وفيما كان السلطان مراد الأول في الروملي، كان الإمبراطور البيزنطي الفعلي يدعمه، وكان ذلك بشكل شخصي على الأرجح. وخلال تلك الفترة، أعلن الأمير أندرونيكوس، وليُّ العهد، نفسَه الإمبراطورَ البيزنطي، فيما أعلن ابنُه الأمير "سَاوْجِي بك" في بورصا نفسَه السلطان العثماني. وكانت النتيجة أن كلا من العثمانيين والبيزنطيين انشغلوا بهذين التمردين اللذين ظهرا في نفس الوقت. ويروى أن مراد الأول نزل إلى منطقة بِيكَا (Biga) عندما علم بتمرد ابنه، وتجاهل القضية كليا ودعا ابنه لحفلة صيد. فقام ساوجي بك، الذي كان يتلاعب به بعض المحيطين به، بتوزيع خزينة الدولة، وأمر بذكر اسمه في صلاة الجمعة باعتبار ذلك رمزا للسيادة، ورفض دعوة أبيه، بل إنه جند جيشا وقرر محاربة أبيه. وفي المقابل توجه السلطان مراد الأول إلى بورصا، وقبض على الأمير في اشتباك بالقرب منطقة "كِيتَه" (Kite)، وقتل هؤلاء الذين حرضوا الأمير على المطالبة بالعرش. ورغم أن مراد الأول نصح الأمير الصغير بالاعتراف والتوبة عن ذنبه، فقد رد عليه "ساوْجي بك" بكلمات قاسية، وهو ما دفع السلطان إلى أن سمل عينيه في عام ١٣٧٤، حتى لا يتمرد مرة أخرى.

بعد ذلك أعطى السلطان الأولوية مرة أخرى للفتوحات في الروملي. وقاد بنفسه الحملات من أدِرْنه، وشارك في الفتوحات المستمرة عدد من القادة من بينهم "جَانْدَرْلي كَارَا" خليل خير الدين، و"أَفْرَنُوسْ غازي"، و"لالا شاهين" بك.

وسار مراد الأول بجيشه إلى إيفان سوسمانوس ملك بلغاريا وأخضعه. ووافق إيفان على دفع الضرائب للعثمانيين، كما وعد بالاشتراك في كل معركة من معارك السلطان.

في ذلك الوقت عين السلطان مراد الأول "كارا تِيمُورْطَاشْ" (KaraTimurtaş) باشا حاكما عاما (Beylerbeyi)





لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مراد الأول ممتطيا فرسه، رسمها فنان غير معروف. وكُتب أعلى اللوحة عبارة "استشهد السلطان مراد في كوسوفا".

على الروملي.[٩] وكانت هذه خطوة مهمة في اتجاه إحكام السيطرة العثمانية في الروملي، كما تُبيّن أن موظفي مراد الأول كانوا حكاما بارعين في مهنتهم. وحصل "كَارَا تِيمُورْطَاشْ" باشا على موافقة السلطان خلال السنوات من ١٣٧٥ إلى ١٣٨١ للقيام بتطبيقِ أول توزيع للإقطاعيات العسكرية (التِيمَارْ) في الروملي بين الجنود المسيحيين المحليين، فسمح لهم بالعيش في بعض أجزاء الأرض التي كانوا يعيشون فيها مقابل الخدمة في الجيش العثماني؛ وهو ما أدى إلى إقامة جيش عثماني في البلقان يتكون من جنود مسلمين ومسيحيين.

استخدم السلطان مراد الأول الزيجات فيما بين الأسر الحاكمة كوسيلة دبلوماسية من أجل تمتين العلاقات الخارجية. وحاول أن يقيم شبكة من العلاقات الوثيقة من خلال الزيجات بين الأسرة العثمانية والأسر الحاكمة في الإمارات الأناضولية التركية والبلقان. وتم إعلان مراسم الزواج الأول في تلك الفترة وهو زواج ابنه الأمير بايزيد بـ"دَوْلَتْ خَاتُونْ (Devlet Hatun) ابنة "كَرميان أُوغْلو سليمان بك". وبعد الزفاف تم ضم أربع بلدات للأراضي العثمانية بشكل سلمي وهي: كُوتَاهْيَا (Kütahya) وتَاوْشَانْلِي (Tavşanlı) وسِيمَاوْ (Simav) وأَمَتْ (Emet) باعتبارها مهرا قدّمه والد العروس. ووعد السلطان أيضا أن يزوج ابنته نفيسة خاتون لعلاء الدين بك الكرماني في الزفاف نفسه، وتزوجا في وقت لاحق. وبالإضافة إلى ذلك اشترى مراد الأول بلدات "آق شهير" و"بَيْ شَهْرِي (Beyşehri) و"سَيدي شَهْرِي" (Seydişehri) و"يَلْوَاجْ" و"كَارَا آغَاجْ" (Karaağaç) و"إِسْبَارْطَةْ" (Isparta) من الحميديين الذين حضروا زفاف بايزيد. وكان يُعتقد، في عرف الدولة التركية، أن الأرض التي يُضحّى بالأرواح من أجلها كي لا تُسلّم للعدو لا يمكن أن يتنازل عنها أيا كانت الأسباب، حتى ولو كانت مهرا أو سلعة تجارية. ويمكن تفسير تقديم الأراضي كمهر وشرائها خلال عهد مراد الأول بأنه دليل ومبرر معقول للقبول المتزايد بين الإمارات التركية الأناضولية بأن العثمانيين قد أصبحوا بالفعل قوة سياسية عظمى.

وكان هدف السلطان هو توفير الأمان في الأناضول والانخراطُ في الفتوحات في الروملي. غير أن منطقة البحيرات التي تسمى "كُولَّرْ يُورَسِي" (Göller Yöresi) في شمال غرب الأناضول، والتي كان السلطان قد اشتراها من الحميديين، انفصلت عن العثمانيين والكرمانيين. ولهذا فقد اضطُر السلطان مراد الأول إلى التوجه بجيشه لملاقاة الكرمانيين الذين غزوا المنطقة عندما كان بعيدا في الروملي عام ١٣٨٦. وهُزم الكرمانيون في معركة "فِرَنْكْ يَازِيسِي" (Frenk yazısı). ثم حاصر مراد الأول مدينة قُونْيَةْ، عاصمة الكرمانيين، لكنه رفع الحصار من باب العفو وإكراما لابنته التي طلبت منه الرحمة.

خلال تلك الفترة أقيمت علاقة قرابة مع سليمان، ابن حاكم كَاسْتَامُونُو (قَسْطَمُوني) (Kastamonu)، حيث زوج مراد الأول ابنةَ أخيه "سلطان هَانِمْ" بسليمان بك. فأعلن كَاسْتَامُونُو عن ولائه للعثمانيين بسبب ذلك الزواج. وفي هذه الأثناء استمرت المعارك ضد دولة القاضي برهان الدين في الشرق. كما قامت علاقات جيدة

---

[٩] كان "بك البكوات" اللقب العثماني المستخدم لأعلى مرتبة في التسلسل الهرمي لرجال إدارة الأقاليم.

بين العثمانيين والمماليك خلال حكم مراد الأول، وساند بعضهم البعض ضد الحملات الصليبية. واستمرت العلاقات الطيبة بينهم حتى وفاة السلطان.

نتيجة للهزيمة التي تلت الهجوم المفاجئ على شاهين بك قائد حدود ألبانيا في "بِلُوشْنِيكْ" (Ploşnik)، تجرأت دول البلقان على الهجوم على العثمانيين. وقاد كنز لازار الصربي جيشا مكونا من جنود قادمين من صربيا وكوسوفا والبوسنة وبلغاريا وكَتَالون والمجر والتشيك وألبانيا وولاشيا، ورفض دفع الضرائب، كما قام بذبح القرويين المسلمين الأبرياء على الحدود، وأعلنت الكنسية الصربية أنه "قائد الجيش الأكبر". لذلك أحس السلطان مراد أنه مضطر للقيام بحملة سادسة نحو الروملي. وانضمت إلى الجيش العثماني جيوش الدول التي مازالت تدفع الضرائب للعثمانيين.

قام السلطان أولا بحشد جيش ضد البلغار ليفصل بلغاريا عن التحالف البلقاني الأكبر، وذلك ضمن إستراتيجية "فرق تسد" كي يقلل من عدد المقاتلين الأعداء. وجهز السلطان معسكر جيشه في سهْلِ كوسوفا كي يتحرك ضد الجيش الصليبي. غير أنه لم يكن عليه أن يقاتل العدو فقط، فقد كان عليه أيضا أن يواجه السحابة الترابية التي نزلت على معسكره. ولإدراك السلطان أن هبوب رياح عكسية من ناحية معسكر الأعداء سوف تحد من مدى رؤية جنوده، فقد ظل يصلى طوال الليل. وبعد صلاته بدأت السماء تمطر، فتبددت السحابة الترابية. وفي صلاة أخرى دعا السلطان قائلا: "اللهم اجعلني فداء لكل المسلمين الحاضرين والغائبين عن ساحة هذه المعركة. خذ روحي ولكن انصرنا! لقد جعلتني محاربا في سبيلك، اللهم فاجعلني شهيدا".

بدأت المعركة الضارية العظيمة الأولى للعثمانيين في الفجر واستمرت ثماني ساعات متواصلة، واستخدم الجانبان سلاحا جديدا في هذه الحرب وهو المدافع التي صممها الحرفيون في دوبرونيك (Dubrovnik) على البحر الأدرياتيكي. وقاد جناحي الجيش العثماني كلٌّ من الأمير بايزيد والأمير يعقوب بك. وعندما بدأ الجناح الأيسر في الانهيار، كان الجيش العثماني على وشك التعرض لهزيمة منكرة لولا وصول الجناح الأيمن بقيادة الأمير بايزيد لدعم جنود يعقوب بك. وتفرق الملوك المتحالفون مع لازار وهو ما أدى إلى تشتت التحالف البلقاني، ونتج عنه نجاح العثمانيين في إحراز نصر مجيد في كوسوفا.

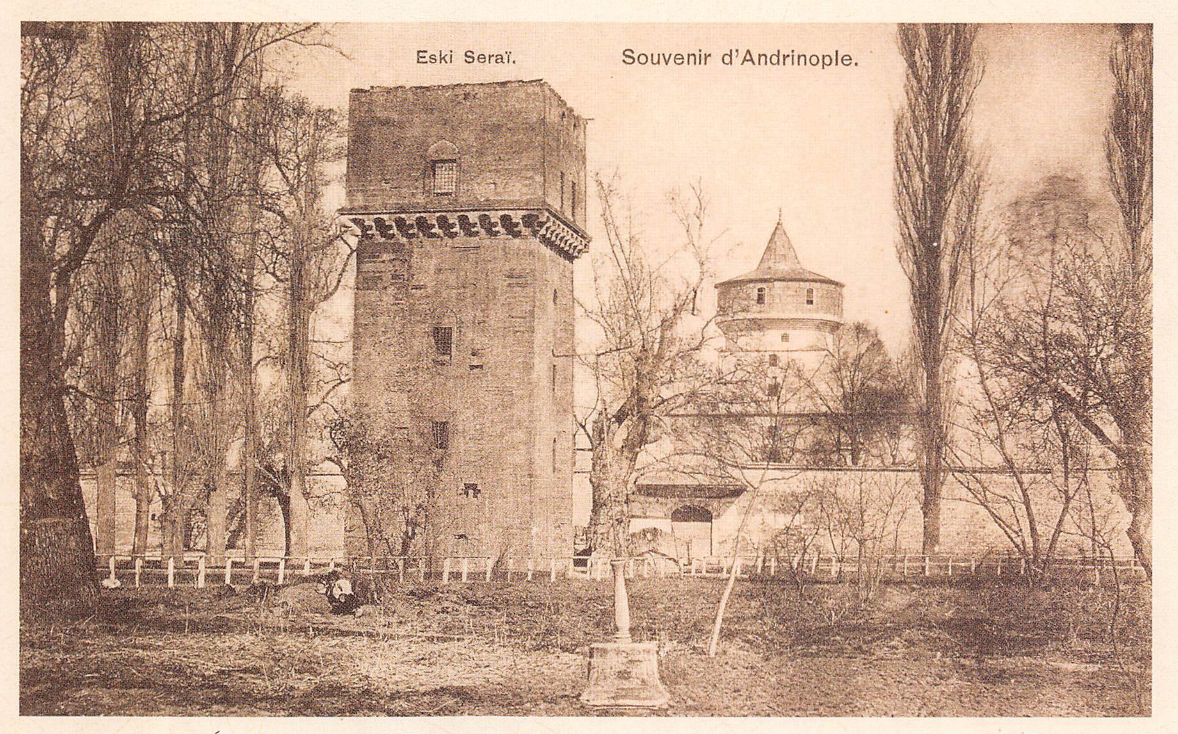
أراد محارب مصاب يسمى "ميلوش كوبيلوفيتش" (Miloş Kobilovic)، كان ممددا بجانب جثث الأعداء، أن يشتهر بكونه قاتل السلطان مراد، الذي كان يتفقد ساحة المعركة في ذلك الوقت. فقفز كوبيلوفيتش إلى الأمام ليصل إلى رجلي السلطان، وقبل أن يتقدم الحرس، ركع على ركبتيه وكأنه يريد أن يقبّل ذيل سترة السلطان، ثم غرس خنجرا أخرجه من حذائه في قلب السلطان مباشرة. وقد حاول ميلوش الهرب لكنه قُبض عليه وأُعدم. لابد وأن السلطان مراد الأول كان سعيدا بالاستجابة لدعواته، حيث سمى جرحه دَيْنا ينبغي أن تدفعه روحه.

أصيب يلديرم بايزيد ابن السلطان مراد بصدمة وبكى بشدة وهو يرى أباه مصابا بجروح عميقة أوشكت أن تفقده الوعي. وطلب السلطان من الأمير بايزيد أن يخلفه على العرش. وفي تلك الأثناء كان الأمير يعقوب بك يطارد العدو بعيدا، ولم يكن يعلم باغتيال والده وآثار ذلك. وناقش كبار مسؤولي الدولة والبكوات حادثة "سَاوْجِي بك"، التي كادت تلقي بالدولة في حالة من الفوضى، واتفقوا بالإجماع على أن الدولة الوليدة لا تتحمل تنافسا آخر فيما بين الأميرين وريثي العرش. واتفقوا بالتالي على أن "الفتنة أكبر من القتل"، وهو ما كان يعني أنه ينبغي التضحية بالأمير الآخر في سبيل الدين والدولة. وبمعنى آخر، كان ذلك من أجل تجنب حدوث الفوضى في جميع أنحاء البلاد، ومنع وقوع حرب أهلية، ومن أجل المصلحة العليا للدولة التي كانت منخرطة بشكل متواصل في الغزوات. وقد نُفذ هذا القرار في كوسوفا، وأُرسل تابوت يعقوب بك إلى بورْصا مع تابوت والده. وكان ذلك الحادث الأول لقتل الإخوة في التاريخ العثماني الذي جاء نتيجة لفكرة حماية الدولة الإسلامية وضمان بقائها. وقد مكن هذا القرار الدولة من الانخراط في الغزوات والحفاظ على وحدتها في ذات الوقت. ولكن على خلاف بعض الافتراضات، لم تسعد هذه القرارات السلاطين العثمانيين بالمرة. وقد تسببت الأحداث المريرة التي نتجت عن ذلك، مثل تلك التي وقعت خلال عهد الفترة (أي فترة خلو العرش العثماني)، في تكرار حدوث هذا الأمر في بعض الأحيان. غير أن قتل الإخوة لم يكن هو المبدأ السائد طوال التاريخ العثماني.

رحب العالم المسيحي بموت مراد الأول في كوسوفا، وشاعت الأنباء بزوال خطر السلطان مراد الأول إلى الأبد، بعد أن أثبت عدم قابليته للهزيمة في ساحات المعارك، وأثارت هذه الأنباء موجة من الفرحة والاحتفال في باريس وإسطنبول البيزنطية. كما أثار اغتيال السلطان العثماني سلسلة من الأخبار الكاذبة في أوروبا، فقد أشيع أن الأتراك قد تعرضوا لهزيمة ساحقة، وأن السلطان وأحد أبنائه والجزء الأكبر من جيشه قد تم التخلص منهم. وانتشرت أسطورة أخرى تقول إن اثني عشر بطلا قاموا باختراق الصفوف العثمانية ووصلوا إلى خيمة السلطان مراد وأجهزوا عليه!

تعد معركة كوسوفا، التي تمثل الحصن الكبير والأخير للصرب، ملحمة وطنية بالنسبة للصرب. فقد تحدثت المصادر التاريخية في البداية عن "الإنجاز العظيم الذي حققه كينز لازار" وعن "انتصار الصرب!" لكن المصادر اللاحقة رجحت هزيمتهم على أيدي العثمانيين. ومن الغريب أن الملك البوسني تفرتكو الأول، الذي أرسل فلاتكو فوكوفيتش، إلى المعركة نسب ذلك النصر المزعوم إلى نفسه في خطاباته!

كان السلطان مراد الأول السلطان الأول والوحيد في التاريخ العثماني الذي استشهد على أيدي أعدائه في ساحة المعركة. وكان السلطان متوسط البنية، ربع الهيئة، مستدير الوجه، أحدب الأنف، كثيف الحاجبين والشارب، مستقيم




بطاقة بريدية قديمة تصوّر بقايا أسكي ساراي (القصر القديم) الذي شيده السلطان مراد الأول في أَدِرْنَه، والتي أصبحت العاصمة العثمانية الجديدة عام ١٣٦٥.

الكتفين، مفتول العضلات، فاتح البشرة، له لحية خفيفة بُنِّـيَّة اللون.

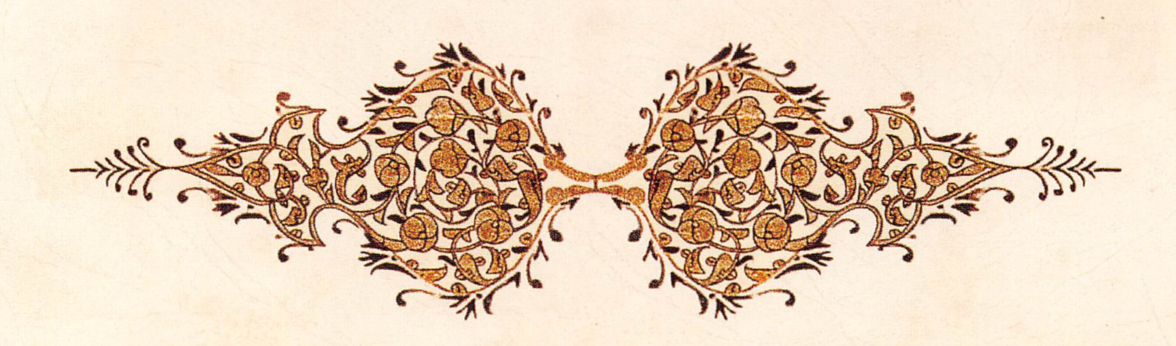
أعطى السلطان مراد الأول أولوية كبيرة للغزوات، حتى إنه قام ببستّ غزوات للروملي خلال فترة حكمه، وحمل الإسلام إلى البلقان. ولم يكن يرغب على الإطلاق في النزاع مع الإمارات الأناضولية التركية التي كان يعرف أنها تشاركه نفس الجذور والأسلاف، فكان يفضل بدلا من ذلك التفاوض معهم وإقامة تحالفات معهم عبر الزواج.

تصف المصادر العثمانية السلطان مراد الأول بأنه مسلم ملتزم من أولياء الله الصالحين. فقد كان هادئا وعطوفا وخيرا وتقيا. وقد عكس عاطفة الإسلام على رعاياه المسيحيين وكان محبوبا بالنسبة لهم في المقابل إلى الحد الذي دفع الكثير من المسيحيين إلى اعتناق الإسلام بفضل سلوكه الحسن ومواقفه الجيدة. وكان يحترم المفكرين والفنانين، كما كان قائدا ذكيا وسياسيا منظما. وكان قليل الكلام وينطق بالحكمة عندما يتحدث، كما كان يتمتع بشخصية متوازنة ورزينة..

تعاطف الأناضول والمناطق المحيطة بشكل عام مع السلطان مراد الأول بصفته الغازي العظيم الذي يحارب ضد الصليبيين. وكان الأتراك والفرس والأعراق الأخرى التي تأتي من العالم التركي-الإسلامي وتريد أن تحارب في الجيش العثماني يتم تجنيدها في وحدات السِّباهي بالقصر، وبذلك تأسس سلاح "فرسان

حكومة الدولة العثمانية"، الذي سوف يصبح الجيش السلطاني الذي يحرس ويؤمن السلطان ورجال الدولة العثمانيين.

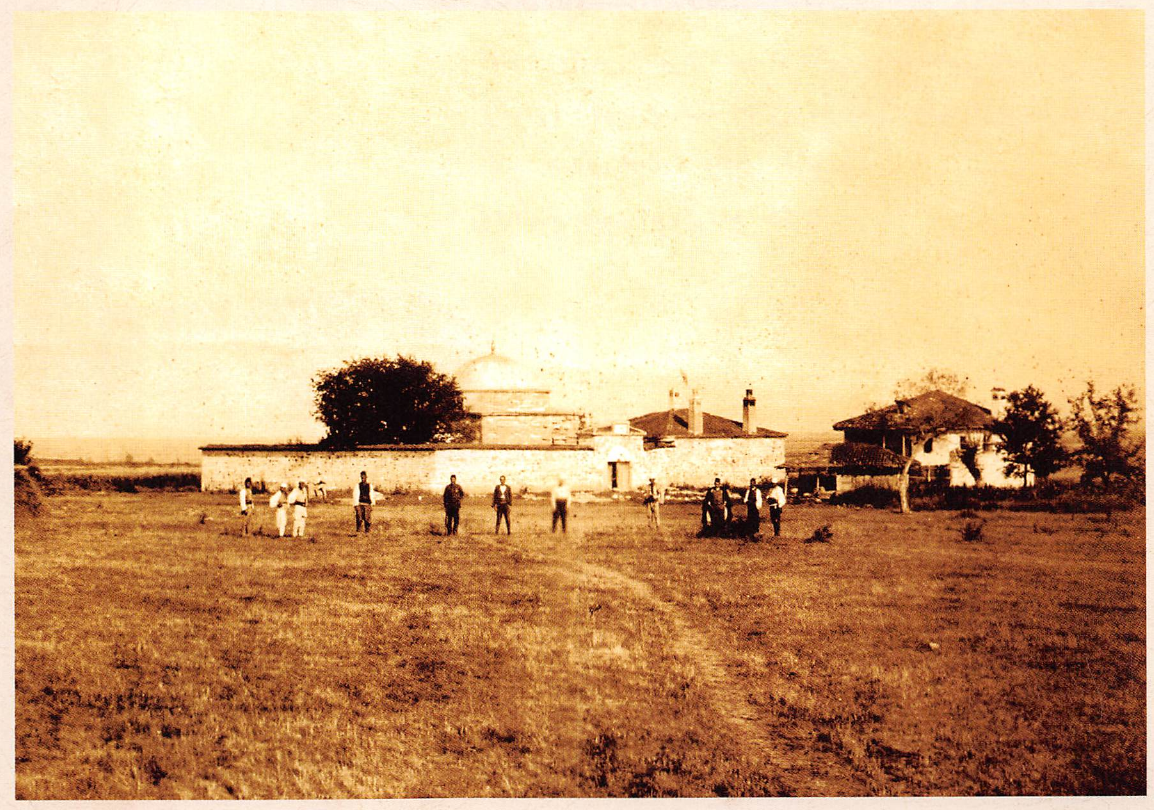
أنشأ السلطان مراد الأول مجمع المباني حول الجامع للمنفعة العامة، كما أنشأ جامع خُدَاوَنْدكَارْ وجامع حصار في بورصا، وجامع خُدَاوَنْدِكَارْ في بلدة "آيْواجِكْ"، كما أنشأ مسجدا في كل من "بِيلَجِيكْ" و"يَنِي شَهِير". وأقام السلطان كذلك ملجأ للمحتاجين في إِزْنِيقْ وقصرا متواضعا في أَدِرْنه، حمل اسم والدته نِيلُوفَر خَاتُونْ. وبعد فتح أَدِرْنه، قام بتحويل كنيستين، الأولى تقع داخل الحصن والأخرى في فِلِيبَه (Filibe)، إلى مسجدين. وكان قبر السلطان مراد الأول قد أصبح خارج الأراضي العثمانية بعد حروب البلقان (١٩١٢-١٩١٣) وتهدم بعد الحرب. لكن الدولة التركية قامت بترميم القبر في السنوات الأخيرة وهيَّأته للزائرين.







مقبرة السلطان مراد الأول في مدينة بورصا.



التقطت هذه الصورة القديمة حوالي عام ١٨٩٥، وتصوّر مقبرة السلطان مراد الأول في كوسوفا، حيث دفنت هناك أحشاء السلطان مراد الأول بعد استشهاده في أرض المعركة في حرب كوسوفا الأولى عام ١٣٨٩. وعندما زار السلطان محمد رشاد (حكم من ١٩٠٩ إلى ١٩١٨) المقبرةَ عام ١٩١١، رحب به عشراتُ الآلاف من الكوسوفيين والألبان، وأدى معهم صلاة الجمعة.

# السلطان بايزيد الأول

## (الصاعقة)

**فترة الحكم: ١٣٨٩- ١٤٠٢**

**السلطان العثماني الرابع**



**لقبه:** "يِلْدِرِيمْ"، (أي الصاعقة؛ وذلك لطاقته وشجاعته في المعارك وسرعة حركاته في القتال)

**اسم الأب:** مراد الأول

**اسم الأم:** "كُولْ جِيجَك" خاتون

**محل وتاريخ الميلاد:** أدرْنه (العاصمة آنذاك)، ١٣٥٤

**سبب وتاريخ الوفاة:** الكَرب النفسي، ٨ مارس/آذار ١٤٠٣.

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** آقْ شَهِيرْ، بُني ضريحه في بورصا

**أبناؤه:** موسى جَلَبِي، سليمان جلبِي، ومصطفى جلبي، وعيسى جلبي، ومحمد جلبي، وأَرْطُغْرُلْ جلبي، وقاسم جلبي

**بناته:** هُنْدِي خاتون، وأُورُوزْ خاتون، وفاطمة خَاتون، وأَرْهُونْدُو خاتون



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان بايزيد الأول، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

السلطان بايزيد هو أول وآخر سلطان عثماني يلقب بلقب "يِلْدِرِيم" أو الصاعقة في التاريخ العثماني، وكان ذلك في سنوات إمارته وهو ولي العهد بسبب شجاعته التي أظهرها في معركة "فِرَنْكْ يَازِيسِي" ضد علاء الدين بك الكرماني في عام ١٣٨٦.

كان بايزيد سلطانا متميزا، ليس فقط لشجاعته الكبيرة وإقدامه ومهارته العالية في استخدام الأسلحة والفروسية، وإنما لأنه كان قائدا عسكريا ذكيا كفؤا يعرف كيف يناور ويرسل الجنود تحت إِمْرَته. وقد اكتسب بايزيد الكثير من الخبرة عندما كان وليا للعهد؛ حيث كان حاكما على الأراضي التي أعطاها "سليمان جلبي الجَرْمِيَانِي" للعثمانيين كمهر لابنته سلطان خاتون التي تزوجت بايزيد. وقد أثمرت خبرته ومهاراته الكبيرة في معركة كوسوفا الأولى؛ حيث لعب دورا رئيسيا في النصر العثماني.

لم يكن السبب الرئيسي وراء اختيار السلطان مراد الأول لابنه الأكبر بايزيد خليفة له على العرش ترتيبه بين إخوته وإنما مواهبه غير العادية. ولما علم بكوات الإمارات الأناضولية الغربية بنبأ اغتيال السلطان مراد الأول، قاموا بتمرد، ولهذا فقد قضى بايزيد شهور حكمه الأولى في صراع مع تلك الإمارات في غرب الأناضول.

وبايزيد هو أول سلطان عثماني يحاصر إسطنبول، غير أن المدينة لم تسقط رغم أنه حاول أربع مرات. وتحالف المجر مع البنادقة للقيام بحملة صليبية جديدة، وذلك بسبب رغبة كل من الفريقين في رفع الحصار عن إسطنبول، وكان ذلك في عام ١٣٩٦، وأيضا بسبب سخطهما المشترك من الفتوحات العثمانية في اليونان وبلغاريا وألبانيا. وما إن فرض الملك المجري سِيكِسْمُونْد حصاره على حصن نيغبولي حتى وصل يلدريم بايزيد إلى نِيغْبُولِي قريبا من إسطنبول ووجه ضربة قاصمة للصليبيين أمام حصن نِيغْبُولِي في ٢٥ سبتمبر/أيلول سنة ١٣٩٦.

بذل بايزيد جهدا كبيرا من أجل إرساء الوحدة السياسية في الأناضول، ونجح في غرب الأناضول بشكل خاص. وكان منخرطا في معارك مع دولة القاضي برهان الدين في الشرق. وعندما أقام الكَرمانيون تحالفا مع تلك الدولة، لم يستطع بايزيد أن يفعل شيئا سوى أن يرفع حصاره القائم عن قُونْيَة والتوصل لاتفاق مع الكرمانيين في نهاية الأمر. وأسفرت حملته عن الجَانْدَارِيين في الشمال عن حصول العثمانيين على الأراضي الكندرية كلها فيما عدا سينوب. ورغم أن العثمانيين خسروا المعارك ضد دولة القاضي برهان الدين وهو ما تسبب في اختلال توازن الوضع القائم في الشرق، فإن المرحلة التالية أسفرت عن إلحاق منطقة أماسيا داخل دولة



مقبرة ومسجد وكلية بايزيد الأول.



يعد جامع أولو (المسجد الكبير) في بورصا، وهو تحفة معمارية أنشأها السلطان بايزيد الأول، صرحا أثريا مهما، في مقابل المساجد ذات القبة الوحدة في أوائل العصر العثماني.

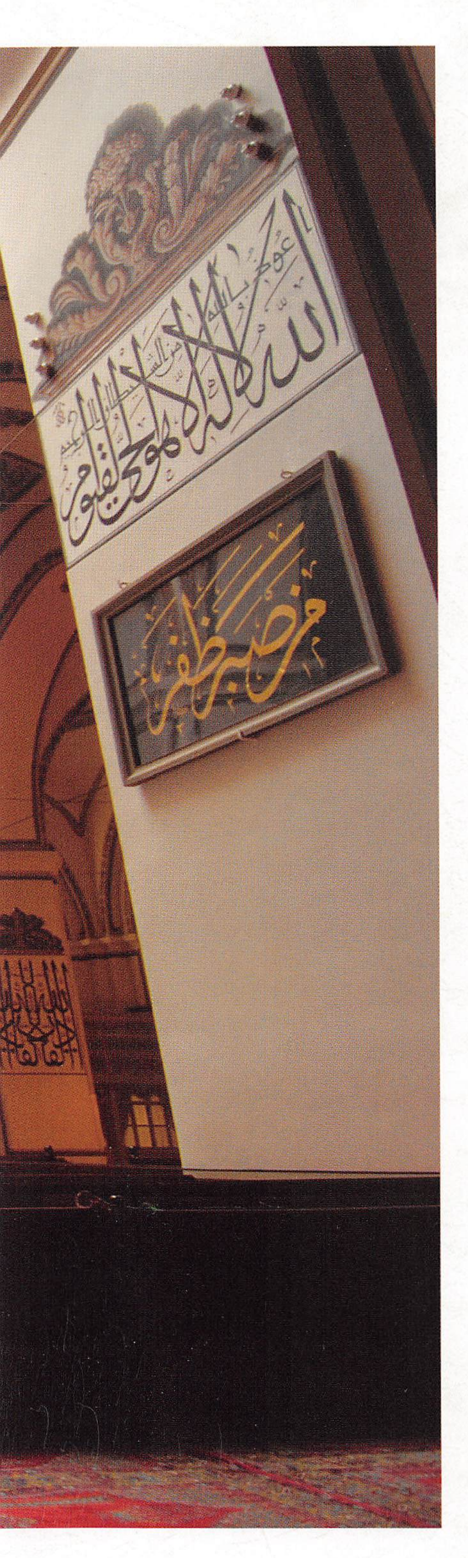
القاضي برهان الدين بالنطاق العثماني. وكذلك تحول الحكام المحليون إلى صف العثمانيين، مما رجح كفة الميزان لصالح السلطان بايزيد.

بعد ذلك صب السلطان جل اهتمامه نحو قتال الغرب. وضغط على بيزنطة بشكل أكبر، وجند المغيرين على الحدود للقيام بفتوح داخل البلقان. وخلال تلك الفترة بقي التهديد المجري والبندقي، لكن البلغار ظلوا خاضعين للعثمانيين. وتوجه يلدريم بايزيد، الذي تجرأ على إخضاع البلقان، بجيشه إلى اليونان التي سعت إلى التحالف مع البنادقة واستعداد سلانيك لتكون تحت سيطرة العثمانيين وذلك في عام ١٣٩٤. وبعد أن سحق الصليبيين في معركة نيغبولي على الضفة الجنوبية لنهر الدانوب استولى بايزيد على مدينة فيدين من البلغار، ثم ركز مرة أخرى على حصار إسطنبول. ومع تزايد المطالب من السلطان بايزيد، اضطر الإمبراطور البيزنطي مانويل لقبول إقامة حي تركي وبناء مسجد وتعيين قاض مسلم في إسطنبول. وخلال العام التالي أُلحقت أثينا بالأراضي العثمانية، وحدثت مواجهة مع علاء الدين بك الكرماني في معركة "آقْ جايْ" التي هزم فيها، بعد أن كان قد لعب دور المأجور السياسي خلال معركة نيغبولي، ولم يعد يشكل خطرا على العثمانيين من الخلف مرة أخرى. وقد ضم العثمانيون في تلك المعركة مع الكرمانيين كذلك مدينتي قونية وكرمان.

استولى العثمانيون على مَالاَتْيَا (مَلَطْية) في الشرق من المماليك، وهو ما تسبب في تدهور العلاقات بين العثمانيين والمماليك. ورغم أن العثمانيين كانوا في أمسّ الحاجة للتحالف مع المماليك ضد التيموريين، فإن يِلْدِرِيم بايزيد أصبح معاديا للمماليك، وهو القرار الذي فسره المؤرخون بأنه خطأ كبير من جانب بايزيد. توجه تِيمُورْلَنْكْ، الذي عرف



قلعة الأناضول، أول بناء عثماني أنشأه السلطان بايزيد الأول على الساحل الأناضولي لمدينة إسطنبول لفتح المدينة.



أيضا باسم تِيمُورْ الأعرج (١٣٧٠-١٤٠٥) بجيشه إلى شرق الأناضول في أواخر عام ١٣٩٩ بهدف الاستيلاء على الأراضي الغربية. والواقع أن تِيمُورْلَنْكْ، الذي اعتبر نفسه وريث السلاجقة والإلخانيين، أراد احتلال الأناضول بكامله، لكنه تردد في محاربة بايزيد، الذي كان في حالة حرب مستمرة في سبيل الله. وقد اضطربت العلاقات الجيدة بين هذين الحاكمين التركيين المسلمين عندما لجأ بعض الوجهاء الذين تحدوا يلدريم بايزيد إلى تِيمورْلَنك، في حين طلب آخرون من معارضي تيمورلنك حماية بايزيد. وتسبب قيام تِيمورْلَنك بغزو سِيوَاسْ ونهبها، ثم تبادل الخطابات العنيفة بين الحاكمين، في نشوب النزاع بين الدولتين في نهاية الأمر في سهوب جُبُوقْ بأنقرة في ٢٨ يوليو/تموز عام ١٤٠٢. وفقد السلطان بايزيد في معركة أنقرة جيشه ووحدته السياسية التي عمل جاهدا لإقامتها في الأناضول، فضلا عن لقبه. وبعد سبعة أشهر فقط توفي بايزيد في ٨ مايو/أيار عام ١٤٠٣ وهو أسير في "آقْ شَهِير" بسبب معاناته من كرب نفسي عنيف نتيجة حزنه ويأسه.

وقد تسببت معركة أنقرة في دفع الدولة العثمانية إلى حافة الانهيار. واعترف وجهاء الأناضول، الذين استعادوا أراضيهم القديمة، وأولياء العهد، الذين شرعوا في تحدي بعضهم البعض من أجل الأراضي الباقية، اعترفوا جميعا بسيطرة تيمورلنك. وقد انتهت هذه الحقبة التي تعرف بـ"عهد الفترة" (عهد خلو العرش العثماني) باعتلاء السلطان محمد الأول العرش، الذي سيتم في عهده استعادة الوحدة السياسية الأناضولية كما كانت في عهد يلدريم بايزيد مرة أخرى. لقد أراد يلدريم بايزيد السيطرة على الإمارات الأناضولية وعائلات البلقان الحاكمة، كما أراد أن يجعل الدولة العثمانية تستند بكاملها إلى المبادئ الإسلامية. وخلال سعيه لتحقيق هذا يبدو أنه نجح في أن يحوّل الدولةَ العثمانية إلى مركز رئيسي في الدبلوماسية الدولية في المنطقة التي تمتزج فيها أراضي العالم القديم. غير أن هذه الدولة المركزية خنقت تقريبا على أيدي تِيمُورْلَنْك وتراجعت لتصل إلى الحدود المرسومة في الأناضول في عهد مراد الأول. ورغم كل هذا لم تنفصل الروملي عن المركز العثماني، وهو ما ساعد في تخفيف عهد الفترة وجعل




مسجد أولو (الكبير) بمدينة بُورصَا، تحفة هندسية للسلطان بايزيد الأول، يضم أعمالا رائعة من فن الخط في الداخل.

صورة قديمة لدراويش المولوية في دمشق يزورون قافلة مواكب الصرة في طريقها من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين.

النهضة العثمانية ممكنة.

قضى السلطان بايزيد معظم حياته في ساحات المعارك والقتال. كان قائدا عسكريا فائق الشجاعة والنشاط والنجاح، وحاكما تقيا. وكان يمتلك شخصية جريئة، فلم يكن يتردد عن إيقاع العقاب الشديد بمن يتلقون الرشاوى ويرتكبون المظالم.

كان بايزيد طويل القامة، فاتح البشرة، أحدب الأنف، كثيف الشارب. وكان ذقنه المستدير تحيط به لحية أفتح لونا من شاربه، وكان جهوري الصوت. وكان يقال عن حاجبيه



مقبرة السلطان بايزيد الأول منذ نحو قرن (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).

المعقودين وعينيه السوداوين الواسعتين إنها أسلحته القوية بما يكفي لإلقاء الرعب في قلوب أعدائه بمجرد النظر.

دخل أربعة من أبنائه الستة، هم سليمان جَلَبِي وعيسى جلبي وموسى جلبي ومحمد جلبي، في تنافس على العرش خلال عهد الفترة، بينما ظهر مصطفى جلبي، الذي لقب بـ"مصطفى المزور"، في عهد مراد الثاني مطالبا بالعرش.

أنشأ بايزيد خلال فترة حكمه العديد من ملاجئ الدراويش والمدارس وملاجئ المحتاجين ونزل المسافرين والنزل الطبية، بالإضافة إلى "أُولُو جَامِي" (الجامع الكبير) في بورصا عام ١٤٠٠، الذي يعد معرضا مهيبا لفن خط اليد العثماني المتميز.[١٠] وما زالت مجموعة واسعة من تلك الأبنية الخيرية باقية في أغلب المدن في جميع أنحاء الأناضول والروملي. ويعد الحصن الأناضولي، المعروف أيضا باسم جوزيل حصار، أحد الآثار التي تركها، وقد استخدم هذا الحصن بشكل خاص خلال حصار إسطنبول في الفترة بين عامي ١٣٩٦ و١٣٩٧.

بدأ يلدريم بايزيد التقليد اللاحق الخاص بالموكب السنوي الذي كان يعرف باسم "صُرَّه آلايي" (موكب الصرة) لتلبية احتياجات الحرمين الشريفين، ودفع رواتب الموظفين العاملين هناك. وقد أرسل بايزيد الموكب الأول من أدِرْنه في عام ١٣٨٩. واستمرت المواكب التي تصطحب قوافل الهدايا السلطانية تتوجه إلى الحرمين الشريفين حتى عهد محمد السادس وحيد الدين، آخر السلاطين العثمانيين، كعلامة على تمسك العثمانيين بالتراث النبوي.

---

[١٠] كان فن الخط الإسلامي العربي الأنيق يستخدم في الأصل لتزيين النصوص الدينية وبخاصة مخطوطات القرآن. وبما أن التزيين بالصور محرم في الإسلام، وبما أن فن خط اليد القرآني قد لعب دورا مهما في تطور هذا الفن الإسلامي، فإن ثمة إحساسا بالقدسية ظل دائما موجودا في خلفية فن الخط العربي.

وفن الخط العربي -الذي كان موضع حب واحترام من السلاطين العثمانيين- هو أكثر من مجرد خط جميل، فالغرض منه جماليّ ووظيفي أيضا. فهو يأخذ العين والقلب وهو ينقل المعنى. وقد ازدهر فن الخط العربي بشكل خاص في إسطنبول بعد فتحها عام ١٤٥٣، حيث أصبحت العاصمة العثمانية الجديدة التي أُنتج فيها أجمل وأنضج الأعمال الفنية. وقد أعطى السلاطين العثمانيون، الذين تميز بعضهم في هذا المجال، دعمَهم الكامل للخطاطين. وخلال العصور العثمانية استمرت عملية نسخ مخطوطات القرآن بصفتها المصادرَ الأكثر شيوعا لفن الخط العربي. ولاحقا كتبت الآيات القرآنية مع أشكال هندسية تكرارية رائعة، وشكلت بالقرميد أو حفرت على الحجر أو الخشب على الحوائط والأبواب والأسقف داخل وخارج المساجد في جميع أنحاء الدولة، وفي المقام الأول في المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي بالمدينة، بالإضافة إلى القصور والبيوت العثمانية الكبيرة والمباني الملحقة بها.

وبالإضافة إلى النقوش المعمارية، كُتبت تصميمات "الطُغْراء" الرائعة (التصميمات الخطية السلطانية أو التوقيعات الأسلوبية) الخاصة بالسلاطين العثمانيين في شكل مخطوط فني أنيق ومعبر. ويعود أقدم طغراء إلى السلطان العثماني الثاني أورخان غازي، وكان لكل سلطان عثماني بعده الطغراء الخاص به. وكان يتم تصميم الطغراء في بداية كل فترة حكم عثماني جديدة، ثم يقوم خطاطو البلاط الملكي برسمه على الوثائق المكتوبة. وكانت الطغراء تستخدم في الأساس في الوثائق الرسمية والمراسلات لإضفاء الصفة الرسمية عليها، وقد شوهدت لاحقا في الأختام العثمانية والرايات والنصب التذكارية والمساجد والقصور والعملات والطوابع وجوازات السفر كرمز للسيادة.

وقد عرضت في هذا الكتاب الطغراء الخمس وثلاثون لكل السلاطين العثمانيين بدءا من أورْخان غازي إلى السلطان العثماني الأخير محمد وحيد الدين إلى جانب اسم كل سلطان. ومن اللافت للنظر أن الأسلوب الفني لكتابة اسمي السلطان [أورخان] وأبيه في تعبير "أورخان ابن عثمان" قد كتب في الجزء السفلي من الطغراء، حيث شكل ذلك الهيكل والنص الأصلي لتصميمات الطغراء التالية التي تطورت لاحقا لتضم تعبير "المظفر دائما" والألقاب التشريفية للسلطان. ويمكن أن يرى القارئ في هذا الكتاب كيف حدث التطور البطيء للطغراء بدءا من عصر أورخان غازي وحتى العصور اللاحقة. وقد وضعت معايير التصميم الخطي للطغراء في عهد محمد الفاتح، السلطان العثماني السابع، ووصل إلى شكله الكلاسيكي المغالي خلال عهد السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر. وبدءا من عصر السلطان محمد الفاتح تمت إضاءة المسافات بين الأحرف، واستمر هذا حتى منتصف القرن التاسع عشر. كما لم يكن اختيار الألوان اعتباطيا، وإنما كان لكل لون معنى في البروتوكول العثماني.

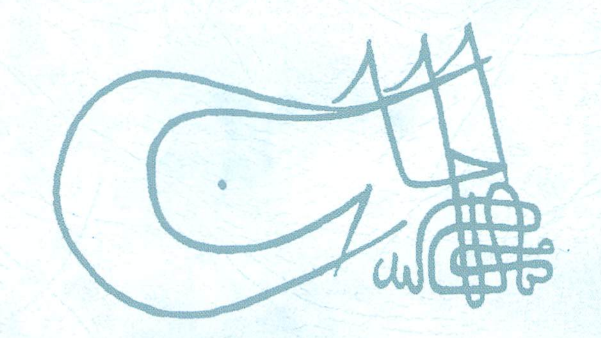

ACK SEA
Sinop
Amasra
Kastamonu
Samsun
Giresun
Trabzon
EMPIRE OF TREBIZOND
Tokat
Erzurum
Yozgat
Ankara
Sivas
Erzincan
ATOLIA
Kemah
Kayseri
Harput
Maraş
Dulkadirids
Konya
Adana
Ramazanids
TIMURID
STATE
Silifke
Antakya
Aleppo
Rakka
EAN SEA
MAMLUK STATE


Moldavian Principality
Wallachian Principality
Bucharest
Dobrogea
Silistra
Nikopol
Varna
Sarajevo
Serbian Despotate
Niš
Mostar
Sofia
Plovdiv
RUMELIA
Skopje
Edirne
Constantinople
Kavala
Enez
İzmit
MARMARA SEA
Ohrid
Salonica
Gallipoli
İznik
Vlora
Çanakkale
Bursa
Bilecik
Otranto
Söğüt
Balıkesir
Ioannina
Trikala
AEGEAN SEA
Kütahya
Manisa
Naupactus
İzmir
Athens
Alaşehir
Aydın
Denizli
N
W
E
S
MEDITERR
Boundaries of the Ottoman State up to 1402
Territory of the Ottoman Beylik (1299–1324)
Territorial expansion under Orhan Bey (1324–1362)
Territorial expansion under Sultan Murad I (1362–1389)
Territorial expansion under Sultan Bayezid I (1389–1402)

# السلطان محمد الأول

## فترة الحكم: ١٤١٣- ١٤٢١

### السلطان العثماني الخامس



**الألقاب والأسماء الشعرية:** جَلَبي (رجل لطيف ومهذب)، وكيرِيشْجي (رامي سهام ذو قوة غير عادية في ربط طرفي القوس)

**اسم الأب:** سلطان بايزيد الأول

**اسم الأم:** دَوْلَتْ خاتون

**محل وتاريخ الميلاد:** أدرْنه، ١٣٨٧

**المناصب قبل اعتلاء العرش:** محافظ منطقة وسط الأناضول (تُوقاد وسِيوَاس وأنقرة)، بالإضافة إلى آماسْيَا في الشمال.

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٢٦

**تاريخ الوفاة:** مايو/أيار ١٤٢١

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** توفي بأدرِنَه، وأُنشئ ضريحه في بورصا

**أبناؤه:** مراد، ومصطفى، وقاسم، وأحمد، ويوسف، ومحمود.

**بناته:** سلجوق خاتون، وحفصة خاتون، وعائشة خاتون، وسلطان خاتون، وإلاَلْدِي خاتون



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان محمد جلبي، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

أدت هزيمة يِلْدِرِيم بايزيد في معركة أنقرة إلى تدمير الوحدة الأناضولية، وإثارة الصراعات فيما بين الأمراء أولياء العهد على العرش. ومنح تيمورلنك، الذي كان يحاصر إزمير، سليمان جلبي شهادة تؤكد سيادته على الروملي. ورغم أنه دعا محمد جلبي، الابن الآخر ليِلْدريم بايزيد، كي يحكم كُوتَاهْيَا، فإن محمد جلبي لم يرد عليه.

وبدأ أولياء العهد صراعا شديدا على حكم الأراضي العثمانية. فحارب محمد جلبي ضد إمارتي تُوكَاتْ وأماسيا (آماصْيَا) ونجح في إخضاعهما، وهو ما جعله أقوى عسكريا. وكانت مواجهته الأولى مع أولياء العهد الآخرين ضد عيسى جلبي الذي نجح في الاستيلاء على بورْصا من موسى جَلَبي. أعلن محمد جلبي نفسه حاكما لبورْصا بعد أن أصبح ولي العهد الثالث الذي يستولي عليها، وكان ذلك في معركة أولوبات. وفي خضم هذا التنافس تحالف موسى جلبي مع محمد جلبي لاحقا، فيما ساند عيسى جلبي شقيقه سليمان جلبي. واستطاع محمد جلبي بنجاح صد هجوم جيش عيسى جلبي، الذي كان قد تحالف مع الإمارات الأناضولية، وبذلك أزيل الخطر الذي شكله عيسى جلبي في عام ١٤٠٣. ثم تغير الحكم في بورصا للمرة الرابعة عندما استولى سليمان جلبي، حاكم الروملي، على المدينة ومعها أنقرة من محمد جلبي في عام ١٤٠٤. وفي تلك الأثناء، تراجع محمد جلبي بالقرب من أماسيا وحشد جيشا بقيادة موسى جلبي ليتوجه إلى الروملي ويحارب سليمان جلبي. وأجبر نجاح موسى جلبي في شرق البلقان سليمان جلبي على التخلي عن بورصا، وهو ما أسفر عن قتال بين الأخوين. ثم استولى موسى جلبي على أدِرْنه وأعلن نفسه سلطانا. وبعيد المواجهة بين موسى ومحمد جلبي، ورغم هزيمة محمد جلبي في الجولة الأولى من المعارك، فإنه انتصر في الحرب بالقرب من صوفيا في ٥ يوليو/تموز عام ١٤١٣، وكان ذلك نهاية عهد الفترة الذي دام أحد عشر عاما.

يسجل نشري المؤرخ العثماني أنه في أعقاب حرب أنقرة التي وقعت عام ١٤٠٢ حكم سليمان جلبي لثماني سنوات وعشرة شهور وسبعة عشر يوما، بينما حكم موسى جلبي لسنتين وسبعة أشهر وعشرين يوما، فيما حكم محمد جلبي لسبع سنوات وأحد عشر شهرا. وكان السبب الرئيسي وراء المدة الطويلة لعهد الفترة هو أن دول البلقان، وأغلبها بيزنطية، والإمارات الأناضولية، حثت واستقطبت ودعمت أولياء العهد ضد بعضهم البعض.



مقبرة السلطان محمد جلبي، وتقع في المقبرة الخضراء في بُورْصَا.



"أسْكِي مسجد" (المسجد القديم)، شيده السلطان محمد جلبي في أَدِرْنَه.

بعد اعتلاء السلطان محمد جلبي العرش عَقد أولا تحالفات مع بيزنطة وإمارة ولاشيا وموريا لتأمين الحدود الغربية. ثم شرع محمد جلبي بعد ذلك في استعادة الوحدة السياسية في الأناضول، والتي ظلت ممزقة لوقت طويل. وقد نتجت هذه السياسة عن تخفيف مخاطر الخوض في حروب متزامنة في الشرق والغرب.

كان "تِيمُورْلَنْكْ" قد استولى على إزمير من فرسان الاستبارية بعد معركة أنقرة، ثم منحها للأيدينيين وعاد إلى آسيا الوسطى. وكانت أعظم خدمة أسداها تيمورلنك في الأناضول هي أنه ضم إزمير إلى حظيرة الإسلام في ١٤٠٣. وكان أول ما فعله السلطان محمد جلبي في الأناضول هو دمج إزمير في الأراضي العثمانية، وكانت تحت حكم "جنيد بك بن أيدين". وعين السلطان جنيد بك محافظا على نيغبولي الحدودية بعد طلبه عفو السلطان.

خلال تلك الفترة أعلنت الإمارات الأناضولية ولاءها للسلطان العثماني. وكذلك واجه العثمانيون الكرمانيين للمرة الأولى؛ حيث كان الكرمانيون قد اغتصبوا الأراضي العثمانية خلال معارك التنافس على العرش ضد موسى جلبي، وهي المعارك التي استولى فيها محمد جلبي على أراضي "بَيْ شهير" و"آقْ شَهير". كما أغار السلطان أيضا على الجندريين وضم إمارتهم للأراضي العثمانية، وعين قاسم بك الجندري محافظا على المنطقة.

وواجه محمد جلبي حادثة أخرى وهي التمرد الذي قاده الشيخ بدر الدين، ابن قاضي سيمافنا غرب نهر مريج. ولم يكن محمد جلبي ليسمح باندلاع "نيران الفتنة" التي أشعلتها المعتقدات الخرافية؛ فتم القبض على الشيخ بدر الدين ومحاكمته وإعدامه وفقا لقرار المحكمة عام ١٤١٦. وبعد ذلك وفي عام ١٤٢٠ قام الصدر الأعظم[١١] بايزيد باشا بالتحريض على تمرد مضاد ضد الكرمانيين وقمع سلسلة من الثورات التي أثارها تمرد بدر الدين في الأناضول.

كان تيمورلنك قد أسر مصطفى جلبي ابن يلدريم بايزيد، وأخذه إلى سمرقند بعد معركة أنقرة. وبُعيد اعتلاء شُهْرُوخ ابن تيمورلنك السلطة بموت أبيه، اعتبر شهروخ أن تعزيز محمد جلبي للوحدة العثمانية في الأناضول تحديا للدولة التيمورية. ولذلك قام بإطلاق سراح مصطفى جلبي

---

[١١] الصدر الأعظم كان كبير وزراء السلطان، وكان يرأس المجلس السلطاني.



قاعة الصلاة في المسجد القديم (إسكي جامع) بأدرنة، ويضم تصميمات رائعة بخط اليد على الجدران والأعمدة.

في محاولة لإشعال الفوضى الدبلوماسية. وردا على تصرفات شهروخ كتب محمد جلبي رسالة له قال فيها إن تجزؤ الدولة العثمانية لن يفيد أحدا غير أعداء الإسلام. غير أن مصطفى جلبي ظهر بشكل مفاجئ في الأناضول ودخل ولاشيا مدعيا أحقيته في العرش. وأصبحت بيزنطة متورطة أيضا في صراع الأمراء على العرش، وهو الصراع الذي يطلق عليه في التاريخ العثماني "حادثة مصطفى المزور". فقد نظم مصطفى جلبي تمردا بالقرب من سلانيك وتساليا، وتلقى دعما من "أيدين أوغلو جنيد بك" محافظ نِيغْبُولِي، وأصبح ظهور مصطفى جلبي سببا كافيا لتشجيع الولايات في الأناضول والروملي على التمرد، وهي الولايات التي كانت تتطلع لتجدد الصراع الداخلي في الدولة العثمانية.

شعر مصطفى جلبي وجنيد بأنهما أكثر قوة من خلال الدعم العسكري الذي قدمه لهما "مِيرْجَه" أمير ولاشيا، لكنهما لم يتمكنا من كسب القوات العثمانية الحدودية إلى صفهما. فعادا إلى إسطنبول. وعندما أرسلت بيزنطة الأمير مصطفى جلبي إلى سلانيك في ذلك الوقت، وكان ذلك عام ١٤١٦، اضطر محمد جلي إلى إعلان الحرب على بيزنطة. وطالب محمد جلبي بأن يتم تسليم المتمردين له، لكن الإمبراطور البيزنطي مانويل، الذي خطط لاستغلال الموقف إلى أقصى حد ممكن، رفض الفكرة. وفي نهاية المطاف وعد الإمبراطور البيزنطي بإبقاء مصطفى جَلَبي في السجن ما دام محمد جلبي حيا. وقد كلف هذا الأمر العثمانيين ٣٠٠ ألف آقْجَة (١٠ آلاف عملة ذهبية) يتم تسليمها لبيزنطة سنويا.


شمعدان نحاسي مطلي، يعود تاريخه إلى أواخر القرن الخامس عشر

ضمن محمد جلبي ولاء إمارات سَارُوهَان وأَيْدِينْ ومَنْتَشَهْ للدولة العثمانية فأقام بذلك وجودا عثمانيا صلبا بطول الساحل الشرقي لبحر إيجة. وفي الحرب البحرية التي وقعت بين العثمانيين والبنادقة عام ١٤١٦، انهزمت البحرية العثمانية بقيادة جَالِى بك بالقرب من كَلِيبُولُو. وكانت هذه الهزيمة دليلا على أن العثمانيين لم يكونوا قد شكلوا قوة بحرية قوية بعد. ونتيجة لتلك الحرب تم التوصل لاتفاقية بوساطة بيزنطية، ونصت الاتفاقية على أن تقوم الدولتان المتحاربتان بتحرير الأسرى بحوزتهما، وأن يسمح العثمانيون للبنادقة بحرية التصدير من العالم العثماني.

قاد محمد جلبي حملة ضد مِيرْجَه أمير ولاشيا الذي تدخل في الصراعات على العرش خلال عهد الفترة، وأجبر ولاشيا على دفع الخراج للدولة العثمانية. كما قام محمد جلبي أيضا بتنظيم حملة ناجحة بالنيابة عن البوسنيين الذين طلبوا الحماية من العثمانيين ضد الطغيان المجري، وكسب ولاء البوسنيين في المقابل.

كان السلطان محمد جلبي قلقا من أن تطلق بيزنطة سراح مصطفى جلبي كي تستفيد من صراع داخلي محتمل في الدلة العثمانية، وكان يخشى بشدة من احتمال أن يعاني العثمانيون من عهد فوضى آخر. وأراد أن يعتلي ابنه الأكبر الأمير مراد العرش دون أية متاعب؛ ولذلك فقد أخفى مرضه، وأمر أن يبقى خبر وفاته سرا حتى عودة الأمير مراد من أماسيا. وبذلك كان محمد جلبي هو السلطان العثماني الأول الذي لم يتم إعلان خبر وفاته على الفور. وفي تلك الأثناء حمل مؤيدو الأمير مراد على عاتقهم مسؤولية نشر شائعة على وجه السرعة تقول إن مصطفى جلبي قد مات، وإن الشخص الموجود في بيزنطة هو "مصطفى المزور"، وإنه ليس أكثر من مجرد ألعوبة في يد البيزنطيين.

أنقذ محمد جلبي الدولة العثمانية من التفكك مرة أخرى، ولهذا فإنه يعتبر المؤسس الثاني للدولة العثمانية. وخلال فترة حكمه كان هدفه الأول هو استعادة الأناضول العثماني والروملي بعد التأثيرات الكارثية لمعركة أنقرة. وقد نجح في تحصين دولته، واستعادتها كقوة مهيمنة في المنطقة، برغم الجهود المعارضة المتراكمة في الأناضول والروملي.

كان محمد جلبي يعرف جيدا كيف يسيطر على غضبه، وكان يتمتع بشخصية هادئة وجادة وحازمة، وهي الصفات التي أعطت الثقة لرجال دولته وجيشه. وكان يمتلك مهارة عالية في استخدام الأسلحة والشجاعة الكافية للقتال في الصفوف الأمامية. ويذكر المؤرخون أنه كان هناك أكثر من أربعين جرحا في جسده لأربع وعشرين معركة كبرى قاتل فيها.

كان محمد جلبي محبا للخير؛ فقد تولى مشروعات بناء واسعة في بورصا، منها المساجد والمدارس والملاجئ وقبره الخاص به. وقد استكمل في عهده أيضا بناء "الجامع القديم" في أدِرْنه و"الجامع الأخضر" في بورصا. وكان يعامل رعاياه بعدل، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

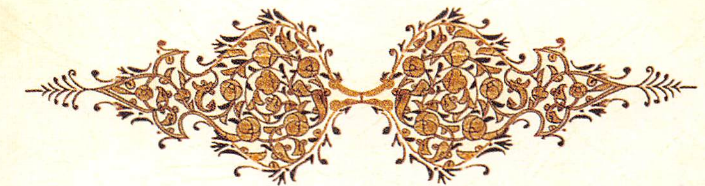
كان محمد جلبي، قوي البنية، عريض الصدر، محبا للمصارعة، شديد القوة. وكانت قسمات وجهه مريحة، كما كان طويل الحاجبين رفيعهما، بُنّي العينين، أحدب الأنف، ذا ذقن متوازنة ويدين قويتين.

وكان يفضل ارتداء قفطان برقبة عالية، كان يصنع من أقمشة لامعة وفرو من الداخل. وكانت العمامة التي يرتديها مصنوعة من قطعة واحدة من القماش من لون واحد. وكان يتماشى مع غطاء الرأس المبطن الذي كان يرتديه والذي كان مطرزا بالذهب.

اتبع محمد جلبي تقليد "موكب الصرة" الذي بدأه والده، فكان يرسل قوافل التبرعات المالية والعينية للحرمين الشريفين.



طفل عثماني ينتظر أمام بوابة المسجد الأخضر، أحد أعظم إسهامات السلطان محمد جلبي في مدينة بورصا. (تصوير عثمان بِرادَرْلَرْ، نحو عام ١٨٩٥).

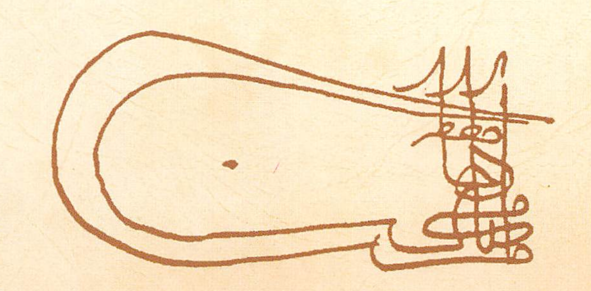




# السلطان مراد الثاني

## فترة الحكم: ١٤٢١- ١٤٤٤ (الفترة الأولى)

## ١٤٤٦- ١٤٥١ (الفترة الثانية)



**السلطان العثماني السادس**

**الألقاب، والأسماء الشعرية:** أبو الخيرات

**اسم الأب:** محمد جَلبي

**اسم الأم:** أمينة خاتون (من سلالة بني "دُولْقَادِر")

**محل وتاريخ الميلاد:** أماسيا، يوليو/تموز ١٤٠٤

**المناصب قبل اعتلاء العرش:** محافظ ولاية أماسيا

**العمر عند اعتلاء العرش:** ١٧ عاما

**تاريخ الوفاة:** ٣ فبراير/شباط ١٤٥١

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** توفي بأدِرْنه، وضريحه في بورْصا

**أبناؤه:** السلطان محمد الفاتح، وأحمد، وعلاء الدين، وأورخان، وحسن، وأحمد

**بناته:** شاه زاد سلطان، وفاطمة سلطان



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مراد الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



كان السلطان محمد جلبي قد توفي بالفعل في أدِرْنه في الوقت الذي وصل فيه ابنه الأكبر الأمير مراد إلى بورصا وفقا لوصية والده قبل، فظل خبر وفاة السلطان سرا لتجنّب الثورات الداخلية المحتملة وإطلاق سراح مصطفى جلبي من قبل بيزنطة. وعندما اعتلى مراد الثاني العرش خلفا لوالده واجه أكبر تحد في حياته وهو مازال شابا غضا في السابعة عشرة من عمره.

وكان إخوة سلطان مراد هم الأمير مصطفى، وكان في الثانية عشرة من عمره، وكان في "حَمِيدْ إِيلِي"، وهي إمارة حدودية، والأمير يوسف، وكان في سن الثامنة، والأمير محمود، وكان في سن السابعة. ولما كان محمد جلبي على معرفة تامة بالنزاعات بين الأشقاء، فإنه لم يكن ليسمح لأبنائه بأن يتنازعوا ويقتل بعضهم بعضا؛ ولذلك فقد أبرم اتفاقية مع الإمبراطور البيزنطي لمنع تكرار حادثة مصطفى المزور مرة أخرى. ونصت هذه الاتفاقية على أن الأمير مراد سيكون خليفته، وأن يدير الأمير مصطفى الأناضول. وأن بيزنطة لن تطلق سراح مصطفى جلبي، وفي المقابل سوف يتم إرسال الأخوين الأصغرين يوسف ومحمود إلى الإمبراطور البيزنطي بالنفقات الشاملة التي سيدفعها العثمانيون. غير أن السلطان مراد الثاني رفض إرسال شقيقيه الأصغرين لبيزنطة عندما اعتلى على العرش. وعلى ذلك أرسلت بيزنطة مصطفى جلبي ابن بايزيد، الذي كانت بيزنطة تراه السلطان الشرعي، على كَلِيبُولُو مع أيدين أوغلو جنيد بك، حتى يتمكن من المنافسة على العرش. وكان مصطفى جلبي سيعطي للإمبراطور البيزنطي مانويل منطقتي تيساليا وكَلِيبُولُو في حالة ما إذا تولى الحكم العثماني.

لم يكن مصطفى جلبي عم مراد الثاني، المدعوم من بيزنطة التي أرسلته إلى كَلِيبُولُو مع أسطول بحري، هو المشكلة الوحيدة التي كان يتعين على مراد مواجهتها. ففي نفس الوقت انضمت الإمارات في الأناضول إلى المعارضة. وأعلن الجَرْمِيانيون أنهم لن يعترفوا بسلطة السلطان مراد الثاني، وأنهم سوف يدعمون مصطفى جلبي. واحتل الكرمانيون أراضي الحميديين، واحتل بنو مَنْتَشَهْ أراضي بني أيدين وبني ساروهان. وعندما استولى إسفنديار بك الجَندري مرة أخرى على الأراضي التي كان محمد جلبي قد أعطاها لقاسم ابن إسفنديار، باتت الدولة العثمانية في طريقها إلى حرب أهلية.

بعد وصول مصطفى جلبي إلى كَلِيبُولُو ترك "أيدين أوغلو جنيد" بك ليستولي على حصن كَلِيبُولُو، ثم انتقل إلى أدِرْنه. ورغم أن السلطان مراد الثاني كان قد عقد آماله على بيازيد باشا حاكم الروملي الذي وجهه لقتال عمه، لكن قوات بيازيد باشا انضمت إلى صفوف مصطفى جلبي. فتقطعت بالسلطان الشاب كل السبل. ثم دخل مصطفى جلبي مدينة أدِرْنه وأعلن



سلطنته، وعلى إثر ذلك استسلم حصن كَلِيبُولُو المحاصر أيضا. وقد أعدم في هذا الوقت بَيَازِيدْ (بايزيد) باشا الذي حارب ضد مصطفى جلبي، وكانت الجماهير قد قبلت مصطفى جلبي سلطانا لهم.

لم يحافظ مصطفى جلبي على وعده بتسليم كَلِيبُولُو للإمبراطور البيزنطي مانويل، فسحبت بيزنطة دعمها له. وفي نفس الوقت ألغى مراد الثاني ديون الجنويين، وفي المقابل قدم له الجنويون دعما بحريا وأعدادا كبيرة من الجنود. وبالتالي تم الحفاظ على ميزان القوى أمام مصطفى جلبي الذي كان يمتلك البحرية العثمانية وقوات الروملي وطرق كَلِيبُولُو.

ورغم ذلك توجه مصطفى جلبي إلى بورصا وتوغل حتى وصل إلى أولوبَاتْ، مما أوقع السلطان مراد الثاني في مأزق. وهذه المرة كان مراد الثاني مستعدا لعمه من الناحية الدبلوماسية؛ حيث وعد أولا جنيد بك، الداعم الأكبر لمصطفى جلبي، بأن يعطيه مقاطعتي إِزْمِير وآيْدِينْ، فانفصل جنيد بك عن مصطفى جلبي. ثم أرسل السلطان مراد الثاني قادته لمقابلة البكوات والجنود على الحدود في الروملي. ونجحت إستراتيجيته في أن يجلبهم إلى صفه. وبذلك ضعفت قوات مصطفى جلبي فجأة مما تسبب في إحباط نفسي كبير داخل معسكره. ورغم ضعف جيش مصطفى جلبي، فإنه مازال يستطيع إبادة جيش مراد الثاني. لكن السلطان مراد الثاني تمكن بمساعدة الجنويين من مطاردة مصطفى جلبي الذي تراجع لأدِرْنه والقبض عليه. وفي عام ١٤٢٢ دفع مصطفى جلبي حياته ثمنا لجرائمه، بعد أن نظم تمردا مشينا بدعم بيزنطي وتسبب في مقتل الكثير من المسلمين من دون فائدة. وبعد ذلك ضرب السلطان حصارا على إسطنبول كي ينتقم من بيزنطة التي طالما حثت



صورة قديمة لمسجد أوج شَرَفَلِي التقطت حوالي عام ١٨٩٥

مسجد دار الحديث في أَدِرْنَهْ، والذي عَمِل في بنائه السلطان مراد الثاني بنفسه.



مسجد المرادية في بورصه.

سلّم الصرب بلجراد للمجر بعد حروب بين العثمانيين والبنادقة. ورفض الولاشيون والبوسنيون الخضوع للعثمانيين، وبالتالي شكّل كل من المجر والصرب والبوسنيين والولاشيين حلفا ضد الدولة العثمانية، وهو ما مهد الطريق لتحالف صليبي سوف يظهر لاحقا.

في ذلك الوقت نشب صراع على العرش في المجر، عقب وفاة الملك المجري سِيجِيسْمُونْدْ (Sigismund)، استولت القوات العثمانية عام ١٤٣٩على "سَمَنْدِيرة" (Semendire) التي كانت تمثل مركزا محوريا بالنسبة للصرب في البلقان. وبذلك أنهى العثمانيون الحكم الصربي المطلق في المنطقة، وضربوا الضريبة على البوسنة والهرسك، وقاموا بمحاصرة بلجراد إلا أنه لم يتم الاستيلاء عليها.

والواقع أن الفشل في حصار بلجراد كان نذيرا بوقوع سلسلة متصلة من الهزائم؛ فقد قام يانوش هونيادي أمير ترانسلفانيا الجديد -والذي عيَّنه الملك لادسيلاس الذي اعتلى العرش المجري- بمهاجمة العثمانيين ونجح في استعادة "سمندرية" على نهر الدانوب، منذرا العثمانيين بمزيد من الخسائر في الأراضي. وقد رحبت البندقية بحماس بأخبار هزيمة العثمانيين واحتفل البنادقة أياما بذلك. والأسوأ من ذلك أن تلك الهزيمة شجعت الكرمانيين في الأناضول على التحرك ضد العثمانيين، فتوجهوا إلى "آقْ شَهِيرْ" و"بَىْ شهير". وأعقب

مصطفى جلبي على المنافسة على العرش، وتسببت في إراقة الدماء، ومنعت العثمانيين من استئناف غزواتهم العسكرية. وفي أثناء ذلك الحصار في عام ١٤٢٢ وقع مأزق كبير آخر، وهو حادثة الأمير مصطفى.

فقد قام الأمير مصطفى، وكان ابن ثلاثة عشر عاما في ذلك الوقت، بحصار بورصا متبعا خطوات عمه، وبدعم من إمارتي الكَارَامانيين والجَرْميانيين. فسحب السلطان مراد الثاني الفرقة المتميزة في جيشه من حصار إسطنبول وتوجه بها إلى أدِرْنه. ونجح جنود مراد الثاني بقيادة ميهالْ أُوغلو في تشتيت قوات الأمير مصطفى. فلجأ الأمير الصغير أولا إلى الإمبراطور البيزنطي، ثم انتقل إلى إِزْنِيقْ بدعم الإمبراطور. وما إن علم مراد الثاني عن الدعم الذي منحه الإمبراطور البيزنطي للأمير مصطفى حتى توجه بجنوده إلى إِزْنِيقْ. وبعد معارك مريرة أُعدم الأمير مصطفى ورفقاؤه، مما حدّ من تفشي مثل هذه الفتن في عام ١٤٢٣.

وبعد أن هزم السلطان مراد الثاني عمه مصطفى جلبي وأخاه الأمير مصطفى، تابع عمله على إقامة الوحدة في الأناضول. وكانت بداية ذلك استعادته لولاء إسفنديار بك الجندري. وكان جنيد بك قد ساند الأمير مصطفى جلبي وتحدى الدولة العثمانية مرارا وتكرارا، فأرسل السلطان مراد الثاني حمزة باشا حاكم الأناضول إلى المنطقة كي يستولي على إزمير. وتم القضاء على إمارات أَيْدين ومَنْتَشَه و"تَكَه". وأعيدت أرض الجرمانيين إلىالدولة العثمانية بناء على رغبة حاكمها يعقوب بك الذي لم يكن له وريث ذكر بعد وفاته في عام ١٤٢٩. وبذلك تم تأمين شواطئ بحر إيجة.

وبعد وفاة محمد بك الكَرَماني احتدم الصراع على العرش في إمارة الكرمانيين. وفي هذا التنافس دَعَم "السلطان مراد الثاني" "إبراهيم بك" كي يكون زعيما للكرمانيين. ورغم أن مراد الثاني زوّج إبراهيم بك أخته كي تكون صلة أُسرية مع الكرمانيين، فإن حاكم الكرمانيين الجديد إبراهيم بك أبقى على عدائه القديم تجاه الدولة العثمانية، حتى إنه تحالف مع المجر. فلم يجد مراد الثاني بُدًّا من التوجه بجيشه لملاقاة الكَرمانيين. وفي تلك الحملة هُزم إبراهيم بك وطلب الرحمة، فسامحه السلطان مراد الثاني وأبقاه حاكما على إمارته، ثم عاد السلطان إلى أدِرْنه.

خلال حكم مراد الثاني امتد النطاق العثماني من مقدونيا إلى البحر الأدرياتيكي، وصولا إلى الشواطئ الشرقية والغربية لبحر إيجة. وقد أقلق هذا التوسع البنادقة حيث كانوا يمثلون هي القوة البحرية الرئيسية في المنطقة. ولأن البنادقة كانوا يمتلكون قوة بحرية كبيرة ويسيطرون على الجزء الأكبر من جزر بحر إيجة، فإن ذلك كان يعني أن البنادقة يستطيعون قطع العلاقات العثمانية بين الأناضول والروملي، وهي الأراضي العثمانية في أوروبا.

قام السلطان مراد الثاني بنشر جيشه بكامله على جانب الروملي، وفي عام ١٤٣٠، احتل سلانيك، وكانت مدينة ساحلية ذات أهمية إستراتيجية قصوى بالنسبة لمقدونيا، واستردها من البنادقة الذين كانوا قد حصلوا عليها من البيزنطيين. وفي العام التالي، وبسبب فتوحات يَانْيا وسَرَزْ في شمال اليونان، أصبح للعثمانيين سيطرة قوية على جنوب ألبانيا.



مسجد المرادية في أدرنه، (بناه السلطان مراد الثاني).

هذه السلسلة من الكوارث استشهاد "مزيد بك" حاكم صربيا في كمين عام ١٤٤١، ثم هُزم الجيش العثماني بقيادة شهاب الدين شاهين باشا حاكم الروملي عام ١٤٤٢. وفي تلك الأثناء توجه السلطان مراد الثاني بجيشه نحو الكَرَمانيين، وتمكن من هزيمتهم بعد مساعدة من قوات الأمير علاء الدين من أماسيا. وبالتالي استولى العثمانيون على "قُونْية" و"لاَرَنْدَة" من الكرمانيين. ووَجد مراد الثاني نفسه مضطرا لمواجهة الموقف المتفجر في الروملي، فوقَّع على معاهدة سلام مع الكرمانيين وعاد إلى أدِرْنه.

فرح الأوروبيون فرحة غامرة بسلسلة الهزائم التي لحقت بالعثمانيين في أوروبا، وعادت فكرة تخليص البلقان من المسلمين من خلال حملة صليبية جديدة. ووافقت بيزنطة أيضا على الحملة الصليبية باعتبارها السبيل الوحيد للتخلص من العثمانيين. وفي عام ١٤٣٧ ساعدت بيزنطة في التوقيع على ميثاق ينص على تعاون الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية وعلى تنظيم حملة صليبية. وفي النهاية توجه الجيش الصليبي إلى الأراضي العثمانية عبر نهر الدانوب، وكان يقوده كل من الأمير "يانوس هونيادي" أمير ترانسلفانيا، والملك المجري لادسيلاس، وملك الصرب، والأمير الولاشي. ونشبت المعركة الأولى بالقرب من نِيشْ بين فِرق الطليعة العثمانية والصليبيين، وهُزم العثمانيون مرة أخرى، وخسروا نيش وصوفيا عام ١٤٤٣.

واجه مراد الثاني هذا الجيش الصليبي عند ممر إزلادي (سلاتتزا) وأوقفه بشكل جزئي. وتراجع الصليبيون بسبب ظروف الشتاء القاسية. غير أن توغل المجر داخل البلقان أدى إلى تطورات جديدة، فقد هرب إسكندر بك الألباني من ساحة المعركة خلال الحرب ضد المجر، وتمرد في بلده. وفي هذه الأثناء تلقى السلطان مراد الثاني خبرا مفجعا بوفاة ابنه الأكبر والأثير لديه علاء الدين علي جلبي في أماسيا بشكل مفاجئ. ولم تتوقف الأحداث الكارثية بالنسبة للسلطان عند هذا الحد؛ حيث استغل الكرمانيون الموقف، وهاجموا الأراضي العثمانية.

في مواجهة كل ما كان يجري في البلقان، خاطب السلطان مراد الثاني المجريين طالبا السلام، ووقَّع الطرفان على معاهدة أدِرْنه– "سغدِين" (Segedin) في عام ١٤٤٤، وتقرر أن تكون الهدنة لمدة عشر سنوات. وبموجب هذه المعاهدة أعيدت الأراضي المفتوحة لملك الصرب جورج برانكوفيتش (والمعروف أيضا في التسجيلات التاريخية التركية باسم فيلك أوغلو)، واعترف بنهر الدانوب باعتباره الحد الفاصل بين الطرفين، و واعترف بسيادة السلطان على بلغاريا، وضمان ولاء الأمير الولاشي واستمراره في دفع الجزية للسلطان. واعتقد السلطان مراد الثاني تماما أن هذه المعاهدة سوف تضمن السلام الذي أراده.

بعد تحقيق الاستقرار في البلقان بفضل معاهدة السلام، توجه السلطان مراد الثاني إلى الكرمانيين، غير أنه اختار هذه المرة ألا يُغِير على الإمارة الكرمانية وإنما أن يوقع على اتفاق مع السفراء الكرمانيين في يني شهير في بورصا. وبذلك تم الاتفاق على أن الكرمانيين سوف يتبرعون بقوة عسكرية للعثمانيين كل عام في مقابل أن يستعيدوا بي شهير وسيدي شهير و"أُوقْلُوقْ حِصَاري" و"آق شَهِير" لضمها للإمارة الكرمانية.

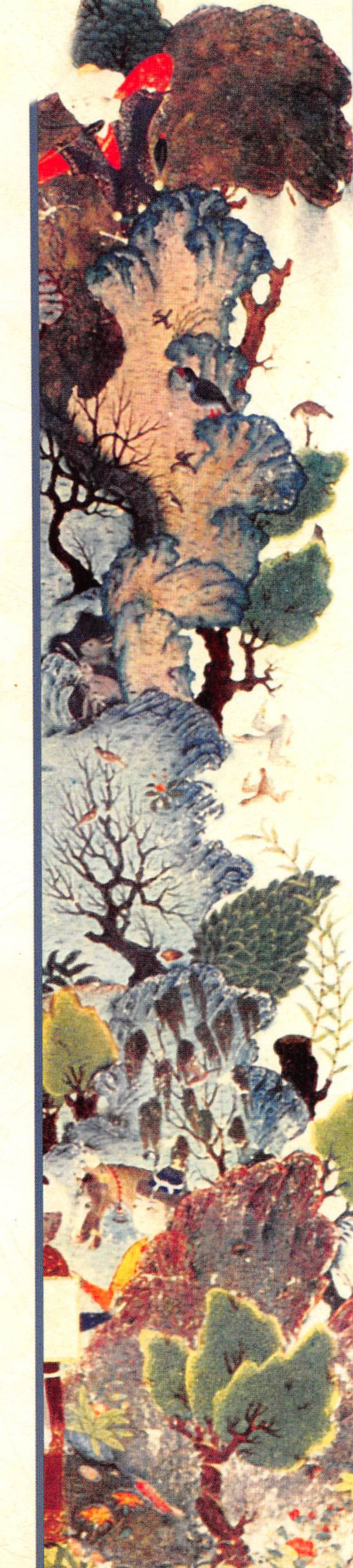
ويبدو أن الهزائم المتلاحقة وموت الابن الأكبر للسلطان، ومعارضة البكوات في الإمارات الحدودية لسلطته، قد جعلت السلطان يطبق تلك السياسات. وبموجب المعاهدات الموقعة، انسحب السلطان مراد الثاني من أراضٍ مهمة إستراتيجيا كان قد فتحها في الشرق والغرب. واعتقد السلطان بهذه المعاهدات أيضا أنه قد أرسى السلام في الأناضول والبلقان. ودفعه هذا الإحساس إلى أن يتنازل عن العرش في حضور البكوات وجيشه في ميهاليج في أغسطس/آب من عام ١٤٤٤، بحيث يتولى ابنه الأمير محمد المسؤولية بعده. وبهذا الإجراء أصبح السلطان مراد الثاني هو أول سلطان يتخلى عن العرش بمحض إرادته، حيث تفرغ بعد ذلك للصلاة والعبادة في بورصا.

غير أن الدول الأوروبية المنافسة وجدت في جلوس شاب صغير السن على عرش الدولة العثمانية فرصة لا تعوّض. كما حثّ البابا على رفض معاهدة أدِرْنه–سكدين. وأخلف الملك المجري لادسيلاس وعده الخاص بالسلام المتبادل، وأعد نفسه لقيادة جيش صليبي يضم مجريين وبولنديين وبنادقة. وعبر الصليبيون نهر الدانوب، وغزوا الأراضي العثمانية في البلقان. وأغلق البنادقة مضيق الدردنيل لمنع السفن العثمانية من المرور. وأثار تقدم الصليبيين من خلال الحدود القريبة من فارْنا على البحر الأسود بالروملي القلق لدى رجال الدولة العثمانية، كما تسبب في هجرة كثيرين من أدِرْنه إلى الأناضول. ووسط كل ذلك قام السلطان محمد الثاني والصدر الأعظم خليل باشا الجَنْدَري ورجال الدولة البارزون باستدعاء السلطان مراد الثاني ليتولى بزمام الأمور، فأسرع السلطان إلى أدِرْنه، وتولى الجيش العثماني استعدادا لمواجهة الصليبيين.

خلال المواجهة، التي سوف يسجلها التاريخ لاحقا باسم معركة فارنا، قامت وحدات المدفعية الثقيلة المجرية في بداية الأمر بتشتيت جانبي الجيش العثماني بهجوم عنيف. وعندما اقترب الصليبيون من معسكر السلطان مراد الثاني، فكر السلطان في الانسحاب. لكن "كَارَاجا بك" تدخل في تلك اللحظة الحاسمة، ورفض فكرة الانسحاب، وشحذ همم الجنود كي يلتفوا مرة أخرى حول سلطانهم. وحُوصر الملك المجري لادسيلاس وأعدمته قوات الانكشارية، وهو ما أثار الذعر في قلوب الصليبيين وهرب يانوس هونيادي بصعوبة ناجيا بحياته.

وصل خبر الانتصار في معركة فارنا إلى أدِرْنه، والأراضي العثمانية الواسعة الأخرى، فاستقبلها الناس بفرح غامر. ووجدوا في هذا النصر علامة على سقوط بيزنطة قريبا، والواقع أن هذا الانتصار ضَمِنَ التفوق العثماني في البلقان في عام ١٤٤٤.

عاد السلطان مراد الثاني للاعتزال مجددا في مانيسا بعد نصر فارنا، فكان ذلك سببا مناسبا للمجر والولاشيين كي يعيدوا الهجوم. كما نشبت حركة تمرد بقيادة الانكشارية في أدِرْنه، فاضطر السلطان



مراد الثاني إلى الرجوع إلى العرش لمرة ثالثة.

وبعد فترة قصيرة، توجه السلطان إلى شبه جزيرة المورة، ثم حارب إسكندر بك الألباني. واعترفت المورة بالسيادة العثمانية مرة أخرى.

بعد ذلك قام جيش صليبي يضم جنودا مجريين وولاشيين وبولنديين وألمان بغزو صربيا، وانتقل إلى الأراضي العثمانية للرد على الهزيمة التي لحقت بهم في فارنا على الساحل الغربي للبحر الأسود. وواجههم السلطان مراد الثاني في كوسوفا. وبعد حرب دامت ثلاثة أيام، انتصرت الدولة العثمانية على الصليبيين نصرا ساحقا مرة أخرى، وكان ذلك عام ١٤٤٨. ونتيجة لذلك النصر، تأكدت السلطة العثمانية في البلقان، وخضعت ولاشيا مرة أخرى للعثمانيين، وبات الصليبيون في حالة من الرعب لا تسمح لهم بمهاجمة العثمانيين. وبعد تلك الحرب، اتخذ المسلمون موقف المهاجم في البلقان، وتحول الصليبيون إلى موقف الدفاع. ومن اللافت للنظر في تلك الحرب أيضا أن الكرمانيين أرسلوا تعزيزا عسكريا للسلطان مراد الثاني كما وعدوا.

أصيب السلطان مراد الثاني بالمرض في أدِرْنه وتوفي وهو في الثامنة والأربعين من عمره، وكان ذلك في ١٠ فبراير/شباط عام ١٤٥١. وذلك بعد ذلك بشهور قليلة من حفل زفاف ابنه الأمير محمد عَلَى سِتّي خاتون، ابنة سليمان بك "دُولْقَادِر".

وفي وصيته التي كتبها قبل خمسة أعوام من وفاته ذكر السلطان مراد الثاني أنه يريد أن "يُدفن في قبر عادي مكشوف دون قبة في بورصا بجوار ابنه علاء الدين المتوفى منذ زمن، وألا يُدفن أحد من سلالته معه في نفس الفناء".

عُرف السلطان مراد الثاني بعدم امتناعه قط عن الغزو والجهاد في سبيل الله بغض النظر عن الوقت أو الظروف. وكان كريما دمث الخلق وعادلا مع رعاياه. ولم يخاطر مطلقا فيما يخص أمور الدولة، فلم يكن يقاتل، مثلا، في معركتين في الأناضول والروملي في نفس الوقت. فإذا كان الموقف هادئا في الأناضول، كان يغزو في البلقان، والعكس صحيح.

كان الرحالة بروكير (Broquiere) يريد أن يرى المسلمين عن قرب كي يجمع معلومات استخباراتية إضافية للحملات الصليبية، فزار الأراضي العثمانية في طريق عودته من القدس. وفي كتابه "رحلة إلى الخارج" (Le Voyage d'outremer) أكد بروكير أن السلطان مراد الثاني كان شخصا قويا، وقال: "من بين كل الحكام الذين أعرفهم، أرى أن هذا السلطان العثماني يتلقى أكبر قدر من احترام شعبه". وفي زيارته لأدِرْنه عام ١٤٣٢، يصف بروكير قوة السلطان فيقول: "بناء على ما قيل لي، فإنه (السلطان) لا يرغب في الحروب. وهذا هو الانطباع الذي أخذته عنه تماما؛ إنه يستطيع بكل سهولة أن يفتح جزءا أكبر من أوروبا لو أنه أراد فقط استخدام قواته وموارده الواسعة، هذا إذا أخذنا في الاعتبار المقاومة العرجاء التي واجهها من العالم المسيحي".

قطعت الحياة المعرفية العثمانية شوطا كبيرا خلال فترة حكم السلطان مراد الثاني؛ فقد جاء إلى الأراضي العثمانية المولى الكوراني وعطاء الدين الطوسي، وشرف الدين كريمي، وسيدي أحمد كريمي، وآخرون من شبه الجزيرة العربية، ومن تركستان وكريميا. وقد تلقى الكثير من العلماء والمفكرين الذين عاشوا في عصر السلطان محمد الفاتح تعليمهم خلال تلك الفترة، التي سوف ترسي أساس التشكل الثقافي الجوهري اللازم لفتح إسطنبول.

وإضافة إلى ذلك فقد توسعت الطرق الصوفية وانتشرت في ذلك الوقت. فانتشرت الطرق الزينية والمولوية والبيرمية بين المسؤولين وعامة الشعب. وقد أعفى السلطان مراد الثاني بشكل خاص مريدي الحاج "بَايْرَام ولي"، من الضرائب. وبنى مراد الثاني مدرسة وملجأ صغيرا للدراويش في بورصا بالقرب من مسجد يحمل اسمه. ويسمى هذا الحي في المدينة بحي المرادية، ويقع بهذا الحي أيضا قبر السلطان مراد الثاني وابنه علاء الدين.

وقد بنى مراد إنجازاته الكبرى في أدِرْنه، وعلى رأسها "دار الحديث" بالقرب من نهر تونْجا، و"الجامع الجديد" والمعروف أيضا باسم جامع "أوج شَرَفَلي" (الجامع ذي الشُرفات الثلاث)، والذي يعتبره علماء هذا الفن النموذج الأصلي للجوامع العثمانية الكبيرة. وقد وضع السلطان مراد الثاني حجر الأساس لهذا الجامع في الطريق لحملته ضد المجر عام ١٤٣٨، وافتتح للعبادة عام ١٤٤٧. ونجد أيضا مساجد وسبل مياه تحمل اسمه في سلانيك وأوسكوب وآلاجا حصار ومرزيفون. وقد أكسبته هذه الأعمال الخيرية العظيمة لقب بـ"أبي الخيرات".

واتباعا لتقليد جده يلدريم بايزيد وأبيه السلطان محمد الأول، استمر السلطان مراد الثاني في إرسال المواكب السنوية المحملة بالهدايا الملكية للحرمين الشريفين خلال موسم الحج. وإضافة إلى ذلك فقد اعتاد السلطان مراد الثاني أن يوزع ذهبا في كل سنة على أحفاد الرسول ﷺ، الذين يعيشون في دولته.





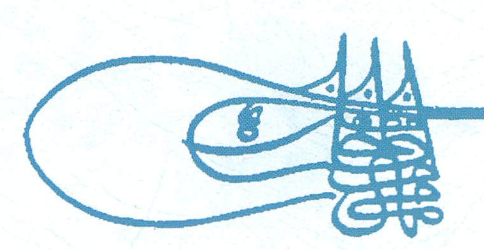
قفطان سلطاني قصير الأكمام، قصر "طوب قابي"



# السلطان محمد الثاني
## (الفاتح)

**فترة الحكم: ١٤٤٤- ١٤٤٦ (الفترة الأولى)**

**١٤٥١- ١٤٨١ (الفترة الثانية)**



**السلطان العثماني السابع**

**الألقاب والأسماء الشعرية: الفاتح، وعوني، وأبو الفتح، و"غازي خُنكار" (الملك الغازي)**

**اسم الأب: مراد الثاني**

**اسم الأم: هُمَا خَاتُونْ**

**محل وتاريخ الميلاد: أدِرْنه، ٣٠ مارس/آذار ١٤٣٢**

**العمر عند اعتلاء العرش: ١٣ عاما (الفترة الأولى)، و١٩ عاما (الفترة الثانية)**

**سبب وتاريخ الوفاة: النقرس والسم، ٣ مايو/أيار ١٤٨١**

**مكان الوفاة وموقع الضريح: توفي في كَبزة (بلدة في شرقي إسطنبول)، ويقع قبره بالقرب من مسجد الفاتح بإسطنبول**

**أبناؤه: بايزيد، وجَم، ومصطفى**

**بناته: عائشة سلطان، وجَوْهَرْخَانْ سلطان**



لوحة بفن المنمنمات تُصوّر السلطان محمد الفاتح، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

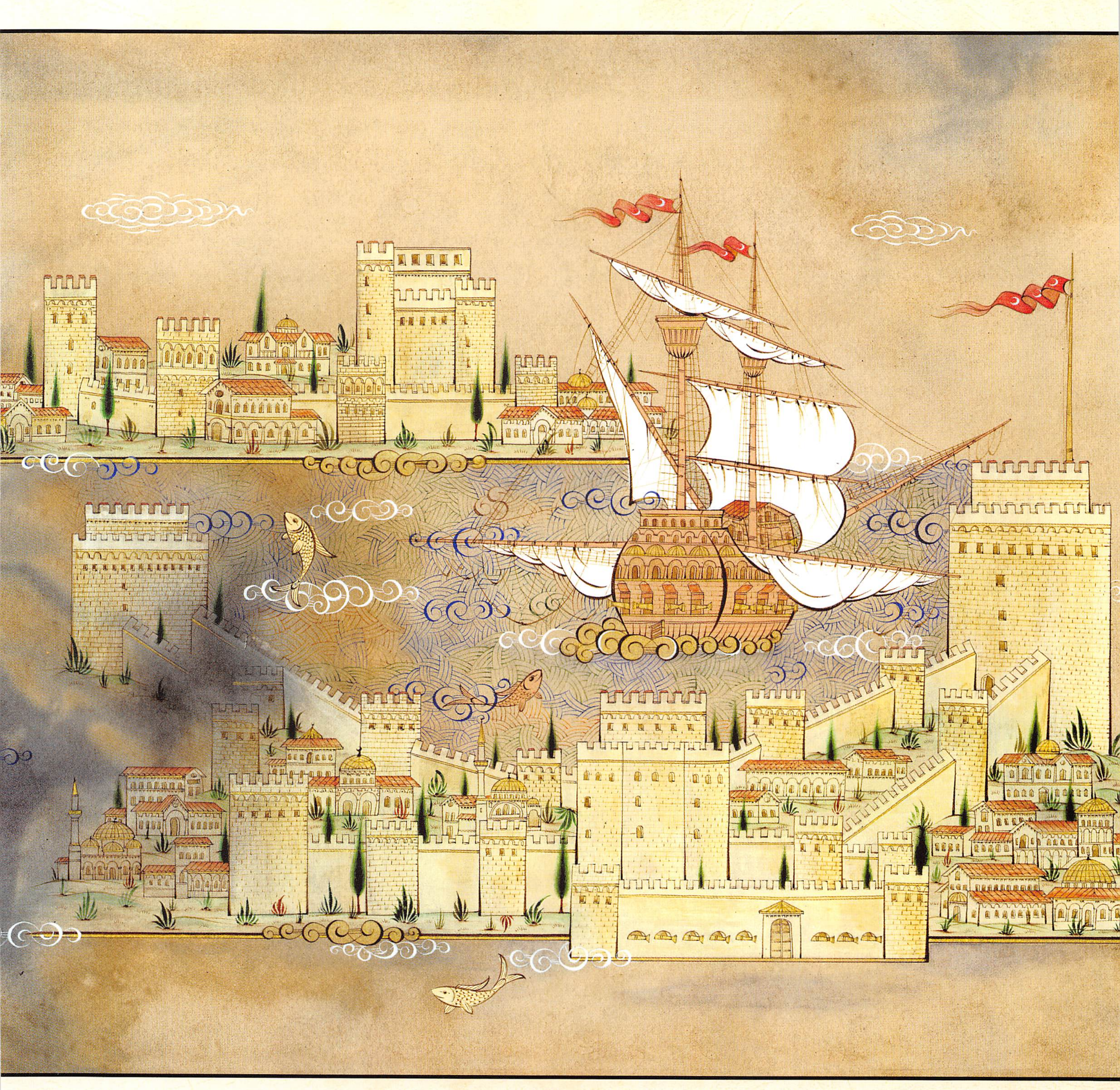
خلف السلطان محمد الثاني والده السلطان مراد الثاني على العرش بعد وفاته عام ١٤٥١. وحسب التاريخ العالمي وكذلك التاريخ التركي-الإسلامي يعد السلطان محمد الثاني هو الحاكم الذي شكّل فتحُه لإسطنبول نهاية للقرون الوسطى وبداية العصر الحديث.

بعد أن كان محمد محافظا على أماسيا في غرب الأناضول وهو أمير صغير، أصبح هو الوريث الوحيد الحي للعرش بعد وفاة شقيقه الأكبر علاء الدين بشكل مفاجئ. وفي عام ١٤٤٤، كان محمد الثاني في العاصمة العثمانية أدِرْنه بجانب والده حين وقَّع معاهدة السلام مع كل من الملك المجري وحاكم الصرب وسفراء الأمير الولاشي.

واعتلى العرش للمرة الأولى في عام ١٤٤٤، حين قرر والده التقاعد والعزلة في بورصا، لكنه عاد كي يقود الجيش العثماني في معركة فَارْنَا على الساحل الغربي للبحر الأسود ضد الصليبيين. وأعاد العرش إلى والده للمرة الثانية عندما وجد أنه لا يستطيع مواجهة الصراعات المحتدمة بين الباشاوات، إضافة إلى تمرد الانكشارية. ومن الواضح أن العامَين (من ١٤٤٤ إلى ١٤٤٥) قد منحا لهذا السلطان الشاب خبرة عميقة في الحكم بحيث أصبح يتقن المهارات الدبلوماسية، ويقود الجنود، ويتولى سلطة الدولة بنجاح. ولهذا السبب فقد كان قادرا على تطبيق الخطط المعقدة اللازمة لفتح إسطنبول بمجرد اعتلائه العرش بعد وفاة والده في نهاية الأمر. وخلال سنواته كولي للعهد، خاض الأمير محمد الثاني معارك بحرية ضد البنادقة، وسار مع الجيش لمواجهة تمرد إسكندر بك، وقاتل بنفسه في ميسرة الجيش خلال معركة كوسوفا الثانية. وكل ذلك زوّد الأمير الصغير بخبرة واسعة استغلها بكفاءة بعد ذلك في فتوحاته القوية والفعالة في سبيل إعلاء كلمة الله. اعتلى محمد الثاني العرش للمرة الثانية بعد وفاة والده، فكان السلطانَ العثماني وهو في التاسعة عشر من عمره، وكان ذلك يوم ١٨ فبراير/شباط من عام ١٤٥١. وخلال سنوات حكمه الأولى واجه السلطان محمد الثاني الكَرَمانيين الذين تحالفوا مع البنادقة وأثاروا بكوات آخرين في الأناضول ضد العثمانيين، مستغلين تغيير الحكم في الدولة العثمانية. وفي نهاية المواجهة مع الكرمانيين تم توقيع معاهدة سلام بناء على طلب "إبراهيم بك" الكرماني.

أراد السلطان محمد الثاني أن يحقق الأمن في الأناضول قبل البدء في فتح إسطنبول؛ فتوصل للسلام مع الكرمانيين، ثم أقام علاقات طيبة مع المماليك. واستغل السلطان الصراعات بين ولايات البنادقة والنابوليين والصقليين في إيطاليا استغلالا تاما. وبحنكة سياسية عظيمة، أعطى مميزات تجارية للبنادقة والجنويين، وبذلك وقفوا إلى جانب العثمانيين كما كان يتوقع.

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان الصغير يمتطي حصانا، وهي من تصميم الفنان أوزكان أوزكان



لوحة بفن المنمنمات لحصن الروملياان الذي أنشأه السلطان محمد الفاتح طول حصن الأناضول، وهي من تصميم الفنان إرسان برشيم

كان السبب الأول الذي دفع السلطان محمد الثاني إلى فتح إسطنبول هو رغبته في تحقيق قول الرسول ﷺ، والحظوة بمدحه الوارد في الحديث الشريف: "لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش". وقد أدرك العثمانيون -منذ تأسيس دولتهم- الموقعَ الذي سيحوزه الجنود في الدار الآخرة بموجب هذه البشارة النبوية فبذلوا جهودا جبارة في سبيل فتح إسطنبول حيث قام كل من "يلدريم بايزيد" وموسى جلبي والسلطان مراد الثاني بمحاصرتها ولكنهم لم ينجحوا في فتحها. ومن الناحية الإستراتيجية كان فتح إسطنبول يعني توحيد الأراضي العثمانية الموجودة في قارتين متجاورتين، هما الأناضول (آسيا الصغرى) والروملي في أوروبا. وعلاوة على ذلك فإن فتح إسطنبول كان سيزيل العقبات التي كانت تضعها بيزنطة أحيانا أمام نقل القوات العسكرية العثمانية من الأناضول إلى الروملي.

كانت بيزنطة دائما تُثير الروح الصليبيةَ في أوروبا المسيحية، وتحرِّض على تنظيم الحملات الصليبية، وإذا فُتحت إسطنبول فإن هذا سيعني تفكك بيزنطة نهائيا. والأسوأ من ذلك كان تحريض بيزنطة لبكوات الإمارات الأناضولية المجاورة على التمرد ضد العثمانيين. كما دعمت أولياءَ العهد العثمانيين لإشعال المنافسات على العرش العثماني، وهو ما أدى إلى إراقة الدماء بين الأشقاء وتفاقم الموقف في الدولة العثمانية. وعلى المدى الأطول أدت حركات التمرد التي تزعمتها بيزنطة، باستخدام أولياء العهد العثمانيين، إلى إعاقة الفتوحات العثمانية وإفساد روح الأخوَّة في الأناضول.

كان السلطان محمد الثاني مخططا بعيد النظر في فتحه لإسطنبول، فقد بدأ استعداداته لفتح المدينة في أعقاب عودته من مواجهته مع الكرمانيين. وتوضِّح عملية الإعداد أن السلطان الشاب قد تعلم دروسه جيدا من خبراته السابقة. وكان المثال الواضح هو إنشاؤه لقلعة "حصار روملي" عام ١٤٥٢ على الجانب الأوروبي من البوسفور في الشاطئ المقابل لقلعة الأناضول، في محاولة تنم عن معرفة جيدة تهدف إلى منع الإمدادات القادمة من المستعمرات في جَنوا على البحر الأسود من الوصول إلى بيزنطة.

كما توصل السلطان محمد الفاتح لاتفاقية مع الكرمانيين في الأناضول، ووقَّع عدة معاهدات (بواسطة خليل باشا الجَنْدَرْلي) مع المجريين والبنادقة في أوروبا. ثم أقنع السلطان محمد الثاني كلا من حاكم الصرب وملك البوسنة بالوقوف إلى جانب العثمانيين. كما احتل على قلعتي "فِيزَة" و"سِلِوْرِي" بالإضافة إلى مناطق أخرى خارج مدينة إسطنبول الداخلية، وبهذا قطع علاقات بيزنطة واتصالاتها مع الغرب في النهاية. ولما اتخذ السلطان التدابير اللازمة وأصبحت الدولة في أمان من جهة الشرق والغرب على حد سواء أعرب السلطان عن عزمه على فتح إسطنبول. وفي الوقت نفسه أرسل فرقا احتياطية إلى المورة والبلقان للاستعانة بها عند الحاجة، الأمر الذي يدل على اتعاظه مما جرى على أبيه وجده يلدريم بايزيد.

وبالإضافة إلى الاستعدادات البرية للحصار، حشد السلطان محمد الثاني قوات بحرية لدعم حصار

إسطنبول من البحر بشكل خاص. كما أمر بتصنيع قذائف مدفعية هائلة في أدِرْنه تكون قوية بما يكفي لهدم أسوار بيزنطة، وكانت أكبر تلك القذائف تسمى "شَاهِي" (أي السلطانية)، وكانت أكبر حجما من أي قذائف شُوهدت من قبل. كما أعد السلطان كذلك مدافع طويلة المدى يتجاوز مدى قذائفها أسوار المدينة. وطرح محمد الثاني موضوع الفتح على مجلس الشورى ووافقت غالبية رجال الدولة على أمر الفتح، وعلى الرغم من أن بعضهم أشاروا إلى اتخاذ الحيطة والحذر، إلا أنه بالاستناد إلى رأي الغالبية العظمى شرع في أعمال الفتح. فانطلق من العاصمة أدِرْنه لحصار إسطنبول يوم ٦ أبريل/نيسان عام ١٤٥٣. وحمل سفير محمد الثاني اقتراحا للإمبراطور البيزنطي مباشرة من المعسكر الإمبراطوري الذي أقيم خلف أسوار بيزنطة المنيعة بين بوابتي أدِرْنه وطُوب قَابي لتسليم القلعة عن طريق السلم، لكن الإمبراطور البيزنطي رفض هذا الطلب. وبقعقعة المدافع حول أسوار المدينة بدأ الهجوم العثماني.

كانت أكبر عقبة واجهت العثمانيين في حصارهم لإسطنبول هي سد الإمبراطور البيزنطي مدخل الخليج (القرن الذهبي) بالسفن القديمة الخربة ومجموعات من السلاسل، إضافة إلى ما أسماه البيزنطيون بالحريق اليوناني، وهو مادة قابلة للاشتعال حتى في الماء، وقد مثّل ذلك صعوبة كبيرة أمام تقدم الجيش العثماني، حتى استشهد بعض الجنود في نيران هذا الحريق.

كان يعيش في إسطنبول قوميتان في ذلك الوقت، وهما الإغريق واللاتين.[١٢] وكان الإغريق المحليون يكرهون المستوطنين اللاتين، فرفضوا واعترضوا على حضور الإمبراطور على الطقس الديني الأول الذي أقيم وفقا لمبادئ التوحيد الكنسي التي تم التوقيع عليها مع البابا في كنيسة أياصوفيا من أجل حشد أوروبا المسيحية ضد عدو مشترك. وسادت في المدينة في ذلك الوقت فكرة أن "عمّة الأتراك أفضل من قلنسوة اللاتين".

خلال الحصار الذي دام أربعة وخمسين يوما من ٦ أبريل/نيسان عام ١٤٥٣ وحتى ٢٩ مايو/أيار ١٤٥٣ شن الجيش العثماني هجمات من البحر أيضا وليس فقط من البر. كان خليج القرن الذهبي مغلقا بسبب سد السلاسل الممدودة عبر مصبه لمنع السفن من الدخول إلى هذا المدخل من البوسفور، غير أن البيزنطيين لم يتوقعوا خطة السلطان الشاب الذي رأى أن يجري نقل السفن الحربية العثمانية عبر البر على زلاجات مدهونة بمادة دهنية إلى الشاطئ الشمالي للقرن الذهبي لتجنب السلاسل، وكذلك القلاع التي تسد مدخل المدينة. وفتح العثمانيون إسطنبول في يوم الثلاثاء ٢٩ مايو/أيار عام ١٤٥٣. ودخل محمد الثاني، الذي عرف بالسلطان محمد الفاتح منذ ذلك الوقت، المدينة من خلال بوابة "أدِرْنه". وأقام الصلاةَ في أياصوفيا ومنح البيزنطيين الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم من الذين يدخلون كنيسة في أياصوفيا من جميع أنحاء المدينة. وأكد

---

[١٢] انطلقت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠١-١٢٠٤) بناء على أمر من البابا إنوسنت الثالث لاستعادة أورشليم تحت الحكم المسيحي. غير أنها انحرفت عن مسارها واستقرت في القسطنطينية في نهاية المطاف. وفي ١٣ أبريل/نيسان عام ١٢٠٤ اخترق الصليبيون الأسوار البيزنطية ونهبوا المدينة بالسرقة والعنف ضد المسيحيين المحليين. وبعد ذلك أقام الصليبيون الدولة اللاتينية في القسطنطينية عام ١٢٠٤ والتي دامت حتى عام ١٢٦١. وكانت هناك مشاعر كراهية وعداء متبادلة بين المستوطنين اللاتين والإغريق المحليين طوال الحكم اللاتيني. ولم تستطع بيزنطة بعد استعادتها للقسطنطينية من اللاتين أن تعيد للمدينة العظيمة مجدها القديم.



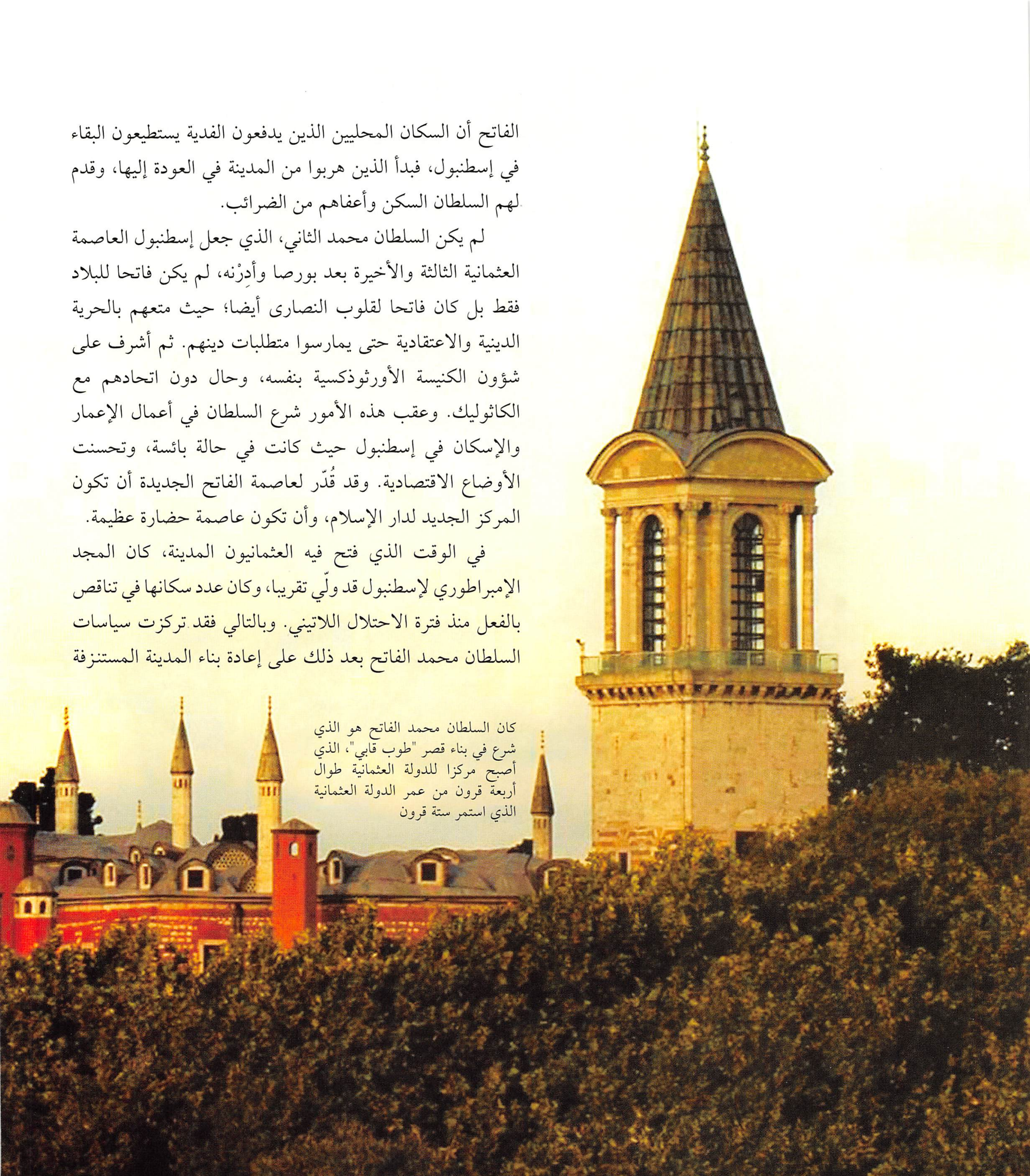


لوحة بفن المنمنمات تصور قصة فتح إسطنبول، من تصميم الفنان أوزكان أوزكان.

الفاتح أن السكان المحليين الذين يدفعون الفدية يستطيعون البقاء في إسطنبول، فبدأ الذين هربوا من المدينة في العودة إليها، وقدم لهم السلطان السكن وأعفاهم من الضرائب.

لم يكن السلطان محمد الثاني، الذي جعل إسطنبول العاصمة العثمانية الثالثة والأخيرة بعد بورصا وأدِرْنه، لم يكن فاتحا للبلاد فقط بل كان فاتحا لقلوب النصارى أيضا؛ حيث متعهم بالحرية الدينية والاعتقادية حتى يمارسوا متطلبات دينهم. ثم أشرف على شؤون الكنيسة الأورثوذكسية بنفسه، وحال دون اتحادهم مع الكاثوليك. وعقب هذه الأمور شرع السلطان في أعمال الإعمار والإسكان في إسطنبول حيث كانت في حالة بائسة، وتحسنت الأوضاع الاقتصادية. وقد قُدّر لعاصمة الفاتح الجديدة أن تكون المركز الجديد لدار الإسلام، وأن تكون عاصمة حضارة عظيمة.

في الوقت الذي فتح فيه العثمانيون المدينة، كان المجد الإمبراطوري لإسطنبول قد ولّى تقريبا، وكان عدد سكانها في تناقص بالفعل منذ فترة الاحتلال اللاتيني. وبالتالي فقد تركزت سياسات السلطان محمد الفاتح بعد ذلك على إعادة بناء المدينة المستنزفة



كان السلطان محمد الفاتح هو الذي شرع في بناء قصر "طوب قابي"، الذي أصبح مركزا للدولة العثمانية طوال أربعة قرون من عمر الدولة العثمانية الذي استمر ستة قرون

وإعمارها بالسكان، وهو ما يعكس شخصية الدولة متعددة الأعراق. وقد بدأ بالفعل نظام تعدد الجنسيات والأديان (نظام الملل)[١٣] لدى العثمانيين على يد محمد الفاتح بعد فتح إسطنبول. فمَنح اليهود والمسيحيين الحرية الدينية والعقدية فكسب قلوبهم. وزيادة على ذلك لم يَحُلَّ السلطان البطريركيةَ الأرثوذكسية، التي كانت بلا بطريرك في ذلك الوقت، بل إنه أعلن أنه سيكون حامي الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية، فجعلها تحت إدارة محكمة من خلال تعيين "جينادوس سكولاريوس" بطريركا عليها عام ١٤٥٤. ورسّخ الفاتح حقوق العديد من الجاليات المسيحية بإصداره للقرارات السلطانية التي سميت "قانونْ نامَه". وتعد هذه القرارات بالنسبة للمسيحيين الفرنسيسكان في فوجنيتشا والبوسنة، على سبيل المثال، مثالا شهيرا على روح التسامح والحرية في الدولة العثمانية. وقد صدر قانون نامة في عام ١٤٦٣، وهو نفس العام الذي فتح فيه السلطان محمد الثاني أرض البوسنة، وكفل "قانون نامة" حرية الممارسة الدينية للكاثوليكيين البوسنيين لعدة قرون. وفي ذلك القرار السلطاني، الذي مازال موجودا في دير الفرنسيسكان القديم، أعلن الفاتح ما يلي:

"أنا السلطان محمد خان الفاتح،

أعلن للعالم أجمع أن،

أهل البوسنة الفرنسيسكان قد مُنحوا بموجب هذا الفرمان (المرسوم السلطاني) حماية جلالتي.

ونحن نأمر بأن:

---

[١٣] كان المجتمع العثماني يتكون من خليط استثنائي من الشعوب التي تنتمي لأعراق متعددة وعدد كبير من اللغات المختلفة. وكل جالية من تلك الجاليات ذات الأديان والأعراق المتعددة، التي كانت تسمى "ميليت" (أي أمة)، كانت تُعطى حرية ممارسة دينها دون تقييد، فاحتفظوا بثقافاتهم الخاصة، وعاداتهم، ولغاتهم، ومؤسساتهم التعليمية تحت حماية السلطان، بالإضافة إلى محاكمهم الخاصة المسؤولة ليس فقط عن القوانين الدينية ولكن أيضا عن القوانين المدنية الخاصة بشؤون الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والمواريث.



لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس ولا لكنائسهم وصلبهم! وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي. وبأن أولئك الذين هجروا ديارهم منهم، سيحظون بالأمان والحرية. وسيُسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العليّة.

لا أحد من دولتنا سواء كان نبيلاً، أو وزيرا، أو رجل دين، أو من خَدَمِنا سيتعرض لهم في عرضهم وفي أنفسهم! لن يهدد أحد، أو يتعرض لهؤلاء الناس في أنفسهم وممتلكاتهم وكنائسهم! وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية... وبإعلان هذا الفرمان، أُقسم بالله العظيم الذي خلق الأرض في ستة أيام ورفع السماء بلا عمد، وبسيدنا محمد عبده ورسوله، وجميع الأنبياء والصالحين عليهم السلام، إنه لن نسمح بأن يُخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا الفرمان!".

هناك بالفعل العديد من الأمثلة على هذه القرارات الدولة التي تدل على الحرية الدينية في الدولة العثمانية، وتُظهر التيسير والتسامح الذي اشتهر عن ممارسة الإدارة العثمانية. وقد جرى التعبير عن هذا التسامح باعتباره المكون الأساسي للهوية العثمانية على مستوى حكم الدولة، وكذلك على مستوى الحياة الثقافية اليومية.

وما إن فُتحت إسطنبول حتى بدأ السلطان الفاتح خطة إعادة إعمار واسعة النطاق لعاصمة الدولة الجديدة وإضفاء الطابع التركي الإسلامي عليها. فأمر ببناء مسجد السلطان أيوب الذي سمي باسم الصحابي أبي أيوب الأنصاري الذي توفي خارج أسوار المدينة

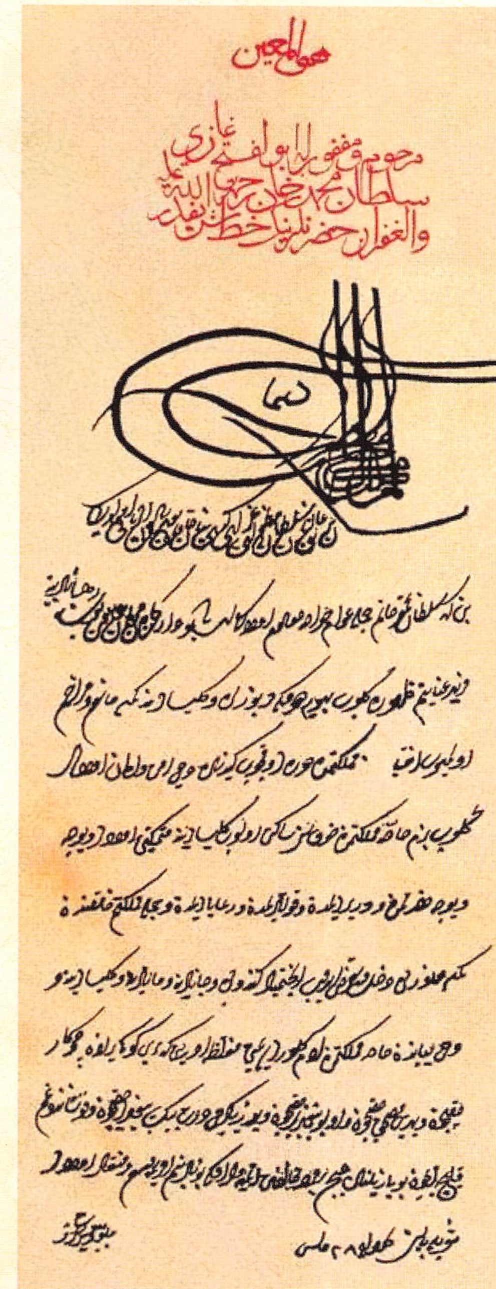


مسجد السلطان أيوب في إسطنبول

أثناء حصاره للمدينة عام ٦٦٩. وقد عُني الفاتح عناية خاصة بتحسين اقتصادها، فأصدر تعليمات ببناء سوق كبيرة ومباني أخرى. ومن خلال إضافة ثلاثة أبراج كبيرة للأبراج الأربعة البيزنطية الموجودة سلفا على أسوار المدينة الداخلية، أقام الفاتح حصن الأبراج السبعة، الذي يسمى "يَدِي قُولَه"، والذي استخدم كخزينة للدولة خلال معظم الحقبة العثمانية.

أدى الفتح العثماني لإسطنبول إلى إشعار الأوروبيين بشكل أكثر عمقا بالتهديد القوي الذي يمثله العثمانيون بالنسبة لهم، واتُّخذت عدة مبادرات لإقامة جبهة صليبية موحدة تتمتع بتشجيع قوي من البابا. وقد أراد السلطان محمد الفاتح إحباط توحيد المسيحيين ضد دولته، ولذلك اتفق مع البنادقة عام ١٤٥٤ على أن يسمح لهم بإرسال سفير (باليوس)[١٤] إلى إسطنبول وأن يتاجروا مع العثمانيين بشروط تجارية وجمركية مميزة. وفي الشرق، رفع فتح إسطنبول من شأن الدولة العثمانية في عيون العالم الإسلامي.

وكانت الخطوة الثانية للفاتح هي الشروع في سلسلة من الغزوات لإعادة التفوق العثماني وترسيخه في البلقان، الذي كان قد تم تحجيمه خلال حكم والده. وتمكن الفاتح من ضم جميع الأراضي الصربية للنطاق العثماني عام ١٤٥٩ فيما عدا بلجراد. ثم توجه بعد ذلك إلى المورة وطرَبْزُونْ اللتين لهما قرابة مع بيزنطة، ومن شأنهما أن تعيدا تأسيس الدولة البيزنطية ففتح أولا جزيرة المورة على الطرف الجنوبي للبلقان عام ١٤٦٠. فضمِن هذا النصرُ قاعدة إستراتيجية لإمداد حملاته المستقبلية على إيطاليا. وفي العام التالي توجه محمد الفاتح بجيشه إلى إمبراطورية طربْزونْ على شاطئ البحر الأسود لشمال الأناضول. فطلبت إمبراطورية طربْزون المساعَدة من البابا ضد العثمانيين كما تحالفت مع "أُوزُونْ حَسَن"


هو المعين

النسخة الأصلية من "قانون نَامَه" الظاهر أعلاه مازالت محفوظة في دير الفرنسيسكان الكاثوليكي في فوجنيتشا، وهي واحدة من أقدم الوثائق في تاريخ حقوق الإنسان والحريات، ودخل حيّز التنفيذ في ١٤٦٣، ومنح ضمانات قانونية قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩) بنحو ٣٢٦ عاما، كما سبق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨، بنحو ٤٨٥ عاما.

---

(١٤) "باليوس": هو المصطلح الذي استخدم خلال العصور العثمانية للدلالة على السفير البندقي في إسطنبول. وكلمة "بايلو" بالإيطالية تعني وكيل دبلوماسي أو قنصلي. كانت البندقية تمتلك ميزة التمتع بروابط تجارية مع الإمبراطورية العثمانية من خلال البايلوس بارتليمي مارتشيللو، وهو أول سفير مقيم يصل إلى العاصمة العثمانية بعد عام من فتح إسطنبول عام ١٤٥٣. وبعد ذلك بفترة طويلة وصل سفير فرنسا المقيم عام ١٥٣٥، وسفير إنجلترا عام ١٥٨٣ وسفير هولندا عام ١٦١٢. ولأن العلاقات مع الباب العالي، أي الحكومة العثمانية، كانت شديدة الأهمية لتلك الدول، فقد تنافسوا فيما بينهم لمنع وصول سفراء مقيمين جدد إلى إسطنبول. وعندما تم الاعتراف بـ"ويليام هاربورن" باعتباره الممثل المقيم للتجار الإنجليز في الأراضي العثمانية، تعاون الباليوس البندقي مع السفير الفرنسي في إسطنبول في محاولة لمنع قبول السلطان به.

حاكم دولة "آقْ قُويُنْلُو" التركمانية بشرقي الأناضول، وهو ما دفع العثمانيين إلى الإسراع في حملتهم على طَرَبْزُونْ. وبعد رحلة عسكرية مضنية في طَرَبْزُونْ، نجح السلطان الشاب في إسقاط إمبراطورية أخرى عام ١٤٦١.

اضطر الفاتح إلى تغيير مساره عائدا إلى البلقان للقيام بحملة أخرى ردا على تحالف أمير ولاشيا "فِلاد دراكولا" (Vlad Dracula) -والمعروف أيضا باسم "فلاد المُخَوْزِق" (لاشتهاره بتعذيب وقتل أسراه وأعدائه على الخازوق)- مع المجر، إضافة إلى اعتدائه على الأراضي العثمانية في البلقان. وفي حملته الأولى على ولاشيا قام الفاتح بضم ولاشيا إلى الحكم العثماني في عام ١٤٦٢. وكان يلدريم بايزيد (الذي حكم من ١٣٨٩ إلى ١٤٠٢) قد أجبر البوسنة على دفع الجزية سنويا، غير أنها أصبحت تتحدى السلطة العثمانية وتدعم الأمير الولاشي ضد العثمانيين. ولما كانت البوسنة الهدف الثاني للسلطان في المنطقة، فقد أصبحت منطقة عثمانية، وأقيمت عليها المؤسسات الحدودية العثمانية عام ١٤٦٣. وفي وقت قصير نسبيا، انتشر الإسلام على أراضيها. وفي نفس الأثناء أعلنت إمارة الهرسك ولاءها للعثمانيين عام ١٤٦٥. ولاحقا في عام ١٤٧٦، أصبحت مولدافيا شمال ولاشيا إقليما من أقاليم الدولة العثمانية. وبعد وفاة اسكندر بك، بدأت ألبانيا أيضا في رفع العلم العثماني عام ١٤٧٩. وختمت هذه الإضافة الأخيرة لألبانيا سلسلة من الفتوحات الناجحة في شبه جزيرة البلقان.

خوذة استعراض عسكري عثمانية، مرصعة بالجواهر، قصر "طوب قابي"

بعد إلحاق البلقان بالنطاق العثماني، قرر الفاتح أن يسعى لتعزيز الوحدة في الأناضول والسيطرة على تجارة البحر الأسود المربحة. فاستولى على آمَاسْرَا من الجنويين في عام ١٤٦٠، ثم قَصْطَمُنُو (قسطموني) والمنطقة المجاورة لها بعد وضع نهاية لإمارة بني الإسفنديار التركمانية عام ١٤٦١. وأخيرا رسخ فتح طَرَبْزُونْ السيطرة العثمانية على الشواطئ الأناضولية للبحر الأسود.

وفي وسط الأناضول، تحالف الكرمانيون مع البنادقة ضد العثمانيين مما جعل السلطان محمد الفاتح يقوم بحملة ضد الكرمانيين، فاستولى على قُونْيَةْ وكَرَمَانْ وجعل معظم الإمارة تحت الحكم العثماني المباشر في عام ١٤٦٦. ولجأ بِير (Pir) أحمد البك الكرماني إلى أُوزُونْ حسن حاكم دولة "آقْ قُويُونْلُو" مما تسبب في تدهور العلاقات بين العثمانيين ودولة آقْ قُويُونْلُو

كان سكان دولة "آقْ قُويُونْلُو" التركمانيون، الذين نجحوا في إقامة دولة قوية في شرق الأناضول في مطلع القرن الخامس عشر، عازمين على توسيع حدودهم على حساب الدولة العثمانية، مما تسبب سريعا في اندلاع صراع بين الدولتين. تحالف أُوزُونْ حسن ضد العثمانيين مع كل من الكرمانيين وإمبراطورية طَرَبْزُونْ والبندقية. فتوجه الفاتح بجيشه لملاقاة أُوزُونْ حسن الذي أدى طموحه إلى اتفاق دولته مع الدول المسيحية

لوحة للسلطان محمد الفاتح وهو يدخل إسطنبول عبر بوابة أدرنة، رسمها فنان البلاط العثماني فاسوتو زونارو عام ١٩٠٨





على حساب دولة مسلمة أخرى. وانتصر العثمانيون في معركة أُتْلُوكْبَلِي في شرق الأناضول عام ١٤٧٣، وخسرت دولة "آقْ قُويُونْلُو" قوتها اللازمة لتحدي العثمانيين فيما بعد. ومكّن هذا النصر الحاسم في معركة "أُتْلُوكْبَلِي" الفاتح من تأمين الجانب الشرقي لدولته.

في بادئ الأمر، كان الفاتح يسعى لإقامة علاقات طيبة مع المماليك الذين كانوا يحكمون مصر وسوريا ومنطقة الحجاز في غرب شبه الجزيرة العربية. وبعد أن استولى على أراضي الكرمانيين في وقت لاحق، أصبحت الدولة العثمانية دولة مجاورة لإمارة بني دُولْقَادِر التي كانت تحكم منطقة مَارَاشْ (مرعش) جنوب شرق الأناضول وتوالي المماليك. هذا التقارب الإقليمي غيّر من مسار العلاقات العثمانية المملوكية ليجعلها علاقة عداء وحرب. وعندما علم العثمانيون أن المماليك يريدون الاستيلاء على أراضي دولة بني "دُولْقَادِر" الذين كانوا يتمتعون بعلاقات مع الأسرة العثمانية الحاكمة كان ردّ فعل العثمانيين شديدا؛ ومن هنا تدهورت العلاقات العثمانية المملوكية.

كان المماليك يسيطرون على جزء مهم من الشرق الأوسط يضم منطقة الحجاز وفيها المدينتان المقدستان مكة والمدينة المنورة. وعندما اشتكى الحُجّاج من نقص المياه الصالحة للشرب في الطريق إلى الحجاز، أرسل الفاتح فريقا من الحرفيين من إسطنبول لشق الآبار على الطريق، وإصلاح الآبار التي لا تعمل بشكل جيد. وازدادت العلاقات المتدهورة سوءا عندما أعاق المماليك الحرفيين عن العمل الذي كلفهم به الفاتح.

أراد السلطان محمد الفاتح أن يسيطر على أوروبا اقتصاديا من خلال السيطرة على شبكات التجارة التي تمتد من البحر المتوسط عبر بحر إيجة إلى البحر الأسود، ولذلك فقد أقام أحواض بناء السفن في "كَلِيبُولُو وإِزْمِيت وكَمْلِيكْ (Gemlik) وإسطنبول. وبفضل القوة البحرية التي وفرتها هذه الأحواض، ظهر سلاح بحري عثماني يمتلك ما يكفي من القوة لتحدي البنادقة والجنويين في البحر.

تلقت تجارة البندقية الشرقية ضربة قوية عندما استولى الفاتح بشكل كامل على المورة وصربيا والبوسنة وألبانيا. ولذلك عقدت البندقية تحالفا مع المملكة المجرية والإمارة الألبانية. وخلال الحرب التي خاضها العثمانيون طوال ستة عشر عاما (متقطعة) ضد هذا التحالف، الذي دعمه الكَرَمانيون ودولة "آقْ قُويُونْلُو"، رفعت العديدُ من جزر بحر إيجة العلمَ العثماني وعلى رأسها جزيرة "أَكْرِيبُوزْ" (Eğriboz)، وهي إحدى أهم الجزر التابعة للبندقية. وعندئذ لم تجد البندقية خيارا آخر غير أن تطلب السلام، وكان ذلك في عام ١٤٧٩. ونصت معاهدة الصلح على احتفاظ العثمانيين بمناطق كرُويَا (Kroya) وإشكودرا (İşkodra) في شمال غرب البلقان، وعلى أن يدفع البنادقة تعويضات عن الحرب وضرائبَ سنويةً، وعلى أن يتم إبقاء السفير البندقي في إسطنبول، بالإضافة إلى حق نقل التجارة في البحار الخاضعة للعثمانيين من دون جمارك.

بعد أن رسَّخ الفاتح السيادة العثمانية على الشواطئ الأناضولية للبحر الأسود، قام بإرسال "كَدِك أحمد

لوحة بفن المنمنمات للسلطان الفاتح،
وهي بريشة الفنان شبلي زاد أحمد، ورُسمت عام ١٤٧٥.



باشا" إلى شمال البحر الأسود، ونجح كَدِيكْ أحمد باشا عام ١٤٧٥ في ضم مستعمرات آزاق وكفّه ومنكوب إلى النطاق العثماني في شبه جزيرة القرم، التي كانت تتبع مملكة جنوا. وبعد وفاة "حاجي كِيرَاي"، حاكم القرم، دخل أبناؤه في صراع على العرش. وقد ضاعف الاضطرابَ السياسي في المنطقة خروج حاكم القبيلة الذهبية بجيشه متجها إلى القرم. غير أن كَدِيكْ أحمد باشا، الذي كان يراقب الموقف عن كثب، شن حملة واستطاع إلحاق القرم بالدولة العثمانية عام ١٤٧٧. وقد مثّل ذلك الفتح إعلانا للسيادة العثمانية على البحر الأسود وطردِ الجنويين من تلك المنطقة.

وعندما بدأت مملكة نابولي في إيطاليا باتباع سياسة عدائية ضد العثمانيين في بحر إيجة والبحر المتوسط، قام السلطان الفاتح بتعيين كَدِيكْ أحمد باشا قائدا على حملة إيطاليا. ونتج عن سلسلة الحملات التالية سيطرة العثمانيين على جزر زنطة وكفالونيا ولفيكادا في البحر الأيوني، بالإضافة إلى أوترانتو في مملكة نابولي على شاطئ البحر الأدرياتيكي في جنوب إيطاليا عام ١٤٨٠. لكن الموت المفاجئ للسلطان الفاتح في عام ١٤٨١ عطل الحملة على إيطاليا، كما استعادت مملكة نابولي أوترانتو بمجرد مغادرة كَدِيك أحمد باشا لإيطاليا.

توفي السلطان محمد الفاتح يوم ٣ مايو/أيار عام ١٤٨١ في "هُونْكَارْ جايِرِي" بالقرب من مَالْتَبَة على الجانب الأناضولي من إسطنبول اليوم، حيث غادر إسطنبول من خلال ميناء أُسْكُودَارْ للقيام بحملة جديدة. ورغم أن الروايات تقول بأن الفاتح كان يقود حملة باتجاه الشرق، إلا أن السجلات التاريخية تروي أنه ربما قد يكون مات بالسم بفعل طبيب بندقي وهو في طريقه إلى روما، أو أنه توفي فجأة بسبب النقرس الذي كان يعاني منه.

كان السلطان محمد الفاتح قوي البنية، طويل القامة، أحدب الأنف، غليظ الشفتين. وكان يتمتع بشخصية ذكية وقوية لا تفضل المرح واللهو. وكان يحترم العلماء ورجال المعرفة، فكان يستمتع باللقاء بهم ويقدم دعما كاملا لجميع أنواع البحث العلمي. وكان الفاتح على دراية قوية بخمس لغات على الأقل من بينها التركية والعربية والسلوفانية القديمة واليونانية، وقد أثرى مكتبته بعدد هائل من الكتب العلمية المكتوبة بمختلف اللغات. وقد بقي خمسون كتابا من المكتبة الشخصية للفاتح إلى الآن عن الثقافات الغربية، اثنان وأربعون منها كتبت باليونانية. ومن هذه الكتب الاثنين والأربعين ثمانية تتعلق بالتاريخ، وستة بالرياضيات والفلك. وتشكل كتب التاريخ والجغرافيا أكثر من ثلث المجموعة بكاملها التي مازالت موجودة في مكتبة متحف قصر "طوب قابي".

كان محمد الفاتح -إضافة إلى تمتعه ببُعد النظر والثقافة- قائدا استثنائيا يهدف إلى نشر الدين الذي يؤمن به في أرجاء العالم وقد تجلى ذلك في مشاركته في خمس وعشرين حملة عسكرية. كما حاول دائما أن يجعل "الدولة العثمانية العالية" قوة عالمية من جميع النواحي.

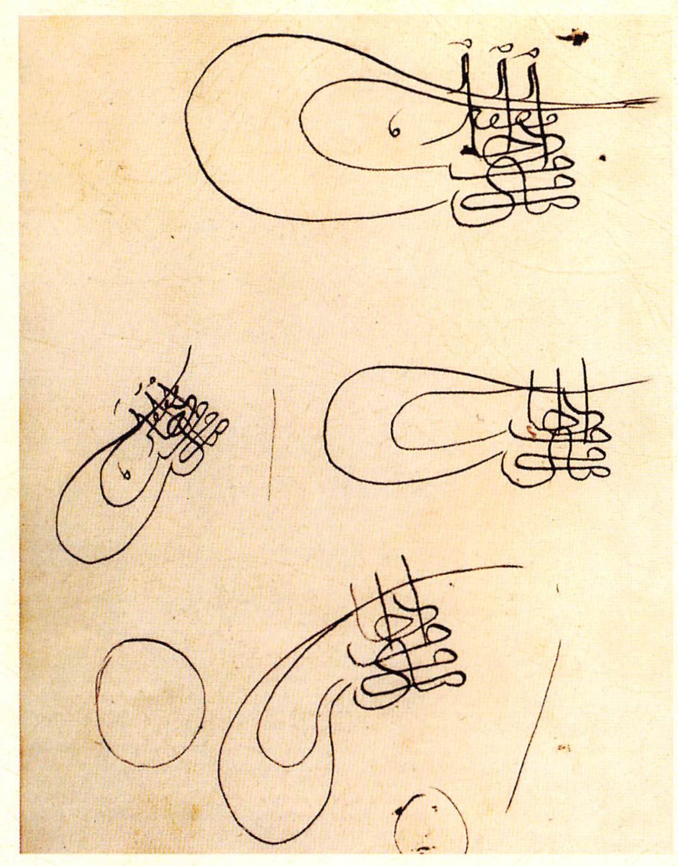
خلال فترة حكمه تبنى الفاتح إدارة مركزية فيما يتعلق بشؤون الدولة، وانطلاقا من هذا، وضع حدا على الأُسَر التي تَرْغَبُ أن تكون كلمتها مسموعة في إدارة الدولة، وقام بترقية الوزراء من بين المخلصين له،

القباب الداخلية لمسجد الفاتح، الذي بناه السلطان محمد الثاني في ضاحية الفاتح بإسطنبول.

ومنحهم سلطة أكبر، فأثمرت إستراتيجيته تلك عن تشكيل فريق فعّال وناجح من رجال السياسة يضم مستشارين من فلورنسا وجنوا وراجوزا.

لقد استوعب السلطان جيدا نتائج تمرد الانكشارية خلال فترة حكمه الأولى، ولذلك شهدت فترةُ حكمه الثانية إعادة بناء قوات الانكشارية والحد من التصرفات المطلقة الحرة لحكام الإمارات. ونجح الفاتح في النهاية في السيطرة على الجيش سيطرة كاملة.

كان الفاتح من المعجبين بالتاريخ، فقد درس التاريخ الروماني، على سبيل المثال، وهو ولي للعهد على أيدي مؤرخين إيطاليين، وأمر الفاتح العالم اليوناني جورجوس أميروتس بإعداد خريطة للعالم في عام ١٤٥٦. ومما يدل على التسامح الديني للسلطان الفاتح أنه سمح لليونانيين الأرثوذكس والجاليات الأرمينية بأن يكون لهم بطاركة مسؤولون عن كل جالية منهم، كما كان للجالية اليهودية حاخام رئيسي في إسطنبول، وكانوا يتعايشون جميعا بسلام في العاصمة الجديدة للدولة. ويمكن فهم جميع تلك القرارات باعتبارها علامة على أن الفاتح كان يسعى لجعل الدولة العثمانية هي القوة العالمية المسيطرة. وبالنسبة له كانت حماية دار الإسلام ضد أي هجوم أمرا أكثر أهمية من أن يصبح قوة عالمية، فكانت هذه الفكرةِ نصب عينيه دائما في صنعه للسياسات. وقد سعى جاهدا إلى المحافظة على وحدة الدولة العثمانية، والتخلص من هؤلاء الذين ينجرفون إلى صراعات دامية للمطالبة بالعرش، حتى لا تعاني الدولة من صراعات داخلية على العرش، بل تستخدمَ كل طاقتها من أجل الفتوحات الخارجية.[١٥]



تدريب التوقيع بخط اليد الذي كان يقوم به السلطان محمد الفاتح في دفتره خلال طفولته. وكان كل سلطان عثماني له توقيع رائع ومتميز، يسمى طغراء، ويكتب بخط يد أنيق ومعبر. ويعود أول رسم طغراء للسلاطين العثمانيين إلى أورخان غازي، ثاني السلاطين العثمانيين. وكان لكل سلطان بعده الطغراء الخاص به منذ بدء حكمه. وفيما بعد أصبحت تصميمات الطغراء، التي كانت تستخدم في البداية في الوثائق الرسمية والمراسلات لمنحها صفة رسمية، كانت تشاهد على الأختام السلطانية والرايات والآثار والمساجد والقصور والعملات والطوابع وجوازات السفر كرمز للسيادة.
وخلال هذا الكتاب يجري عرض خمس وثلاثين طغراء لجميع السلاطين العثمانيين، كل طغراء بجوار اسم صاحبها، بدءا من أورخان غازي وحتى آخر سلطان عثماني وهو السلطان محمد وحيد الدين. ويلاحظ أن نمط الخط الخاص بالسلطان أورخان والذي عبر عنه باسم "أورخان– بن عثمان" قد كتب في الجزء السفلي من الطغراء، وشكّل الهيكل والنص الرئيسي للطغراء التي جاءت بعد ذلك، والتي تطورت، وشمل هذا التطور تعبير "المظفر دائما" والألقاب التشريفية للسلاطين. ويمكن أن نرى في هذا الكتاب كيف تطورت الطغراء ببطء من زمن السلطان أورخان غازي إلى الأوقات اللاحقة. حتى وضعت معايير تصميم الطغراء في زمن السلطان محمد الفاتح ووصلت إلى شكلها الفخم في زمن السلطان سليمان العظيم في القرن السادس عشر الميلادي. وبدءا من عهد السلطان محمد الفاتح كان يجري زخرفة الفراغ بين حروف الطغراء، وهو تقليد استمر حتى منتصف القرن التاسع عشر. وبالإضافة إلى هذا استخدم فنانو الخط في البلاط الملكي الأحبار السوداء والحمراء والخضراء والزرقاء، إضافة إلى الذهب، في كتابة الطغراء. ولم يكن اختيار الألوان اعتباطيا، بل كان لكل لون معنى خاص في البروتوكول العثماني.

(١٥) في التاريخ العثماني، كان تنافس أولياء العهد يؤدي أحيانا إلى حرب أهلية لها تأثيرها التخريبي على الدولة. فقد أدى ذلك الى أن تمزقت المنطقة مثلا بسبب الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد، حيث رغب كل منهم في اعتلاء العرش العثماني، ودامت هذه الحرب لما يقرب من عشر سنوات بعد هزيمة السلطان بايزيد الأول أمام جيوش تيمُورلنك في أنقرة عام ١٤٠٢. وأحيانا كان أولياء العهد المنهزمون في هذا التنافس يهربون إلى مناطق حكم مسيحية أو مسلمة معادية للعثمانيين، وبالتالي تصبح

كان الفاتح يتقن الشعر، وكتب الكثير من القصائد بالاسم المستعار "عَوْني". واستخدم في قصائده تعبيرات صافية ولغة سلسة، بل إن قصائده تعتبر واحدة من أفضل نماذج الشعر العثماني التركي.

وبالإضافة إلى المعرفة الدينية كان الفاتح مهتما بالجغرافيا والرياضيات والفلك. وقد دعا عددا كبيرا من العلماء ليدرّسوا له هذه العلوم. وكان يتلقى دروسه على فترات منتظمة، حيث حدّد ساعات معينة لحصص معينة يوميا. وكان من بين مدرسيه علماء بارزون معاصرون مثل الملا كوراني، و"خُوجَا زَادَهْ مصلح الدين"، و"الملا إلياس"، و"سراج الدين حلبي"، والملا عبد القادر، و"حسن سَمْسُوني"، والملا خير الدين. كما لعب معلمه الخاص ومستشاره الشيخ "آق شمس الدين" دورا عميقا في تعليم الفاتح.

أولى السلطان محمد الفاتح التعليم أولوية قصوى. فبعد فتح إسطنبول، تم تحويل ثماني كنائس إلى مدارس أو مؤسسات للتعليم العالي بما فيها مدرسة آياصوفيا. وأقام أيضا المدرسة الشهيرة التي سميت "ساهْنِ سَمان" (Sahn-ı Seman) (وهي جامعة إسطنبول اليوم) بالقرب من مسجد الفاتح، الذي يعد أحد أكبر الأمثلة على فن العمارة الإسلامية. وكان معتادا على تفتيش المدارس بنفسه، والاشتراك في

---

تلك المناطق مواقع استجماع للقوة للقيام بحملات عسكرية ضد العثمانيين. فمثلا قام جم، ابن السلطان محمد الفاتح وأخو السلطان بايزيد الثاني، بالهرب إلى أوروبا لأربعة عشر عاما حتى توفي عام ١٤٩٥، وظل وجوده يشكل تقييدا على الحكومة العثمانية التي كانت تخشى من احتمال محاولته الوصول للعرش بدعم من تحالف أوروبي. وقد شهد العرش العثماني، بشكل طبيعي، تنافسات من أجل اعتلاء العرش فيما بين الإخوة، بسبب غياب قانون ينظم الخلافة على العرش. وبالتالي حاول أولياء العهد الذين كانوا يُرسَلون لشغل مناصب المحافظين على الأقاليم المختلفة، ضمانَ شغل مناصب محافظين على أقاليم قريبة من العاصمة، في حين ما يزال أبوهم على قيد الحياة، وكانوا يسعون لضمان عاصمة الدولة من خلال كسب دعم مسؤولي القصر وعلماء الدين وقوات الانكشارية. وقد أثارت التجربة الخاصة بمحمد الثالث (الذي حكم من ١٥٨٥ —إلى ١٦٠٣)، الذي أعدم أولياء العهد الآخرين بُعيد اعتلائه العرش، رد فعل شعبيا مروعا، وبعده تم إقرار نظام جديد للخلافة في الدولة العثمانية وهو نظام "الأكبرية". ولذلك فإننا نرى منذ أوائل القرن السابع عشر أنه نادرا ما خلف الابنُ والده السلطان بعد وفاته، ولكن كان يخلفه في غالب الأحيان فرد كبير من السلالة الحاكمة أو الأخ الكبير أو العم.

الصفحة التالية: منظر جوي لمسجد أيا صوفيا، الذي يبلغ عمره ١٥٠٠ عام، بإسطنبول. وقد ظل هذا الصرح الهائل، الذي تتوسطه قبة يصل طول قطرها إلى ٣٣ مترا، يحيط بها عدد من القباب الأخرى، ظل باقيا حتى وقتنا هذا بفضل بروتوكول القصور العثمانية الذي يعطي الأولوية لهذا التراث العظيم للمدينة.



سيف السلطان محمد الفاتح.

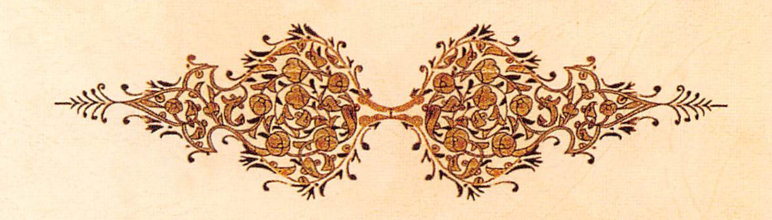







الندوات، ومكافأة الطلاب المتميزين. وقد أثبتت خلفيته الفكرية في مجال الفلسفة شموليتها وقوتها حينما كان يشارك في مناقشات مثيرة مع فلاسفة الغرب. وفي مجلسه كان مفكرون كبار من الشرق والغرب، مثل أميروتزس (Amirutzes) و"علِي كُوشْجُو" (قُوشي) وجورجوس ترابَزونْتيوس (Georgios Trapezuntios) و"خُوجَا زَادَهْ مصلح الدين"، يجدون الأرضية المشتركة اللازمة لشرح آرائهم ومناقشتها.

خلّف محمد الفاتح وراءه الكثير من الإنجازات. وكانت له ابنتان هما عائشة وجوهر خان، وتزوجت الأخيرة من ابن "أُوزُونْ حَسَنْ". وكان "كُودَه أحمد"، الذي سيعتلي عرش مملكة "آقْ قُويُونْلُو" لاحقا، ابن جوهر خان وحفيد الفاتح. كما أمر الفاتح بإتمام البناء الأولي لقصر طوب قابي، وهو المقر الرسمي والأساسي للسلاطين العثمانيين في إسطنبول على مدى أربعة قرون من القرون الستة التي حكموا خلالها. وتعد إسطنبول الإرث الأكثر روعة للسلطان الفاتح. فقد تولى فيها تنفيذ مشروع ضخم، فأنشأ عددا من أروع المعالم في الحضارة الإسلامية والإنسانية مثل مسجد الفاتح والمدارس العديدة. وسوف تصبح إسطنبول أكبر مدينة في أوروبا خلال القرن الذي تلا محمدا الفاتح.

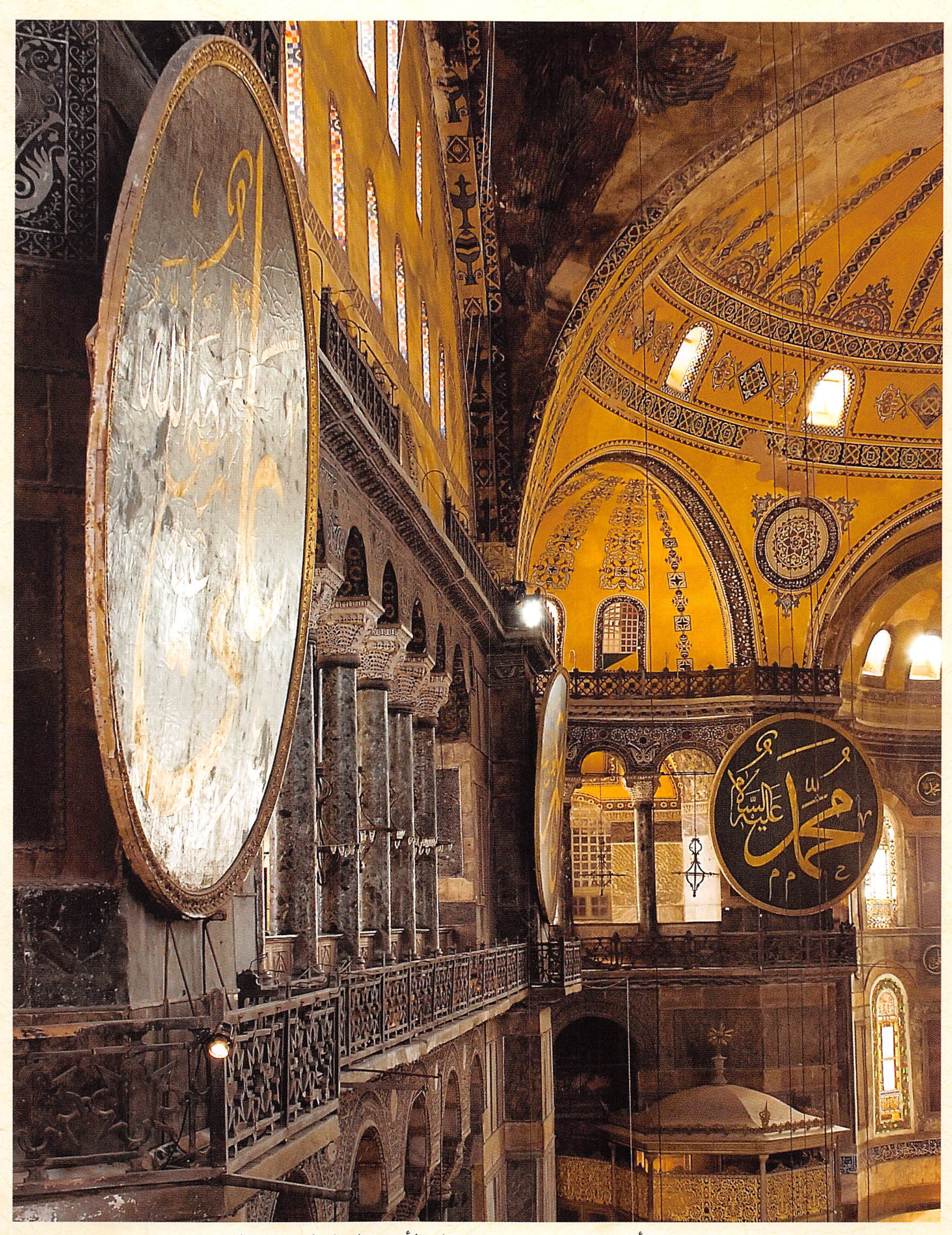




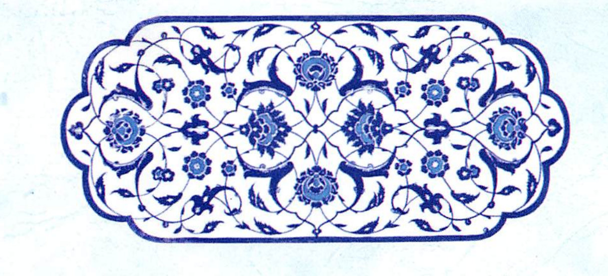

منظر لجزيرة إسطنبول التاريخية ومنطقة غَلَطة، مع لوحات تُصور السلاطين بدءا من عثمان غازي، وحتى السلطان مراد الثالث.




لوحة لوجه السلطان محمد الفاتح على قماش، بريشة الفنان الإيطالي جنتيل بَلّيني، في ٢٤ نوفمبر/تشرين الثاني، ١٤٨٠. وكتب في أسفلها على اليسار باللغة اللاتينية "فيكتور أوربيس" أي "فاتح العالم". ويبدو أن بَلّيني قد رسم التيجان الثلاثة على طرفي القوس رمزا للسلاطين العثمانيين الستة الذين سبقوا السلطان محمد الثاني. ويوجد التاج السابع الخاص بالسلطان محمد الثاني في الغلاف الذي يطرز البورتريه. وعلى اليسار توجد لوحة لفن المنمنمات للفاتح من عمل الفنان شبل زاد أحمد رُسمت عام ١٤٧٥.




مدخل متحف أيا صوفيا وبه رسوم ضخمة على الأعمدة الهائلة التي تدعم القبة.



# السلطان بايزيد الثاني

## فترة الحكم: ١٤٨١-١٥١٢

السلطان العثماني الثامن

الألقاب والأسماء الشعرية: الولي، وعدلي، والصوفي

اسم الأب: السلطان محمد الفاتح

اسم الأم: السلطانة الوالدة "كُلْ بَهَارْ"

محل وتاريخ الميلاد: ديديموتيشو على الضفة الغربية لنهر مريج بالقرب من بلغاريا، ٣ ديسمبر/كانون الأول عام ١٤٤٨

العمر عند اعتلاء العرش: ٣٣ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: النقرس والسم، ٢١ مايو/أيار ١٥١٢

مكان الوفاة وموقع الضريح: جورلو في شرق إسطنبول، ويقع قبره بالقرب من مسجد بايزيد الذي بناه في ميدان بايزيد بإسطنبول

أبناؤه: محمود، وأحمد، وشاهنشاه، وياوز سلطان سليم، ومحمد، وكوركود، وعبد الله، وعليم شاه

بناته: عَينِي شاه سلطان، وجوهر سلطان، وملوك سلطان، وخديجة سلطان، وسلجوق سلطان، وهُما خاتون



لوحة بفن المنمنمات تصور السلطان بايزيد الثاني، بريشة الفنان ليفنى في صوره "المتخيلة لشجرة العائلة العظمي".

كان من المعتاد والمعمول به أن يتم تعيين أولياء العهد حكاما على إحدى "السناجق"[١٦]. فعُين بايزيد الثاني واليا على آماسيا وهو في السابعة من عمره. وكان له معلم ومستشارون يوجهونه، كما تلقى تعليما ممتازا بصفته ابنا لوالدٍ محب للعلوم والفنون. وفي منتصف عِقده الثالث كان قائدَ ميمنة الجيش العثماني في معركة "أُوتْلوكْبَلي"(Otlukbeli) في شرقي الأناضول عام ١٤٧٣. وعندما توفي والده السلطان محمد الفاتح، كان أخوه الأمير جَم واليا على كارامان.

وانقسم رجال الدولة فيما بينهم حول تأييد بايزيد وجم في مسألةِ مَنْ منهما سيكون خلفا لوالده. وفي نفس الأثناء كانت قوات الانكشارية في إسطنبول تقوم بتنظيم مظاهرات تؤيد بايزيد بصفته السلطان القادم. وقام إسحاق باشا والي إسطنبول بإحضار كورْكُودْ ابن بايزيد للجلوس على العرش بالإنابة، تجنبا لحدوث فجوة في خلافة حكم الأسرة العثمانية حتى وصول بايزيد الثاني لإسطنبول ليكون الحاكم الفعلي. وما إن وصل بايزيد الثاني إسطنبول حتى أُعلِن عن تنازل كوركد عن العرش لأبيه.

لكن الأمير "جَمْ" لم يتنازل عن حقه في العرش، فجمع داعمين له من رجال الدولة ذوي أصول تركمانية ودخل في تنافس من أجل العرش ضد أخيه الأكبر. و توجه جَمْ مع مسانديه من الأناضول بجيش إلى بورصا واستولى عليها. وبعد تمكنه من هزيمة قوات أخيه الأكبر، أمر جَم بسكِّ اسمه على العملة والدعاء له في خطبة الجمعة كي يبدأ الاعتراف بسلطته. كما اقترح أيضا أن يقسم بايزيد الثاني الدولة بحيث يكون هو سلطانَ الأناضول النصف الآسيوي من الدولة، وبايزيدُ الثاني سلطانا على الروملي النصفِ الأوروبي. غير أن بايزيد الثاني رفض هذا الاقتراح وأعلن الحرب على جم.

وانتصر بايزيد الثاني في المعركة التالية في "يني شَهِر"، وأجبر جم على التراجع إلى كارامان. ثم لجأ جم لاحقا إلى المماليك في مصر عام ١٤٨١ وذهب إلى مكة من هناك لأداء مناسك الحج. لكن "قاسم بك" الكرماني حثه على العودة، فعاد جم إلى الأناضول ليخسر مرة أخرى المعركة أمام أخيه الأكبر. ثم لجأ إلى جزيرة رودس التي استعصت على أبيه حتى بعد حروب بحرية طويلة. وأخذ فرسانُ القديس يوحنا في رودس الأميرَ الشاب إلى فرنسا حتى يساوموا العثمانيين.

ثم نُقل الأمير الشاب من فرنسا إلى روما حيث سلمه الفرسان إلى البابا، ولم تنجح جهود بايزيد الثاني لخطف أخيه سرا من البابوية. وفي غضون هذا، أخذ الملك الفرنسي تشارلز الثامن السلطان جم معه في الحملة الفرنسية على إيطاليا، إلا أن

---

[١٦] جمع سنجاق، وهي الوحدات الإدارية الثانية في الترتيب للوحدات الكبرى التي كانت تسمى "بَيْلَر بَيْليكْ".

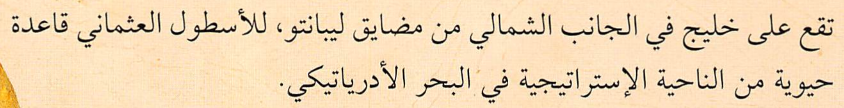
الأمير جم توفي عام ١٤٩٥ في الطريق إلى فرنسا، ربما بسبب السم، ونقل جثمانه بعد ٤ سنوات إلى بورصا.

إن استغلال الأوروبيين السلطان جم كورقة مساومة ضد العثمانيين عرقل زخم الفتوحات. ولعل بَذْلَ بايزيد الثاني جهوده للحفاظ على النظام الداخلي بدلا من التوسع الإقليمي الخارجي لعب دورا في ذلك أيضا، حيث قُضي على دولة الكارامانيين بشكل نهائي في هذه الفترة، وهم الذين أثاروا الفوضى دوماً في الأناضول، وتورطوا في حادثة السلطان جم وفي الشؤون العثمانية الداخلية عام ١٤٨٧.

كانت الهرسك قد اعترفت بالسيادة العثمانية على أراضيها من قبل وأُلحقت في نهاية الأمر بالأراضي العثمانية في عام ١٤٨٣. بعد ذلك فُتح حصنا "كيلي" و"آق كرمان" اللذان أعاقا الطريق العثماني البرَيَّ من القِرم ومَنَعا التجارة في البحر الأسود، وكان ذلك عام ١٤٨٤ على أيدي بايزيد الثاني نتيجة لحملته التي شنها ردا على تحالفِ أميرِ ولاشيا مع المجر ضد العثمانيين. ومثَّل هذا الفتح ترسيخا للسيادة العثمانية على طول الشواطئ الغربية للبحر الأسود.

وقد دخلت السواحل الغربية للبحر الأسود في السيطرة العثمانية أيضا. وكانت موانئ البنادقة وحصونهم في المورة تعوق الملاحة العثمانية بشكل مستمر في البحر الأبيض. ولكن البحرية العثمانية زادت من قوتها في عهد بايزيد الثاني، فصارت تتحدي البحرية البندقية. وبعد معارك بحرية عديدة ضد البندقية، فتح العثمانيون "إينه باختي" ومودون وكورون ونافارين.. وقد قدم فتح إينه باختي، التي

صفحة البداية في نسخة من القرآن كتبها الأمير الصغير كوركود، ابن السلطان بايزيد الثاني



قفطان سلطاني قصير الأكمام، قصر "طوب قابي"

تقع على خليج في الجانب الشمالي من مضايق ليبانتو، للأسطول العثماني قاعدة حيوية من الناحية الإستراتيجية في البحر الأدرياتيكي.

لجأ المسلمون في الأندلس إلى الدولة العثمانية بصفتها الدولة الإسلامية الأقوى في ذلك الوقت عندما كانت محاكم التفتيش الكاثوليكية تمارس الضغط والاضطهاد والتعذيب ضد المسلمين واليهود في إسبانيا. ورغم رغبة بايزيد الثاني في مساعدتهم فإنه لم يتمكن من ذلك بسبب انشغاله التام في حادثة الأمير جم، ومع ذلك فقد أرسل القبطانَ كمال رئيس إلى إسبانيا لإنقاذهم من اضطهاد محاكم التفتيش وتعذيبها، حيث نقل المسلمين إلى شمال إفريقيا، واليهودَ إلى إسطنبول بالسفن. وفي عام ١٥٠٥ نَقل "كمال رئيس" مسلمي أسبانيا جنوبا إلى شمال إفريقيا،[١٧] واليهود شرقا إلى إسطنبول وسلانيك.

تدهورت العلاقات التي كانت هشة بالفعل بين العثمانيين والمماليك بسبب حمايتهم للأمير جم، وزيادةِ ضغطهم على إمارة "دُولْقادر"، وفرضِهم الضرائب على الحجاج الأتراك. وكانت المشكلات بين الطرفين قد بدأت خلال عهد محمد الفاتح بسبب مشكلات سبل المياه في الطريق إلى الحجاز. وبدأت سلسلة من المعارك بين العثمانيين والمماليك في عام ١٤٨٥ استمرت قرابة ست سنوات. وفي عام ١٤٩١، فَصَل السلطان التونسي في النزاع وساعد على إنهاء الحرب بين الطرفين المتناحرين اللذَين لم يتمكن أي منهما من إحراز نصر كبير في ساحة المعركة. ووفقا للهدنة المعقودة بين الطرفين، قبل العثمانيون بإعادة منطقتي أَضَنة وطرسوس اللتين استولوا عليهما في الحرب؛ بسبب كونهما مسجلتين في أوقاف الحرمين.

وفي عام ١٤٩٠ احتدمت منافسة على العرش في دولة "آقْويُونْلو"، ونتج عن ذلك سيطرة شاه إسماعيل على أذربيجان العظمى في عام ١٥٠٢، وإقامة الدولة الصفوية. وتبنَّى الصفويون المذهب الشيعي باعتباره السياسة الرسمية لدولتهم، وحاولوا نشر المذهب الشيعي في الأناضول بعد ذلك. وكان الهدف الأساسي للشاه إسماعيل هو الاستيلاء على الأراضي العثمانية في الأناضول. ولكي يصل إلى هذا الهدف أرسَل أتباعَه البارزين إلى الأناضول لنشر المذهب الشيعي وإضعافِ السيادة العثمانية فيها.

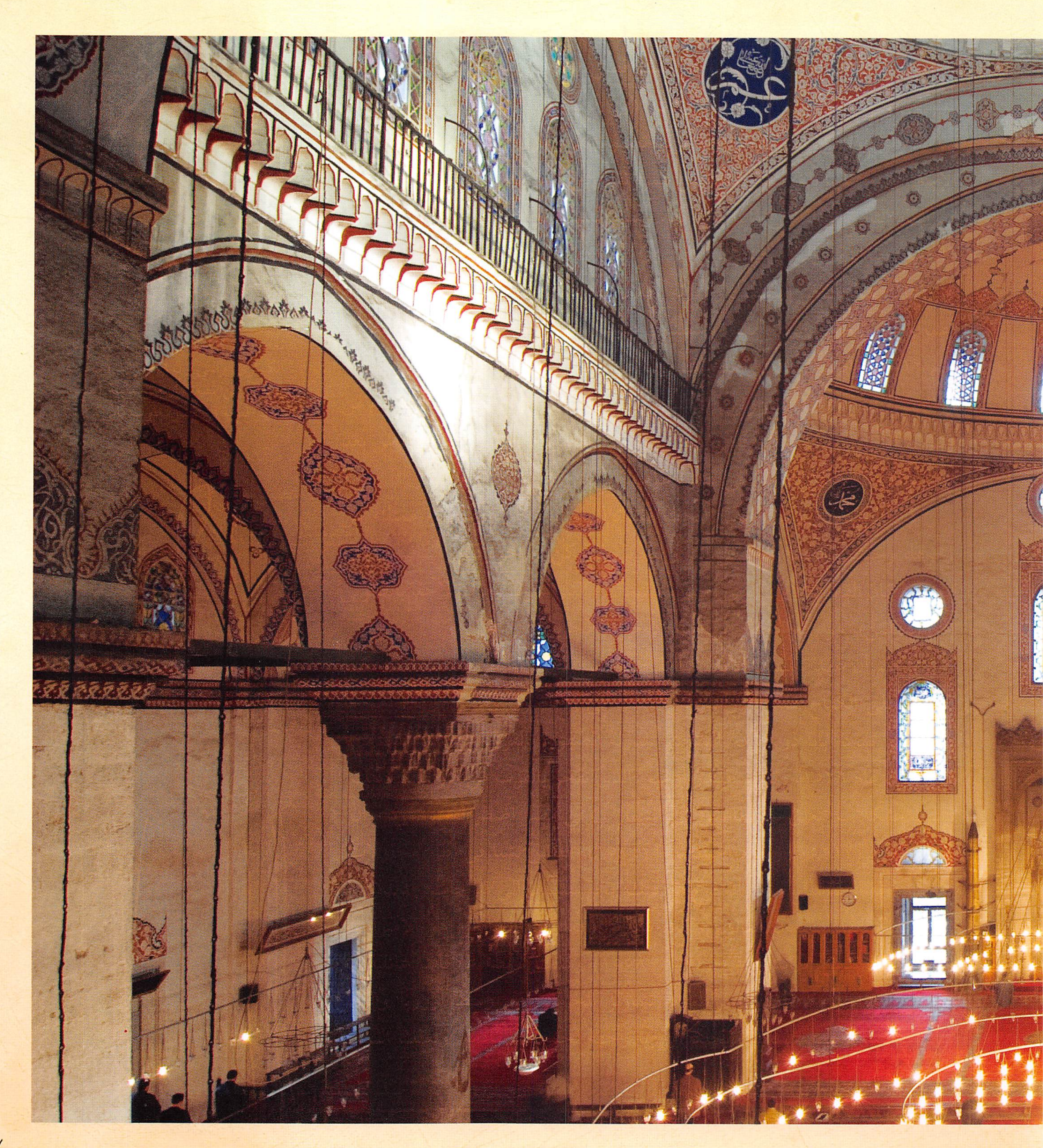
وعندما أخذ تأثير سياسة الشاه في الظهور بالأناضول، كان الأمير الشاب سليم، الذي كان والي طربزون في ذلك الوقت، أولَ رجلِ دولة عثماني يدرك الاختراق الخطير للشاه في الأناضول، ويتخذ تدابير وقائية لمواجهته.

---

[١٧] لم يتم إلغاء محاكم التفتيش الإسبانية، التي كانت تجبر المسلمين واليهود في دولة الأندلس (٧١١- ١٤٩٢) على اعتناق الدين المسيحي، بشكل نهائي حتى عام ١٨٣٤. وقد نتج عن هذه السياسات ترحيل جميع المسلمين واليهود من أسبانيا.



مسجد بايزيد من الداخل، والذي أنشأه السلطان بايزيد الثاني.



وقد أسفرت الثورة في منطقة "تَكَه" جنوب غرب الأناضول التي أثارها "نور الدين علي" الملقب بـ"الشاهْ كُولو" من رجال الشاه إسماعيل عام ١٥١١ عن صراع بين السنة والشيعة في الأناضول. وكان الشاه إسماعيل قد أرسل "نور الدين علي" إلى الأناضول مع ناشري المذهب الآخرين. واستطاع "الشاه كولو" أن يهزم القوات العسكرية التي أُرسلت للقبض عليه، ثم تحرك خلال المناطق القريبة من بورصا ليصل شمالا إلى سيواس ولجأ إلى الصفويين. ويبدو أن فشل الأمير أحمد الذي كان مكلفا بإحباط هذه الثورة كان أحد أهم الأسباب التي جعلت الأمير سليم هو السلطان القادم. وفي تُوكات (توقاد) كانت خطب الجمعة تتضمن الإشارة إلى شاه إسماعيل خلال التمرد. ورغم قمع هذا التمرد، فإنه لعب دورا عميقا في فقدان بايزيد للعرش، وشهدت الفترةُ التالية تنافسا على العرش فيما بين أبنائه.

ذهب الأمير سليم والي طربزون إلى "كَفَه" (Kefe) في القرم حيث كان ابنه الأمير سليمان (سليمان القانوني لاحقا) واليا عليها، وطلب من والده السلطان بايزيد الثاني أن ينقله إلى سليسترا على الضفاف الجنوبية لنهر الدانوب، لأنها كانت أقرب من إسطنبول، لكن والده لم يقبل هذا الاقتراح. وعندما تحرك الأمير سليم بقواته إلى أدِرْنه مرورا بكيليا، أعلن السلطان بايزيد الثاني نقل سليم إلى سمندرية، وأنه لن يسمح للأمير أحمد بالجلوس على العرش، غير أن الاتفاق لم يقم على أرضية ثابتة. فقد واجه السلطان سليم أباه عسكريا في النهاية، لكنه هُزم في معركة أوغراشكوي وعاد إلى كفا. بعد ذلك تمردت قوات الانكشارية عندما استُدعي الأمير أحمد إلى إسطنبول في سبتمبر/أيلول عام ١٥١١، حيث كانوا يريدون الأمير سليم قائدا لهم بدلا من الأمير أحمد. ووصل الأمير سليم إلى إسطنبول وقبّل يد والده في قصر طوبقابي. وتنازل بايزيد في ذلك الوقت عن العرش لصالحه. والغريب أن بايزيد الثاني الذي تولى العرش استجابة لضغوط الانكشارية، تنازل عنه لنفس السبب مرة أخرى في ٢٤ أبريل/نيسان عام ١٥١٢، أي بعد واحد وثلاثين عاما.

وعندما كان بايزيد يغادر إسطنبول للتقاعد في مدينته الأصلية "دِيمَتُوقَه"، رافقه السلطان سليم حتى غادر أسوار المدينة. وشعر بايزيد الثاني بالإعياء عندما وصل إلى قرية آبَالاَرْ بالقرب من جورلو وتوفي في يوم ٢١ مايو/أيار عام ١٥١٢. ورغم التكهنات المتضاربة حول أسباب موته، فإن مصادر كثيرة تتفق على أنه قد مات بالسم.

كان بايزيد الثاني رجلا طويل القامة، ذا عينين شهلاوين، وصدر عريض، وبشرة سمراء، وكان رحيما بطبيعته. وكان مسلما ورعا، حتى إنه بات يعرف باسم "بايزيد الولي"، وذلك لأنه كان مهتما بواجباته الدينية والخيرية بشكل استثنائي. وكان مناصرا للسلام ولم يدخل في الحروب إلا عند الضرورة، مما عزز فتوحات عهد أبيه بشكل ناجح.

جمع بايزيد الثاني العلماء المشهورين حوله منذ سنواته كَوَلِيّ للعهد كي يزداد حكمة ومعرفة، وكان شاعرا ألّف ديوانا طويلا يجمع الكثير من القصائد الغنائية تحت اسم "عَدْلِي". كما كان خطاطا موهوبا، وكان

يعرف اللغتين الأويغورية التركية والإيطالية.

وعندما توفي الملا كوراني مستشار السلطان محمد الفاتح ومعلمه الروحي، شارك بايزيد الثاني، نجل الفاتح، في جنازته ودفع تكاليفها من خزانته. وكان بايزيد يرعى ويدعم جميع أنواع البحوث العلمية والأدبية، ولذلك شهدت فترة حكمه ظهور الكثير من العلماء والفنانين المتميزين مثل: الملّا لطفي ومؤيد زاد عبد الرحمن وابن كمال وإدريس البدليسي وتاجي زاده جعفر وزنبيلي علي أفندي ونجاتي وذاتي ووصالي وفردوسي. كما تواصل بايزيد أيضا مع الفنانين في أوروبا؛ ففي خطاب كتبه ليوناردو دافنشي، مازال موجودا في سجلات قصر طوبقابي، يقول دافنشي إنه مهتم بإقامة جسر يصل إلى القرن الذهبي والبوسفور. كما أراد مايكل أنجلو أيضا زيارة إسطنبول عندما سمع بهذا الخبر، لكن تلك المشروعات لم تتحقق على الإطلاق للأسف.

أنشأ السلطان بايزيد الثاني الكثير من المؤسسات الخيرية في إسطنبول وأَمَاسيا وأدِرْنه وعُثْمَانْجِيك وكيوه وصاروخان، ومن أمثلتها مجمعات المباني الخيرية (külliye) في إسطنبول وأدِرْنه وبِرِنْجْ هان في بورصا الذي كان يؤجر لدعم المنظمات الخيرية المختلفة.



سورة ظلية لمسجد بايزيد بميدان بايزيد والذي يعد أحد السمات المميزة لشبه جزيرة إسطنبول التاريخية (حوالي عام ١٨٧٠).



بعض الباعة المتجولين ومجموعات من الناس يحتشدون في فناء مسجد بايزيد نحو عام ١٩٠٥. وتاريخيا كان ميدان بايزيد الذي يطوق المسجد ساحة للمعارض، وخصوصا خلال شهر رمضان.



صورة فوتوغرافية أخرى لمسجد بايزيد التقطت في مطلع القرن العشرين.



# السلطان سليم الأول
## (الشجاع)

**فترة الحكم: ١٥١٢- ١٥٢٠**

**السلطان العثماني التاسع**

**الألقاب والأسماء الشعرية:** ياووز

**(أي الشجاع:** لشجاعته وبراعته العسكرية الفائقة)



**اسم الأب:** السلطان بايزيد الثاني

**اسم الأم:** عائشة خاتون

**محل وتاريخ الميلاد:** أماسيا،
١٠ أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٤٧٠

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٤٢ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** الجمرة الخبيثة،
٢١ من سبتمبر/أيلول سنة ١٥٢٠

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** توفي في جُورْلُو شرقي إسطنبول، ويقع قبره بإسطنبول بالقرب من مسجد ياووز سليم الذي يحمل اسمه

**ابنه:** سليمان القانوني

**بناته:** خديجة سلطان، وفاطمة سلطان، وحفصة سلطان، وشاه سلطان



لوحة بفن المنمنمات للسلطان سليم الأول، بريشة الفنان ليفنى في صوره المتخيلة لشجرة العائلة العظمى.

كان الأمير سليم قبل اعتلائه العرش أحد أصغر أبناء بايزيد الثاني، وكان واليا على طَرَبْزُون البعيدة تماما عن إسطنبول. وقد تميّز عن إخوته بحملاته الناجحة ضد الجورجيين والصفويين. ولما رأى ياووز أن والده لم يتخذ التدابير اللازمة لمواجهة الخطر الصفوي، انقلب ياووز على والده ونافسه على العرش، وهو ما أكسبه احترام ودعم قوات الانكشارية والعرش في نهاية الأمر.

كان السلطان سليم الأول يهدف أساسا إلى المحافظة على الوحدة في العالم التركي والإسلامي؛ فأبرم اتفاقيات سلام مع القوى الأوروبية ووجّه كامل قوته باتجاه الشرق خلال السنوات الأولى من فترة حكمه. ولكي تتحقق أهدافه، أمر علماء الجغرافيا برسم خريطة للعالم كله مثلما فعل جده السلطان محمد الفاتح، وحدد بدقةٍ المناطقَ التي يريد أن يفتحها.

وردا على التهديد الصفوي المتنامي في الأناضول قام السلطان سليم الأول مبدئيا بإغلاق بوابات الحدود العثمانية مع الدولة الصفوية. وبهذا الإجراء ساءت العلاقات التجارية الصفوية مع الأناضول. وقد أدى تحالف الشاه إسماعيل الصفوي مع المماليك والبندقية ضد العثمانيين إلى المزيد من تدهور العلاقات بين الدولتين. وفي نهاية الأمر، غادر الجيش العثماني إسطنبول لقتال الدولة الصفوية في فارس.

توقع السلطان سليم الأول احتمال حدوث ثورة وأن الجيش قد يكون معرضا لمخاطر قاسية في الطريق. ولذلك فقد أعد قوات احتياطية قوامها أربعون ألف جندي بين سِيوَاسْ وقَيْصَرِي. لكن الجنود أصيبوا بالإجهاد واشتكوا من أن الحملة ستأخذ وقتا طويلا وأن المؤن ستنفد، حتى إن قوات الانكشارية حاولت إثارة التمرد في وقت من الأوقات. فرد السلطان على ذلك بمعاقبة أحمد باشا دوقاقين زاده الذي كان يساند الانكشارية سرا في محاولاتهم للتمرد، كما كان يجري محادثات سرية مع دولْقادر. ونتيجة لذلك، لم تستطع قوات الانكشارية فعل شيء سوى إطاعة السلطان. والواقع أن سليم الأول كان من أكفأ السلاطين في قيادة الجيش في التاريخ العثماني.



واجه الجيش العثماني الصفويين في سهوب جالديران وألحق بالجيش الصفوي هزيمة فادحة عام ١٥١٤. وهرب الشاه إسماعيل من ساحة المعركة، تاركا خلفه كل مقتنياته، وأقام المنتصرون العثمانيون استعراضا في العاصمة الصفوية تبريز. ورغم أن الحملة لم تفتح بلاد فارس الصفوية فإن السلطان سليم الشجاع نجح في القضاء على الخطر الصفوي الذي استهدف الأناضول. وأصبح الجانب الشرقي من الأناضول آمنا. وعلم السلطان جيدا بحالة السخط المتفشية بين جنوده، فتنازل عن خططه الأوسع الخاصة بالوصول إلى أقصى شمال تُرْكِسْتَان وعاد

باتجاه الغرب، حيث أمضى الشتاء في أماسيا. وبعد هذا الانتصار الحاسم على الصفويين، أصبحت محطات طريق الحرير[١٨] بين تبريز-حلب وتبريز-بورصا تحت السيطرة العثمانية.

ضم السلطان سليم الأول إمارة دولْقادر للعثمانيين بعد معركة توروناداغ التي خاضها الجيش العثماني في الربيع الذي تلا الحملة على بلاد فارس الصفوية، وبذلك وصل العثمانيون إلى حدود المماليك. وكانت العلاقات العثمانية-المملوكية في تدهور منذ عهد السلطان محمد الفاتح، ولكن بعد تحالف قنصوه الغوري حاكم المماليك مع الصفويين ضد العثمانيين في الوقت الذي ضم فيه العثمانيون إمارة دولْقادر، باتت الحرب احتمالا قائما بين الجانبين. واقترح شريف مكة، المسؤول عن حماية الأراضي المقدسة وضمان سلامة الحجاج، أن يطلب قنصوة الغوري المساعدة من سليم الشجاع، سلطان الدولة الإسلامية الأكثر قوة، في الدفاع عن العالم الإسلامي ضد هجمات البرتغاليين في البحر الأحمر. ورغم أن قنصوة الغوري رفض هذا الاقتراح بشدة، فإن العرب عقدوا آمالهم على السلطان سليم الشجاع لإنقاذ مكة والمدينة. وكان السلطان سليم الشجاع يهدف إلى تخفيف الضرر الذي أصاب المسلمين ومدنهم المقدسة بسبب البرتغاليين المتمركزين في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وأيضا إلى السيطرة على طريق التوابل في حال نجاح حملته على مصر. وكانت إقامة الوحدة التركية- الإسلامية هدفا آخر لحملته.



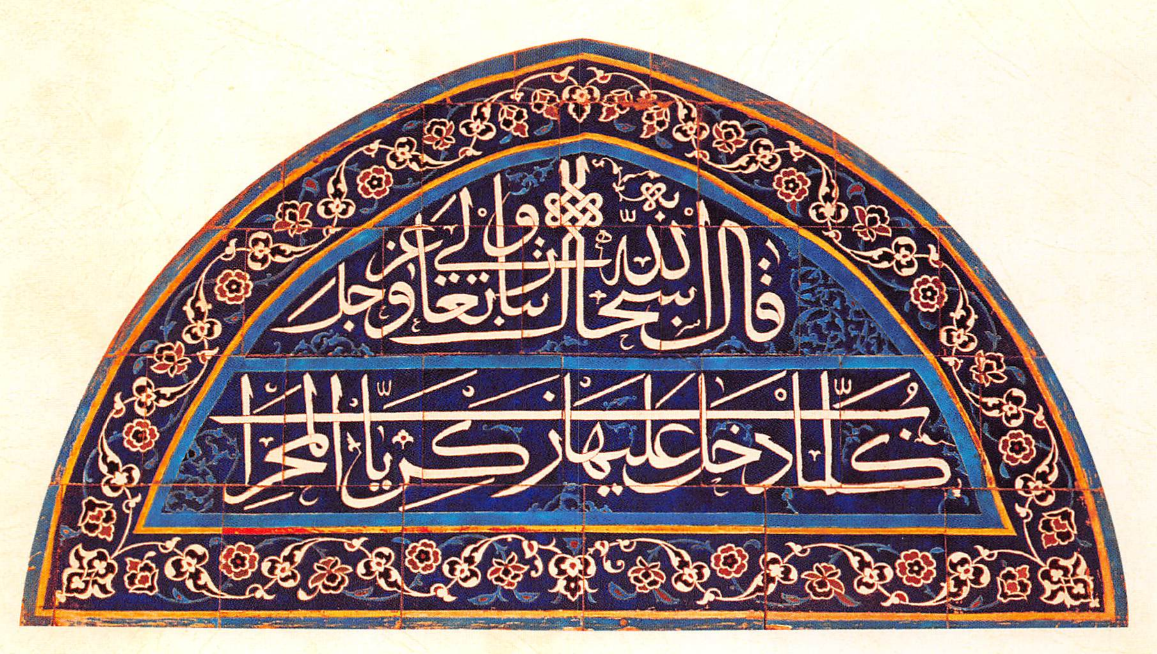
أحضر السلطان سليم الأول عباءة الرسول ﷺ إلى إسطنبول، وقد وضعها السلطان عبد العزيز لاحقا في خزانة ذهبية على طاولة عالية ذات أربعة أرجل في غرفة العرش بقصر "طوب قابي".

سيطر المماليك على مالاتيا وديفْركي ومنع الصدر الأعظم[١٩] سنان باشا من عبور نهر الفرات في طريقه إلى بلاد فارس الصفوية. وكذلك شكل قنصوة الغوري تحالفا مع الشاه إسماعيل حاكم الصفويين. وفي تحليل أخير للموقف، استشار السلطان سليم الشجاع علماء الدين فيما ينبغي فعله في مواجهة السلطان المملوكي. وبعد أن حصل على موافقتهم المرجعية على شن حرب ضد المماليك، حشد السلطان سليم الأول جيشه ضد دولة مسلمة أخرى.

أرسل السلطان سليم الشجاع قواته البحرية لشواطئ سوريا لتعزيز زحفه البري. وبينما كان الجيش في

[١٨] طريق الحرير هو سلسلة مترابطة من طرق التجارة القديمة تربط آسيا الصغرى بمناطق عديدة من قارة آسيا وصولا إلى شانغ آي بالصين في الشرق.

[١٩] كان الصدر الأعظم أعلى وزير للسلطان، حيث يمتلك سلطة الوكالة المطلقة، ويستطيع جمع كل الوزراء الآخرين للتباحث في شؤون الدولة في المجلس السلطاني.




كتابات قرآنية أعلى نافذة الواجهة بمسجد السلطان سليم.

أدِرْنه رفعت إمارة الرمضانيين العلم العثماني أيضا. والتقى الجيشان العثماني والمملوكي في مرج دابق شمال مدينة حلب يوم ٢٤ أغسطس/آب عام ١٥١٦، وغلب العثمانيون المماليك بفضل تقنياتهم العسكرية الأكثر تقدما. وفي نهاية المطاف ضم السلطان سليم الشجاع سوريا ولبنان وفلسطين وفتح الطريق نحو مصر. ومن بين الأحداث التي توضح شخصية السلطان سليم المتواضعة لقاؤه بالخليفة العباسي المتوكل (توفى عام ١٥٤٣) في المسجد الكبير بحلب. فعندما وصفه الخليفة بلقب "حاكم الحرمين" قال سليم الأول إنه يُفضِّل أن يُسمّى "خادم الحرمين". وفي المقابل كان سلطان المماليك يسمى "حامي الحرمين". وقضى السلطان سليم الشتاء في الشام.

أرسل السلطان سليم رسولا إلى السلطان طُومَانْ بك المملوكي الذي خلف قنصوه الغوري، ودعاه للاعتراف بالسيادة العثمانية، لكن طومان باي رفض دعوته. وكان السلطان سليم الشجاع يعتقد أن الانتصار في مرج دابق ليس له أي وزن من دون استيلاء العثمانيين على مصر، ولذلك فقد توجه بالجيش إلى مصر مباشرة. وأعلن للمصريين من أهل المدن والفلاحين أن العثمانيين ليسوا معادين لهم، وأن الحرب الدائرة ليست ضدهم، بل ضد جيش المماليك. وفي تلك الأثناء اعتقد طومان بك أن السلطان العثماني سوف يتبع نفس طريق جنكيز خان وتيمورلنك، وأنه سوف يقود الجيش عائدا به من فلسطين لأنه لن يجرؤ على السير بالجيش إلى مصر. غير أن الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الشجاع اجتازت صحراء سيناء التي يتعذر اجتيازها بفضل نعمة إلهية تمثلت في سقوط الأمطار في الصحراء! ووصل الجيش أخيرا إلى بوابات القاهرة في ١٦ يناير/كانون الثاني عام ١٥١٧.



علم السلطان سليم الشجاع أن طومان باي قد حفر خنادق، وأن الصفوف الأمامية لجيشه تقف على مدافع ثابتة كان قد اشتراها من البندقية. ولذلك دار السلطان سليم حول تل المقطم وهاجم جيش المماليك من اتجاه الجنوب الغربي عند الريدانية بالقرب من القاهرة. فلم يتمكن المماليك حتى من إطلاق مدافعهم. وعندما فقدت ميمنة الجيش العثماني انضباطهم لوقت قصير، خاطر الصدر الأعظم هديم سنان باشا بحياته بعد تعرضه لإصابة خطيرة وتقدم لجمع صفوف الميمنة. وانتهت الحرب بنصر عثماني ساحق، لكن سنان باشا المصاب مات شهيدا.

بعد ذلك أرسل بركات بن محمد الحَسني شريف مكة وفدا مبعوثا على رأسه ابنه الشريف أبو نُميّ، الذي كان يبلغ من العمر اثني عشر عاما في ذلك الوقت، إلى السلطان سليم الشجاع عندما كان السلطان في مصر كي يعلن عن ولائه للسلطان العثماني. وقد قدّم هذا الوفد مفاتيح مكة، كإشارة رمزية على الاعتراف بزعامة السلطان على العالم الإسلامي، كما قدّم أيضا بعض الودائع المقدسة من بينها عباءة الرسول ﷺ ورايته. وقبل أن يودع السلطان سليم الوفد أعطى الشريف بركات مرسوما يقضي بتعيينه أميرا على مكة المكرمة. كما قدم ٢٠٠ ألف عملة ذهبية ليتم توزيعها على المقيمين في المدينتين المقدستين، وشحن مع الوفد عطايا وافرة. ورافق مسؤولان عن مواكب الحرمين السنوية وقاضيان الوفد في رحلة عودته إلى الحجاز، وشاركوا جميعا في توزيع المنح والعطايا.

خلال تلك الفترة كان البرتغاليون قد اخترقوا البحر الأحمر، وأشيعت أنباء تقول إن البرتغاليين سوف يضربون مكة والمدينة، مما أثار قلقا واسعا بين المسلمين. فأمر السلطان سليم من القاهرة ببناء أسطول ضخم في السويس لمواجهة هذا التهديد المحتمل وأرسل الأميرال "سلمان رئيس" إلى ذلك الموقع. وفي وقت لاحق عندما هرب شريف مكة نفسه من مكة يائسا لينجو بحياته، قام سلمان رئيس



مجمع مسجد السلطان سليم الذي بُني على قمة تل يطل على القرن الذهبي بأمر من السلطان سليمان تكريما لوالده المتوفي السلطان سليم الأول.

بعمل بطولي تَمثَّل في حماية مكة من البرتغاليين الذين هاجموا جدة التي تعد المدخل الرئيسي إلى مكة على ساحل البحر الأحمر.

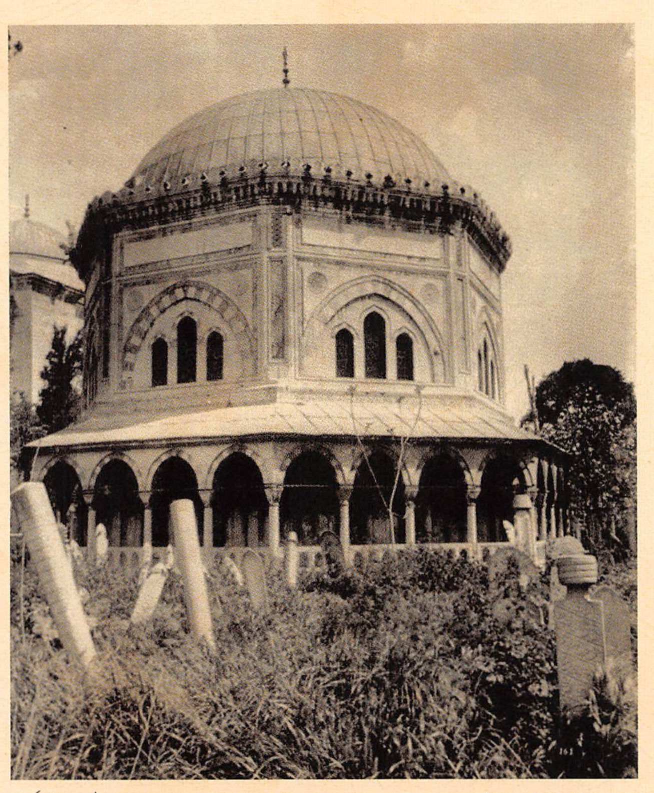
وقبل عودته لإسطنبول، أرسل السلطان سليم الأول الخليفة العباسي وأسرته، وعلماء الدين والشيوخ من القاهرة إلى إسطنبول كإجراء احتياطي، ليصبح علماء الدين والشيوخ معلمين في المدارس العثمانية بإسطنبول. ووضعت القطع الأولى من مجموعة الودائع المقدسة في قصر طوبقابي. وكان وصول الودائع المقدسة مصدر إلهام للبدء في تقليد استمر خمسة قرون متواصلة ومازال مطبقا حتى اليوم، وهو قراءة القرآن على مدار الأربع وعشرين ساعة يوميا في حجرة العرش بقصر طوبقابي أمام عباءة الرسول ﷺ المقدسة، كنوع من الحراسة الروحية، ويقوم بذلك أربعون من حفظة القرآن، ويقال إن الرجل الأربعين كان السلطان سليم نفسه.

الآن وبعد أن تسلم السلطان العثماني الخلافة، بدأت الشريعة الإسلامية تلعب دورا أكثر عمقا في شؤون الدولة، وأصبح موكب الحرمين السنوي، الذي عرف باسم "مواكب الصرة"، وكان يُرسل لتلبية احتياجات الحرمين منذ عهد السلطان بايزيد الأول، وأخذ العثمانيون على عاتقهم مسؤولية حماية المسلمين في جميع أنحاء العالم.

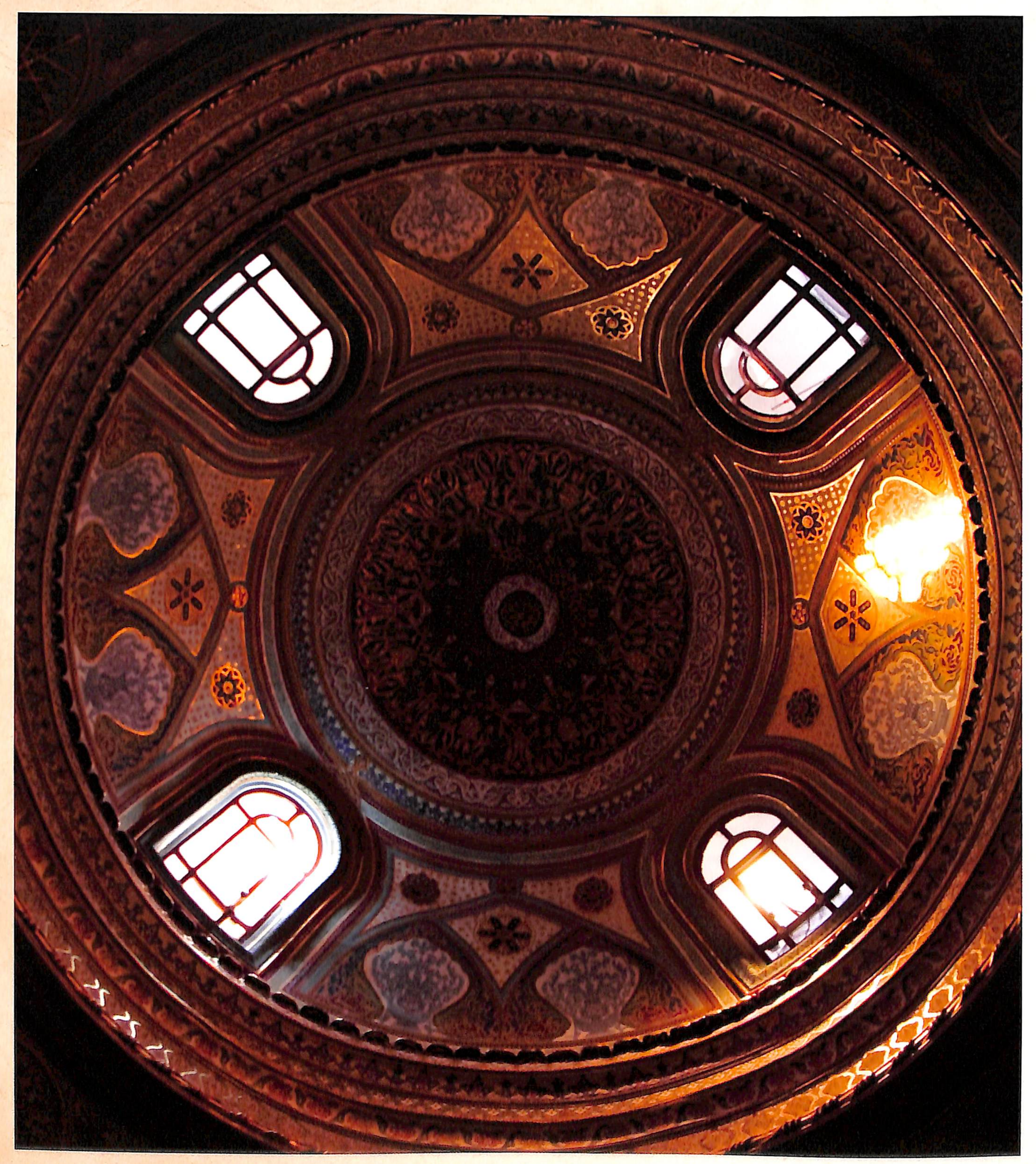
قضى السلطان سليم الشجاع على دولة المماليك بحملته على مصر، وبهذا أصبحت سوريا وفلسطين والحجاز ومصر تحت الإدارة العثمانية المباشرة. وبذلك أصبح جزء كبير من العالم الإسلامي خاضعا للحكم العثماني. وامتلأت الخزانة العثمانية بالمكاسب المالية؛ بما يأتي عن طريق التوابل بالإضافة إلى مكاسب الحرب. كما جاء دخل إضافي من قبرص، حيث بدأ العثمانيون في تحصيل الجزية من البندقية عن جزيرة قبرص، التي كانوا يدفعونها للمماليك في السابق. وزادت مكاسب الحرب خلال عهد السلطان سليم الشجاع بشكل كبير جدا بحيث لم تتسع لها حجرة الخزانة في قصر طوبقابي. وبالتالي، تم شحن الفائض إلى مخازن في قلعة الأبراج السبعة (يديكوله) بإسطنبول. وأصدر



التابوت الحجري للسلطان سليم الأول داخل القبر والذي بني باسمه.



قبر السلطان سليم الأول بحديقة مسجد السلطان سليم (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).



القبة الداخلية للغرفة الخاصة التي بناها السلطان سليم الأول بقصر "طوب قابي".



جنازة السلطان سليمان العظيم، من كتاب "تاريخ السلطان سليمان" للقمان. ويقال إن الخزانة الموجودة أمام كفن السلطان تحتوي على أحشائه، لكن المرجح أنها الخزانة الذهبية التي تحتوي على العباءة المقدسة للرسول ﷺ.

كانت قاعة النافورة بجناح الأمانات المقدسة تستخدم كغرفة عمل للسلطان. وكان السلطان سليم الأول يقضي ساعات طويلة في العمل ليلا ويستريح قليلا هنا على أريكة بسيطة ذات وسادات بدلا من غرفته الخاصة بالقصر.

السلطان سليم الشجاع أمرا قال فيه: "سوف تُختم الخزانة التي ملأتها بالذهب بختم الخليفة الذي سيملؤها مرة أخرى بالنقود، أو ليبق ختمي ساريا". وبهذا استمرت البوابة الخارجية للخزانة السلطانية مختومة بختم السلطان سليم الأول حتى تحول قصر طوبقابي إلى متحف بعد أربعة قرون. ويظهر في وسط الختم اسم السلطان ومكتوب حوله هذه العبارة: "في الله ثقتي التي لا تهتز وعليه اعتمادي". والواقع أن هذه الخزانة الهائلة التي خلفها السلطان سليم وفرت لابنه الأمير سليمان تأمينا ماليا ضخما سوف يحتاجه لفتح بلاد العالم.



كانت جثامين السلاطين المتوفَينَ توضع على المنصة الرخامية ليتم تغسيلها إلى جانب ملاط البخور الذي كان يوضع فيه التراب الناتج عن تنظيف جناح الأمانات المقدسة احتراما للأمانات المقدسة.

أمر السلطان سليم قواته البحرية بالاستعداد لحملة جديدة في طريق عودته من مصر إلى إسطنبول، فأسرع رجاله لزيادة كفاءة البحرية العثمانية إلى الحد الأقصى. فتوسعت المصانع البحرية، وتم تشغيل عدد أكبر من المهندسين البحريين، واستُدعي قائد الأسطول في البحر الأحمر إلى إسطنبول، وفي وقت وجيز ظهر أسطول بحري ضخم يتألف من حوالي ٢٥٠ سفينة جاهزة للإبحار وخوض الحرب.

غير أن عقبتين وقفتا أمام بدء الحملة التي لم يكن يعلم وجهتها إلا السلطان نفسه، تمثّلت الأولى في التمرد الداخلي الذي بدأه جلال البوزوقي في الأناضول، لكنه أُخمد في وقت قصير. لكن عمليات التمرد التي ستظهر لاحقا في الأناضول سيُطلق عليها "الثورات الجلالية". أما العقبة الثانية فكان الدُمل الذي ظهر على ظهر السلطان قبل مغادرته أدِرْنه، وتم تشخيصه على أنه مرض الجمرة الخبيثة. وقام أحد مساعدي السلطان ويدعى حسن جان بفتح الدمل، لكنه نما وأصبح جرحا كبيرا. وفي النهاية توفي السلطان بالقرب من جورلو، مثل أبيه، في ٢١ سبتمبر/أيلول عام ١٥٢٠، خلال نقله إلى إسطنبول. وتروي المصادر أنه قرأ سورة يس خلال اللحظات الأخيرة من حياته.

وتوقع الباحثون أن السلطان سليم الشجاع كان ينوي توجيه حملته الأخيرة إلى صقلية أو إيطاليا أو جزيرة رودس في بحر إيجة.

كان السلطان سليم الشجاع سلطانا استثنائيا نجح في إنجاز أعمال ومشاريع لا يمكن تنفيذها في العادة إلا في ثمانين عاما خلال فترة حكمه التي استمرت لسبعة أعوام ونصف فقط. ولذلك فهو يعد واحدا من أهم وأبرز سلاطين العالم في التاريخ الإسلامي. كما حافظ السلطان سليم على مكانة استثنائية في تاريخ السلالة العثمانية كان يغبطه عليها السلاطين العثمانيون المتأخرون. وكان السلطان سليم الأول شاعرا مميزا، مثل أبيه وجده، حيث كتب العديد من القصائد باللغتين العربية والفارسية باسم "سليمي". ومن المعروف أنه كان يدعم البحث العلمي بقوة ويحترم العلماء كثيرا. وقد تزامنت فترة حكمه مع ظهور علماء بارزين مثل زنبيلي علي أفندي وابن كمال. ورغم بساطة السلطان سليم وهدوئه على الصعيد الشخصي، فإنه كان في غاية الجد والحزم فيما يخص شؤون الدولة.

تبنى السلطان سليم حرية التعبير مهما كانت درجة التناقض بين الأفكار الأخرى وأفكاره، فكان يستمع بانتباه لجميع الأفكار الموجودة. وكان أحيانا يغير رأيه بعد تأمل عدة أيام، وكان يقر دائما بحكم الأغلبية فيما يخص أمور الدولة، ويعاقب بشدة الأشخاص الذين يعارضون بسرية القرار الذي تم التصديق عليه والعمل به بالفعل. ورغم حدة مزاجه وسرعة غضبه فإنه كان يقدر الكفاءات. وكان العمل معه صعبا في أغلب الأحيان، لكن من كان يعرف ذلك كان يحظى بتقدير كبير من السلطان. وكان يكره التبذير والترف والتفاخر، ويفضل طبقا واحدا في كل وجبة، واستخدام الأدوات الخشبية. وكان يهتم كثيرا بقوة الخزانة السلطانية. ولم يقم ببناء

أي قصر صيفي أو قصر على البوسفور لنفسه. وكان قليل الكلام والابتسام، وعندما يتكلم كان يتكلم بوضوح ويكرر الكلمات عند الضرورة.

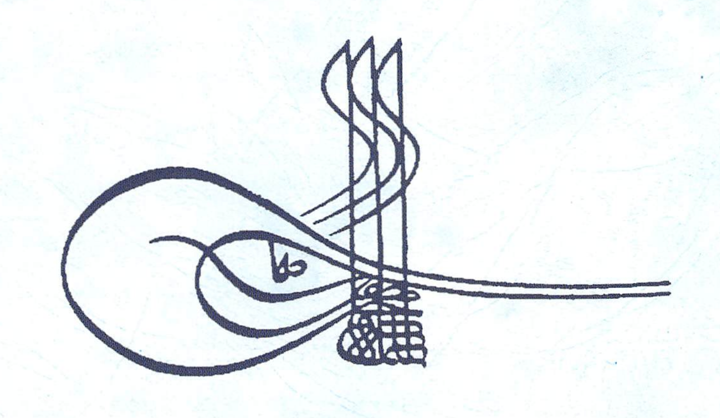
وقد أحب السلطان سليم الأول القراءة، حتى إنه كان يصطحب الكثير من الكتب خلال حملاته. وفي طريق عودته من القاهرة إلى إسطنبول أوكل لابن كمال مهمة ترجمة كتاب "النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي، وكان يقرأ الترجمة في الطريق جزءًا جزءًا. ومن الأحداث المشهورة أن ابن كمال كان يسير أمام السلطان خلال رحلة عودتهم من نصر مرج دابق، وأثار فرس ابن كمال بعض الطين على ثياب السلطان، فتبسم السلطان الذي كان يقدر معلميه وعلماءه، وقال إن هذا الطين حلية على ثيابه، وأمر أن يحتفظ بهذا الثوب هكذا دون غسيل، وأن يُغطّى به تابوته. ويعد السلطان سليم الأول الشاعر والفيلسوف والعالم واحدا من أكثر السلاطين العثمانيين ثقافة وحكمة، ومما يدلل على شخصيته المتواضعة أنه لم يسمح بقيام احتفالات ومسيرات للانتصار في طريق عودته من مصر، وانتظر حتى منتصف الليل ليدخل قصر طوبقابي بهدوء.



# السلطان سليمان الأول

## (القانوني)

### فترة الحكم: ١٥٢٠- ١٥٦٦



**السلطان العثماني العاشر**

**الألقاب والأسماء الشعرية:** القانوني، العظيم (حيث كانت فترة حكمه واحدة من أكثر فترات الحكم ازدهارا في تاريخ العالم)، الغازي، مُحبِّي (وكان هذا اسمه الشعري)، صاحب قران (أي الحاكمِ الناجح دوما)، وصاحب العَشرة الكاملة (أَي متمم العشرة؛ لأنه السلطان العثماني العاشر)

**اسم الأب:** السلطان سليم الأول

**اسم الأم:** السلطانة الوالدة حفصة

**محل وتاريخ الميلاد:** طرابزون،
٦ نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٤٩٤

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٢٦ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** السرطان، ٧ سبتمبر/أيلول سنة ١٥٦٦

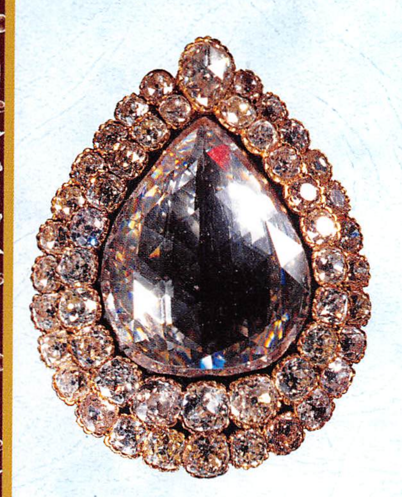
**مكان الوفاة وموقع الضريح:** توفي بزِيكتوار ببلاد المجر، ويقع قبره بالقرب من مسجد السليمانَية الذي بناه في السليمانية بإسطنبول

**أبناؤه:** سليم الثاني، وبايزيد، وعبد الله، ومراد، ومحمد، ومحمود، وجهانْكيرْ، ومصطفى

**بناته:** مهرِماه سلطَان، وراضية سلطان



لوحة بفن المنمنمات تصوِّر السلطان سليمان العظيم، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صُور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



تعد ماسة كاشيكجي، التي تتخذ شكل الكمثرى، والتي تزن ٨٦ قيراطا ومحاطة بصفين من تسع وأربعين ماسة أصغر، أشهر قطعة في قصر "طوب قابي".

وُلد سليمان الأول في طِرَابْزُون حيث قضى أبوه السلطان ياووز سليم الأول سنواته كولي للعهد وحاكم عليها، وكان الابن الوحيد له، فتلقى تعليما جيدا جدا منذ طفولته، وتربّى بعناية فائقة. وقد تركز تعليمه على إدارة الدولة والجيش والعلوم الإسلامية. وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره نُقل إلى "شَبِينْ قارا حِصار" وإلى "بُولُو" في العام التالي حيث عُين واليا على كفّا. وساند سليمان والده، كما شارك في تحرك والده من طرابزون إلى إسطنبول.

عاش سليمان في إسطنبول و"أدِرْنه" خلال الفترة التي كان أبوه يتنافس خلالها مع أعمامه على العرش، وكان مقيما بإسطنبول عندما اعتلى السلطان ياووز سليم العرش عام ١٥١٢. وأصبح سليمان بعد ذلك واليا على "صَارُوهان" (مانيسا الآن) في غرب الأناضول حتى وفاة والده. وفي ٣٠ سبتمبر/أيلول سنة ١٥٢٠، أي بعد ثمانية أيام من وصول الأنباء الحزينة عن وفاة والده، وصل إلى إسطنبول وجلس على العرش بعد مراسم الاعتلاء على العرش في قصر "طوب قابي".

كان السلطان سليمان حسن الحظ؛ فقد ترك له أبوه خزينة سلطانية ممتلئة عن آخرها، وجيشا مخلصا وقويا في البر والبحر، ولم يكن له إخوة ذكور لينافسوه على العرش. كان القانون الأول الذي أصدره سليمان، والذي سوف يُعرف لاحقا بالقانوني (أي القوانين)، هو رفع الحظر عن استيراد خيوط الحرير.

ورغم أن عهد سليمان الأول بدأ بفرص عظيمة، فإنه اضطر في سنوات حكمه الأولى على الكفاح ضد الثورات التي نشبت في الأناضول ومصر. وكان أهم ما يشغله هو تمرد "بابا ذو النون" المناصر للدولة الصفوية بالقرب من "يُوزْغات في الأناضول عام ١٥٢٦، وتمرد "قَلَنْدَرْ أوغلو" الذي تفجر بالقرب من كارامان، وذلك بسبب مشكلات تتعلق بالإقطاعيين أو "التيمار". وفي مصر اضطر لقمع تمرد جان بَرْدي الغزالي (١٥٢١) وتمرد أحمد باشا (١٥٢٤)، اللذين نشبا في إطار محاولات لإحياء دولة المماليك. وبعد أن فرغ من ذلك اتجه سليمان إلى فتوحات جديدة.

خلال عهد سليمان القانوني، كان تشارلز (Şarlken) الخامس هو الإمبراطور الروماني المقدس الهابسبورغي (١٥٠٠-١٥٥٨) وكانت تربطه علاقات عائلية مع المجر والنمسا. وكان نمو إمبراطورية تشارلز الخامس في وسط أوروبا والبحر المتوسط سببا جعل السلطان يحدّد أوروبا وجهة لحملاته القادمة. ولذلك السبب



عمل الجيش العثماني في الغرب خلال عهد سليمان القانوني في حين كان متوجها إلى الشرق والجنوب في عهد ياووز سليم.

زار السلطان سليمان القانوني قبور أجداده وقبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري (المعروف أيضا باسم السلطان أيوب) في إسطنبول في ١٩ مايو/أيار عام ١٥٢١، وأقام مقره العسكري في "هالْكَالي بِنَارْ". وبعيد ذلك حدد جيشه مساره، عبر"أدِرْنه" -القاعدة العسكرية الرئيسية لجميع حملات القرن السادس عشر تجاه الغرب إلى أوروبا- ثم شمالا مرورا بمدن بلوفديف (فِيلِبّة) وصوفيا ونيش. وصل الجيش أخيرا إلى بلجراد، وجهته الأخيرة، وحاصر المدينة لمدة ثمانية وعشرين يوما وانتهى الحصار بفتح بلجراد عام ١٥٢١، وهو الفتح الأول للسلطان سليمان. وصلى السلطان صلاة الجمعة في أول مسجد ببلجراد، ثم عاد إلى إسطنبول حاملا اسم "فاتح بلجراد"، وهو أمر كان سيفخر به جده السلطان محمد الفاتح. تسبب فتح بلجراد في تفاقم العلاقات بين العثمانيين والمجر، وذلك لأنه مهد الطريق تماما للعثمانيين تجاه المجر وأمدهم بقاعدة عسكرية حيوية من الناحية الإستراتيجية من أجل الفتوح التالية في أوروبا.

دخل سليمان القانوني في حربه البحرية الأولى في العام التالي، فاستولى على جزيرة رودس، وهي منطقة أخرى كان ينافس جده محمد الفاتح عليها من أجل السيطرة على البحار العثمانية. وتقع جزيرة رودس على بعد أحد عشر ميلا غرب شواطئ الأناضول، ومع مرور الزمن تحولت إلى جزيرة قراصنة. فقد دأب فرسان القديس يوحنا في رودس على القرصنة في البحار العثمانية، واعتراض التجارة العثمانية في البحر المتوسط، وتهديد أمن الساحل الغربي الأناضولي. وقد دعّم فتح الجزيرة في ٢١ من يناير/كانون الثاني عام ١٥٢٢ أمن الطريق البحري القادم من مصر مرورا بسوريا ليصل شمالا إلى الأناضول.

كان فرانسيس الأول ملك فرنسا سجيناً في بافيا لدى تشارلز الخامس بعد الحرب التي نشبت بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقرر الفرنسيون، كحل أخير، اللجوء للعثمانيين للمساعدة، حيث طلبت لويز دي سافوي والدة فرانسيس من سليمان القانوني إنقاذ ابنها. واعتقد فرانسيس الأول أن تشارلز الخامس سوف يطلق سراحه إذا توجه الجيش العثماني إلى المجر.

وفي يوم ٢٩ أغسطس/آب سنة ١٥٢٦، انتصر الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان على الجيش المجري في موهاج على الضفة اليمنى من نهر الدانوب، في معركة تعد من أقصر المعارك الضارية في التاريخ. وأطلق سراح

الملك الفرنسي. وقد صرّح فرانسيس الأول ملك فرنسا للسفير البندقي جورجيو جريتّي أنه يعتبر الدولة العثمانية القوة الوحيدة لحماية الدول الأوروبية ضد التوسع القتالي لتشارلز الخامس، وهو ما يوضح كيف كان ينظر الأوروبيون للسلطان سليمان.

بعد الانتصار الكبير في معركة موهاج أصبحت المجر تحت السيادة العثمانية. وعلم السلطان أن ضم الأراضي المجرية إلى الأراضي العثمانية بشكل مباشر سيكون غاية في الصعوبة لأنها تقع بعيدا جدا عن المركز العثماني خلف نهر الدانوب،[٢٠] ولذلك فقد قرر إبقاء المجر تحت السيادة العثمانية مع وجود حكم ذاتي محدود، فعين المجري الارستقراطي يانوس زابوليا ملكا جديدا للمجر.

لكن فرديناند، شقيق تشارلز الخامس والأرشيدوق الهابسبورجي للنمسا، طالب بالعرش المجري لنفسه، وبالتالي لم يعترف بسلطة يانوس زابوليا كملك جديد على المجر. ثم توجه للاستيلاء على العاصمة المجرية بودا،[٢١] وقام بنفي يانوس، وأعلن أنه الملك المجري الجديد. فأعاد السلطان الاستيلاء على بودا وأعلن تنصيب يانوس ملكا على المجر مرة أخرى في ٨ سبتمبر/أيلول عام ١٥٢٩. ووافق يانوس على دفع جزية سنوية للعثمانيين، وفي المقابل احتفظ السلطان بموقع للقوات الانكشارية في حصن المجر.

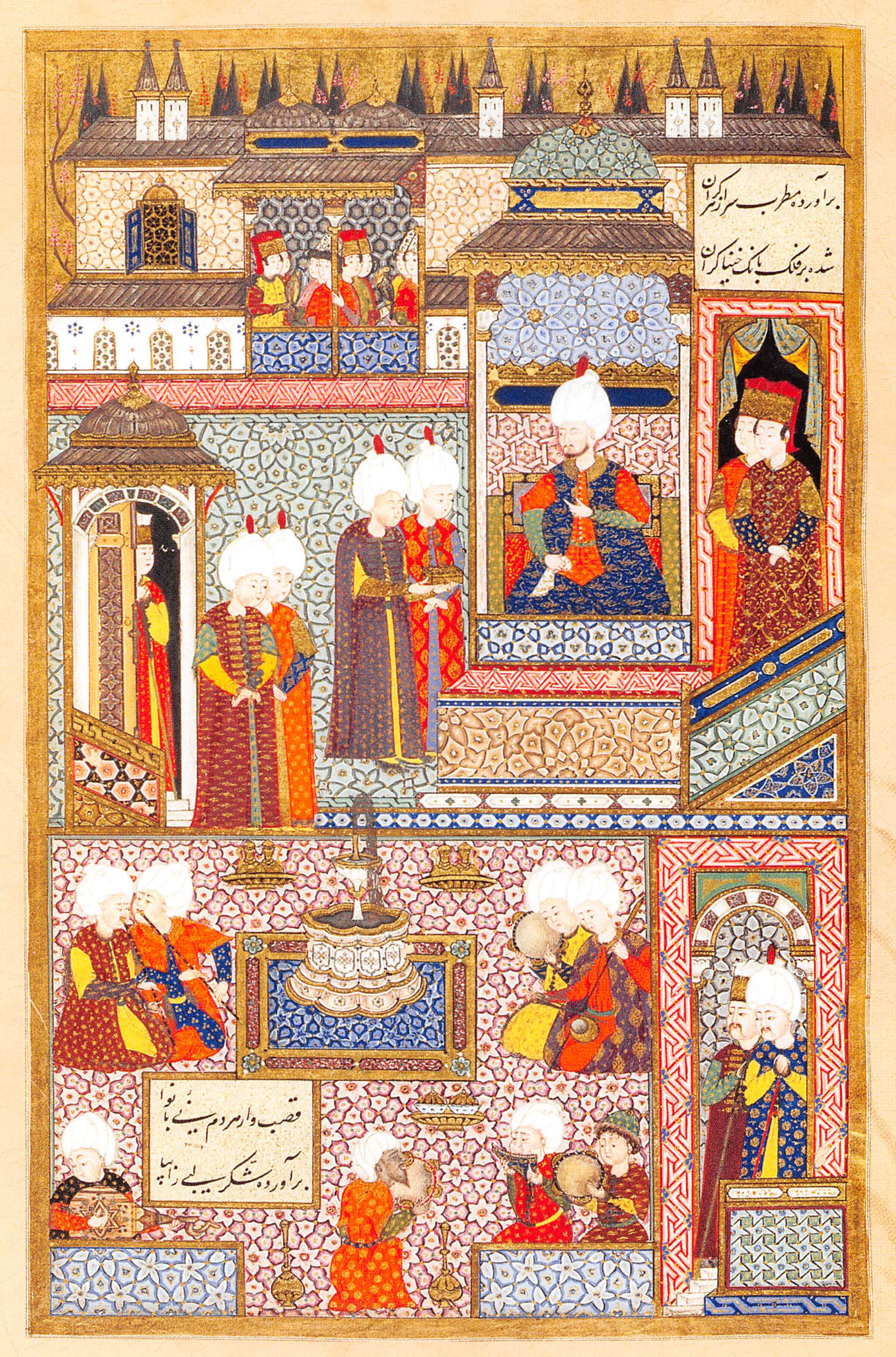
ورغم انتهاء موسم الحملات فقد استمر السلطان سليمان في قيادة جيشه إلى أن وصل إلى فيينا وحاصر العاصمة النمساوية عام ١٥٢٩، في محاولة لإلقاء الرعب في قلب



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان سليمان العظيم في حرب موهاج، بريشة الرسام نقاش عثمان، رسّام البلاط السلطاني في لوحته هُنَرْ نامَه، ١٥٤٨

[٢٠] ينبع نهر الدانوب، الذي يعد ثاني أطول نهر في أوروبا، من منطقة الغابة السوداء (بلاك فورست) في الشمال الغربي، ويمر خلال السهل المَجَري وعدد من العواصم الأوروبية المركزية والشرقية ومنها فيينا وبودابست وبلجراد قبل أن يصب في البحر الأسود في الشرق.

[٢١] بودا هي الجزء الغربي من بودابست اليوم على الضفة الغربية من نهر الدانوب.




لوحة بفن المنمنمات لمخطوطة "سليمان نامة" المفصلة (تاريخ السلطان سليمان) تصوّر السلطان سليمان وهو يشهد مراسم ختان ولديه الأمير بايزيد والأمير جهانْكِير بقاعة النافورة في قصر "طوب قابي".

الأرشيدوق الهابسبورجي فرديناند. ولأن الهدف لم يكن فرض حصار طويل الأمد على فيينا من أجل فتحها، فقد كانت الاستعدادات العسكرية قصيرة. ومن المؤكد أن فرديناند تنفس الصعداء في بداية الشتاء عندما رفع العثمانيون الحصار الذي دام ثلاثة أسابيع.

ثم أرسل فرديناند ملك النمسا مبعوثه إلى لسلطان سليمان القانوني طالبا منه الاعتراف به ودعمه بدلا من دعم يانوس. وفي هذه الأثناء نفسها قام فرديناند بهجوم على مدينة بودا مجددا، وهي أرض عثمانية، فأعد سليمان القانوني هذه المرة حملة عسكرية ضد الهابسبورجيين ليقطع دابر دعم الإمبراطور تشارلز الهابسبورجي لفرديناند. وتحرك السلطان باتجاه عمق النمسا وأوروبا الوسطى، ورغم دعواته المستمرة لفرديناند وتشارلز الخامس كي يأتيا إلى ساحة المعركة، إلا أنهما لم يجرأا على التحدي. لم تضمن هذه الحملة سيطرة السلطان سليمان على المجر فحسب، بل إنها أجبرت فرديناند أيضا على طلب الهدنة. ولما كان على السلطان مواجهة التهديد المتنامي لبلاد فارس الصفوية في الشرق، فقد قبل عرض السلام الذي قدمه فرديناند عام ١٥٣٣. وبذلك اعترف فرديناند ملك النمسا بتفوق سليمان القانوني، واعترف بيانوس كملك، وتنازل عن مطالبه في النمسا، ووعد بدفع ثلاثين ألف قطعة ذهبية سنويا للعثمانيين.

وعندما استردّ أندريا دوريا، الأميرال الإمبراطوري لقوات تشارلز الخامس البحرية "كورون" من العثمانيين وهي تقع جنوب غرب المورة، أدرك سليمان القانوني أن التنافس على البحر المتوسط قد بدأ. ولهذا فقد عيّن خير الدين بارباروس (بربروس) باشا، البحار التركي الشهير وفاتح الجزائر، قائدا عاما على القوات البحرية العثمانية. وقد أسفر الإصرار المتزايد من جانب الفرنسيين، الذين سعوا إلى تحالف رسمي مع الدولة العثمانية منذ وقت مبكر عام ١٥٣١ بهدف تأمين أنفسهم عن تحالف فعلي تم توقيعه عام ١٥٣٦.

خلف الشاه طهماسب الشاه إسماعيل على عرش الدولة الصفوية. وكان الصفويون قد عانوا من هزيمة أكيدة في معركة شالديران (جالديران) خلال عهد ياووز سليم، وعندما حاول الشاه الجديد إقامة تحالفات مع المملكة النمساوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة تحرك سليمان القانوني بجيشه ضد الصفويين.

كان الشاه طهماسب قد أثار أيضا عددا من البكوات في الأناضول ضد السلطة العثمانية، وهدد السيطرة العثمانية في شرق وجنوب شرق الأناضول؛ مما كان سببا آخر دفع سليمان القانوني لاتخاذ موقف معادٍ لبلاد فارس الصفوية. وبعد بضعة أشهر من وفاة والدة السلطان كانت حملته الأولى على بلاد فارس الصفوية. ودخل الصدر الأعظم إبراهيم باشا العاصمة تبريز بجيشه. ووجه السلطان سليمان حملته شمالا إلى هَمَدان بُعيد استيلائه على أذربيجان. ولأن الشاه طهماسب لم يستطع أن يخاطر بتحدي الدولة العثمانية، فقد هرب إلى داخل بلاد فارس. وتحرك السلطان جنوبا وفتح بغداد عام ١٥٣٤.

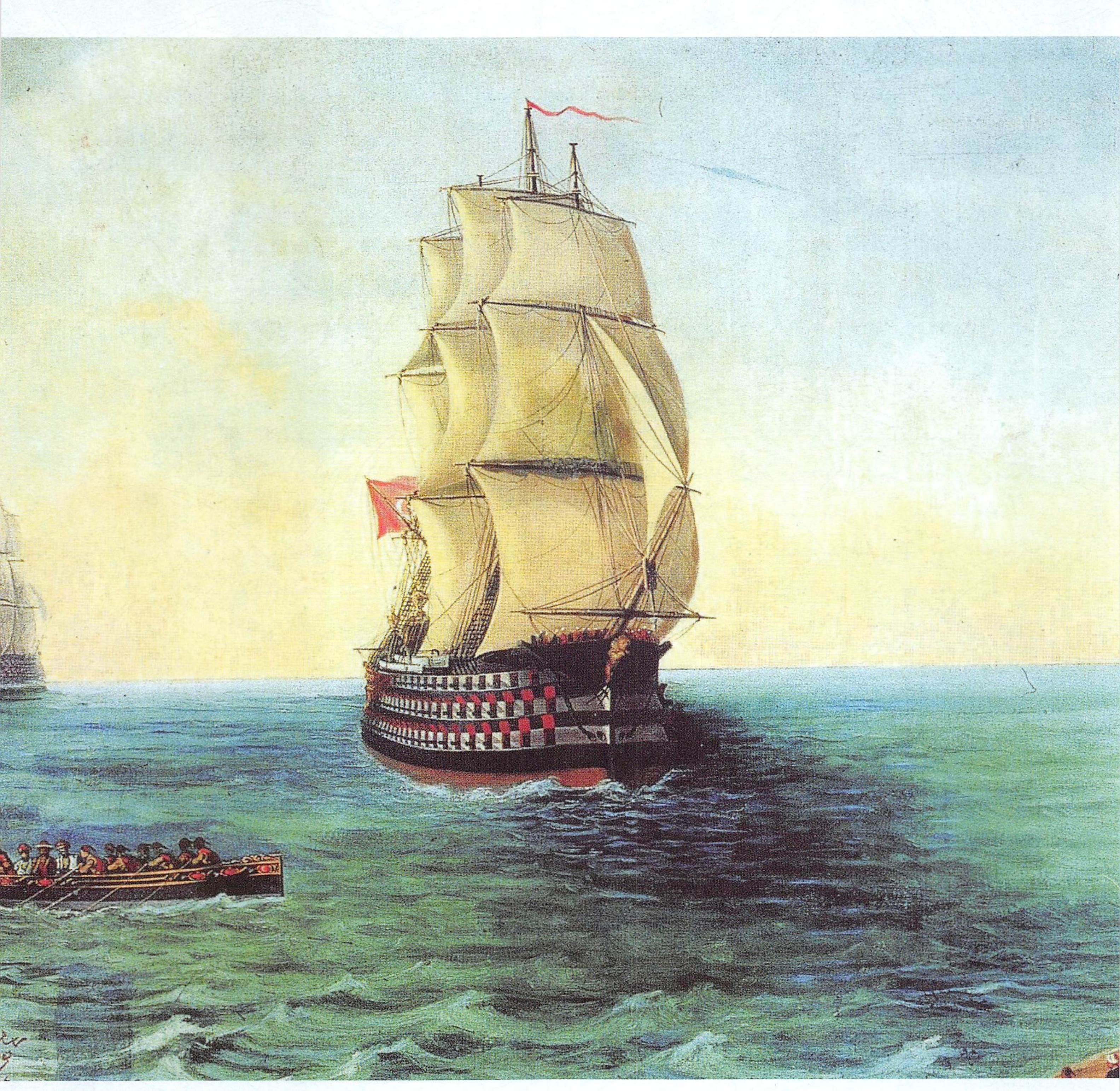
وبعد فتح بغداد في تلك الحملة، أصبحت مدن الإسلام الست المقدسة (وهي مكة والمدينة ودمشق



وإسطنبول والقدس وبغداد) تحت السيطرة العثمانية. وعلاوة على ذلك، فقد مهدت الحملة الطريق للسلطان سليمان القانوني أن يجعل جزءا أكبر من طريق الحرير تحت السيطرة العثمانية. وعلى صعيد البحر المتوسط، نجح تشارلز الخامس في الاستيلاء على تونس عام ١٥٣٥. لكن القوات العثمانية البحرية بقيادة خير الدين بارباروس باشا أزعجت الأوروبيين لاحقا عندما استولوا على عدة حصون بندقية في بحر إيجه وقاموا بالعديد من الجولات على طول الشواطئ الإيطالية. ونتيجة لذلك قامت ثلاث دول، هي البندقية وجنوة ومالاتيا، بتوحيد قواتها في جزيرة كورْفو التي تقع قبالة ساحل ألبانيا قريبا من نهاية حدود السيادة العثمانية في البحر المتوسط. وفي ذلك الوقت جرى إعداد أسطول صليبي هائل وتسليمه لأندريا دوريا ليكون قائدا له.

سمع خير الدين بارباروس باشا بأنباء هذا الأسطول الصليبي، فأبحر بأسطوله إلى بريفيزا التي تقع عند مصب خليج آرتا على البحر الأيوني. ونجحت القوات العثمانية، بقيادة أميرالات متميزين آخرين مثل صالح رئيس وسيدي علي رئيس وطورغوت رئيس، في تشتيت الجيش الصليبي الذي بدا أكثر عددا وقوة في أول الأمر. وفي ٢٨ سبتمبر/أيلول عام ١٥٣٨ أحرز العثمانيون واحدا من أعظم الانتصارات البحرية مكانة في التاريخ العثماني، وهرب أندريا دوريا نفسه واستطاع أن ينجو بحياته بصعوبة.

ضمن نصر بريفيزا السيادة العثمانية في البحر المتوسط، ومازال يوم ٢٨ سبتمبر/أيلول، ذكرى هذا النصر، مناسبة قومية يحتفل بها في تركيا باسم "يوم القوات البحرية التركية". وعلاوة على ذلك فقد أجبر هذا الانتصار البنادقة على الاعتراف بالسيطرة العثمانية على الحصون في المورة وسواحل دالماشيا، وفي المناطق التي فتحها خير الدين باشا بارباروس.



لوحة تُصور وصول الأسطول العثماني، بريشة فنان مجهول.

ورد سليمان على مبعوثي تشارلز الخامس بأنه لن يوقع أية اتفاقية سلام حتى يتم إعادة الأراضي الفرنسية للفرنسيين. وفي الواقع أن فرنسا استفادت مكاسب كثيرة من تحالفها مع الدولة العثمانية، التي كانت القوة العظمى في ذلك الوقت.

وعندما توفي الملك يانوس المجري في عام ١٥٤١، حل ابنه الطفل سيجسموند محله، فأعلن فرديناند ملك النمسا أنه لا يعترف بسيجسموند كملك جديد، وغزا المجر مرة أخرى. فاستنجدت إيزابيلا أم سيجسموند بسليمان القانوني هذه المرة فردّ السلطان بإرسال جيش مرة أخرى إلى المجر، وجعل المجر مقاطعة عثمانية مباشرة تحت إدارة حاكم عام أو بَيْلَر بَك.

واستنجد الملك فرانسيس الأول ملك فرنسا بسليمان القانوني عندما فشل أمام تشارلز الخامس؛ فأرسل السلطان الأسطول العثماني إلى فرنسا بقيادة خير الدين باربروس باشا. ورسا باربروس في مرسيليا في عام ١٥٤٣، واستولى على حصن "نِيشْ" وسلمه للفرنسيين. وفي نفس العام قام السلطان بحملة إلى أسترجون على الضفة اليمنى من نهر الدانوب، والتي تبعد حوالي ثلاثين ميلا في اتجاه الشمال الغربي من العاصمة المجرية، وذلك لأن الدول الأوروبية تدخلت في الشؤون الداخلية للمجر. ونجح في فتح أسترجون واستولى على بلجراد (المعروفة حاليا باسم فهرفار)، لكن فرحة انتصاره قاطعتها الأنباء الحزينة عن وفاة ابنه الأمير محمد. وطلب السلطان إحضار جنازة ابنه، الذي كان واليا على مانيسا، إلى إسطنبول حيث صلى عليه صلاة الجنازة مع الشعب في مسجد بايزيد بميدان بايزيد. وأمر السلطان سليمان المعماري العظيم سنان ببناء مسجد شَهْزاده (الذي يتضمن مجمعا خيريا أيضا) لتخليد ذكرى ابنه.

كان الصفويون قد بدءوا هجوما مضادا على العثمانيين فيما كان السلطان سليمان القانوني يقاتل في وسط أوروبا، ولذلك أعلن السلطان عن حملة ثانية على بلاد فارس الصفوية عام ١٥٤٨. واستمرت المعارك سبعة أعوام تخللتها فترات انقطاع وانتهت بتوقيع اتفاقية في أماسيا عام ١٥٥٥. وتعد اتفاقية أماسيا التي وقعها سليمان القانوني والشاه طهماسب أولى الاتفاقيات العثمانية-الفارسية في التاريخ. وقد نصت على أن العثمانيين سوف يحتفظون بملكيتهم لشرق الأناضول وأذربيجان وتبريز وميزوبوتاميا بما فيها بغداد، مما يسمح للعثمانيين بالوصول إلى الخليج العربي.

أخذ تشارلز الخامس عددا كبيرا من فرسان القديس يوحنا في رودس ووضعهم في طرابلس، والتي خُصصت للفرسان كقاعدة للعمليات البحرية في البحر المتوسط. فأرسل سليمان القانوني الأميرال العثماني طورغوت رئيس (المعروف لدى الغرب باسم دراجوت) في مهاجمة طرابلس. فشن تورقوت رئيس هجوما على طرابلس، واستطاع فتح هذه المدينة الساحلية الإستراتيجية وضمها للسيادة العثمانية في أغسطس/آب عام ١٥٥١.

كان الصليبيون يهدفون إلى التخلص من العثمانيين في إفريقيا، وأعاقوا تقدم طورغوت رئيس في البحر



المتوسط، ولذلك ضرب طورغوت رئيس حصارا على جَرْبة أكبر جزيرة قبالة سواحل شمال إفريقيا في خليج قابس، وكانت تخضع لسيادة الأسبان. وعندما سمع أندريا دوريا، الأدميرال وقائد المرتزقة الجنوي، بالحصار أبحر بأسطوله بالقرب من جربة مما أجبر طورغوت رئيس على طلب تعزيزات. ثم حدثت مواجهة بين الأسطول العثماني بقيادة الأميرال العام بيالي باشا والأسطول الصليبي، فهزم الصليبيون هزيمة ساحقة مرة أخرى. وفتح العثمانيون جربة عام ١٥٦٠ واعترفت أوروبا بالسيادة العثمانية على غرب البحر المتوسط بالإضافة إلى الوجود العثماني في شمال إفريقيا الذي دام لأربعة قرون.

أمر السلطان سليمان القانوني بحصار مالطة عام ١٥٦٥ وأوكل إلى طورغوت رئيس مهمة فتح مالطة، لكن الحصار القائم على مالطة توقف بعد استشهاده خلال الحصار. ولم يحاول العثمانيون الاستيلاء على مالطة مرة أخرى. وفي العام التالي رفعت جزيرة صاقيز (سيوس) في بحر إيجه العلم العثماني.

لقد اكتسب الأسطول العثماني القوة الكافية لمنافسة الدول الأوروبية خلال عهد محمد الفاتح، ومر بعهده الذهبي خلال فترة حكم سليمان القانوني الذي تمكن من تحقيق انتصارات عظيمة على ألدّ أعداء الدولة العثمانية.

كان فتح إسطنبول ومصر قد ضمن السيطرة العثمانية على الطرق التجارية الحيوية، ولذلك بدأ الأوروبيون يبحثون عن شبكات جديدة لتسهيل أنشطتهم التجارية، فأبحر البرتغاليون للمحيط الهندي، وأقاموا مستعمرات في الهند، وسيطروا على الطرق التجارية البحرية الهندية. وإضافة إلى ذلك فقد مارسوا ضغوطا على الولايات الإسلامية في الهند ونهبوا سفن التجار المسلمين. وردّا على كل ذلك وعلى استغاثة ولاية جوجارات الهندية بسليمان القانوني قامت الدولة العثمانية بشن أربع حملات متعاقبة على الهند.

أسفرت الحملة الأولى بقيادة "خادمْ سليمان" باشا عام ١٥٣٨ عن ضم اليمن وعدن والسودان وبعض الأراضي الإثيوبية إلى الحكم العثماني. وأسفرت الحملة البحرية الثانية عام ١٥٥١ بقيادة بيري رئيس عن فتح مسقط جنوب شرق الجزيرة العربية. أما الحملتان الثالثة والرابعة فقد كانتا بقيادة "مراد رئيس" عام ١٥٥٢ و"سَيْدي علي رئيس" عام ١٥٥٣، غير أنهما لم يسفرا عن أية نتائج ملموسة، لكن الحملات البحرية على الهند أثمرت إجمالا عن وفاء العثمانيين بمسؤولية الخلافة.

بعد ذلك قاد سليمان القانوني، الذي لم يَخُض أيّة حملات مهمّة منذ عدة سنوات، جيشه للمرة الأخيرة في عام ١٥٦٦ ضد فرديناند ملك النمسا الذي نقض اتفاقية السلام مع العثمانيين عندما هاجم إمارة ترانسيلفانيا (Transylvania) التي تقع تحت السيادة العثمانية. ورغم مرضه وعمره الذي بلغ اثنين وسبعين عاما فقد أقنعه الصدر الأعظم محمد باشا سوكولُو بأن يقود الجيش العثماني بنفسه في تلك الحملة. وكان السلطان مريضا جدا بحيث لا يقوى على امتطاء فرسه، والأسوأ من ذلك أن حالته ازدادت خطورة بعد أن اجتاز "أدِرْنه." وحاصر الجيش العثماني حصن"سيكتوار"، وبعد حوالي شهر من متابعة الحصار من فراش المرض توفي سليمان القانوني




كان السلطان سليمان هو الذي أجرى أوسع عملية إصلاحات في الحرمين الشريفين. وتشير الصورة إلى المسجد الحرام في تسعينيات القرن التاسع عشر.

في ٧ سبتمبر/أيلول عام ١٥٦٦. غير أن وفاته بقيت سرا كي لا يتشتت انتباه الجيش العثماني، وفُتح الحصن بعد أربعة وثلاثين يوما من الحصار، وصار الزحف إلى زِكَتْوار الحملة الناجحة الأخيرة لسليمان القانوني.

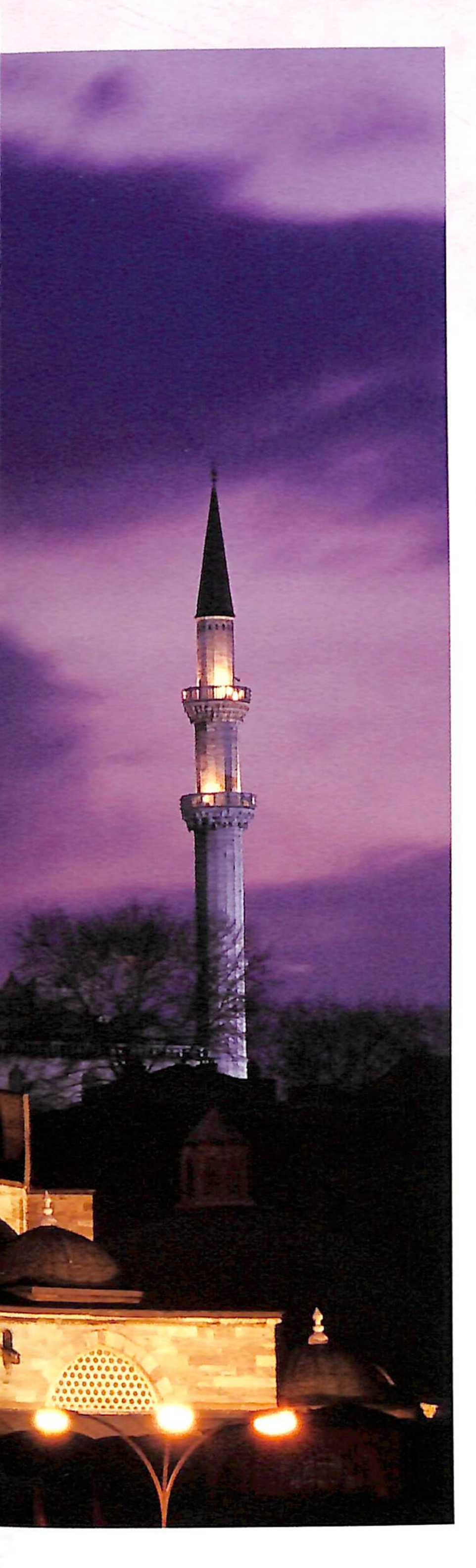
اتسم عهد سليمان القانوني - الذي دام ستة وأربعين عاما - بالفتوحات والأنشطة الثقافية والازدهار الحضاري. وأكسبته انجازاته لقبه المستحق "العظيم" الذي نسبه الغرب إليه، وكان أحد هذه الإنجازات تحطيم رقمه القياسي في ركوب فرسه ٣٠ ألف ميلا طوال حياته. وقد ركز في توجهه السياسي على أوروبا ودول البحر المتوسط بعد زيادة الاقتصاد الأوروبي بحلول عصر الاكتشافات في القرن السادس عشر.

لم تكن شخصية سليمان القانوني شخصية طيبة لطيفة مثل جده، ولا كان عصبيا صارما مثل أبيه، بل كان يتمتع ببعد نظر ويعمل باجتهاد وإتقان. وترك له أبوه خزانة ممتلئة عن آخرها وجيشا قويا، إضافة إلى أنه ترك له ميراثا بنى عليه مهاراته القيادية المستقبلية. وقاد سليمان القانوني جيشه في العديد من المعارك شرقا وغربا، وعندما حانت ساعته مات في ساحة المعركة وليس في القصر.

لم يكن سليمان مخططا ورجل سياسة بارعا فحسب، بل كان أيضا مشرعا مشهورا. فقد قاد إدارة دولة



جزء من خريطة العالم، رسمها بيري ريس، وتظهر المحيط الأطلسي وأسبانيا وشمال غرب إفريقيا، وشمال شرق ووسط أمريكا، ويعود تاريخها إلى شهر أبريل/نيسان عام ١٥١٣. متحف قصر "طوب قابي".



تعمل بشكل نظامي وجيشا حديثا قويا وكثير التحرك. ولم يكن هناك خلال عهده جيش أو أسطول في العالم أقوى من جيشه وأسطوله، وكان يمتلك سلطة مطلقة على قواته العسكرية. إلى جانب انتصاراته العظيمة في الشرق والغرب، اشتُهر السلطان بإصلاحاته الإدارية والقانونية وهو ما أكسبه اسم "القانوني"، وضَمِن بقاء الدولة وقتا طويلا بعد وفاته. وبفضل قراراته الموفقة فيما يخص تقسيم العمل وموهبته المدهشة في تعيين الشخص المناسب في المكان المناسب، بالإضافة إلى تدريب موظفيه، أديرت شؤون الدولة بنجاح كبير خلال عهده.

وقد شهد عهد السلطان سليمان الطويلُ الذي دام ستة وأربعين عاما قمة ازدهار الفنون والثقافة العثمانية. وكانت العديد من الجمعيات الفنية، التي كانت تسمى "أهل الحِرَف"، تُدَار تحت رعايته. ووفقا لسجلات صناعة الفنون العثمانية ومنظمتها (التي مازالت محفوظة في سجلات قصر "طوب قابي")، كان سليمان القانوني يتفقد بنفسه أعمال الفنانين ويكافئهم على إنجازاتهم الرائعة.

وخلال تلك الفترة تطورت الفنون الجميلة وفنون الديكور، وبخاصة فن الخط العربي، وفن المنمنمات، ورسم المخطوطات، والطباعة بالحفر، والنقش على الخشب والحجر، والخزف، والفخار، والنسيج، وغير ذلك. ومن بين الإنجازات المعمارية البارزة في ذلك العصر الذهبي كانت جوامع السلاطين التي بناها السلطان وأفراد العائلة السلطانية وضُممت كجزء من "كلية"، وهو مجمع مبانٍ لتقديم الخدمات الخيرية المختلفة للصالح العام يتضمن كليات ومدارس طبية ومستشفيات ومطاعم للفقراء وخانات وحمامات عامة. وقد عيّن السلطان سليمان المعماري العظيم سنان، الذي يعد واحدا من أعظم المعماريين في تاريخ العالم، كبيرا للمعماريين الملكيين. ويبلغ تراثه أكثر من ثلاثمائة بناء موجود في مناطق مختلفة من الدولة من البلقان إلى الحجاز، تتضمن ٥٧ مجمعا، و٤٦ خانا أو فندقا، و٣٥ قصرا ومنزلا، و٤٢ حماما عاما، و٢٢ مدفنا، و١٧ ملجأ، و٣ مستشفيات، و٧ قنوات مائية، و٨ جسور، و٨ صوامع للحبوب، و١٣٥ مسجدا. ويعد المسجدان اللذان أُنشئا باسم سليمان القانوني في إسطنبول



منظر ليلي لمسجد سليمان، الذي يقع على قمة تلّة تُشرِف على مشهد شبه الجزيرة التاريخية لإسطنبول.

ودمشق أبرز الآثار على الإطلاق في كلا المدينتين. وقد أمرت ابنته مِهْرِمَاه سلطان أيضا المعماري العثماني الشهير سنان بأن يبني لها مسجدين يحملان اسمها في إسطنبول، يقع أحدهما في أُسْكُودَار على الساحل الآسيوي للمدينة، والآخر في الجانب الأوروبي عند بوابة أدِرْنه بالأسوار القديمة للمدينة. ويخلّد هذا المسجد الأخير ذكرى مؤسسته بأسلوبه الأنيق وزخارفه الجميلة.

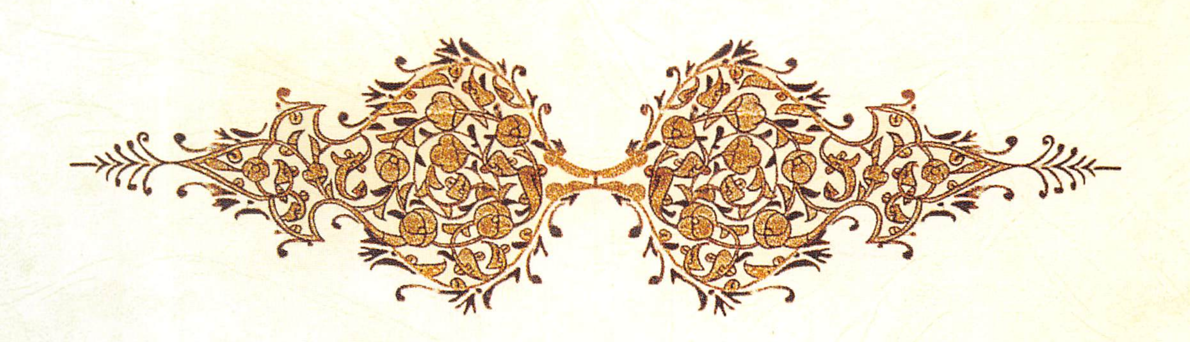
غير أن أكبر المشروعات في عهد سليمان تمت في الأراضي المقدسة؛ فشُيدت أولا ملاجئ لاستضافة الحجاج الذين يبيتون ليلا في مكة حول مقر المسجد الحرام، وأقيم حمام تركي ضخم للاستحمام والتنظيف، ليمنع حشود الحجاج الغفيرة من تلويث المسجد الحرام، وكان ذلك عام ١٥٦٦. وفي تلك الفترة أيضا تم إحلال قباب حجرية محل الأسقف الخشبية للرواق المعمّد حول الكعبة، ومازالت هذه القباب الحجرية باقية حتى اليوم. وفي مكة أقيمت أقدم مدرسة معروفة إلى يومنا هذا عام ١٥٦٥ خلال عهد السلطان سليمان، حيث صمم خطط البناء المعماري العظيم سنان، وبلغت ميزانية التشغيل ٣٠ ألف عملة ذهبية. وبنيت المدرسة بمواصفات خاصة لتلبية احتياجات المذاهب الأربعة الأساسية للفقه الإسلامي.

كان الحجاج في المدينة يتعرضون من وقت لآخر لتهديد هجمات العُربان خلال موسم الحج، ولم تكن الأسوار القائمة حول المدينة كافية لردع تلك الهجمات. ولذلك قدم أهل المدينة طلبا للسلطان سليمان بشأن هذا الأمر، فأصدر السلطان قرارا بتحصين الأسوار ورفعها بناء على خبرة العثمانيين العسكرية والإنشائية. وبعد سبع سنوات من العمل الشاق، ظهرت الأسوار الجديدة والقوية والعالية حول المدينة في عام ١٥٣٣. وأضيفت أبراج مراقبة للأسوار التي تحيط بمقابر جنة البقيع. وإضافة إلى ذلك بُني حصن داخل الأسوار يضم تسعين جنديا، وبذلك تمت حماية مدينة الرسول ﷺ.

وبدأ تقليد البناء في المسجد النبوي في التاريخ العثماني بسليمان القانوني عندما أرسل المهندسين والحرفيين من إسطنبول فأجرى هؤلاء الخبراء إصلاحات وتجديدات في مسجد الرسول ﷺ بداية من الحوائط الغربية لقبر الرسول ﷺ (حجرة السعادة)، وكان ذلك عام ١٥٤٠. وفي المدينة أيضا عُيّن علماء في وظائف ثابتة يعلّمون الناس في المسجد النبوي، بينما خُصصت ميزانية سنوية لأجور الأشخاص الآخرين الذين يخدمون في المسجد. كما جدّد السلطان سليمان القانوني قبر السيدة عائشة، زوجة الرسول ﷺ، الموجود في مقابر جنة البقيع، ونفّذ في مسجد القبلتين بالمدينة أكبر خطة بناء شاملة منذ عهد الخليفة العباسي عمر بن عبد العزيز (حكم من ٧١٧ إلى ٧٢٠). وقام السلطان أيضا بنصب أسوار حول مدينة القدس كما أنشأ نوافير ومداخل ضخمة في القدس.

أنفقت "مِهرماه سلطان" ابنة السلطان سليمان القانوني مبالغ كبيرة من الأموال لنقل خزان مياه عين زبيداء من عرفات إلى مكة، وهي عين كانت قد حفرتها زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد (حكم من ٧٨٦ إلى ٨٠٩). ومنذ عهد السلطان سليمان وبعده كانت الكسوة الخارجية للكعبة المشرفة تعد في مصر، بينما كانت كسوتها الداخلية تعد في إسطنبول.

لم يحصر السلطان خدماته على الأراضي المقدسة فقد أنشأ سلسلة من الحصون تحوي خزانات مياه على طريق القوافل من أجل الحجيج خلال رحلتهم الطويلة الشاقة عبر الصحراء من دمشق إلى مكة. ومن أجل ذلك أنشأ حصنا وحفر آبارا جديدة في مَعَان بالأردن في الطريق إلى مكة، وهو ما وفر للحجاج أماكن آمنة للتوقف خلال سفرهم الطويل في الصحراء المحفوف بمخاطر الإنهاك ونقص الغذاء والمياه والهجوم عليهم. وعلى نفس المنوال حفر السلطان سليمان العديد من الآبار، وشيد حصنا عثمانيا في قرية ذات الحاج بمنطقة تبوك في الجزيرة العربية. وفي مدحهم للحصن الذي أقامه السلطان في أُحد بالقرب من المدينة، قال بعض الحجاج الفارسيين ذات مرة: "إن مواد بناء هذه القلعة ليست موجودة حتى في إسطنبول".



# السلطان سليم الثاني

**فترة الحكم: ١٥٦٦-١٥٧٤**

**السلطان العثماني الحادي عشر**

**الألقاب والأسماء الشعرية:** ساري (الأشقر)، ومَست وسلِيمي

**اسم الأب:** السلطان سليمان

**اسم الأم:** خُرَّم سلطان

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول، ٣٠ مايو/أيار سنة ١٥٢٤

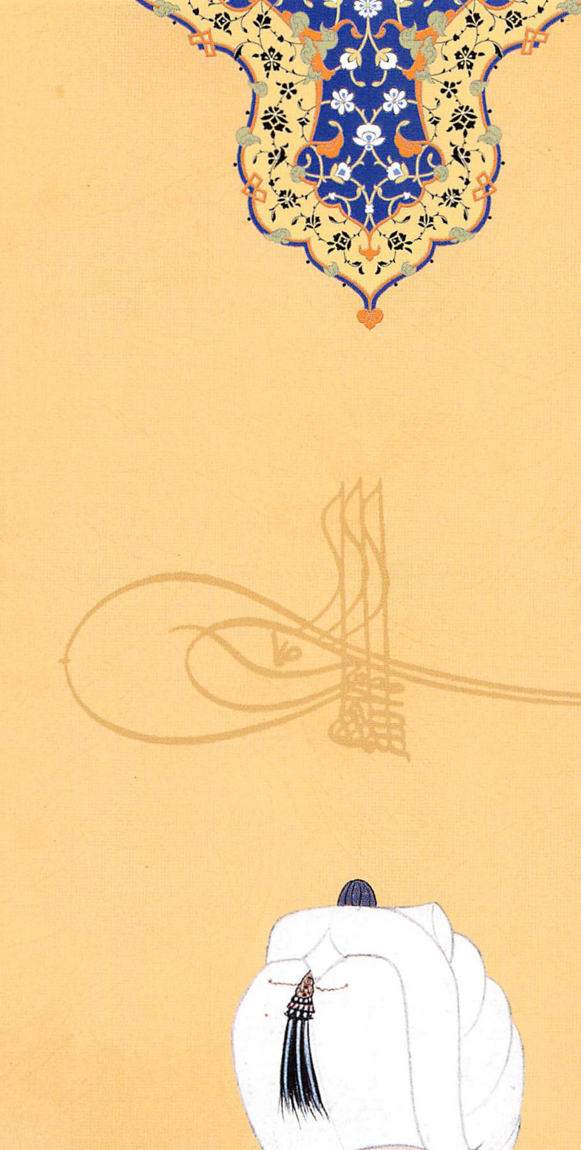
**العمر عند اعتلاء العرش:** ٤٢ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** نزيف المخ، ١٥ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٥٧٤

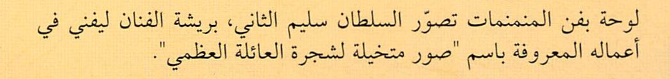
**مكان الوفاة وموقع الضريح:** إسطنبول، ويقع قبره بالقرب من آياصوفيا

**أبناؤه:** مراد الثالث، ومحمد، وعبد الله، وجهانْكير، ومصطفى، وعثمان، وسليمان

**بناته:** فاطمة سلطان، وشاه سلطان، وجوهر خان سلطان، وأسمَهان سلطان



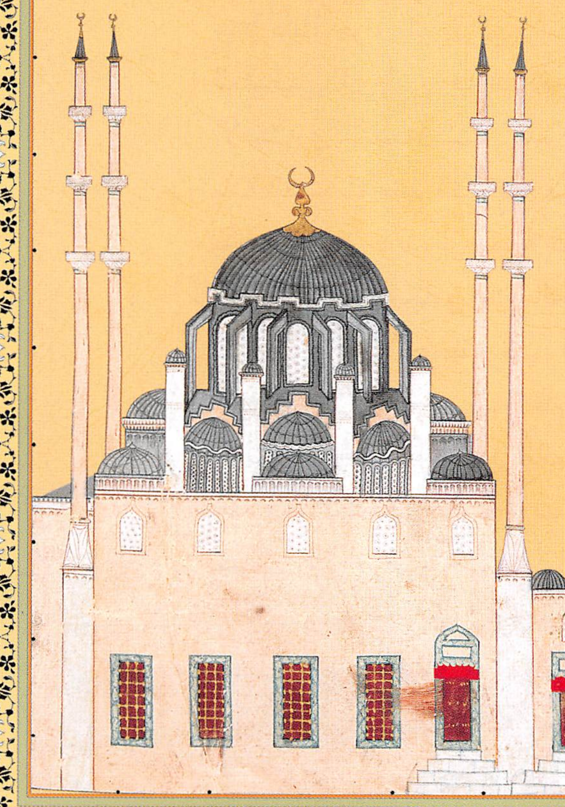
لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان سليم الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



كان السلطان سليم الثاني السلطان الأول الذي ولد ومات في العاصمة العثمانية إسطنبول. بعد سنوات طويلة من التعليم في قصر "طوب قابي"، عُين سليم الثاني واليا على قُونْيَة (مرتين) وعلى مانيسا وأخيرا على كوتاهيا. وخلال سنواته كولي للعهد منع أخاه الأمير بايزيد عندما حاول نيل العرش. وعندما أبلغه الصدر الأعظم سوكولو سرا بوفاة أبيه في زِكَتْوار بالمجر، غادر كوتاهيا إلى إسطنبول، وأعلن نفسه السلطان الجديد، ثم سافر شمالا إلى بلجراد لاستقبال جثمان أبيه المتوفى. وفي تلك الأثناء أثارت قوات الانكشارية اضطرابا خطيرا بسبب مسألة استلامهم للعطايا الخاصة بجلوس السلطان على العرش، والتي كانت تسمى "جلوس". فضمن السلطان الجديد تحقيق السلام من خلال قبول مطالب الانكشارية، فمثّل ذلك نهجا غير اعتيادي لم يتبعه السلطان ياووز سليم، الذي سمي السلطان الجديد على اسمه، ولا السلطان سليمان القانوني. والواقع أن ذلك التصرف اعتُبر إشارة على أنه لن يقود الجيش ببراعة مثلما فعل أبوه وجدّه.

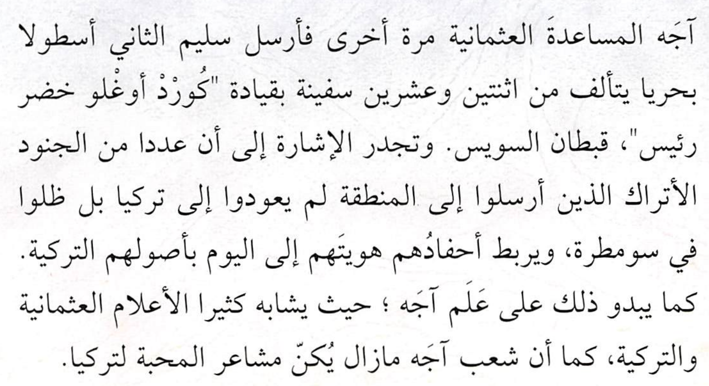
وبسبب كفاءة الصدر الأعظم محمد سُوكُولُو (سُوقُولُو) باشا -الذي تلقى تدريبه واكتسب خبرته خلال عهد السلطان سليمان- مما وفّر له عنصري الكفاءة والانضباط بالنسبة لشؤون الدولة، فقد ترك السلطان سليم الثاني له مسؤولية الشؤون الإدارية.

وقع أول حادث مهم خلال عهد سليم الثاني عندما تمرد الإمام المُطهّر في اليمن، فتم إرسال "سنان باشا" و"عثمان أوزدمير أغلو باشا" والي الحبشة العام (إثيوبيا الآن) إلى اليمن، حيث استطاعا معا قمع ذلك التمرد، وتمكين سيادة السلطة العثمانية في اليمن.

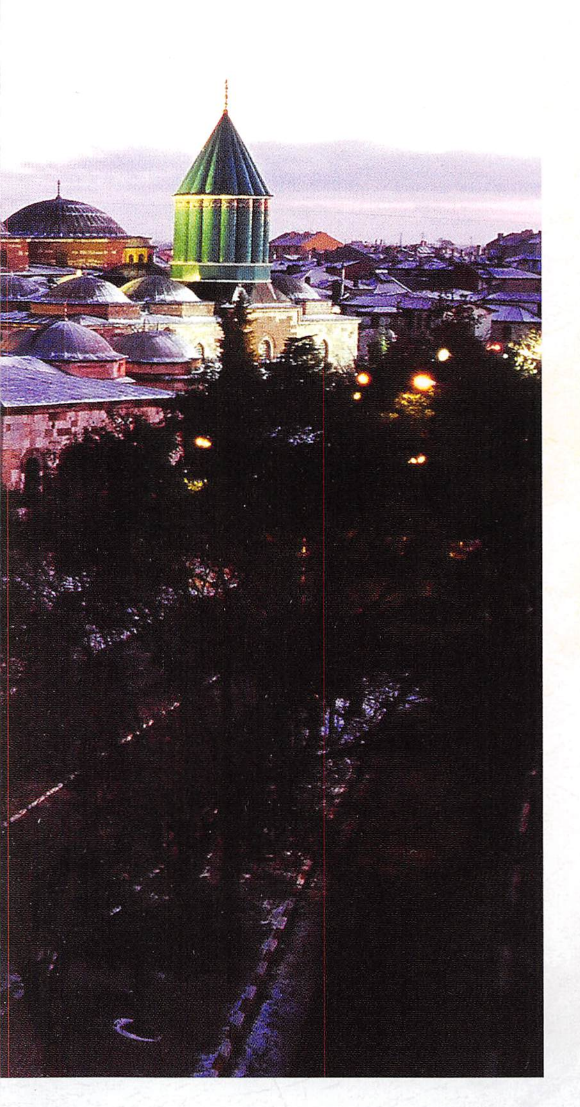


وأدى استيلاء إيفان فاسيليفتش الرابع ملك روسيا (إيفان الرهيب) على منطقة أستراخان عام ١٥٥٧ إلى قطع طريق الحجاج المسلمين من تلك المنطقة، ومنعهم من الوصول إلى مكة عن طريق القرم. فوجه الحجاج طلبا لخليفة المسلمين فأمر السلطان العثماني سليم الثاني بقيام حملة لتسهيل رحلة الحج، غير أن تلك الحملة لم تسفر عن أية نتائج في ظل غياب دعم خان القرم.

كانت سلطنة آجَه، الدولة المسلمة في جزيرة سومطرة التي تقع غرب إندونيسيا، قد استنجدت بالسلطان سليمان القانوني للمساعدة على إنهاء الاضطهاد البرتغالي، فردّ السلطان بإرسال حامية عثمانية للمنطقة. وخلال عهد السلطان سليم الثاني طلبت سلطنة



آجَه المساعدةَ العثمانية مرة أخرى فأرسل سليم الثاني أسطولا بحريا يتألف من اثنتين وعشرين سفينة بقيادة "كُورْدْ أوغْلو خضر رئيس"، قبطان السويس. وتجدر الإشارة إلى أن عددا من الجنود الأتراك الذين أرسلوا إلى المنطقة لم يعودوا إلى تركيا بل ظلوا في سومطرة، ويربط أحفادُهم هويتَهم إلى اليوم بأصولهم التركية. كما يبدو ذلك على عَلَم آجَه ؛ حيث يشابه كثيرا الأعلام العثمانية والتركية، كما أن شعب آجَه مازال يُكنّ مشاعر المحبة لتركيا.



استمر البنادقة في جزيرة قبرص في تهديدهم لأمن سواحل الأناضول ومصر لفترة طويلة، وتوالت أعمال القرصنة من جانبهم ضد سفن المسلمين التجارية وقوارب الحجيج، حتى تحولت الجزيرة في النهاية إلى وكر للقراصنة. ولذلك أُرسل مبعوثون عثمانيون إلى البندقية يحملون رسالة تقول: "إما أن تتوقفوا عن ممارسة القرصنة في قبرص، أو سوف يستولي العثمانيون عليها". وتلا ذلك جولة ثانية من المراسلة عندما رفض البنادقة تحذير العثمانيين الذي أمروا فيه البنادقة بتسليم الجزيرة. وفي المجلس الاستشاري للسلطان بشأن هذه المسألة عارض محمد سُكُولُّو باشا الصدر الأعظم فكرة فتح قبرص، لأنه رأى أن ذلك سوف يجلب سلسلة جديدة من الحملات الصليبية، لكن السلطان وأغلبية الحاضرين في المجلس أيدوا الحملة. فتوجه الأسطول العثماني بقيادة الوزير "لالا مصطفى باشا" لحصار الجزيرة، واستولى عليها أخيرا عام ١٥٧١ بعد حصار عام كامل. وعمّر السلطان الجزيرة بأعداد كبيرة من التركمانيين القادمين من كارامان.

وخلال فتح قبرص حوصرت ماغوسا (فاماغوستا) من الجانب الشرقي من قبرص، فقررت قيادة الأسطول العثماني العودة. وحَوّلت البحريةُ منطقة نشاطها إلى شواطئ البحر الأدرياتيكي تحسبا لهجوم محتمل من طرف الأسطول الصليبي على قبرص. وبعد أن قضى الأسطول الشتاء في إسطنبول أبحر في بداية الربيع



أمر السلطان سليم الثاني بإنشاء مسجد السليمية بالقرب من مقبرة جلال الدين الرومي، حينما كان سليم الثاني حينئذ أميرا وحاكما على قونية.

إلى البحر المتوسط مرة أخرى، لكنهم لم يواجهوا أي أسطول صليبي، وهو أمر لم يكن متوقعا. وعندما رسا الأسطول العثماني في ميناء ليبانتو (Lepanto)، فضل البنادقة والأسبان -الذين وحدوا قواتهم تحت قيادة البابا- الهجوم من مكمنهم بدلا من قتال العثمانيين، ونجحوا في حرق الأسطول العثماني في ليبانتو في سبتمبر/أيلول عام ١٥٧١. لكن "علي باشا أولوج"، الوالي العام لمدينة الجزائر، تمكن من إنقاذ حوالي عشرين سفينة من كمين العدو ووصل إلى إسطنبول بسلام.

أصيب السلطان سليم الثاني بخيبة أمل كبيرة بعد سماعه أخبار تلك الكارثة البحرية. وقام بترقية علي أولوج باشا الذي نجا من ليبانتو ليكون أميرالا عاما، وأنعم عليه بلقب "قِلِجْ" (السيف). وتروي السجلات التاريخية أن الصدر الأعظم محمد سوكولو باشا عندما رأى تلهف الأميرال العام الجديد لإعادة بناء الأسطول العثماني قال له: "عزيزي الباشا، إن قوة هذه االدولة [العثمانية] هائلة، ولذلك فهي تستحق أسطولا مكونا من سفن مراسيها من فضة، وحبالها من خيوط الحرير، وقماش أشرعتها من نسيج الحرير. تعال إلي كلما نقصت لديك الموارد من أجل سفنك".

وبعد أربعة أشهر فقط من العمل الشاق الدؤوب تم بناء أسطول عثماني جديد يضم أكثر من مائتي سفينة حربية. وكان حجم ثمانية من السفن الجديدة أضخم من أي سفينة شوهدت قبل ذلك، وهو ما أثار موجة رعب واسعة في أوروبا.

وكان مبعوث بندقي قد جاء ليرى بنفسه وقْع هزيمة ليبانتو على العثمانيين، فرد عليه الصدر الأعظم محمد سوكولو باشا بأسلوب مجازي قائلا: "نحن قطعنا أذرعكم عندما فتحنا قبرص، أما أنتم فحلقتم لحيتنا عندما حرقتم الأسطول. والأذرع المقطوعة لا يمكن استعادتها، لكن لحيتنا التي حلقتموها سوف تنمو بكثافة أكبر بالتأكيد". وتشير عبارة سوكولو هذه إلى قوة الدولة العثمانية غير المختَلف عليها في القرن السادس عشر. وقد أيد الأميرال العام "قلج علي باشا" عبارة الصدر الأعظم عمليا عندما فتح تونس وهزم الأسبان هناك في عام ١٥٧٤، أي بعد ثلاثة أعوام فقط من هزيمة ليبانتو.

كان السلطان سليم الثاني يخطط لشق مجرى مائي خلال "برزخ السويس" يربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. ورغم أن جده السلطان السليم الأول كان يرغب أيضا في تنفيذ هذه الخطة فإن أيا منهما لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة.

كان هدف العثمانيين الرئيسي من ربط البحر المتوسط والسويس من خلال قناة مائية هو حماية التجارة وطريق الحج، بالإضافة إلى حماية الأراضي المقدسة والمناطق المسلمة الأخرى من هجمات البرتغاليين. وكان شق القناة سيحيي أيضا طريق التوابل الذي ينتهي في البحر المتوسط، ويقدم طريقا مختصرا مهما إلى طريق المحيط الهندي، والذي اعتاد الأوروبيون الإبحار باتجاهه عبر رأس الرجاء الصالح

منظر ليلي لمسجد السليمية في أَدِرْنَهْ ترك بصمته على المدينة بمآذنه الأربع الرائعة، وشرفاته الثلاث، وظلاله الرائعة ذات القبة الواحدة.





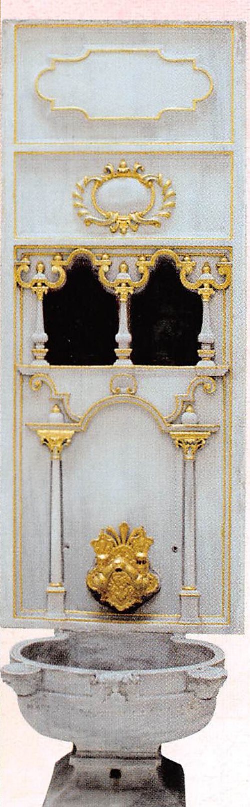

مشهد رائع لقبة من الداخل في مسجد السليمية بأَدِرْنَة.

(بالأفريكانية: Kaap die Goeie Hoop، كاب دي جوي هوب). ومن شأن شق هذه القناة أيضا تفعيل الأنشطة التجارية مع آسيا عبر الأراضي العثمانية، وهو أمر يعزز موقع الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية. ورغم أن مهمة بحث هذا المشروع أوكلت إلى والي مصر فإن ذلك لم يسفر عن شيء ملموس. وقام البريطانيون لاحقا بشق القناة في عام ١٨٦٩.

وخلال عهد سليم الثاني نوقش مشروع شق مجرى مائي آخر، حيث كان يُخطط لشق قناة بين نهري الفولجا والدون، لربط البحر الأسود ببحر قزوين. ولو أن هذا المشروع قد نُفذ لكان قد سهل الاشتباك العسكري العثماني ضد بلاد فارس، وساعد العثمانيين في ترسيخ سيادتهم في القوقاز، وأعاق توسع روسيا في البلاد التركية الإسلامية بوسط آسيا، ولكان أدى أيضا إلى إقامة علاقات مباشرة مع الأتراك في وسط آسيا. ورغم تجريف ثلث المجرى المائي بالفعل فإن المشروع لم يستكمل لأسباب منها أن خان القرم لم يسهم فيه بشكل كافٍ، ولأن الروسيين أعاقوا استمرار المشروع عام ١٥٦٩. وقد استكمل الروس القناة بين نهري الفولجا والدون وافتتحوها ولكن بعد أربعة قرون.

قبة رائعة من الداخل بمسجد السليمية، يبلغ ارتفاعها ٤٣ مترا وقطرها ٣١ مترا، وهي تستند على مجموعة من ثماني أعمدة، وتمتد الأقواس من الأعمدة إلى قباب أصغر مضاءة بالنوافذ.





نافورة رخامية أنيقة وحوض
حمام السلطان

قام المهندس الشهير سنان بإنشاء حمام السلطان في قسم الحريم بقصر "طوب قابي". وعلى خلاف الاعتقاد السائد، لم يُتوفَّ السلطان سليم الثاني في هذا الحمام، ولكن في الحمام المجاور لمكتب الخزانة الذي تعرض للتلف الكامل بسبب الرطوبة.

توفي السلطان سليم الثاني جراء نزيف مفاجئ في المخ عندما سقط واصطدم رأسُه بالأرض الرخامية في حمام السلاطين الموجود بقصر "طوب قابي" في ذلك الوقت. فكان سليم الثاني أول سلطان يُتوفى في قصر "طوب قابي" بإسطنبول. ودامت فترة حكمه القصيرة سبع سنوات مثل جده، لكنه كان مختلفا عنه رغم أنه سمي باسمه، حيث إنه لم يستغل فترة حكمه في سلسلة من الحملات المتتابعة، فقد حكم الدولة من داخل قصره. ولحسن حظه أن سوكولو أثبت أنه صدر أعظم ممتاز، إضافة إلى أن كفاءة سوكولو ومهاراته التنظيمية جنبت وجود نقاط ضعف كبيرة.

كان السلطان سليم الثاني بارعا في رماية الأسهم، وكان يكتب الشعر تحت الاسم المستعار "سَليمي". وكان أول سلطان أشقر، وبعينين زرقاوين، ولذلك لقب كثيرا بـ"ساري" أي سليم "الأشقر". وكان سليم الثاني يدعم ويرعى العلماء خلال عهده ويعطى الأولوية لأعمال التشييد والبناء. فقد أوكل على سبيل المثال إلى المعماري العظيم سنان مهمة تجديد وتوسيع أجزاء مختلفة من قصر "طوب قابي"، وبخاصة المطابخ الموجودة بالجانب الأيمن من الفناء الثاني بعد أن دمرها حريق نشب عام ١٥٧٤. وتستخدم مطابخ قصر "طوب قابي" الآن -والتي تعد أكبر من نظرائها الأوروبية- لعرض واحدة من أثمن مجموعات الخزف في العالم.

بلغت العمارة العثمانية قمتها عندما أنشأ السلطان سليم مسجدا في "أدِرْنه" يحمل اسمه. فمسجد السليمية ليس فقط التحفة الفنية الأكثر تميزا للمعماري العثماني العظيم سنان، بل إنه كذلك أيضا بالنسبة لفن العمارة العالمي. كان السلطان يحب "أدِرْنه" أكثر من إسطنبول، ولذلك أمر ببناء مسجد السليمية الرائع في مدينته المحبوبة "أدِرْنه" بدلا من العاصمة المجيدة إسطنبول. ورغم أن عهده كان أقل تأثيرا من عهد أبيه وجده فإن تماسك النظام الإداري ووجود رجال دولة أكفاء مثل سوكولو خلال عهده حافظا على زخم التوسع العثماني.

وعلاوة على ذلك، قاد السلطان سليم الثاني سلسلة من أعمال البناء من أجل حماية مدينة مكة المقدسة وراحة الحجاج.



قبقاب حمام عثماني



خضع المطبخ السلطاني في قصر "طوب قابي" لتجديدات شاملة خلال عهد السلطان سليم الثاني. ويَظهر في الصورة جزء من المجموعة الفريدة من الخزف والبورسلين المعروضة في مطابخ القصر خلال السنوات الأولى عندما تم تحويل القصر إلى متحف. وكان يجري يوميا تحضير وجبات لنحو خمسة آلاف شخص في المتوسط في هذا المطبخ، ليس فقط للمقيمين في القصر، ولكن أيضا للمبعوثين الأجانب ومقدمي العرائض وأي شخص يأتي إلى القصر. وكان من المعتاد أيضا إعداد وتقديم عدد هائل من وجبات الإفطار في شهر رمضان في القصر؛ حيث كان الأغنياء والفقراء والكثيرون يفطرون معا. كما كان يُدْعى إلى الإفطار المبعوثون الأجانب والقيادات الدينية المسيحية واليهودية.



# السلطان مراد الثالث

## فترة الحكم: ١٥٧٤-١٥٩٥

### السلطان العثماني الثاني عشر

**الألقاب والأسماء الشعرية:** مرادي

**اسم الأب:** سليم الثاني

**اسم الأم:** "نور بانو سلطان"

**محل وتاريخ الميلاد:** بوزْداغْ في مانسيا، ٤ يوليو/تموز سنة ١٥٤٦

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٢٨ عاما

**تاريخ الوفاة وسببها:** توفي بتاريخ ١٦ يناير/كانون الثاني ١٥٩٥ بسبب مرض الكلى

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** توفي بإسطنبول، ويقع قبره بالقرب من آياصوفيا

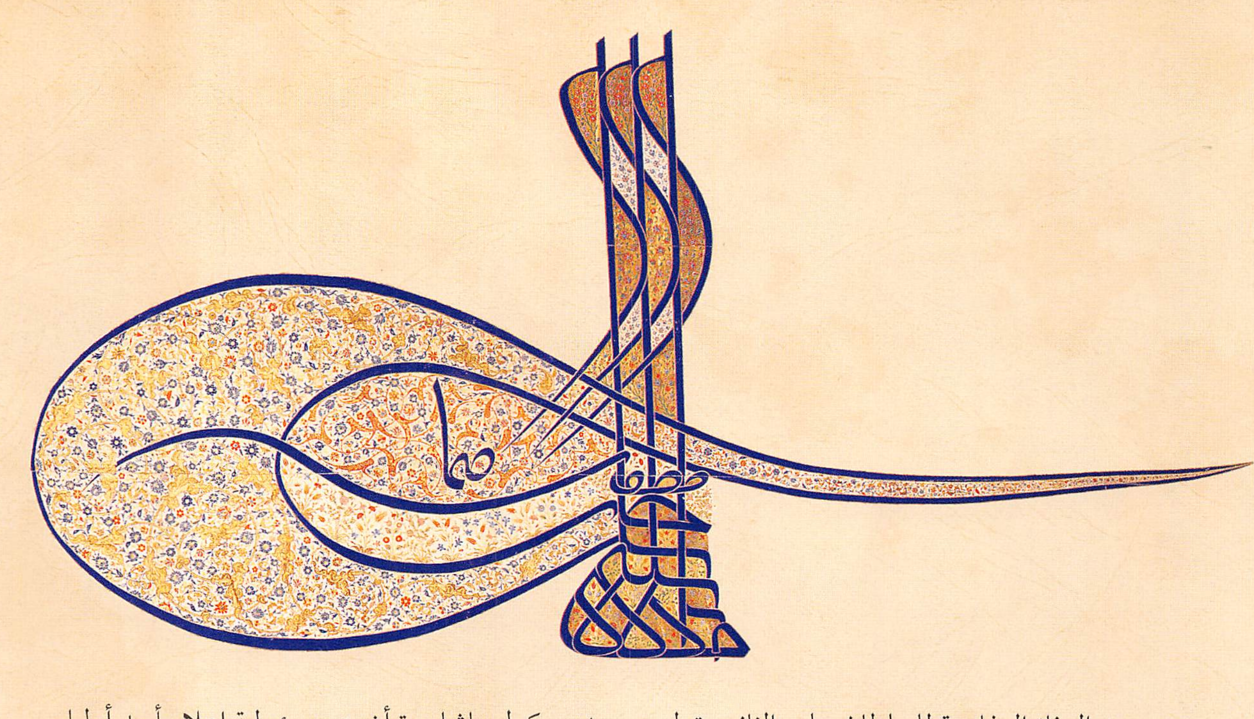
**أبناؤه:** محمد الثالث، وسليم، وبايزيد، ومصطفى، وعثمان، وجهانكير، وعبد الرحمنر وعبد الله، وحسن أحمد، ويعقوب، وعليم شاه، ويوسف، وحسين، وكُوركُود، وعلي، وإسحاق، وعمر، وعلاء الدين، وداود

**بناته:** عائشة سلطان، وفاطمة سلطان، ومِهرماهْ سلطان، وفخرية سلطان





لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مراد الثالث، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صوَر متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



بعد الوفاة المفاجئة للسلطان سليم الثاني، تولى محمد سوكولو باشا مرة أخرى مسؤولية إعلام أحد أولياء العهد بالخبر السيئ، ودعا مراد الثالث للجلوس على العرش. وبذلك استضاف العرش العثماني مرادا آخر بعد ١٢٣ سنة ليكون السلطان العثماني الثاني عشر. ومن الغريب أن الترتيب المتعاقب الذي يشير إلى حكم السلاطين الثالث والسادس والثاني عشر هو مجموعة من الأرقام المترابطة تشير جميعها إلى السلاطين الذين حملوا اسم مراد.

كان السلطان مراد الثالث قبل اعتلائه العرش واليا على "آق شهير" وساروهان (مانيسا)، وكان أول أعماله عند اعتلائه على العرش هو ترميمه الكعبة المشرفة.

وقد جرت عادة السلاطين أن يتقلدوا -بعد الاعتلاء على العرش- السيفَ السلطاني في مسجد "أيوب"، وهو الموقع الذي توفي فيه الصحابي أبو أيوب الأنصاري ودفن فيه. ذهب مراد الثالث إلى مسجد السلطان أيوب في اليوم الثاني والعشرين من رمضان. وتقلد سيفه السلطاني تماشيا مع التقليد العثماني السلطاني وزار قبور أجداده السلاطين السابقين.

جدد مراد الثالث ولاية الصدر الأعظم محمد سوكولو باشا الذي عمل من قبل في نفس منصبه تحت حكم أبيه وجده، وبالتالي أصبح محمد سوكولو باشا رجل الدولة الأول والوحيد في التاريخ العثماني الذي يمتد منصبه الإداري كصدر أعظم على مدى ثلاث فترات حكم لثلاثة سلاطين مختلفين. لقد كان دور سوكولو في الإدارة من العمق بحيث سميت فترة ولايته فيما بعد بـ"حقبة سوكولو". وقد كان له أثر طويل وعميق بشكل خاص في عهد مراد الثالث وحتى اغتياله لاحقا.

كان أول عمل سياسي لمراد الثالث في أوروبا هو تنصيب باثوري أمير ترانسيلفانيا ملكا جديدا على بولندا





زخارف رائعة للسقف المرتفع للغرفة الخاصة بالسلطان مراد الثالث، بقصر "طوب قابي".

بدلا من الملك المتوفى. وكان ذلك القرار يعني إنهاء النفوذ الروسي والهابسبورجي في المنطقة، وأصبحت مملكة بولندا تحت الوصاية العثمانية في نهاية الأمر عام ١٥٧٥. وبذلك امتدت السيطرة العثمانية وصولا إلى بحر البلطيق.

وامتدت الحدود العثمانية أبعد من ذلك إلى المحيط الأطلنطي من خلال جنوب غرب إفريقيا؛ فقد كلف السلطان مراد الثالث رمضان باشا والي الجزائر العام بفتح المغرب، وأصبحت المغرب تحت السيطرة العثمانية عندما قام رمضان باشا بتنصيب عبد الملك بن محمد سلطانا على المغرب عام ١٥٧٦. وبعد تعزيز الجيش العثماني بالقوات العسكرية المغربية، واجه الجيش العثماني نظيره الصليبي الذي شكله البرتغاليون بدعم من البابوية والفرنسيين والأسبان، فهزمهم العثمانيون هزيمة ساحقة عند مدينة القصر الكبير بالقرب من طنجة على مضيق جبل طارق عام ١٥٧٨. ومات سيباستيان ملك البرتغال في الحرب، وأصبح شمال إفريقيا بكامله تحت السيادة العثمانية.

في إيران الصفوية انتصر الشاه إسماعيل الثاني في التنافس على العرش الذي تلا موت الشاه طهماسب. وبعد جلوسه على العرش ألغى الشاه إسماعيل معاهدة أماسيا التي أُبرمت عام ١٥٥٥، وتعدى على الحدود

لوحة بفن المنمنمات تصوّر جنازة السلطانة الوالدة نورْبانو أم السلطان مراد الثالث. ويظهر في الصورة نعش السلطانة الوالدة محمولا على الأكتاف لدفنها خارج البوابة الجنائزية للقصر.

العثمانية؛ فأرسل مرادٌ الثالث الجيشَ العثماني بقيادة "لالا مصطفى باشا" إلى الصفويين، وقاد الحملة بنفسه، وانتصر العثمانيون على الصفويين سُهوب جِلْدِير جنوبي شرق البحر الأسود في عام ١٥٧٨، ثم توغلوا في جورجيا وفتحوا تفليس أكبر مدن القوقاز. وشهدت السنة التالية معركة أخرى تغلب فيها الجيش العثماني على الجيش الصفوي مرة أخرى.

وفي عام ١٥٨٣ نشبت معركة ضد الصفويين سُمّيت "حرب المشاعل"[٢٢]، وأحرز الجيش العثماني نصرا عظيما بقيادة "عثمان أوزدمير أوغلو باشا" رغم ارتباك الجيش في البداية. ثم انتقل عثمان باشا بعد ذلك إلى كفَّه وعين "إسلام كيراي" خانا جديدا على القرم. وعندما عاد الباشا إلى إسطنبول قدَّم للسلطان مراد الثالث عرضا استمر لأربع ساعات حول تجربته. وكان السلطان يسمعه باندهاش أحيانا وابتهاج أحيانا أخرى، ومنحه هدايا سخية ودعا له. كما أصدر السلطان مراد الثالث أمرا بترقية عثمان أوزدمير أوغلو باشا إلى منصب الصدر الأعظم. وأُرسل الصدر الأعظم الجديد إلى فتح تبريز، واعترفت تبريز بالسيادة العثمانية بعد ذلك بقليل في عام ١٥٨٥، غير أنه تبين أن إدارة هذه المدينة ليست سهلة. ثم تُوفي عثمان أوزدمير أوغلو باشا بعد مرضه بشكل غير متوقع. وأغرقت أنباء موته مدينة إسطنبول في بحر من الحزن. لكن الجيش العثماني لم يتوقف، بل توجه إلى الأمام تحت لواء قائد جديد وهو فَرهاد باشا. وقد أدى تقدم القوات العثمانية الذي تزامن مع اضطرابات في الحكم الصفوي إلى توقيع معاهدة بين العثمانيين والصفويين نصت على دمج الأراضي المفتوحة حديثا في الأراضي العثمانية. غير أن الحروب استمرت على فترات متقطعة مع فارس الصفوية بين عامي ١٥٧٨ و١٥٩٠ عندما طلبت فارس الصفوية إبرام اتفاقية، فتم توقيع "معاهدة فرهاد باشا"، والمعروفة أيضا باسم "معاهدة إسطنبول"، في عام ١٥٩٠، والتي ضمنت ترسيم الحدود العثمانية في الشرق إلى أبعد الحدود التي يمكن الوصول إليها.

لكن الصعوبات المادية التي خلفتها الحروب الفارسية تسببت في جملة من المشكلات الأخرى. فقد أعقب تلك الحروب، على سبيل المثال، ثورة في صفوف قوات الانكشارية هدد مستقبل السلطان، وتم قمعها بشق الأنفس. وخلال الحروب المستمرة مع فارس استقبلت إسطنبول أنباء وفاة المعماري البارع سنان صاحب الصروح الأثرية الخالدة مثل مسجدي السليمانية والسليمية، وذلك عام ١٥٨٨.

السيف المبارك للرسول ﷺ، ويظهر المقبض والغمد وقد رُصّعا بقطع من الفيروز والياقوت في فترات لاحقة.

---

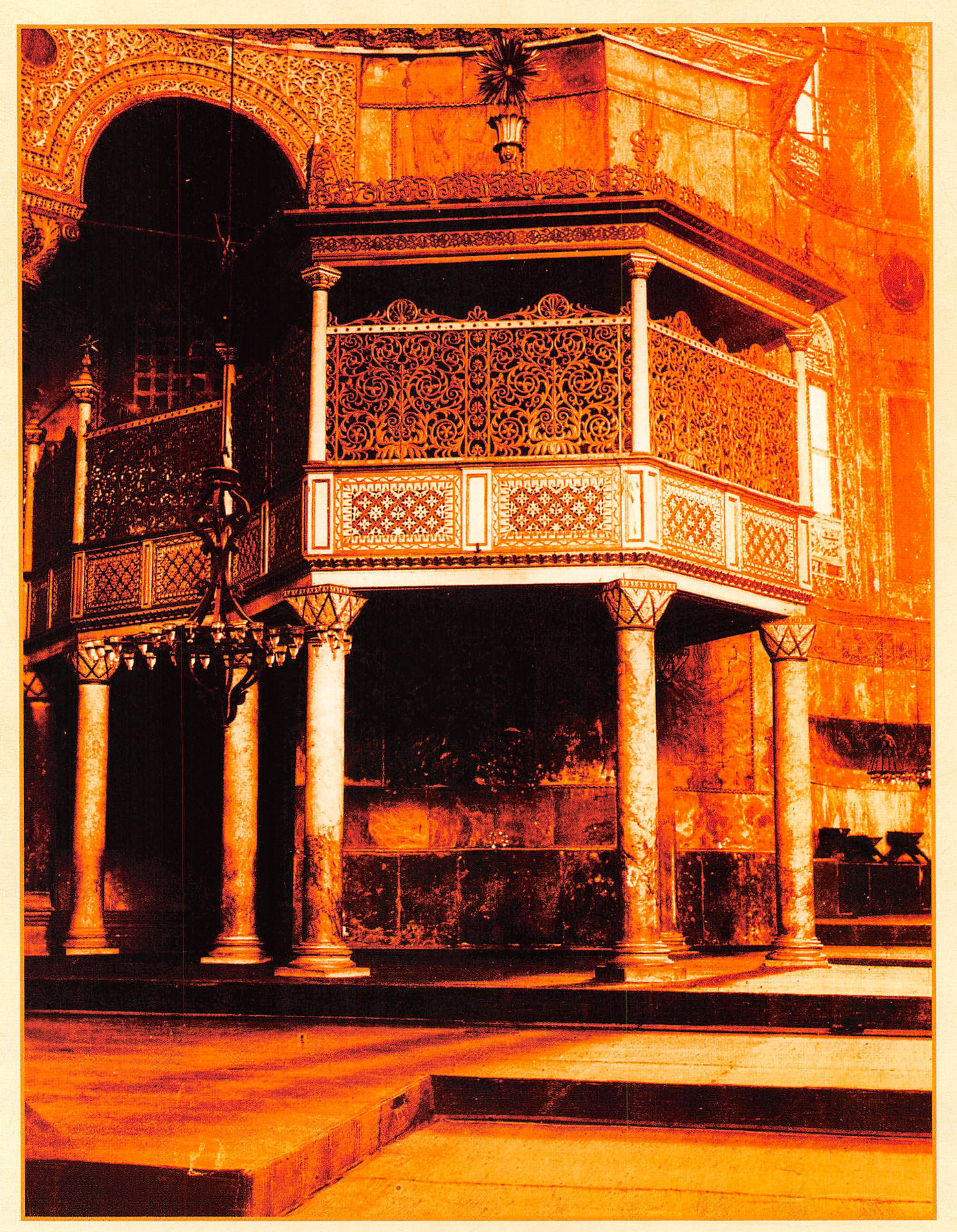
[٢٢] سميت المعركة بهذا الاسم لأنها وقعت ليلا تحت أضواء المشاعل.

اتبع السلطان مراد الثالث خلال فترة حكمه سياسة "عدو عدوي صديقي"، وبخاصة عندما أعطى الأولوية للمحافظة على علاقات أوثق مع بريطانيا في الوقت الذي كان يحارب فيه أسبانيا والبرتغال. والأكثر من ذلك أنه سمح للتجار البريطانيين بممارسة التجارة الحرة في الطرق العثمانية البحرية عام ١٥٨٠. وأقام علاقات مع خان أوزبكستان في آسيا الوسطى، كما أن تمدد الخطر الروسي إلى داخل القوقاز وسيبريا أدى إلى علاقات أوثق بين البلدين. ورغم أن المبعوثين الأوزبكيين أخبروا السلطان بأن الاستيطان الروسي في أستراخان سيكون مصدر خطر كبير؛ لأنه يفتح آسيا الوسطى بكاملها أمام الروس، وعرضوا أيضا القيام بجهد مشترك لقمع ذلك الخطر، فإن السلطان رفض العرض بسبب الأحداث التي كانت تجري في الغرب.

في عام ١٥٦٨ تم تجديد معاهدة إسطنبول التي وقعتها الدولة العثمانية والنمسا عام ١٥٣٣، غير أن النمسا خرقت المعاهدة برفضها دفع الجزية المتفق عليها للعثمانيين، بل والأكثر من ذلك أن القوات النمساوية بدأت تهاجم الأراضي الحدودية العثمانية، كما أثارت أمراء ولاشيا وترانسيلفانيا ومولدافيا ضد الدولة العثمانية. كل تلك التحركات وضعت البلدين على شفا الحرب، ثم كان اغتيال "تَلِّي حَسن باشا"، والي البوسنة العام، بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. ورغم أن الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم كوجا سنان باشا كان مستمرا في إحراز الانتصارات في المعارك الأولى لتلك الحرب فإن الجيش أصابه الشلل لاحقا بثورات أمراء ولاشيا. ووسط الظروف المتدهورة جاءت أنباء وفاة السلطان مراد الثالث عام ١٥٩٥. ولا يوجد إجماع بين المصادر على سبب وفاته، ومن بين الأسباب المذكورة جملة من الأمراض مثل الزكام والنزيف المعوي والصرع والتهاب الأمعاء.

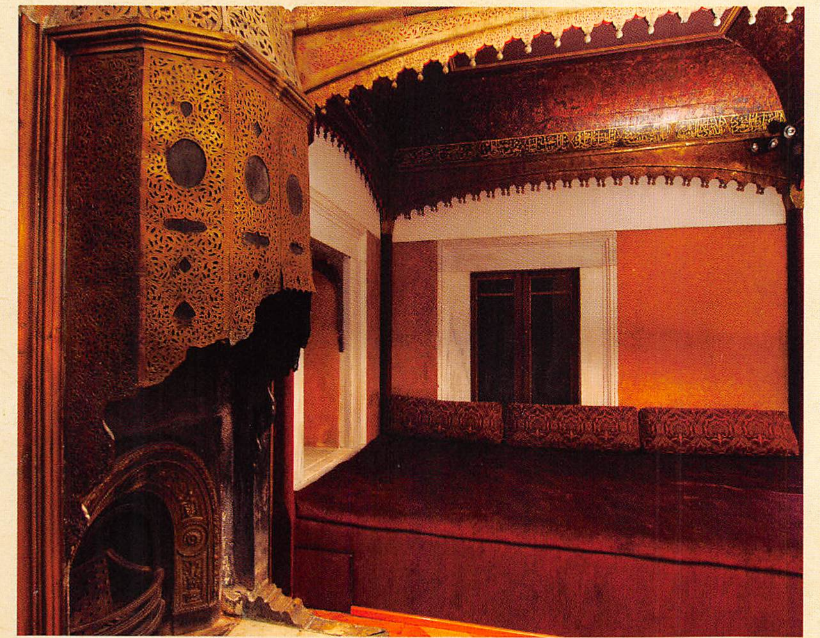
تروى المصادر أن مراد الثالث كرس وقته للأدب، وفن الخط، والفنون، وأنه اهتم بتاريخ العالم. وإضافة إلى ذلك، فقد كان طيبا وكريما للغاية مع أفراد عائلته. وكان أشقر الشعر، متوسط البنية، مرحا لطيف المعشر. وكان يمتنع عن إراقة الدماء ونادرا ما كان يقول "لا". وكان يحب ارتداء الملابس الفخمة المزينة بالحلي ووضع الجواهر القيمة على عمته. وكان فارسا موهوبا وراميا بارعا. وفي المقابل انتُقِد السلطان مراد الثالث بسبب إقحامه أشخاصا غير مؤهلين أو غير معنيين في شؤون الدولة، وبخاصة نساء القصر، وكذلك بسبب عدم خوضه الحملات بنفسه. ورغم أنه كان مقاتلا بطبعه فإنه كان محاطا بأشخاص ينصحونه بأن يدير شؤون الدولة من القصر ويقلل من الأسفار، فيبدو أنه لم يكن هو السبب، بل كان الأشخاص المحيطون به هم الذين حالو بينه وبين خوض الحملات بنفسه.

ومع ذلك دخلت الدولة العثمانية خلال عهده في حروب طويلة الأمد ومكلِفة ضد



معرض السلطان، أيا صوفيا

فارس والنمسا، مما تسبب في سلسلة من التطورات السلبية مثل تدهور نظام الإقطاع (تيمار)، وإهمالِ عدد كبير من القرى، وارتفاعِ معدل الهجرة إلى إسطنبول، وزيادة عدد أفراد الجيشِ العاديين (كابيكولو)، وتجنيد أفراد غير مؤهلين، وعدم التمكن من دفع رواتب الجنود في مواعيدها. ومما زاد من تفاقم الأوضاع انتشار وباء الطاعون، وحدوث زلزال عنيف في إسطنبول.



الرف الواسع للموقد والأريكة ذات المظلة في غرفة العزلة الخاصة بالسلطان مراد الثالث، وهما يظهران الذوق العثماني الرفيع في فن الديكور.

كان السلطان مراد الثالث رجلا خيّرا، وقد قام خلال عهده بتجديد الكعبة والبيت الحرام بمكة. كما قام بترميم المسجد النبوي في المدينة وجميع المجاري المائية على طريق الحج، وأنشأ جامعة وملجأ ومدرسة وزاوية (مأوى صوفي) في كل من مكة والمدينة. وشيّد كذلك في مانيسا -وهي المدينة التي قضى فيها سنواته كولي للعهد- مسجدَ المرادية الذي رسم تصميمَه المعماري سنان. وكان مُجمّعا عظيما يتألف من مسجد وجامعة وخان وفندق. كما أنشأ أيضا مسجدين في المورة ونافارين (بيلوس الآن)، ومازال مسجد نافارين باقيا حتى اليوم. وفي إسطنبول أنشأ مراد الثالث حجرة العرش في قصر "طوب قابي"، وأضاف إلى مسجد آياصوفيا منارتين شماليتين ومنبرا أنيقا ومحفل (أي معرض السلطان) مصنوع من عريش جميل. واستمر في عهد السلطان مراد الثالث المشروع الإنشائي الذي بدأ في عهد والده في مكة المكرمة، وأعطيت عناية فائقة لسلامة الحجاج وحماية آثار الرسول ﷺ بمكة. وقد توارث "السيف المبارك" الذي استخدمه الرسول ﷺ في معركة أحد وأهداه لاحقا لعمر بن الخطاب، ثم وصل إلى الأمويين ثم العباسيين فالمماليك، حتى استقر أخيرا في إسطنبول وسُلم للسلطان مراد الثالث، ومازال هذا السيف يُعرض إلى اليوم بجناح الأمانات المقدسة في قصر "طوب قابي".

# السلطان محمد الثالث

**فترة الحكم: ١٥٩٥-١٦٠٣**

**السلطان العثماني الثالث عشر**

**الألقاب والأسماء الشعرية:** الغازي،
و"فاتحُ أَكْرِي"، وعدلي (اسمه المستعار)

**اسم الأب:** السلطان مراد الثالث

**اسم الأم:** صَفيّة سلطان

**محل وتاريخ الميلاد:** مانيسا،
في سَهْلِ "شرْط" ٢٦ مايو/أيار سنة ١٥٦٦

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٢٩ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** نوبة قلبية،
توفي في ٢٠ ديسمبر/كانون الأول ١٦٠٣

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** إسطنبول،
ويقع قبره بالقرب من أيا صوفيا

**أبناؤه:** أحمد الأول، ومصطفى الأول،
وسليم، ومحمود، وجِهَانْكير





لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان محمد الثالث، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمى".



تذكر السجلات التاريخية أن محمدا الثالث وُلد خلال حملة زِكَتْوارْ التي قادها جده الكبير السلطان سليمان، وأن السلطان سليمان هو الذي سماه باسم جده السلطان محمد الفاتح. وقد اعتلى محمد الثالث، الذي كان واليا على مانيسا، العرشَ في عام ١٥٩٥ بعد وفاة أبيه مراد الثالث. وهو السلطان العثماني الأخير الذي يصل إلى العرش بعد أن كان واليا على مدينة وهو ولي للعهد..

كانت الحرب العثمانية-النمساوية مستمرة في الوقت الذي تولى فيه محمد الثالث. ونتيجة لسوء إدارة الصدر الأعظم سنان باشا لإمارات ولاشيا وترانسيلفانيا ومولدافيا انقلبت تلك الإمارات الثلاثة ضد العثمانيين وتحالفت مع النمسا. وفي هذه الأثناء، حاصر الجيش النمساوي حصن "إستركون" وفيشكراد، وتمكن من الاستيلاء عليهما في النهاية. وحزِن العثمانيون كثيرا لسماع تلك الأخبار وخصوصا سقوط إستركون. وتمثّل الأغنية الشعبية التي تقول:

"حصن إستركون

مكان عند قمة الماء

يحز في قلبي ألم الفراق"

دليلا على الاشتياق لإستركون.

طلب رجال الدولة وقوات الانكشارية أن يقوم السلطان بتسيير حملة ضد النمسا لمواجهة الهزائم المتوالية. وكانت أمه صفية سلطان تضعه تحت المراقبة الصارمة خلال سنواته كولي للعهد، وهو ما جعله شخصا انطوائيا وخاضعا لأوامرها. ولكن رغم تثبيطها له سار السلطان محمد الثالث بالجيش مما رفع معنويات الجنود والشعب أيضا، الذين لم يروا سلطانا يقود الجيش بنفسه في ميدان الحرب منذ عهد السلطان سليمان. وسار الجيش من إسطنبول إلى بلجراد عام ١٥٩٥. وخلال الحملة وصلت السلطان أنباء وفاة ولده جهانكير البالغ من العمر ثلاثة أشهر. وبُعيد ذلك نجح العثمانيون في الاستيلاء على حصن أَكْري، أحد أقوى الحصون في شمال المجر الذي لم يكن العثمانيين قد سيطروا عليه بعد. وبعد ذلك الفتح، سُمي محمد الثالث بـ "فاتح أَكْري".

ردت النمسا على فتح الحصن بتنظيم جيش صليبي لمواجهة العثمانيين، والتقى الجيشان عند مزوكرستس (المعروفة أيضا باسم هاجوفا) بالقرب من أَكْرِي، ووقعت معركة شرسة بينهما. أقام محمد

الثالث خيمته السلطانية في موقع إستراتيجي مما مكنه من قيادة جيشه بشكل فعال. وكان الجيش العثماني يعاني من إصابات وخسائر شديدة في الأرواح، فبدأ الجنود يتفرقون ويفرون من ساحة المعركة. وعندما اقترب الصليبيون من خيمة محمد الثالث، شعر العثمانيون بالخطر المحدق بسلطانهم، حتى إن بعضهم اقترح أن يتنكر السلطان فيغير ملابسه ويهرب متخفيا. غير أن السلطان، الذي كان قد اصطحب معه عباءة الرسول ﷺ وسيفه في الحملة، قرر البقاء في ساحة المعركة وقاد جنوده إلى النصر. وكان قد استمع لنصيحة شيخ الإسلام خُوجَة سعد الدين، حيث قال له: "يا سلطاني الحبيب! إنك السلطان العثماني، والخليفة الذي يتبع طريق الرسول ﷺ، ولذلك يحق لك أن ترتدي العباءة الشريفة وتبتهل إلى الله". وكان ذلك مثالا على الإصرار



السياسي الثمين والنادر من هذا السلطان الذي أخذ بزمام الأمور في تلك اللحظات الحَرِجَة.

وعندما رأى الجيش أن سلطانهم يصرُّ على البقاء والقتال، استجمع قواه لمقاومة أخيرة، ولم يقم بذلك الجنود فقط، ولكن أيضا أفراد خدمات الإمداد، ومن بينهم الطباخون وخُدّام القصر وعمال الإسطبلات وراكبو الجِمال والبغال، حيث شاركوا في الحرب بشكل مباشر. وذُهل الصليبيون من تلك المقاومة الشرسة، وفي نهاية اليوم حوّل الجيش العثماني الذي استعاد عافيته الهزيمة المحتملة إلى نصر أكيد. وبعد النصر قام الصدر الأعظم الجديد سيجالا زاد سنان باشا بإحصاء الحضور وإعلان أسماء الجنود الهاربين، ثم أُرسلت مراسيم سلطانية إلى الأقاليم المختلفة مع أوامر بالاستيلاء على ممتلكات الهاربين. فتسبب هذا البرنامج الضخم للمصادرة في وقوع أعمال تمرد عرفت باسم "الثورات الجلالية" في جميع أنحاء الأناضول، وكانت أعمال التمرد تلك سببا لزعزعة الأمن والاستقرار في الأناضول، كما كلفت الدولة العثمانية أضرارا كبيرة خلال عهد السلطان محمد الثالث.

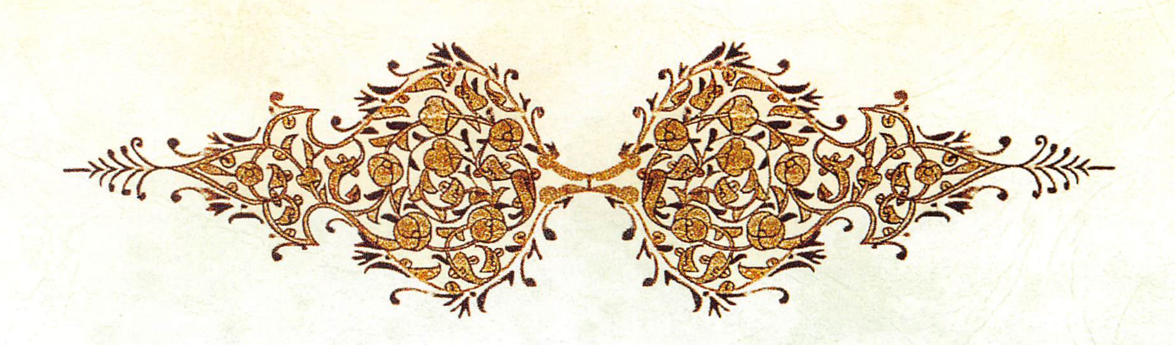
استولت القوات النمساوية على إسترجون وجيور شمال غربي المجر في عام ١٥٩٨، أي في العام التالي. وقد شعر السلطان بخيبة أمل بسبب هذه الهزائم المتعاقبة، وحزن حزنا شديدا أيضا لفقده ابنه سليم، الذي كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاما. وفي عام ١٦٠٠ حارب العثمانيون لاستعادة الأراضي التي استولت عليها النمسا وفتحوا حصن كانيسا بالمجر، وكان أحد أكثر المعاقل أهمية في أوروبا. ثم عاد الجيش إلى إسطنبول، وتمّ تعيين حسن ترياقي باشا حارسا لهذا الحصن، فقام جيش صليبي جديد بقيادة النمسا بمحاصرة حصن كانيسا لاستعادته، ولكن أمام الدفاع البطولي وأساليب الحيل الحربية الماهرة التي نفذها القائد حسن ترياقي باشا لم يصمد الصليبيون طويلا وانسحبوا في عام ١٦٠١.

في ذلك الوقت استغل شاه الصفويين عباس الأول الظروف؛ فالجيش العثماني كان يحارب النمساويين، وكانت الثورات الجلالية تثير الفوضى في الأناضول. فتحرك عباس الأول – في تلك الظروف الملائمة بالنسبة له – لإعادة الاستيلاء على الأراضي التي فقدها الصفويون بموجب معاهدة فرهاد باشا، كما سعى عباس الأول للتحالف مع البابوية والدول الأوروبية للحصول على الدعم. وفي غياب علي باشا والي تبريز العام نجح عباس الأول في الاستيلاء على منطقتي تبريز ونقشبان. ووسط الصراعات الدائرة مع النمسا في الغرب وفارس الصفوية في الشرق، تدهورت صحة محمد الثالث. وفي يوم ٢٧ سبتمبر/أيلول عام ١٦٠٣ وفيما كان يهِمّ بدخول القصر حذره درويش تبدو عليه التقوى من أنه ينبغي ألا يغفل وأن ينتبه ويستعد؛ لأن شيئا مهما

سوف يحدث خلال ستة وخمسين يوما. وفي ١٨ ديسمبر/كانون الأول اشتد المرض كثيرا على السلطان، وتوفي بعد يومين في ٢٠ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٦٠٣، كما تنبأ الدرويش.

خلال عهد السلطان محمد الثالث الذي اتسم بالفوضى، تعرض أمن البلاد والأمن الإقليمي بشكل متكرر وعنيف بسبب تكرار تمرد قوات الانكشارية في إسطنبول والثورات الجلالية في الأناضول. وعانت الدولة العثمانية بالفعل من مآزق خطيرة؛ فقد اشتدت حدة الأزمة الاقتصادية، وتنامى التضخم سريعا، وتصارع الباشوات على السلطة، كما اندلع حريق هائل في إسطنبول عام ١٥٩٨، واجتاحها وباء الطاعون أيضا. وعلاوة على ذلك ظهرت مشكلات إضافية بسبب سيطرة صفية سلطان على ولدها محمد الثالث وتدخلها بشكل مباشر في شؤون الدولة والتعيينات الإدارية. ومن هنا أخفق السلطان محمد الثالث في إظهار جميع خبراته ومهاراته الإدارية أثناء فترة حكمه، والتي كان قد اكتسبها من منصبه السابق حاكما على مانيسا. والواقع أنه كان آخر أولياء العهد العثمانيين الذين أرسلوا للأقاليم المختلفة لاكتساب الخبرة العسكرية والإدارية.

اتسمت شخصية محمد الثالث بالهدوء، لكنه كان انطوائيا ومترددا ومتقلب المزاج وسهل الانقياد. وإلى جانب هذه الصفات الشخصية كان السلطان مسلما متدينا ومتسامحا مع أصحاب الديانات الأخرى. وتشير السجلات التاريخية إلى مدى حرصه على إقامة صلواته اليومية وإلى مدى توقيره للرسول ﷺ.[٢٣] وقد ترك بعض ممارسات أبيه؛ حيث أصبح السلطان الأول الذي يشارك في الحملات العسكرية بنفسه بعد فترة طويلة، كما بذل جهودا كي يتصل بشعبه. ورغم أن حكمه امتد لفترة قصيرة نسبيا فإنها كانت نذيرا بحدوث جملة من الاضطرابات الوشيكة.



[٢٣] تصفه المصادر التي تتناول حياته مرارا وتكرارا بأنه كان يقف على الفور احتراما في كل مرة يسمع فيها اسم الرسول ﷺ.



في لوحة المنمنمات، التي تعود إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي، والتي رسمها طالق زادة صوفي جلبي يظهر السلطان محمد الثالث ممتطيا جواده وهو يقود الجيش خلال حملة إيجر. ومن بين مجموعة الأشخاص الذين يظهرون في اللوحة رجل على حصان يحمل العباءة المقدسة للرسول ﷺ (ملفوفة في غطاء) ويحملها على رأسه.





حفر يصوّر افتتاح الموكب السنوي للعطايا السلطانية المعروف باسم "مواكب الصرة" في حضور السلطان أمام جناح السلطان محمد الثالث. وفي لوحة الإمبراطورية العثمانية المعروفة باسم (Tableau Général de L'Empire Othoman) للفنان موراديجا دوسون، باريس سنة ١٧٩٠. ويوجد متحف آثار إسطنبول حاليا في موقع الجناح.



# السلطان أحمد الأول

## فترة الحكم: ١٦٠٣- ١٦١٧

### السلطان العثماني الرابع عشر

**الألقاب والأسماء الشعرية:** الغازي، وبَختي

**اسم الأب:** محمد الثالث

**اسم الأم:** هَانْدان سلطان

**محل وتاريخ الميلاد:** مانيسا، ٢٨ أبريل/نيسان سنة ١٥٩٠

**العمر عند اعتلاء العرش:** ١٤ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** التيفوئيد والنزيف المعوي، ٢٢ من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٦١٧

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** إسطنبول، ويقع قبره بالقرب من مسجد السلطان أحمد

**أبناؤه:** عثمان الثاني، ومراد الرابع، وإبراهيم، وبايزيد، وسليمان، وقاسم، ومحمد، وحسن، وسليم، وعُبيدة

**بناته:** وهَانْزَادَه سلطان، وعائشة سلطان، وفاطمة سلطان، وعاتكة سلطان



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الأول، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

اعتلى السلطان أحمد الأول العرش بعد وفاة والده محمد الثالث وهو ابن ١٤ سنة، فكان السلطان الأول الذي لا يمتلك خبرة سابقة في الولاية، وهو ما يمثل أمرا محفوفا بالمخاطر في ظل الثورات الجلالية المتنامية في الأقاليم الأناضولية.

في الوقت الذي استلم فيه أحمد الأول العرش كانت الدولة العثمانية في حالة حرب مع النمسا في الغرب ومع الصفويين في الشرق. وكان الجيش العثماني بقيادة "جِيكَالا زادة سنان باشا" قد قضى ذلك الشتاء في منطقة "وان" بجنوب شرق الأناضول دون شن أي حملات. وما إن هاجم الصفويون حتى نقل سنان باشا الجيش إلى أرضروم، لكن هذا الإجراء أثار استياءً بين الجنود وأدى بالجيش إلى ضياع موسم الحملات هباء. وسار الجيش أخيرا بهدف فتح تبريز عام ١٦٠٥، واستطاع الجيش العثماني الانتصار على الصفويين، لكن القائد العام سنان باشا وُضع في موقف صعب عندما قام قوزيه صفر باشا والي أرضروم العام بفصل قواته عن الجيش العثماني لمطاردة العدو، فقبض عليه كأسير حرب. حيث كان الشاه عباس ملك الصفويين قد أعد كميناً في لحظة حاسمة وهزم قوات قوزيه صفر باشا. وتراجعت القوات العثمانية المتبقية في بادئ الأمر إلى وان ثم إلى ديار بكر التي تقع على ضفاف نهر دجلة. وبعد وفاة سنان باشا المفاجئة في ديار بكر استولى الشاه عباس بسهولة على شيروان وشماخي وجانجا في جنوب القوقاز. ولم تكن الدولة العثمانية قد كلفت جميع قواتها بقتال الصفويين؛ لأنها كانت تحارب النمسا في نفس الوقت، فيما كانت الاضطرابات الداخلية في الأناضول تتفاقم. ولذلك انتهت الحرب ضد الصفويين بتوقيع هدنة سميت باسم الصدر الأعظم نصوح باشا.

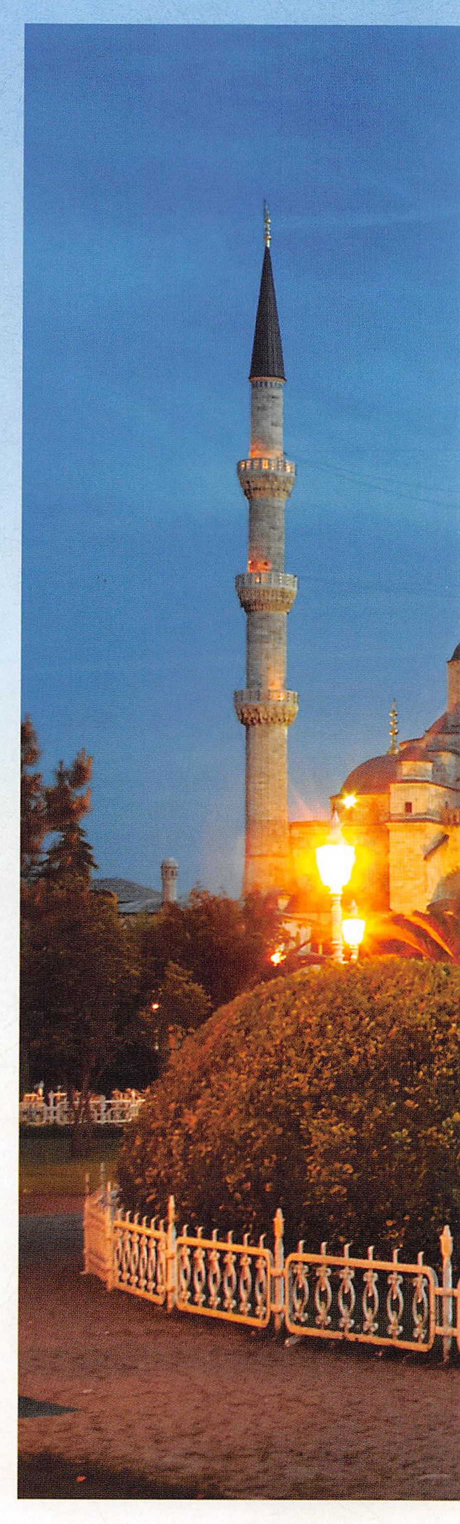
شكّلت الثورات التي اندلعت في الأناضول تحدياً مرعبا خلال عهد السلطان أحمد الأول؛ فقد شغل قيام تلك الثورات جُلّ اهتمامه وامتد ليشكل نطاقا أشد من التأثير. وسوف تؤدي تلك الثورات التي قُمعت على نحو هزيل إلى ثورات أخرى في الأعوام التالية. وعلاوة على ذلك زادت حالة السخط التي أفرزتها الحروب العثمانية-النمساوية المتقطعة عندما فُرض مزيد من الضرائب على الرعايا العثمانيين. كذلك أظهرت وحدات الفرسان من الإقطاعيين علامات الضعف، حيث كانوا ملزمين بالتواجد مع الجيش في وقت الحرب ورعاية وإدارة الأرض التي عُهد بها إليهم في وقت السلم، كما تبيّن أنهم فرسان دون المستوى المطلوب للحملات. وتدهورت أيضا الأراضي الريفية التي كانت خاضعة لإدارة هؤلاء الإقطاعيين. وقد أعطى كل ذلك زخما للهجرة من المناطق الريفية إلى المدن؛ ما أدى إلى إهمال القرى والمزارع، وتقليل ضريبة الدخل الحكومية على الإنتاج الزراعي لأراضي الإقطاع.



البناء الهائل لمسجد السلطان أحمد، والمعروف أيضا باسم المسجد الأزرق لتميزه بقرميد إزنيق الرائع الذي يغطيه من الداخل، وترتفع فوق المسجد قباب رائعة وست مآذن مدهشة تطل على ميدان السلطان أحمد.

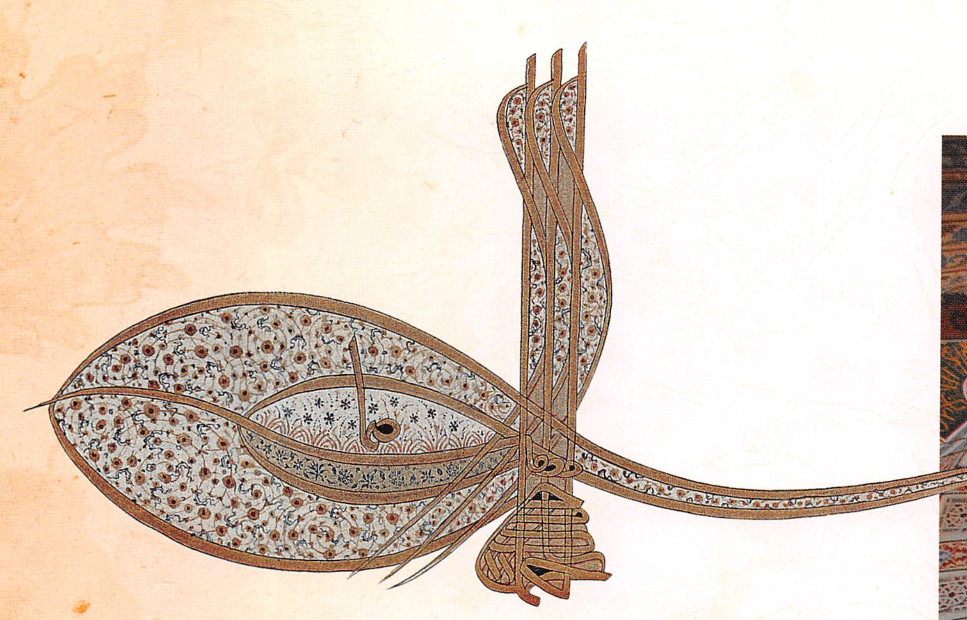
في الوقت الذي اعتلى فيه أحمد الأول العرش كان العثمانيون يشنون معارك ضارية ضد النمسا كما كانوا يفعلون من قبل في عصر أبيه. وقد ساهم فتح حصني فيسجراد وإسترجون من جديد عام ١٦٠٥ في تعزيز السلطة العثمانية في ولاشيا ومولدافيا وترانسيلفانيا، كما تم الاعتراف بالوضع الراهن من قبل أمراء ولاشيا ومولدافيا وترانسيلفانيا، الذين أثارتهم النمسا ضد الدولة العثمانية في وقت سابق. عند تلك النقطة لم يكن لدى النمسا خيار آخر غير طلب السلام. وقد نصت معاهدة سيتفاتوروك التالية، التي وقّعت عند المصب السابق لنهر سيتفا في نهر الدانوب عام ١٦٠٦، على احتفاظ العثمانيين بحصون إجري وإسترجون وكانيسا. ورغم أن المعاهدة بدت لصالح اﻟدولة العثمانية فإنها كانت مؤشرا على الجمود العثماني المستقبلي في أوروبا. وبإبرام المعاهدة مع القيصر النمساوي اعترف السلطان العثماني للمرة الأولى بالحاكم النمساوي باعتباره ندا دبلوماسيا مساويا له، فكانت تلك هي أول مرة يحدث فيها مساواة دبلوماسية بين سلطان عثماني وملوك أوروبا المجاورين، الذين كان العثمانيون يضعونهم في السابق في مستوى أقل يساوي الصدر الأعظم للسلطان. وكان ذلك دليلا على نهاية التفوق العثماني المطلق في الدبلوماسية الدولية، والذي كان قد ساد منذ عصر السلطان سليمان القانوني. وجرى تجديد تلك المعاهدة في السنوات التالية بسبب الثورات الجلالية المستمرة التي تسببت في مشكلات خطيرة للعثمانيين. كما أعاد السلطان أحمد الأول أيضا إعطاء الامتيازات التجارية الحرة الخاصة لكل من بريطانيا وفرنسا والبندقية، التي كان قد منحها السلاطين السابقون، ومنح هولندا أيضا نفس الامتيازات.

تذكر السجلات التاريخية أن أحمد الأول، الذي أصبح السلطان العثماني الرابع عشر وهو في الرابعة عشرة من عمره والذي حكم أيضا لمدة أربعة عشر عاما، توفي بسبب نزيف معوي في سن صغيرة في ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٦١٧. وقد كتب السلطان أحمد الأول، مثل كثير من السلاطين الآخرين، قصائد شعرية عديدة تحت اسم "بَختي". وكان السلطان أحمد الأول رجلا متدينا وخيّرا كما كان موضع تقدير واحترام لدى رعاياه إلى حد ما لأنه امتنع عن الانغماس في الملذات والمسليات. أما بالنسبة





زخارف السقف في القبب الهائلة لمسجد السلطان أحمد. وتتمتع المساجد العديدة التي أنشأها أفراد من السلالة العثمانية بعظمة وفخامة أكثر من مقار الحكومة العثمانية نفسها. وفي الواقع أن السلاطين العثمانيين كانوا يفضلون العيش في حياة متواضعة في أجنحتهم الصغيرة في القصر. فلم يكن قصر "طوب قابي" أو قصر "دولما بَاغجة" في إسطنبول أضخم أو أعظم القصور في زمانهما، رغم أنهما كانا رائعين ومذهلين فيما يتعلق بمدى التواضع والجمال الذي كانا يتسمان به.



طغراء السلطان أحمد الأول

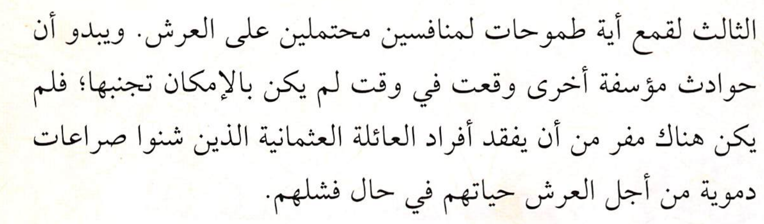
لشؤون الدولة فقد كان صارما فيما يتعلق بتنفيذ العقوبات على الأشخاص الذين يظهرون إهمالا أو خيانة في مناصبهم. والحقيقة أنه كان مجبرا على الحكم بأسلوب صارم بسبب زيادة الثورات الداخلية، وفشله في قمعها خلال عهده ولحاجته إلى استعادة سلطته.

وكان أكثر التغييرات أهمية في جهاز الدولة خلال عهده هو تعديل قوانين خلافة العرش، وبخاصة إلغاؤه تنفيذ قتل الإخوة -الذي ظهر عندما تنافس أولياء العهد على الخلافة خلال الحرب الأهلية بعد هزيمة يلدريم بايزيد في معركة أنقرة عام ١٤٠٢- وإصداره قوانين جديدة للخلافة تعتمد على "الأكبرية" (أي الأكبر سنا) و"الأرشدية" (أي الأكثر نضجا وحكمة). ووفقا للقوانين الجديدة أصبح مصطفى الأول، شقيق السلطان أحمد، هو وريث العرش بحكم القانون. وكذلك لم يعد إرسال أولياء العهد كأولياء على الأقاليم المختلفة لاكتساب الخبرة العسكرية والإدارية إجراءً معمولا به، وأصبح يتم بدلا من ذلك إبقاؤهم في جناح القصور التوائم بقصر "طوب قابي".



الغرفة الخاصة بالسلطان أحمد الأول، وهي رائعة بتنوعها الثري من قرميد إزنيق الذي يغطي الجدران وصولا إلى القبة.

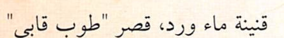
أدى نظام الخلافة الجديد القائم على الأكبرية والأرشدية إلى ارتفاع عمر السلاطين العثمانيين كثيرا عند توليهم العرش، كما أدى إلغاء تقليد إرسال أولياء العهد لتولي مناصب ولاة السانجاك إلى تقليل فرصتهم في اكتساب التدريب والخبرة الإدارية. وابتداء من السلطان أحمد الأول، أصبح من النادر انتقال العرش من السلطان لابنه، وأصبح ينتقل بدلا من ذلك من السلطان لأخيه، أكبر فرد في الأسرة. ومازال كبير الأسرة في السلالة العثمانية يتحدد من خلال قاعدة "الأكبرية" إلى اليوم. غير أن مبدأَي الأكبرية والأرشدية لم يوقفا منافساتِ الخلافة بين الإخوة خلافا للتوقعات. لكن ثمة إجماعا تقليديا بين المؤرخين على أن قيام السلاطين المتولين حديثا بقتل إخوتهم ورثة العرش كانت ممارسة تمت بشكل خاص في عهد مراد الثالث ومحمد



الثالث لقمع أية طموحات لمنافسين محتملين على العرش. ويبدو أن حوادث مؤسفة أخرى وقعت في وقت لم يكن بالإمكان تجنبها؛ فلم يكن هناك مفر من أن يفقد أفراد العائلة العثمانية الذين شنوا صراعات دموية من أجل العرش حياتهم في حال فشلهم.

شيد السلطان أحمد الأول مسجد السلطان أحمد، وهو من أعظم إبداعات المعمار العثماني، ويقع قبالة مسجد آياصوفيا. وحضر السلطان حفر الأرض بمعول ذهبي لبدء بناء مجمع المسجد. واشترك السلطان أحمد الأول بابتهاج في التجديدات الشاملة الحادية عشرة للكعبة بعد تضررها من السيول، وأرسل حرفيين من إسطنبول، وتم تجديد مزراب المطر الذهبي الذي يمنع تجمع المطر على سطح الكعبة. وفي عهد السلطان أحمد الأول أيضا وُضعت شبكة حديدية داخل بئر زمزم بمكة، حيث تم تثبيتها على بعد ثلاثة أقدام تحت مستوى سطح الماء لأن بعض المختلّين كانوا يقفزون في البئر ظنا منهم أنهم بفعل ذلك سيموتون أبطالا.

وفي المدينة المنورة وصل منبر جديد مصنوع من الرخام الأبيض من إسطنبول ليحل محل المنبر القديم المتهالك في المسجد النبوي. ومن المعروف أيضا أن السلطان أحمد الأول شيد مسجدين إضافيين في أسكُدار في الجانب الأسيوي من إسطنبول، لكنهما غير موجودين الآن. وكان للسلطان خوذة منقوش عليها أثر قدم الرسول ﷺ، الأمر الذي يشير إلى أحد أكثر الأمثلة تعبيرا عن حب الرسول ﷺ في التاريخ العثماني. ونُقش داخل الخوذة رباعية من تأليفه تقول: "ليتني أستطيع أن أحملك للأبد مثلما أحمل خوذتي على رأسي..."



قنينة ماء ورد، قصر "طوب قابي"



# السلطان مصطفى الأول

**فترة الحكم: ١٦١٧- ١٦١٨ (الفترة الأولى)**

**١٦٢٢- ١٦٢٣ (الفترة الثانية)**

**السلطان العثماني الخامس عشر**

**اسم الأب:** محمد الثالث

**اسم الأم:** هندان سلطان

**محل وتاريخ الميلاد:** مانيسا، ١٥٩٢

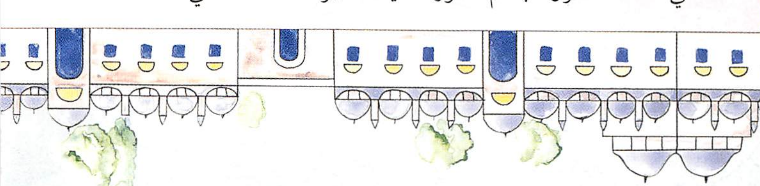
**العمر عند اعتلاء العرش:** ٣٠ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** لا يعرف سبب وفاته- وتوفي بتاريخ ٢٠ يناير/كانون الثاني سنة ١٦٣٩

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** إسطنبول، ويقع قبره بالقرب من مسجد آياصوفيا



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مصطفى الأول، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



كان السلطان مصطفى الأول هو أول سلطان يعتلي العرش خلفا لأخيه المتوفى. وقد أثرت الضغوط والمؤثرات التي تعرض لها بسبب إعدام أعمامه خلال حكم أبيه محمد الثالث، وحياته تحت المراقبة الصارمة في القصر خلال حكم أخيه الذي يكبره بعامين، كل ذلك أثّر على نفسية الأمير الشاب لأعوام كثيرة.

ورغم وضوح اضطراباته العصبية فقد كان هناك أمل في أن يتعافى الأمير بمجرد توليه الحكم. ولكن بعد الشهور الثلاثة الأولى من توليه أجمع رجال الدولة على أنه "غير قادر على الحكم"، وقاموا بعزله. واحتُجز السلطان مصطفى مرة أخرى وأُعلن عن تولي عثمان الثاني ابن السلطان أحمد الأول العرش وكان ذلك في ٢٦ فبراير/شباط سنة ١٦١٨. ورأى السلطان الصغير الجديد احتجاز عمه كافيا فأبقى على حياة مصطفى الأول، رغم أنه كان يستطيع التخلص منه لتجنب أية مخاطر محتملة. غير أن قوات فرسان الانكشارية أغارت على القصر فجأة، وقتلوا السلطان الصغير عثمان الثاني كي يعيدوا مصطفى الأول إلى العرش، حتى يستغلوا حالته العقلية الضعيفة. وأعيد مصطفى الأول إلى العرش مرة أخرى، لكن حالته العقلية ساءت كثيرا.

خلال فترة حكم السلطان مصطفى الأول الثانية، أدى قتل قوات الانكشارية المأساوي للسلطان عثمان الثاني إلى موجة عامة من الكره الشديد للانكشارية وسلاح الفرسان، واندلعت سلسلة من الثورات في جميع أنحاء البلاد. وكان السلطان مصطفى الأول يتألم من هذا الوضع لكنه كان مسؤولا تماما كالجيش في نظر العامة.

وتروي المصادر عن السلطان مصطفى الأول أنه اعتزل الناس خلال شهر رمضان وظل في كرب شديد، لكنه لم يبح بهمومه لأحد، ورأى في أحد أحلامه أخاه عثمان يرتقي إلى منازل عظيمة. وتذكر السجلات التاريخية أيضا أنه كان يُطلَب من عموم المصلين في المساجد الدعاء بتحسن صحة السلطان. وتروي مصادر أخرى حكاية قصيرة تلت موت عثمان تقول إن السلطان مصطفى الأول ذهب هنا وهناك في قصر "طوب قابي" يبحث عن المرحوم "عثمان"، وهو يصرخ باسمه ويتوسل إليه أن يريحه من ألم السلطة الذي لا يحتمل.

وبعد عام ونصف من الاضطرابات الداخلية قرر رجال الدولة أن حكم السلطان مصطفى الأول لم يعد شرعيا، فعزلوه للمرة الثانية، وأعلنوا السلطان مراد الرابع سلطانا جديدا لهم. وتعرض السلطان مصطفى الأول لضغوط هائلة، واحتُجز في غرفته بالقصر، ثم أُعلن أنه السلطان (مرتين!)، وشهد الغياب المؤسف لعثمان الثاني، وكل تلك التحديات أضعفت صحته العقلية المتدهورة بالفعل. وبعد احتجازه لمدة خمسة عشر عاما، توفي مصطفى الأول في ٢٠ يناير/كانون الثاني سنة ١٦٣٩، ودُفن بحدائق مسجد آياصوفيا.



سفراء أوروبيون يتناولون الغداء مع الصدر الأعظم بغرفة المجلس السلطاني (كوبيالتي)، وهي من رسم الفنان جان بابتيست هيلار.



حفر يصوّر "مَولِدُ آلآيي" (موكب المولد النبوي) الذي احتفل به السلطان أحمد بعد عودة الحجاج من موسم الحج.



# السلطان عثمان الثاني

## (الشاب)

### فترة الحكم: ١٦١٨- ١٦٢٢

**السلطان العثماني السادس عشر**

الألقاب والأسماء الشعرية: **الشاب، الشهيد، فارسي**

اسم الأب: **أحمد الأول**

اسم الأم: **ماهفَيروز سلطان**

محل وتاريخ الميلاد: **إسطنبول، ٣ نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٦٠٤**

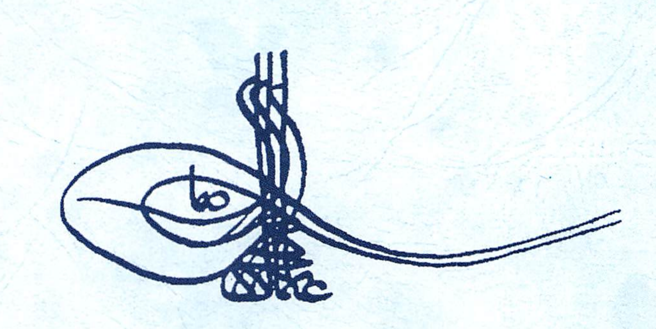
العمر عند اعتلاء العرش: **١٤ عاما**

سبب وتاريخ الوفاة: **الاستشهاد، ٢٠ مايو/أيار سنة ١٦٢٢**

مكان الوفاة وموقع الضريح: **إسطنبول- يقع قبره بالقرب من قبر أبيه السلطان أحمد الأول عند مسجد السلطان أحمد**

أبناؤه: **عمر ومصطفى**

بناته: **زينب سلطان**





لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان عثمان الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



السلطان عثمان الثاني هو أكبر أبناء السلطان أحمد الأول الذي سماه باسم عثمان غازي، أول السلاطين العثمانيين. ووفقا للتغيرات الجذرية في إجراءات الخلافة على العرش، اعتُرف بعثمان الثاني وأُعلن أنه السلطان الجديد وهو في الرابعة عشرة من عمره بناء على رغبة رجال الدولة بسبب عدم قدرة عمه مصطفى الأول على الحكم.

تلقى السلطان عثمان الثاني تعليما ممتازا، وكان يتصرف بحكمة ويدعم التجديدات في جهاز الدولة بأسلوب أكثر حكمة مما كان متوقعا بالنسبة لسنه الصغيرة. وبُعيد اعتلائه العرش، أكد عثمان الثاني سلطته من خلال إقالة أتباع مصطفى الأول من وظائفهم بالإضافة إلى رجال الدولة ومعلمه الروحي ومستشاره الذي أوصله للعرش أيضا. وقد حاربت الدولة العثمانية ضد فارس الصفوية والمملكة البولندية خلال عهده.

وفي الوقت الذي كانت تقام فيه مراسم اعتلائه العرش كان الصدر الأعظم خليل باشا القيصري يسير بحملة ضد فارس الصفوية؛ حيث كان الجيش الصفوي قد هزم قوات خان القرم في سهول سيراف، وقام الخان بدمج قواته مع قوات الجيش العثماني في ١٠ سبتمبر/أيلول عام ١٦١٨، وتوجه خليل باشا نحو مدينة أردبيل حيث كان الشاه عباس موجودا هناك. وكانت معاهدة سيراف، التي أُبرمت ردا على عرض الشاه عباس في ١٦١٨، قد نصّت على تخفيض كمية الحرير المقررة بموجب معاهدة نصوح باشا والتي يدفعها الصفويون للعثمانيين كجزية سنوية إلى النصف. ورغم موافقة السلطان الشاب على المعاهدة فإنه أقال خليل باشا وعين "داماد كارا محمد باشا" مكانه، بسبب عدم فعاليته أمام الصفويين.

كانت هناك علاقات ودية بين العثمانيين والمملكة البولندية، لكن بولندا – التي دخلت تحت وصاية الدولة العثمانية على يد الصدر الأعظم محمد سوكولو باشا (توفى سنة ١٥٧٩) – تدخلت الآن في الشؤون الداخلية لمولدافيا المجاورة لها، وهي أرض عثمانية وضعت بولندا عينها عليها. وعلاوة على ذلك كانت بولندا تشجع وتدعم بقوة القوزاق الذين كانوا يعتدون على الأراضي العثمانية في المنطقة الشمالية للبحر الأسود. وبالتالي تدهورت العلاقات العثمانية البولندية لتصل إلى حالة القتال التي تمثلت في دعوة الصدر الأعظم الجديد علي كُوزَلْجَه باشا عام ١٦٢١ إلى الحرب ضد مملكة بولندا.

وخلال فترة حرب الثلاثين عاما التي شغلت جزءا كبيرا من أوروبا المسيحية قاد السلطان عثمان الثاني الجيش العثماني بنفسه بهدف إحياء العصر الذهبي للدولة العثمانية.

وقام الجيش العثماني بمحاولة فاشلة للاستيلاء على حصن خُوتِين على سواحل نهر دنيستر على الحدود الشمالية لمولدافيا. وفي مواجهة التعزيزات القوية التي كانت تغزز الجيشين البولندي والقوزاقي فشلت كثير من الغارات التي قادها عثمان الثاني. ورأى السلطان أن قوات الانكشارية تقاتل بتردد وأن الشتاء يقترب سريعا، ولذلك استجاب لعرض ملك بولندا السلام، والذي كان في مصلحة العثمانيين، ووقع البلدان معاهدة خوتين عام ١٦٢١. وقد أعطت تلك المعاهدة حصن خوتين لأمير مولدافيا حليف الدولة العثمانية.

استدعى السلطانُ زوجتَه "عائشة سلطان" وابنه عمر وهو في أدِرْنه، لكن الأمير عمر توفي عندما أصيب برصاصة خلال الاحتفالات بنصر خوتين التي أمر السلطان بإقامتها بناء على طلب زوجته عائشة سلطان.

لوحة بفن المنمنمات تصور السلطان عثمان الثاني وهو جالس على العرش



لوحة بفن المنمنمات تصوّر الاحتفال بصعود السلطان عثمان الثاني إلى العرش.

حاول السلطان عثمان الثاني تنفيذ منظومة واسعة من الإصلاحات لوقف انحدار الدولة العثمانية. وكان يعتقد أن سبب جمود الدولة هو رجال الدولة المنتخبين بطريقة "دَوْشِيرمه"[٢٤] الذين كانوا يتساهلون مع الرشوة ومحاباة الأقارب ويتجاهلون حالات قصور إدارية واضحة. ولكي يضمد جراح الدولة فكر السلطان في الاستغناء عن موظفي البلاط المنتخبين بطريقة "دوشيرمه"من فيلق الانكشارية ليحل محله جيش جديد من سكان الأناضول، كما فكر أيضا في نقل عاصمة الدولة من إسطنبول إلى الأناضول.

وصلت الشائعات سريعا إلى الانكشارية حول ما ينويه السلطان من إلغاء فيلق الانكشارية نتيجة لعنادهم، الذي ظهر خلال حملة خوتين، وتجنيد جيش جديد. وكان لإعلان خروج السلطان إلى سوريا لقمع تمرد واسع في لبنان ثم ذهابه إلى مكة للحج تداعياتٌ أكبر. وكان فيلق الانكشارية في حالة من الغضب العارم حيث صدقوا الشائعات التي كانت تقول إن السلطان يستعد للتحرك ضدهم. وانتشرت شائعات أخرى تقول إن السلطان سوف يختار جنودا من الأناضول وسوريا ومصر لمهاجمة فيلق الانكشارية المتمرد. ووفقا للمصادر فقد كان اختيار السلطان تأدية صلاة الجمعة في مسجد السلطان سليم قبل ذلك التمرد الكبير لقوات الانكشارية علامةً على أن السلطان سوف يكون في طريقه قريبا إلى سوريا ومصر، تماما كما فعل السلطان سليم الأول الذي أبحر جنوبا في نهر الفرات إلى سوريا ومصر. وأدت موجة الإشاعات المتنامية إلى تمرد الانكشارية بعد ذلك بقليل، وأيد العلماءُ الانكشارية لأن العلماء باتوا مبتعدين أيضا عن السلطان.

رفض السلطان عثمان الثاني بشدة طلب الانكشارية تسليم بعض رجال الدولة، وقرر في تلك اللحظة مقاومة فيلق الانكشارية. وعندما اقتحم المتمردون قصر "طوب قابي" وأعلنوا أن مصطفى الأول هو السلطان،

---

[٢٤] كانت "الدَّوْشِيرْمَة" وحدة عسكرية عثمانية تتألف من صبيان يتم تجنيدهم من بين السكان المسيحيين في ريف الروملي غالبا. وكان هؤلاء الصبيان يكبُرون ويتعلمون المعتقدات والممارسات الدينية الإسلامية، ويتلقون تعليما كاملا يشمل مجالات عديدة منها القانون، والعلوم المختلفة، والألعاب الرياضية، والمهارات الإدارية. ثم بعد ذلك يلعبون جميع أنواع الأدوار في الدولة، وبخاصة في المؤسستين العسكرية والمُلكية حيث يصبحون موظفين بالبلاط السلطاني. وكان أكثر هؤلاء ذكاء يحصل على تعليم شامل لسنوات طويلة بما يتفق مع المعايير الأكاديمية الصارمة في مدرسة أندرون (الجزء الداخلي من قصر السلطان) داخل قصر "طوب قابي" حيث يتمكن الطلاب الأكثر قدرة من الوصول إلى أعلى مركز في الدولة وهو مركز لصدر الأعظم مثل بلتجي محمد باشا وقرة داود باشا وسنان باشا. أما الذين دخلوا الجيش، فكانوا يمرون أيضا بفترة تدريب تحت نظام صارم في مدارس الطلاب العسكريين. وبعد أن يتلقوا تعليما عسكريا صارما، ينضمون لفيلق النخبة من المشاة المستديمة، والذي يسمى الانكشارية. وكان أفراد الانكشارية يتقاضون رواتب ثابتة ويتمتعون بمستوى معيشي مرتفع ومكانة اجتماعية محترمة. ولكن في القرن السابع عشر فَقَدَ نظام الدوشيرمة وظائفه تدريجيا بسبب الفساد المتنامي بين أفراده. وأصبحت الانكشارية أقل فعالية في ساحات المعارك، وشاركت في التمرد، وأعاقت جهود تحديث هيكل الجيش.



أصبح من الواضح أن الجهود الكبيرة التي بذلها شيخ الإسلام أسعد أفندي، والد زوجة عثمان الشاب، لإنهاء التمرد ومنع اعتلاء السلطان السابق مصطفى الأول العرش مرة أخرى قد باءت بالفشل. وحتى رضوخ عثمان الثاني في نهاية المطاف لمطالب المتمردين وتسليمه لرجال الدولة المطلوبين لم ينقذ الموقف. ثم لجأ عثمان الثاني إلى علي باشا قائد فيلق الانكشارية وطلب منه إرضاءهم، فردت الانكشارية على قائدها بقتله بطريقة وحشية. اعتقل فيلق الانكشارية السلطان عثمان وأهانوه ثم قدموه للسلطان مصطفى الأول في عام ١٦٢٢. وبعد ذلك سجنوه وأعدموه في زنزانات الأبراج السبعة. وبذلك كان عثمان الشاب أول سلطان عثماني في التاريخ يغتاله جنوده.



كانت مواطن النقص في عثمان الثاني تكمن في قلة خبرته باعتباره سلطانا صغير السن، وطبيعته القاسية، وعدم قدرته على معالجة القضايا بهدوء ورباطة جأش. ونتيجة لظهوره كثيرا بين العامة بملابس عادية وغاراته المفاجئة على الحانات، فقد عثمان الثاني سمعته في عيون الجنود والمثقفين والعامة. وقد كافح من أجل تقنين جملة من الإصلاحات الأساسية من أجل إحياء الإمبراطورية على غرار عصري السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني. كما سعى إلى تنظيم الجيش فكان يفتش سرا على الجنود وهو متخفٍ ولم يكن يتردد في معاقبة من كان يضبطه مذنبا. وكان شاعرا مطبوعا كتب قصائد رائعة مستخدما اسم "فارسي". كما كان شغوفا بالرياضة وفارسا وراميا رائعا.

منظر عام لشبه جزيرة إسطنبول التاريخية خلال العهد العثماني



# السلطان مراد الرابع

## فترة الحكم: ١٦٢٣- ١٦٤٠

### السلطان العثماني السابع عشر

**الألقاب والأسماء الشعرية:** فاتح بغداد، والغازي، وصاحب قِران (أي الحاكم الناجح دائما)، وشاه مراد، ومرادي

**اسم الأب:** أحمد الأول

**اسم الأم:** ماهَبَيكر (كوسَمْ) سلطان

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول، ٢٧ يوليو/تموز سنة ١٦١٢

**العمر عند اعتلاء العرش:** ١١ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** النقرس، ٩ فبراير/شباط سنة ١٦٤٠

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** توفي بإسطنبول، ودُفن بالقرب من السلطان أحمد الأول في ضريح أحمد الأول عند مسجد السلطان أحمد

**أبناؤه:** سليمان، ومحمد، وعلاء الدين، وأحمد، ومحمود

**بناته:** كايا إسمهان سلطان، ورقية سلطان، وحفيظة سلطان





لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مراد الرابع، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

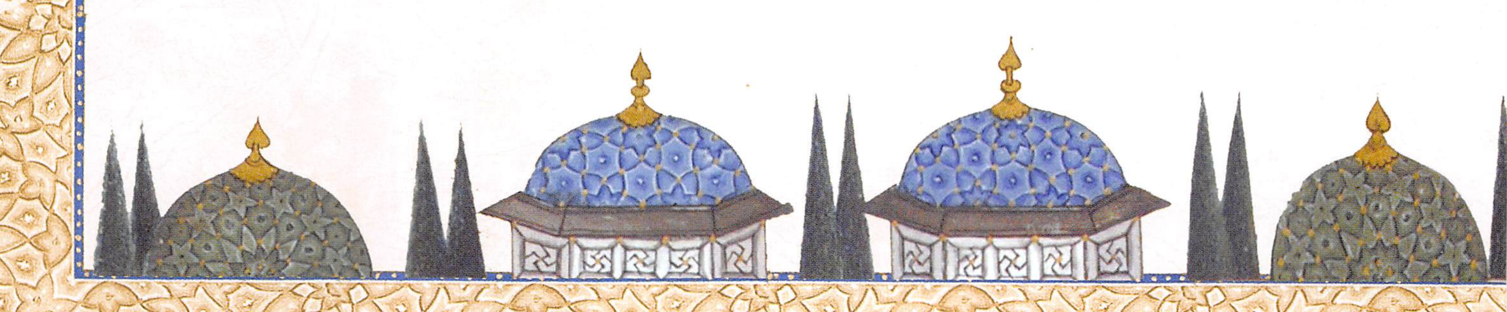


عزلت الانكشارية السلطان عثمان الثاني وأعادت مصطفى الأول للعرش في عام ١٦٢٢. لكن الصدر الأعظم وكبار رجال الدولة أجبروا مصطفى الأول على التنازل عن العرش مرة أخرى بسبب قصوره العقلي ولفشله أيضا في إنهاء الفوضى الإدارية التي عمّت خلال حكمه الذي دام لمدة عام ونصف. وأُعلن مراد الرابع، وريثُ العرش البالغُ من العمر أحد عشر عاما، سلطانا جديدا في عام ١٦٣٢.

أُلقِي خطاب اعتلاء العرش عند ضريح السلطان أيوب، وكان عزيز محمود هُدايي هو من قلد مراد الرابع سيفه السلطاني. وتولى كل من السلطانة الوالدة "ماهبيكر كوسَم" والصدر الأعظم "علي كَمَنْكَش باشا" الإدارة المركزية لحداثة سن السلطان الجديد. وكان السلطان صغير السن جدا أيضا بحيث لا يمكنه الرد على العنف المتفشي في إسطنبول من قبل الجيش عقابا لرجال الدولة الذين ناصروا حركات تمرد الانكشارية لمصلحتهم الخاصة. ولم يكن قادرا أيضا على إخماد الثورات التي نشبت في بعض الأقاليم. تنكر مراد الرابع وجاب شوارع إسطنبول بحثا عن أسباب تدهور الأمور، واستعد لتغيير سيادته الظاهرة إلى سيادة حقيقية فعلية.

قضى مراد الرابع سنواته التسع الأولى على العرش في اكتساب الخبرة في إدارة الدولة العثمانية. وفي مايو/أيار عام ١٦٣٢ قام بمحاولة شجاعة لمقاومة المتمردين. وعندما أصبح سلطانا مؤهلا انتقد نساء القصر والأغوات (كبار موظفي القصر) وهاجمهم بشدة، وحرمهم في النهاية من إمكاناتهم التي كانوا يستغلونها للتلاعب بشؤون الدولة.

قام محمد أباظة باشا والي أرضروم العام بتمرد مضاد انتقاما لمقتل السلطان عثمان الثاني، فاستولى على أرضروم والمناطق المجاورة لها بشرق الأناضول في عام ١٦٢٤، وقتل أفراد الانكشارية الموجودين بالمنطقة. لكن قوات مراد الرابع هزمت محمدا أباظة باشا بالقرب من قيصري في وسط الأناضول، وتراجع الباشا إلى



أرضروم لكنه عاد ليتمرد مرة أخرى في وقت لاحق. فقبض عليه الصدر الأعظم خسرو باشا وجاء به إلى إسطنبول. وبعد أن جاء إلى حضرة السلطان عفا عنه، وعينه واليا عاما على البوسنة.

لكن التمرد الأشد اندلع في إسطنبول في ٧ فبراير/شباط عام ١٦٣٢. حيث كان خسرو باشا، الصدر الأعظم الذي حل محل أحمد حافظ باشا، يظلم ويبطش بالناس في الأناضول خلال حملاته على همدان وبغداد، ثم فشل في الحصار. ولذلك، استُدعي حافظ أحمد باشا ليكون الصدر الأعظم مرة أخرى بدلا من خسرو باشا. وقام طوبال رجب باشا الذي رغب في الترقي لمنصب ولاية أحد الأقاليم، بتحريض الجنود المؤيدين لخسرو باشا واندلع تمرد كبير.

تجمع الجنود في ميدان السلطان أحمد، ومشوا إلى القصر لثلاثة أيام متعاقبة، وطالبوا بإعدام الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا، وكبير القضاة زكريا زاد يحيى أفندي، وقائد قوات الانكشارية حسن خليفة، بالإضافة إلى سبعة عشر رجلا آخرين من الرجال الأكثر ولاء للسلطان. وعندما رفض السلطان الرابع طلبهم بشدة، كسر قائد المتمردين باب السلام، وبوابة القصر الثانية، واندفع نحو فناء قاعة الديوان (ميدان الديوان)، وطلب المثول أمام السلطان. وبعد تهديدات من هؤلاء وجد السلطان مراد الرابع نفسه مجبرا على التفكير بجدية في نصيحة طُوبال رجب باشا الذي حذره من خطر خلعه عن العرش، فرضخ لمطالب المتمردين.

عرف الصدر الأعظم الوفي حافظ أحمد باشا مصيره، فمثل أمام السلطان قائلا: "سيدي السلطان! إن حافظ المتواضع أحد رعاياك [يعني نفسه] مستعد للتضحية بنفسه دائما من أجلك، غير أنني لا أريد أن أموت بناء على أوامرك المبجلة، بل أرغب في أن أموت بأيدي الغوغاء، لأن هذا يعني أنني سأموت شهيدا". ثم تقدم وهاجم المتمردين واستطاع أن يقضي على أحد أفراد الغوغاء القساة لكنه استشهد في النهاية. وبعد أن شهد السلطان تكشُّف سلسلة الأحداث المأساوية، انسحب إلى غرفته وهو يزمجر ويتوعد بالانتقام. ومنذ ذلك الحين تغيرت نبرته وأصبحت أكثر عدوانية تجاه المتمردين. وتجمع المتمردون لاحقا مرة أخرى في ميدان السلطان أحمد للاجتماع بالسلطان طالبوا فيه برؤية الأمراء. ورغم علمه بالمؤامرة التي كانت تجري وراء ظهره فإنه لم يستطع أن يفعل شيئا سوى أن يضحي بولديه الأمير بايزيد والأمير سليمان في طريق عودته من حملة يريفان.

أصبح ظهور المتمردين بشكل متلاحق هو النمط المتكرر بإسطنبول، بفعل سياسة التصعيد من جانب الصدر الأعظم رجب باشا. وفي محاولة من السلطان لقمع ثورات المتمردين وترسيخ سلطته، قام السلطان أولا بالتخلص من رجال الدولة الذين تبين فسادهم، وأعدم رجب باشا الذي



لعب دورا عميقا في عدة ثورات رئيسية بإسطنبول والأناضول. وأثار إعدام الباشا رعب أفراد وحدات فرسان السباهي الجامحين وأنصارهم، لكن الأمن استتب في إسطنبول والأناضول في نهاية الأمر.

كان الصفويون قد استعادوا بغداد خلال تلك الفترة. ورغم أن خسرو باشا ذهب في سلسلة من الحملات إلى همدان وبغداد فإن انتصارات قواته التي تعززت بالجنود الموجودين بالمنطقة منذ أيام أباظة محمد باشا لم تكن كافية لإعادة فتح بغداد بعد حصارها لفترة ليست بالقصيرة.

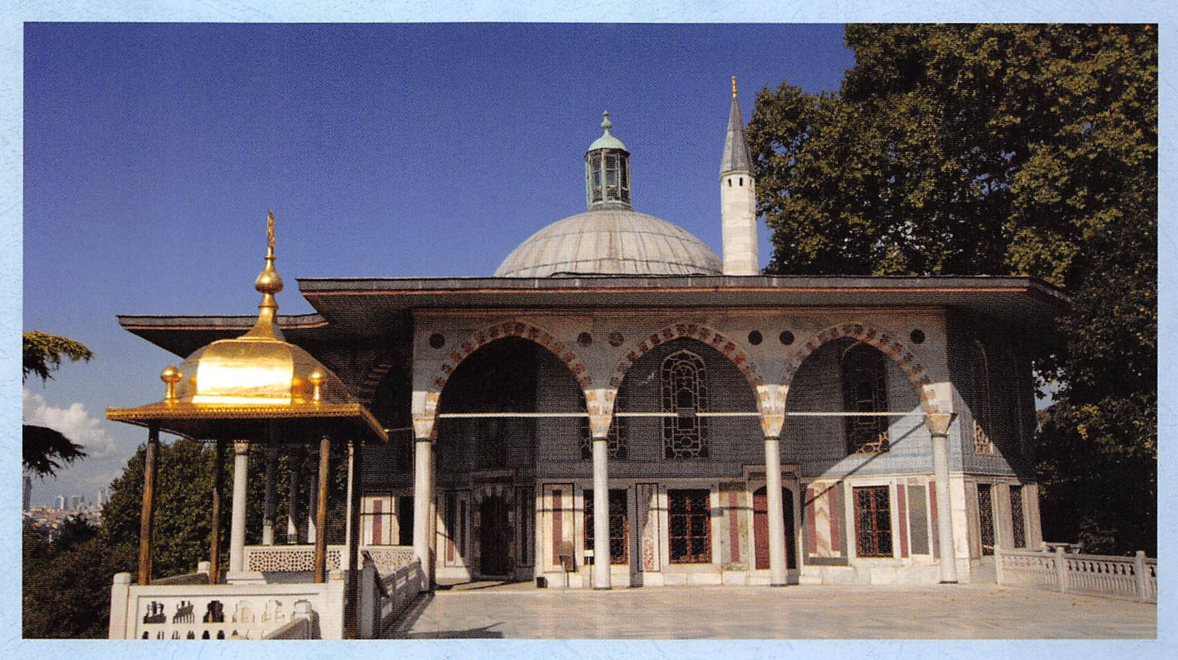
شن مراد الرابع حملتين ضد فارس، وخلال الحملة الأولى التي بدأت يوم ٢٨ مايو/أيار سنة ١٦٣٥، تحرك السلطان مراد الرابع بجيشه عبر الطريق الذي يمر من إزميت وأسكِيشَهير وقونية وقيصري وسيواس، وفي النهاية اخترق الجيش العثماني الضخم - الذي كان يتألف من أكثر من ٢٠٠ ألف جندي- منطقة أرضروم–كارس، ووصل إلى بوابات روان (يريفان اليوم). وقام الجيش بحصار قلعة يريفان وفتحها. وأرسل السلطان "أميرجوني أوغلو" – آخر قائد مسؤول عن الحصن – إلى حلب حيث عينه واليا عاما عليها. واعتنق أميرجوني أوغلو المذهب السني لاحقا، وسمى نفسه يوسف، لكن الناس ظلوا ينادون يوسف باشا باسم أميرجوني أوغلو طوال حياته حتى عندما استُدعي لإسطنبول ليترقى لمنصب الصدر الأعظم. والحقيقة أن البستان الرائع الذي أُعطي له على البوسفور مازال أحد الأماكن المفضلة للتنزه في إسطنبول، ويسمى أميرجان باسمه. وتخليدا لذكرى نصر يريفان شيد جناحٌ في الفناء الرابع بقصر "طوب قابي" وسمي جناح ريفان.

أعاد الصفويون الاستيلاء على يريفان بعد عودة السلطان مراد الرابع منها، وأرسلوا مبعوثا لطلب الهدنة. لكن السلطان مراد لم يسمح للمبعوث بالدخول إليه، وأرسل رسالة للمبعوث جاء فيها أنه "سوف يرد على الرسالة [طلب السلام] في بغداد"، وغادر المبعوث.

سار الجيش العثماني بقيادة مراد الرابع نفسه في حملة على بغداد. وفي نفس الأثناء قَتل ابنه الأمير قاسم نتيجة للشائعات المزعجة التي انتشرت قبيل الحملة. وقاد السلطان جيشا عثمانيا عظيما يذكّر بجيوش الفترة المبكرة. ومع وجود السلطان كجندي في صفوف المحاربين ضربت القوات العثمانية حصارا على حصن بغداد انتهى بإعادة فتح بغداد وضمها مرة أخرى إلى السيادة العثمانية عام ١٦٣٨.

وبعد فتح بغداد تجول السلطان مراد الرابع حول حصن بغداد وزار ضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة، مؤسس المذهب الحنفي في الإسلام. وأمر بعد ذلك بتجديد ضريحي أبي حنيفة وعبد القادر الكيلاني، وهما من أبرز الشخصيات في التاريخ الإسلامي. وكان السلطان يستطيع التقدم إلى أبعد من ذلك بكثير في بلاد فارس، لكنه لم يفعل، وعاد إلى إسطنبول بسبب صحته المتدهورة في الأساس. وأدت رحلة العودة الطويلة والشاقة إلى إسطنبول بإصابته بقروح في رجليه. فكان على الصدر الأعظم أن يقود محادثات السلام، وبناء على ذلك، وُقّعت معاهدة "قصر شيرين" (المعروفة باسم معاهدة زُهاب أيضا) في ١٧ مايو/أيار سنة ١٦٣٩ بالقرب من مدينة "قصر شيرين". وكانت تلك المعاهدة إشارة إلى النهاية الرسمية للحروب الدائرة بين الدولة





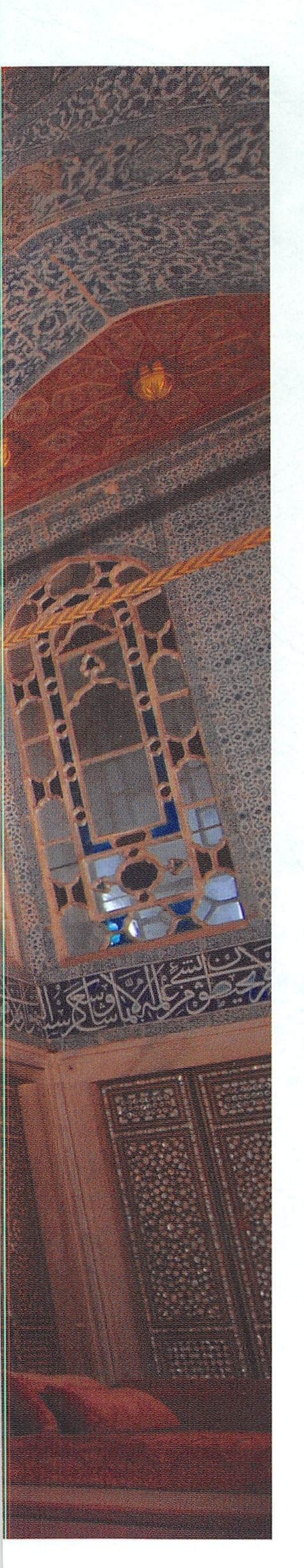
جناح بغداد كما يمكن مشاهدته من الشرفة المرصوفة بالرخام. ويتميز الجناح الذي أنشأه السلطان مراد الرابع بإطلالة رائعة على البوسفور.

العثمانية وفارس الصفوية، فجلبت السلام للمنطقة لأعوام طويلة متتالية، بل إنها وضعت الأساس للمرجعيات المستقبلية في العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

خلال الحروب مع فارس، أهملت مملكة بولندا دفع الجزية السنوية المتفق عليها، وزيادة على ذلك قامت بتحريض القوزاق الروس على مهاجمة الأراضي العثمانية. وبالتالي أمر السلطان مراد الرابع بتجهيز حملة ضد مملكة بولندا. وبعد فترة وجيزة طلبت مملكة بولندا السلام ووعدت بدفع الجزية السنوية لكل من الدولة العثمانية وخانية القرم.

في إحدى الحملات قام علي بشين أوغلو أميرالُ الأسطول العثماني في الجزائر وتونس بإرساء أسطول سفنه عند ميناء فلورا، القريب من ميناء باري الإيطالي. فاستغل البنادقة هذا الأمر وأرسلوا أسطولا ضخما لسد ميناء فلورا. وفي النهاية قاموا بمصادرة السفن العثمانية وحملها بعيدا في عام ١٦٣٨. أصيب السلطان مراد الرابع بالإحباط عند سماعه لتلك الأخبار، وأمر بإنهاء العلاقات التجارية مع البندقية وإغلاق محطة الجمارك الموجودة بميناء مدينة سبليت على السواحل الشرقية للبحر الأدرياتيكي. وأمام تلك العواقب الوخيمة هرع البنادقة لطلب السلام، ووُقعت معاهدة جديدة استأنفت العمل بالشروط التجارية وأجبرت البنادقة على دفع تعويضات، وكان ذلك في ١٦ يوليو/تموز عام ١٦٣٩.

جناح ريفان من الداخل، قصر "طوب قابي"



كافح السلطان مراد الرابع بإصرار كبير لإعادة الدولة العثمانية إلى مجدها، حيث تمكّن إلى حد كبير من إنهاء الفساد في الهيكل الإداري، واتخذ تدابير جذرية لقمع الثورات الجلالية. وأعدّ السلطان مراد الرابع مجموعة واسعة من الإصلاحات، وفقا لتوصيات تقدم بها المؤرخ قوشي بك، الذي قدم بيانا موجزا حول الموقف الحالي للدولة العثمانية العظمى بناء على طلب السلطان.

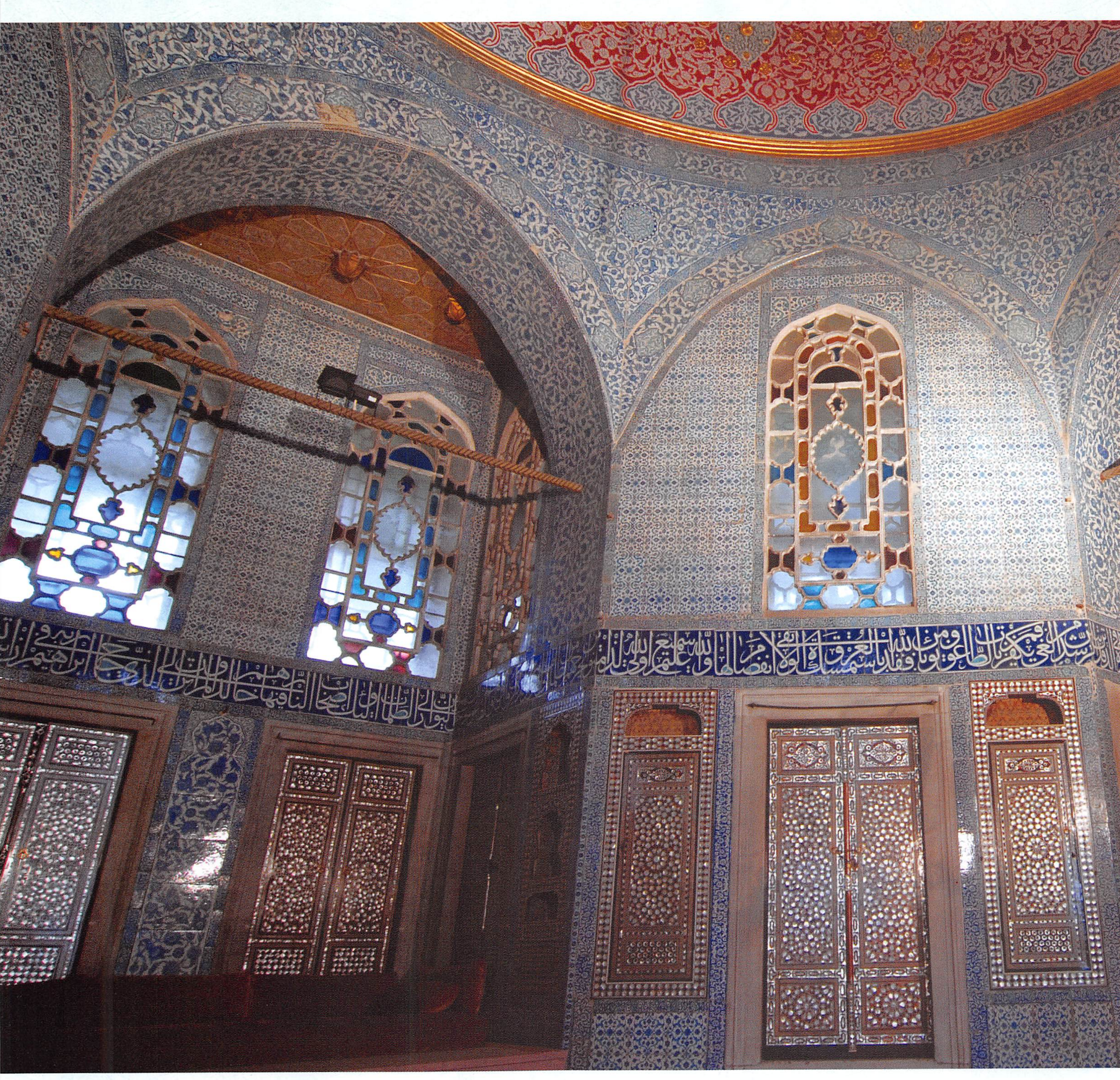
تدهورت صحة مراد الرابع بشدة في رحلة عودته من حملته العسكرية على بغداد، واشتد مرض السلطان على نحو خطير بعد يومين من الاحتفال بقدوم شهر رمضان المعظم، وتُوفّي بعد صلاة العشاء يوم الخميس ٨ فبراير/شباط سنة ١٦٤٠. ودفن أمام عدد كبير من الحضور في ضريح والده السلطان أحمد الأول بالقرب من مسجد السلطان أحمد. وسجل المؤرخ "نعيمة" الذي عاصر تلك الفترة في سجلاته التاريخية رواية تقول إن جناحا جديدا كان يُشيّد بقصر "طوب قابي" باسم جناح بغداد لتخليد ذكرى إعادة فتح بغداد، وعندما كانت الأسوار تغطى بلوحات الخط الديواني الجلي،[٢٥] كان الخطاط يكتب في لحظة ما قولَه تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٢٧) فتزامنت وفاة السلطان مراد الرابع مع اللحظة التي كان الخطاط يكتب فيها اسم إبراهيم.

وقد خلف السلطانُ مراد الرابع أخاه الأصغر إبراهيم على العرش.

كان السلطان مراد الرابع ضخم البنية، حيث اشتهر بقوته



(٢٥) الخط "الديواني" هو أحد أنواع الخطوط العربية يكتب بحروف متصلة، وكان يستخدم في الوثائق العثمانية، وفي الديوان العثماني بشكل أساسي، بالإضافة إلى المراسيم السلطانية وصكوك الأوقاف. اشتهر الخط الديواني خلال عهد السلطان سليمان القانوني وبلغ قمته في نهاية القرن التاسع عشر. يمتاز الخط الديواني بزخرفته ووضوحه وتعقيد الخط داخل الحرف، والتجاور اللصيق لحروف الكلمة الواحدة. والخط "الديواني الجلي" نوع من الخط الديواني يتسم بكثرة علامات التشكيل والزخارف.



جناح بغداد من الداخل ويظهر مزينا بزخارف جميلة وتفاصيل دقيقة.



جناح بغداد، مشهد من حديقة التيوليب

الجسدية وقدرة تحمله المشاق.. ولمّا كان مولعا بالرياضة فقد شيد "العرش الحجري" في حدائق قصر "طوب قابي"، وهو عرش مصنوع من الرخام الصلب، حيث كان يجلس ويشاهد مباريات طلاب مدرسة أندرون الداخلية بقصر "طوب قابي". وكان يشارك في الألعاب الرياضية أيضا من ذلك المكان من حين لآخر. وتسجل اللوحة الموجودة خلف العرش الرخامي أن السلطان مراد الرابع نجح في رمي هراوة من البلوط لمسافة ٢٦٣ قدم (٨٠ مترا) تقريبا، وهو يجري بفرسه بسرعة قصوى في شهر رمضان من عام ١٦٣٦، وهو ما يدل على قوته البدنية المذهلة. ومن بين الأمثلة الأخرى على قوته أنه رفع صولجانا وزنه ٥٦٥ رطلا (٢٥٦ كيلو)، وأنه صارع بعض المصارعين المحترفين في ذلك الوقت. وروي أيضا أنه رفع في إحدى المرات شخصا سمينا يسمى "سِلَاحْدَارْ موسى باشا" (وكان رجلا محترما ومسؤول مدرسة أندرون) وحمله ودار به حول الحجرة السلطانية في القصر عدة مرات.

كان السلطان فارسا متميزا وراميا موهوبا يتقن استعمال أنواعا كثيرة من البنادق. وكان مرتبطا بأحصنته بشكل كبير، ويهتم اهتماما خاصا بالإسطبلات السلطانية. وقد ربيت في تلك الإسطبلات خيول أصيلة سميت بأسماء "مجنون الجبل" و"الأغا المرقط" و"الطيار". وطبقا للعادات التركية القديمة جرت تلك الأحصنة المنتقاة من قصر "طوب قابي" إلى مسجد السلطان أحمد وسرْجها مثبت بالمقلوب.

وتروي المصادر أيضا أن السلطان مراد



عرش السلطان مراد الرابع المصنوع من الرخام والموجود بحديقة القصر؛ حيث كان السلطان محبا للرياضة ويشاهد المنافسات الرياضية من هذا المكان.

الرابع رمى سهما قبيل وفاته فاخترق إحدى البوابات الحديدية بقصر "طوب قابي". ورُوي أيضا أنه ثقب درعا مصنوعا من جلدِ وحيد القرن كان قد أرسله له شاه جهان حاكم الهند المغولية أثناء إقامته في الموصل على ضفاف نهر دجلة قبل حملته على بغداد. وكان يقال إن الدرع مضاد للسهام والرصاص، لكن المصادر تسجل أن السلطان خرق ذلك الدرع فأحدث ثقبين واضحين فيه بقوس وسهم أمام عيني المبعوث المغولي. ومما يتوافق مع تلك النادرة ما قيل عن مدى سهام السلطان وكيف أنها كانت تصل إلى مسافة أبعد من رصاص طلقات البندقية وأنه "لم يكن هناك مادة يعجز رمحه عن اختراقها". فقد كان يتمتع بموهبة مؤكدة في الرماية بالسهام والرماح، حيث كان يستطيع مثلا إطلاق السهام من القصر القديم (الذي يشغل مكانه الآن مبنى رئيس جامعة إسطنبول) إلى أسفل مئذنة مسجد بايزيد بميدان بايزيد، وأيضا من حصن حلب إلى مكان قريب من منطقة سراجْخَانه بحلب. وبالإضافة إلى الأمور المذكورة فإنه كان أثبت براعته في العزف على الكمان أيضا في مناسبات مختلفة.

كان السلطان مراد الرابع سلطانا غير عادي، ويتمتع بشخصية غير تقليدية. ففي حقبة من الجمود استطاع السلطان التعامل مع شؤون الدولة باجتهاد، وحاول التحقق من الأحداث التي تجري خارج القصر وفهمها من خلال زياراته المحلية متنكرا. ونجح إلى حد ما في إنقاذ الدولة من الفوضى التي كانت تعوقها. وتذكر مصادر غربية أنه أنشأ مكتب استخبارات محليا.



لوحة بفن المنمنمات لفرقة المختار في زيها العثماني الرسمي. وكانت فرقة المختار أقدم فرقة موسيقى عسكرية في العالم.

كان مراد الرابع يعرف اللغة العربية والفارسية بالإضافة إلى التركية، وكان يكتب القصائد باسم "مرادي"، وألّف أغاني الأناشيد العسكرية لفرقة الجيش العثماني التي كانت تسمى "مَهْتَر"، أقدم فرق الأناشيد العسكرية في العالم. ومن بين الأغاني الإسلامية التي ألفها الأنشودة الشهيرة التي تقول: "استيقظي يا عيني، استيقظي من الغفلة". كما كتب لوحات خطية عثمانية بخط التعليق (الخط الفارسي)، الذي يمتاز بالرؤوس القصيرة بدون خطوط رقيقة وجرات القلم الأفقية الطويلة. وكان السلطان مسلما ملتزما يحترم العلماء وكبار رجال الدين. وظهر خلال عهده الكثير من العلماء والمؤرخين والشعراء والخطاطين والموسيقيين العثمانيين، ومن بينهم "أوليا جلبي" و"كاتب جلبي" ونفعي و"شيخ الإسلام يحيى" وويسي و"قُوجي بك" و"عزمي زادة".

هطلت أمطار شديدة على مكة في أبريل/نيسان عام ١٦٣٩ فأغرقت المسجد الحرام، وارتفع السيل بمقدار قامتين وأحدث ضررا كبيرا بالمسجد. وما إن وصلت أنباء السيل السلطانَ حتى اجتمع بشيخ الإسلام وتسلم فتوى حول كيفية إجراء الإصلاحات، ثم عين السلطانُ القاضي العثماني محمد أفندي والمعماري الشهير رضوان آغا لإجراء الإصلاحات. وفي النهاية قام فريق من العمال المهرة تحت إشرافهما بإصلاح الأضرار التي أصابت الكعبةَ من جراء السيل، وأجروا إصلاحات شاملة بحيث فحصوا البنية الأساسية وقاموا بتحصين أساسات الكعبة. وكذلك فقد تمت الإصلاحات بأسلوب فريد حيث تم إحلال وتجديد الأجزاء والحجارة التي وقعت أو وفقدت وظيفتها بإحلال أجزاء أخرى محلها أحضرت من نفس المصدر الأولى.

ورغم أن فترة حكم السلطان مراد الرابع امتدت لأكثر من ستة عشر عاما، فإن حكمه الفعلي استمر لثمانية أعوام فقط؛ لأن والدته هي التي حكمت خلال السنوات الأولى من حكم السلطان الصغير الذي يفتقد الخبرة. وكانت شخصية السلطان مراد الرابع تشبه شخصية أحد أسلافه وهو السلطان سليم الأول، لكن مصيره كسلطان كان على العكس منه؛ حيث اعتلى السلطان مراد الرابع العرش وهو في الحادية عشرة، كما حُرم من رجال الدولة ذوي المواهب الاستثنائية. ولو كانت الظروف قد اختلفت، لكان هذا السلطان قد غيّر من مسار الدولة العثمانية على نحو مختلف تماما.

ورغم أن السلطان لم يسيّر أية حملة إلى أوروبا فإن مجرد وجوده كان يخيف الأوروبيين بشدة. وشعر الملوك الأوروبيون بفرح وسرور كبيرين لمجرد سماعهم برحيله. وخلف أخاه إبراهيم على العرش.



Ukraine
Russia
Donets
Dnieper
Don
Volga
Bender
Yedisan
Crimean Khanate
Kuban
Akkerman
Astrakhan
ARAL SEA
Sevastopol
BLACK SEA
Caucasia
Dagestan
CASPIAN SEA
Sinop
Samsun
Istanbul
Kars
Georgia
Shirvan
Trabzon
İznik
Ankara
Bursa
Otlukbeli
Erzurum
Yerevan
Erzincan
Azerbaijan
Van
Serav
Tabriz
Konya
Adana
Diyarbakır
Marj Dabik
Antakya
Rhodes
Mosul
Aleppo
Tehran
Hamedan
Tigris
Latakia
Syria
Qasr-e-Shirin
SEA
Cyprus
(1570)
Beirut
Euphrates
Safavid Persia
Baghdad
Damascus
Isfahan
Jaffa
Dumyat
Jerusalem
Arabia
Alexandria
Ridanieh
Basra
Cairo
Suez
Shiraz
Sinai
Aqaba
PERSIAN GULF
Hijaz
RED SEA
Egypt
(1517)
Al-Qatif
Medina
SCALE
Mecca
0 125 250 375 500 miles




حدود الدولة العثمانية (١٤٥١-١٦٨٣).

# السلطان إبراهيم

## فترة الحكم: ١٦٤٠-١٦٤٨

### السلطان العثماني الثامن عشر

اسم الأب: السلطان أحمد الأول

اسم الأم: ماهبَيْكَر (كوسَم) سلطان

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،

٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٦١٥

سبب الوفاة وتاريخه: الخنق،

بتاريخ ١٨ أغسطس ١٦٤٨

العمر عند اعتلاء العرش: ٢٥ عاما

تاريخ الوفاة: ١٨ أغسطس/آب سنة ١٦٤٨

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول،

ودفن في مقبرة مصطفى الأول بالقرب من مسجد أيا صوفيا

أبناؤه: محمد الرابع، وسليمان الثاني، وأحمد الثاني، ومراد، وأورخان، وبايزيد، وجهانكير، وسليم، ومراد

بناته: أم كلثوم سلطان، وبيكان سلطان، وعاتكة سلطان، وقايا إسمهان سلطان، ورقية سلطان، وحفيظة سلطان، وعائشة سلطان، وجوهر خان سلطان



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان إبراهيم، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

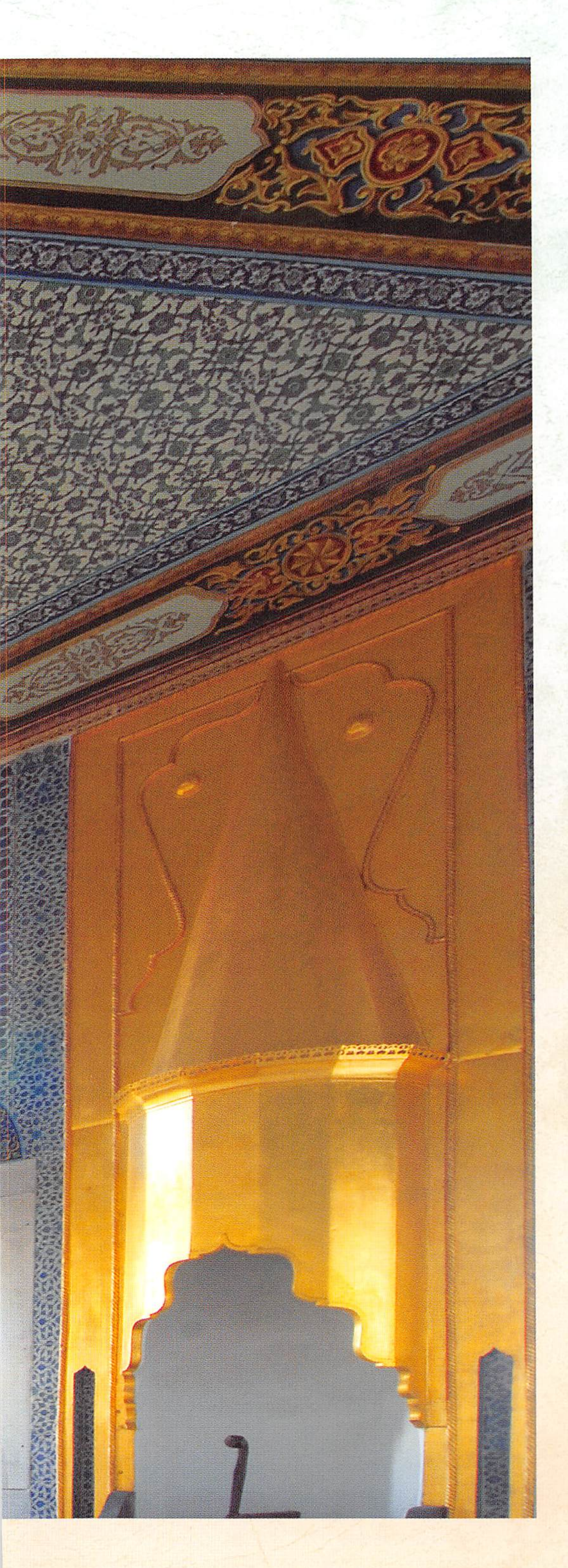
السلطان إبراهيم هو الابن الثالث للسلطان أحمد الأول الذي اعتلى ثلاثة من أبنائه العرش. وقد قضى فترة إمارته بقصر "طوب قابي" حيث كانت البلاد تمر بفترة من الاضطراب الداخلي. فَقَدَ السلطانُ إبراهيم أباه السلطان أحمد وهو في الثانية من عمره، وراقب عن كثب معاناة السلطان مصطفى الأول النفسية، وسلسلةَ الأحداث المرتبطة بحالته النفسية البائسة. كما كان لخلع أخيه الأكبر السلطان عثمان الثاني وقتلِه في سن صغيرة جدا على أيدي جنوده أثرُه العميق على السلطان إبراهيم. وأدت به الأحداث التالية إلى الاعتقاد بأنه سيلقى حتفه سريعا؛ حيث لم يستطع أخوه السلطان مراد الرابع تولي سيادته الفعلية طوال السنوات التسع الأولى من حكمه، واضطر مراد الرابع إلى الخضوع للاجتماعات المُهِينة المرتجلة مع المتمردين من الغوغاء الذين كسروا بوابات قصر "طوب قابي" وأَجبروا مرادا الرابع على تبني أسلوب يتسم بالوحشية والدموية المفرطة، وأخيرا قُتل إخوته الأكبرون منه بايزيد وسليمان وكاظم. ولكل هذا فقد عاش الأمير إبراهيم ينتظر اليوم الذي سوف يموت فيه أيضا، وهو ما أثر على نفسيته بشكل عميق لطبيعته الحساسة.

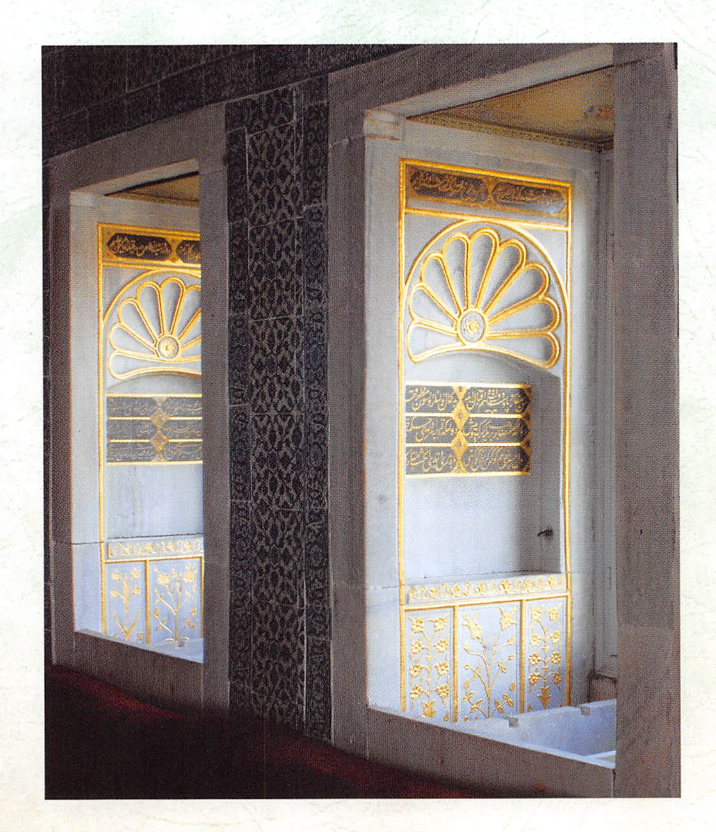
وبسبب وفاة أولاد أخيه مراد الرابع جميعا في حياة أبيهم، فقد بات الأمير إبراهيم الوريث الوحيد للعرش. وبعد سماعه أنباء وفاة السلطان مراد الرابع لم يُرِد إبراهيم مغادرة غرفته الخاصة ظنا منه أن تلك الأنباء ليست سوى جزء من مخطط يحاك ضده. ولم يصدق أنه السلطان القادم إلا بعد أن بَرهنت له أمه كوسم سلطان التي جعلته يرى جثمان أخيه الأكبر.

انقضت السنوات الأربع الأولى من حكم السلطان إبراهيم في سلام ونظام بفضل الصدر الأعظم "قرة مصطفى كَمَنْكَشْ باشا"، الذي كان يتصف بالنزاهة والاحترام والخبرة. ومقارنة بإدارة السلطان مراد الرابع ذات التوجه السلطوي، انتهج السلطان إبراهيم نهجا أقل قسوة وأكثر تسامحا، فكانت هناك فترة من السكينة. وتنم التعليمات التي أرسلها السلطان الشاب إبراهيم للصدر الأعظم عن أنه أولى اهتماما كبيرا بالدولة والصالح العام. وقد اعتاد السلطان إبراهيم الخروج في نزهات في أرجاء المدينة متنكرا، وأن ينبه الصدر الأعظم إلى الأمراض الاجتماعية التي تحتاج إلى معالجة سريعة تقوم بها حكومة أكثر فاعلية.

وبعد أربع سنوات تسبب إعدام كَمَنْكَشْ مصطفى باشا بأمر السلطان إبراهيم في شلّ نظام الدولة. وقام قوشي بك -المؤرخ الذي عاصر تلك الأحداث- بتسليم مذكرة أو رسالة للسلطان إبراهيم على غرار مذكرته السابقة التي وجهها للسلطان مراد الرابع، عاب فيها بشكل خاص على اللامسؤولية التي كانت تتسم بها مؤسسات الدولة، وانتقد نظام الشكاوى والوضع الراهن.

وبالرغم من أن السلطان إبراهيم كان يريد السيطرة على الإدارة مباشرة كأخيه مراد الرابع، إلا أن الاكتئابات والاضطرابات النفسية التي عاناها حالت دون





نافذة مزودة بنافورة رخامية لأحدى غرف الختان أنشئت لإبعاد الضوضاء عن الغرفة.

ذلك. وكان يُعرب عن هذه الاكتئابات والاضطرابات في خطوط كتبها للصدر الأعظم.

وفي عهده توجه الجيش العثماني إلى حصن أزوف على نهر أزوف الذي استولى عليه القوزاق الذين يعيشون على طول الأراضي الدنيا من نهر الدون. وعندما سمع القوزاق أن العثمانيين في الطريق دمروا المدينة وهربوا. وقام العثمانيون بإعادة فتح أزوف وشرعوا في تنفيذ خطة إصلاحات ضخمة بها.

ومن جهة أخرى بدأ أميرجوني أوغلو، حاكم يريفان القديم، في نشر بذور الخلاف بُعيد وفاة السلطان مراد. وكان قد سلم الحصن بسهولة للعثمانيين خلال حصارهم ليريفان ونال استحسان شقيق السلطان مراد الرابع في ذلك الوقت. غير أن



غرفة الختان في قصر "طوب قابي" بقرميدها النادر المجلوب من إزنيق، وتعد هذه الغرفة واحدا من إسهامات السلطان إبراهيم.

أميرجوني أوغلو أصبح وقحا وأصر على الرجوع إلى فارس. وقد حذره السلطان في عدة مناسبات، لكن إصراره على موقفه جلب غضب السلطان الشديد فأُعدم بعد فترة قصيرة.

تعرض سنبل أغا أحد كبار موظفي القصر ورفقته الكبيرة خلال رحلتهم إلى الحجّ بمكة إلى هجوم قراصنة مالطة الذين سرقوهم وقتلوا الكثيرين منهم، ووقعت تلك الحادثة بالقرب من جزيرة كريت. وقد أغضبت تلك الحادثة السلطان أيضا، مما أدى إلى إصدار أمر على الفور بإرسال حملة إلى مالطة. وأسدل السلطان ستارا من السرية التامة على حملة كريت القادمة، فيما كانت أصابعه تشير إلى مالطة في ذلك الوقت، وهو ما يعكس مواهبه الدبلوماسية آنذاك. وكانت كريت واحدة من أكثر الجزر أهمية من الناحية الإستراتيجية في البحر المتوسط. كما نجح في إبقاء الأمر سرا على السفراء الأجانب المقيمين بإسطنبول. ومنعت تلك المناورة الدبلوماسية أية محاولات لحشد قوات موحدة ضد العثمانيين من قبل العدو.

اختارت الإدارة العثمانية ضرب المستعمرة البندقية كريت تحديدا بسبب أهميتها الإستراتيجية في البحر المتوسط. وضرب العثمانيون في بادئ الأمر حصارا على هانْيا الواقعة في الساحل الشمالي للجزيرة. وعندما استسلمت مدينة هانيا في عام ١٦٤٥ بعد شهرين من الحصار أمر السلطان إبراهيم بإقامة احتفالات النصر استمرت ثلاثة أيام ولياليها. واستمر حسين باشا الذي عُين واليا جديدا على هانيا في العمليات، فاستولى على فورتيزا، قلعة ريثيمنو شرق هانيا. وتبين أن الفتح الكامل لجزيرة كريت مكلف وصعب للغاية، ولذلك استغرق دمج جزيرة كريت بكاملها في النطاق العثماني سنوات طويلة.

وحوصرت كانديا (هيراكليون الآن) أكبر مدن كريت أيضا، لكن البنادقة أقاموا حصارا بحريا على مضيق الدردنيل، أوقع العثمانيين في الحرج. وقد تعيّن على العثمانيين، إلى جانب الحرب، مواجهةُ حركات التمرد الجديدة التي اندلعت في إسطنبول والأناضول، وجاء إعدام الصدر الأعظم "كَمَنْكَشْ قرة مصطفى "باشا في عام ١٦٤٥ ليزيد الوضع سوءًا، فقد تسبب إعدامه في تفجر النزاعات والصراعات داخل القصر. فقد كان هناك صراع على السلطة داخل القصر بين الصدر الأعظم كَمَنْكَشْ قرة مصطفى باشا ويوسف باشا، وقد انضمت كوسم سلطان إلى هذا الصراع أيضا من وراء الستار. وفي نهاية الأمر عُزل السلطان إبراهيم في أعقاب انقلاب عسكري شديد التنظيم يوم ٨ أغسطس/آب سنة ١٦٤٨.

وعقب إعدام قرة مصطفى باشا حلّت الفوضى محلّ الاستقرار في الإدارة العثمانية. وبشكل عام أعقبت فترة من الفوضى حقبة السلام والنظام النسبيين السابقة. وقد اختل الأمن والنظام في عهود الصدور العظام الثلاثة "سلطان زاده محمد باشا"، وصالح باشا، وخاصة "هَزارباره أحمد باشا" حيث قام هؤلاء بالتصرفات العشوائية البعيدة عن العدالة والإنصاف.

لوحة بفن المنمنمات تصور السلطان إبراهيم أمام كوخ الإفطار.



يعد كوخ الإفطار واحدا من بين إسهامات السلطان إبراهيم في قصر "طوب قابي"

وبدأ الجميع يلهثون وراء استغلال قوة الدولة في مصالحهم الشخصية من خلال مكائد ومخططات مختلفة.. فقد فعل هؤلاء كل ما يستطيعون لإبقاء السلطان بعيدا عن الإدارة، وشجعوه على الترويح عن نفسه والانغماس في الملذات وحياة الترف داخل أسوار الحرم السلطاني حتى يتسنى لهم التلاعب بالدولة، مما أدى به إلى التصرف على نحو متضارب وغير متوازن.. وقد تضاعفت تصرفات السلطان الغريبة بشكل خاص عندما كان أحمد باشا يشغل منصب الصدر الأعظم. فعلى سبيل المثال استغل أحمد باشا اهتمام السلطان بالفرو، ففرض ضريبة على فرو السمور. وزاد استياء الناس في المدن والأقاليم الرئيسية بسبب إبعاد السلطان إبراهيم عن شؤون الدولة وحثه على الترويح وحاولت أمه كوسم سلطان تحذيره لكنها أُجبرت لفترة من الوقت على ترك قصر "طوب قابي" والعيش في بستان إسكندر، وهو بستان ساحلي بإسطنبول. وكان التغيير المتكرر للكفاءات في مناصب الولاية والولاية العامة نذيرا بوقوع مزيد من المآسي.

في تلك الفترة أيضا تمرد "وَارْوَارْ علي باشا" والي سِيوَاس العام وتم كبحه بصعوبة. كان الصدر الأعظم مهتما بمصالحه الخاصة فقط، وقد دفع هذا الأمر إلى انتشار عدد من الشائعات المدمرة، ثم اندلع تمرد واسع النطاق ردا على أسلوب الصدر الأعظم العنيد والمتصلب.

نشب التمرد في البداية ضد أحمد باشا فقط، غير أنه انتهى بعزل السلطان إبراهيم وإحلال ابنه الصغير محمد الرابع مكانه. قام المتمردون المشاركون في الثورة بالقبض على أحمد باشا وإعدامه، ثم قطعوا جسده إربا في ميدان السلطان أحمد. ومنذ ذلك الحين أصبح يسمى "هَزارباره" "أي "المقطع قطعا". وفي نفس الأثناء احتُجز السلطان إبراهيم في القصر التوأم بجناح الحريم في قصر "طوب قابي". وبعد انتهاء مراسم الاحتفال الخاصة باعتلاء ابنه محمد الرابع ذي السبعة أعوام، كانت تُسمع صرخات السلطان إبراهيم المدوية في أرجاء جناح الحريم، مما أثار شفقة الناس هناك وحزنهم في نفس الوقت. ثم قام نفس المتمردين الذين نصبوا محمد الرابع محل السلطان إبراهيم بإعدام إبراهيم في مقر احتجازه في القصر لشكهم في أنه قد يعود للعرش مرة أخرى.

وقد سُجل النقاش الأخير للسلطان السابق إبراهيم مع بعض رجال الدولة الذين زاروه في غرفته قبل



إعدامه في عدة مصادر معاصرة؛ حيث دافع إبراهيم عن نفسه ضد الاتهامات بالدليل المقنع والقاطع ولكن دون جدوى. ودُفن جثمان السلطان المتوفى في مقبرة مصطفى الأول بالقرب من مسجد آيا صوفيا في ١٨ أغسطس/ آب سنة ١٦٤٨.

واستمرت السلالة العثمانية من خلال نسل السلطان إبراهيم. فقد اعتلى ثلاثة من أبنائه العرش العثماني وهم محمد الرابع وسليمان الثاني وأحمد الثاني، بينما توفي الآخرون في سن صغيرة. وفي وقت لاحق مع نهاية الدولة العثمانية وصف السلطانَ إبراهيمَ بعضُ مؤرخي عهد المشروطية الثانية (١٩٠٨-١٩٢٢) بالمجنون، حتى إنهم بدؤوا في تسميته "السلطان إبراهيم المجنون". ورغم مروره بمحنة نفسية، وبخاصة خلال طفولته، فإن حالته العقلية لم تكن معيقة له مثل عمه. وكان السلطان يعبر أحيانا عن كربه النفسي الذي كان يعتريه من خلال كتاباته لصدره الأعظم، وتذكر لوحاته الخطية أزماته النفسية وإصاباته المتكررة بصُداع عنيف. ورغم كل ذلك فقد حاول السلطان إبراهيم جاهدا إدارة شؤون الدولة، وحضور اجتماعات المجلس السلطاني، والتدقيق في القرارات. وكان يريد معرفة أكثر بالأحداث الجارية على أراضي الحدود العثمانية. لكن عقلانية السلطان إبراهيم، التي ظهرت في سنواته الأولى على العرش، تلاشت لاحقا لعدة أسباب متشابكة، من بينها تدهور صحته، وزيادة تعقيد مسؤولياته بالدولة، وتقديم رجال الدولة للمشورة والعمل وفقا لمصالحهم الشخصية، وتدخُّل نساء القصر في شؤون الدولة وبخاصة السلطانة الوالدة.

ومما يشتهر عن السلطان إبراهيم أنه في إحدى زياراته وهو متنكر للشوارع شاهد طابورا طويلا جدا أمام أحد المخابز. وفور عودته للقصر كتب مرسوما سلطانيا لصدره الأعظم ينتقد فيه بشدة ما رآه، ويأمره باتخاذ التدابير اللازمة كي لا يضطر رعاياه إلى الانتظار بهذا الشكل للحصول على السلع الأساسية.

كان الاقتصاد العثماني جيدا إلى حد كبير خلال السنوات الأولى لحكم السلطان إبراهيم، حيث كان سلطانا سخيا، بل إن العثمانيين شهدوا خلال تلك السنوات فترة من الرخاء الاقتصادي. ومن الواضح أنه لو كان إبراهيم قد أُرسل إلى ولاية إحدى الأقاليم لاكتساب الخبرة الإدارية اللازمة، بدلا من مكوثه بالقصر ومروره بعدة أحداث مأساوية خلال طفولته، لصار سلطانا مختلفا على الأرجح، ولصار أقدر بكثير على تغيير مسار التاريخ العثماني على النحو الذي كان يريده.



# السلطان محمد الرابع

**فترة الحكم: ١٦٤٨-١٦٨٧**

**السلطان العثماني التاسع عشر**

الألقاب والأسماء الشعرية: آوجي (أي الصياد)

اسم الأب: السلطان إبراهيم

اسم الأم: خديجة تُرخان سلطان

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،

٢ يناير/كانون الثاني سنة ١٦٤٢

العمر عند اعتلاء العرش: ٧ سنوات

سبب وتاريخ الوفاة: النقرس أو الكرب النفسي أو السم،

ولا يُعرف تاريخ الوفاة

مكان الوفاة وموقع الضريح: أدرْنه،

ودفن في مقبرة والدته خديجة تَرخان سلطان بالقرب

من المسجد الجديد بإسطنبول

أبناؤه: أحمد الثالث، ومصطفى الثاني، وبايزيد،

وإبراهيم، وسليمان

بناته: خديجة سلطان، وفاطمة سلطان، وأمي سلطان



مثال جميل على ساعات الحائط العثمانية في القرن السابع عشر



لوحة بفن المنمنمات تصور السلطان محمد الرابع، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "كبيرْ مُصَوَّر سلسله نامه" أي (صور متخيلة لشجرة العائلة العظمى)

أصبح محمد الرابع السلطان الجديد وهو في سن السابعة من عمره، ذلك العمر المبكر جدا لاعتلاء العرش، بفضل دعم جدته كُوسَمْ سلطان ورجال الدولة وقوات الانكشارية بعد عزل والده السلطان إبراهيم في ٨ أغسطس/آب سنة ١٦٤٨. ولما كان محمد الرابع أصغر سلطان في التاريخ العثماني، فلم يكن قادرا بالطبع على حكم الدولة، وكان من المحتوم أن يمارس من أجلسوه على العرش سلطتهم إلى أبعد مدى. وبالتالي انقضت السنوات الثمانية الأولى في صراعات على السلطة بين الجدة والأم ومناصريهم. وفي اليوم العاشر من سلطنة محمد الرابع كان السلطان إبراهيم قُتل من قِبَل من نصبوا ابنه سلطانا على الدولة العثمانية خوفا من اعتلاء أبيه على العرش مرة أخرى.

في بادئ الأمر شهدت الدولة العديد من الفوضى والقلاقل؛ فقد أدى كلٌّ من إعدام والد السلطان الصغير، ودخول جدته كوسم سلطان في معركة مريرة ضد الصدر الأعظم صوفو محمد باشا، وعدم دفع رواتب وحدات الفرسان بالجيش في ميعادها، وانغماس قوات الانكشارية في السياسة إلى نشوب "واقعة ميدان السلطان أحمد" لتكون أول تمرد في عهد محمد الرابع، وذلك في ٢٥ من أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٦٤٨. ورغم نجاح الانكشارية في قمع التمرد فإن دورهم في التعامل معها أكسبهم نفوذا أكبر في شؤون الدولة. وفي الوقت الذي انتشرت خلاله الثورات في إسطنبول والأناضول، استمر البنادقة في سد مضيق الدَرْدَنيل، واتسعت دائرة الاستياء تجاه الانكشارية الجامحة في أرجاء العاصمة السلطانية. كما ارتفع معدل التضخم عندما احتفظ زعماء الانكشارية بالـ"آقجة" (مسكوكة فضية عثمانية) ذات القيمة الحقيقية لأنفسهم ودفعوا للجنود رواتبهم بآقجة فضية أقل قيمة. وكان السلطان الطفل مُبعدا عن شؤون الدولة، وكان يتم تسليته وإلهاؤه عن الإدارة من خلال اصطحابه في حفلات صيد في "كاغد خانه" التي تقع بطول نهر صغير يصب في القرن الذهبي، وكذلك حديقة "كولهانه" القريبة من القصر. وبعد فترة قصيرة أصبح الصيد هوايته المفضلة، بل إنه سيتحول لإدمان بالنسبة له لاحقا، ولذلك سُمي "الصياد".

كانت الأم الكبرى أو الجدة كوسَم سلطان قد عَيَّنت أتباعها في المناصب الإدارية الرئيسية، وقد مهّد ذلك الأسلوب التحكمي في التوظيف الطريقَ إلى حدوث تعقيدات غريبة لاحقا، وأصبح القصر العثماني في نهاية الأمر مسرحا لصراع مستمر بين زوجة ابن وحماتها. ثم نجحت الوالدة الصغرى خديجة تُرخان سلطان في التخلص من حماتها كوسم سلطان بمساعدة كبار موظفي القصر. وبالتالي فشلت كوسم سلطان في تنفيذ خطتها، وهي إحلال سليمان الثاني مكان محمد الرابع، لأنها اعتقدت أنها تستطيع التلاعب بشكل أفضل بأم سليمان، التي كانت أكثر سذاجة فيما يبدو من تُرخان سلطان، أم محمد الرابع. لعبت خديجة تُرخان سلطان دورا عميقا في إدارة الدولة لخمس سنوات

متوالية، ترقى خلالها "أحمد تارْخُونْجُو باشا" إلى منصب الصدارة العظمي عام ١٦٥٢ شريطة ألا يعارض سلطته أحد فيما يخص الشؤون المالية. حاول تارْخُونْجُو أحمد باشا الموازنة بين الدخل والمصروفات من خلال قوانين صارمة، لكنه بات محل سخط وازدراء وتم الاستغناء عنه بُعيد فرضه ضرائب على موظفي الحكومة وتقدّمه باستدعاء لخفض النفقات إلى القصر.

وبالإضافة إلى التغيّر المستمر في الصدور العظام اندلع تمرد جديد؛ لأن الانكشارية باتوا يتقاضون رواتبهم بالآقْجَة الفضية الأقل قيمة التي تموّلها قروض الإدارة. تجمع المتمردون في ميدان السلطان أحمد، ودعوا السلطان إلى الحضور في الفناء الأول بقصر "طوب قابي" لعقد اجتماع طارئ لم يتحدد موعده مسبقا. وطالبوا في الاجتماع بأن يسلم السلطان محمد الرابع لهم ثلاثين شخصا من كبار موظفي القصر. رفض السلطان الشاب طلبهم في البداية، لكن الضغوط المتواصلة أجبرته على الموافقة، فأمر بإعدام الموظفين الكبار الذين طلبهم المتمردون في ٤ مارس/آذار سنة ١٦٥٦.

وكان تغيير الصدر الأعظم في عام ١٦٥٦ فرصة عظيمة تضاف إلى رصيد السلطان محمد الرابع؛ فقد تحول هذا التغيير إلى تجديدات أساسية في شؤون الحكم. وبدأ الصدر الأعظم الجديد محمد كوبْرِيلِي باشا، بعد أن قبلت السلطانة الوالدة ترخان سلطان بشروطه المسبقة لتولي منصبه الجديد، بدأ ما يعرف بـ"عهد كوبريلي"، الذي تولى خلاله عدد من أفراد عائلة كوبريلي منصب الصدارة العظمى. استكمل محمد كوبريلي باشا ما كان ينقص محمد الرابع بسبب صغر سنه وهما: الكفاءة والخبرة الإدارية. وقام محمد كوبريلي باشا أولا بإحباط جهود جماعية تسعى للتمرد، وبشكل عام وجه ذلك الرجل جلّ جهوده نحو تجديد شباب الدولة.

قام محمد كوبريلي باشا بقمع عدة ثورات، كما أجبر البنادقة على إزالة سدهم من الدَرْدَنِيل. ثم خلفه ابنه فاضل أحمد باشا وسار وفقا لوصية والده محمد باشا على فراش الموت. وبذلك وُرِّث منصب الصدارة العظمى لأول مرة في التاريخ العثماني. وخلال عهد فاضل أحمد باشا كوبريلي حققت الدولة العديد من الإنجازات والانتصارات على غرار القرون السالفة، حتى إن بعض المؤرخين يطلقون على ذلك العهد عهد "نهضة الدولة العثمانية". ومما تجدر الإشارة إليه أن العثمانيين انتصروا على البندقية وفرنسا في البحر، وسحق جيشهم القوات النمساوية والبولندية في الحرب، كما فتحوا حصن أويفار (نوفي زامكي الآن) على نهر نيترا عام ١٦٦٤. ووُقّعت كذلك معاهدة فاسفار مع النمسا التي أُجبرت على الاعتراف بالسيادة العثمانية على ترانسيلفانيا بالإضافة إلى دفع تعويضات الحرب. ونصت المعاهدة أيضا على أن حصني أوفيار ونوجراد يخضعان لإدراة الدولة العثمانية. ونجح "كوبرولو زادة فاضل أحمد باشا" أيضا في إنهاء حصار كريت من خلال الاستيلاء على كانديا عام ١٦٦٩.



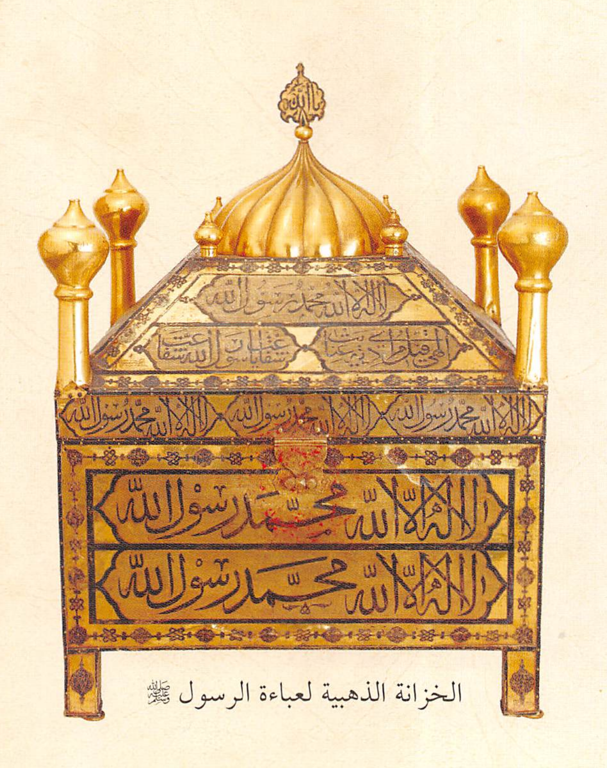

علي

وفيما كان الصدر الأعظم الشاب فاضل أحمد باشا في حملته على كانديا ظل السلطان محمد الرابع في المورة وسيّر حملة إلى مدينة كامانيتشه ضد مملكة بولندا مصحوبا بموكب عظيم عام ١٦٧٢. وخلال الحصار، الذي بدأ يصعب بسبب هطول الأمطار الغزيرة، قام السلطان بشيء استثنائي تماما بالنسبة للعادات العثمانية السلطانية؛ فقد تخفى في ملابس جنديّ عاديّ وشارك في الهجوم. وانتهى الأمر إلى أن انضمت "بوجاش" و"بودوليا" إلى الأراضي العثمانية بمعاهدة "بوجاش"، وهي المعاهدة الأخيرة التي أضافت الدولة أراضي جديدة إلى أراضيها. وعاد السلطان إلى أدِرْنه بعد رحلة متعبة.

وبعد ثلاث سنوات أعلن الملك البولندي جون سوبيسكي (جون الثالث) الحرب على الدولة العثمانية، وفي المقابل حشد السلطان محمد الرابع جيشه، لكنه أوقف الزحف قبل مواجهة العدو لاقتراب فصل الشتاء. وفي العام التالي زحفت القوات العثمانية مرة أخرى وهزمت البولنديين، وجددت معاهدة بوجاش. لكن فاضل أحمد باشا توقف عن الزحف مع السلطان بسبب سوء حالته المرضية. وتوفي في النهاية تاركا السلطان في حالة من الحزن العميق. وعيّن السلطان مكانه "مرزيفونلو قرة مصطفى باشا"، الذي كان ينتمي أيضا إلى عائلة كوبريلي.

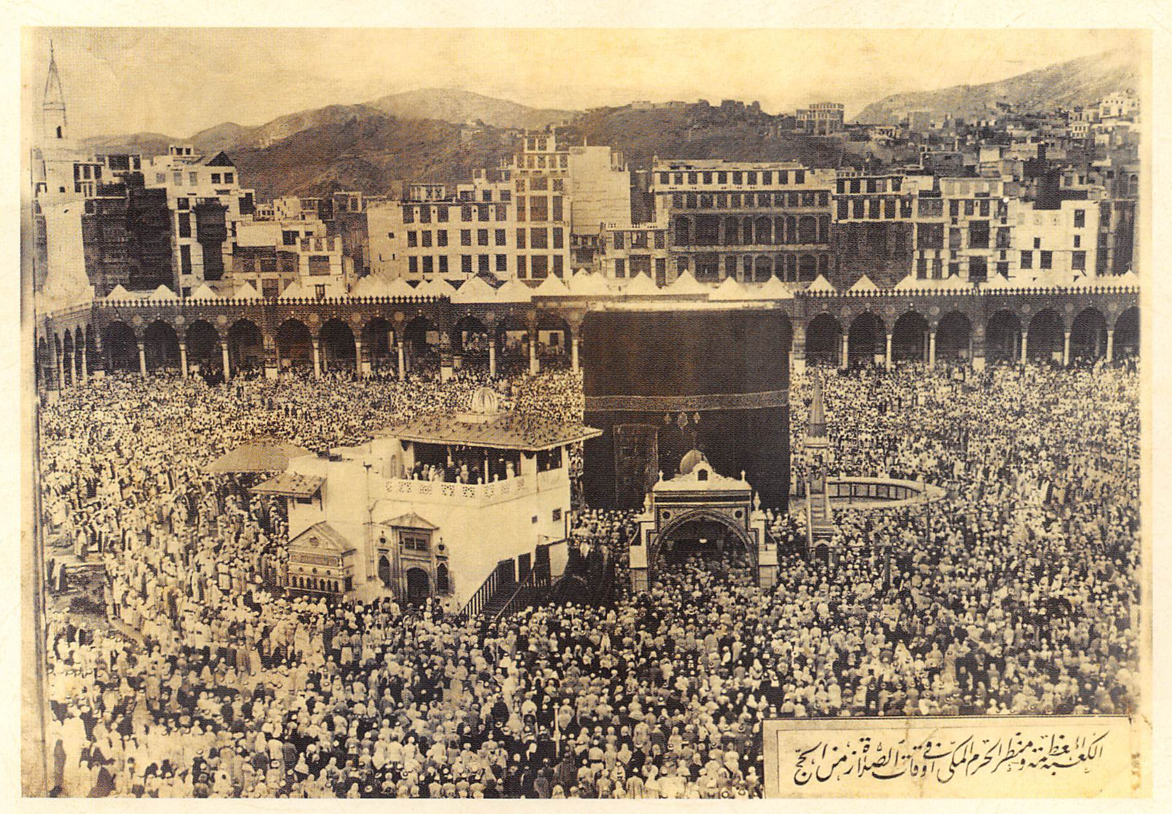
دارت أول حرب بين العثمانيين والروس في ذلك الوقت تقريبا بسبب قَوزِاق أوكرانيا. وبعد حملتين أبرمت الدولة العثمانية معاهدة مع الروس دامت عشرين عاما. والواقع أن السلطان محمد الرابع كان يستجيب إلى حد ما لسياسات مرزيفونلو قرة مصطفى باشا الخارجية التي اتسمت بالهجومية.

واجه مرزيفونلو قرة مصطفى باشا فرنسا فيما يخص قضايا إقليم طرابلس الغرب (ليبيا اليوم)، وبالغ في رد فعله على القصف المدفعي الفرنسي لجزيرة ساكيز في بحر إيجة قبالة الساحل الغربي للأناضول، وضغط على الفرنسيين كي يدفعوا تعويضات حرب.

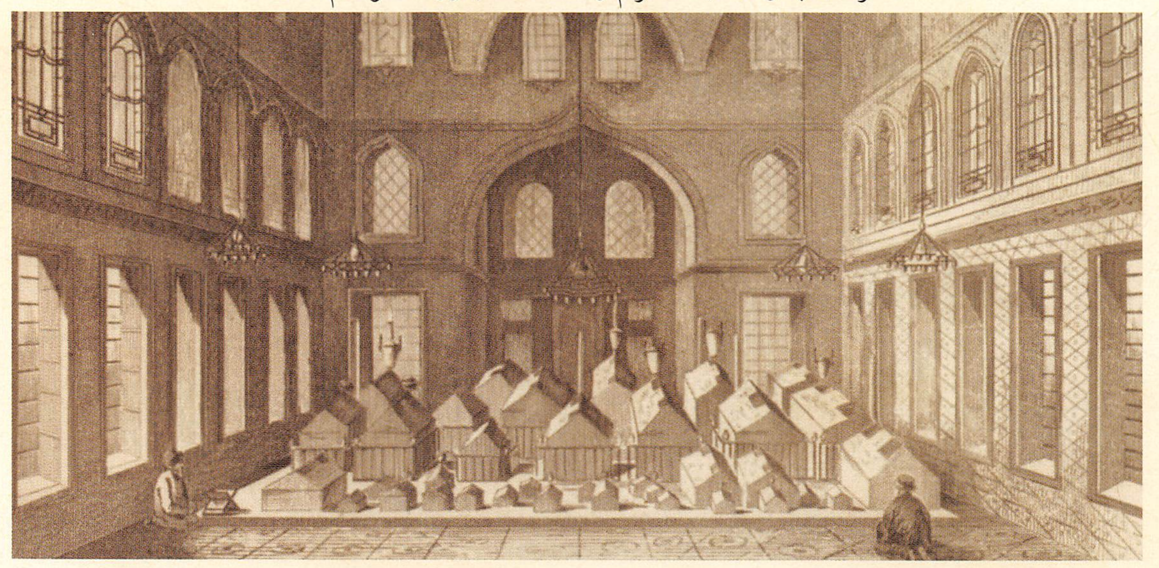


الخزانة الذهبية لعباءة الرسول ﷺ

قباب داخلية لـ "يَني جامي" (المسجد الجديد) في "أَمينُونُو" بإسطنبول.




منظر للكعبة والمسجد الحرام والمنطقة المجاورة، نحو عام ١٩١٠.



مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرْخَان من الداخل، من تصوير كوانين (Ouannin, Turquie) عام ١٨٥٣. وما يميز هذه المقبرة أنها المكان الوحيد الذي يضم مقابر خمسة سلاطين عثمانيين؛ حيث تضم المقبرةُ رفاتَ السلطانة الوالدة خديجة ترخان وابنها السلطان محمد الرابع وابنيه السلطان مصطفى الثاني والسلطان أحمد الثالث وكذلك حفيديه السلطان محمود الأول والسلطان عثمان الثالث، وجميعهم مدفونون في هذه المقبرة بحديقة "يَنِي جامي" بإسطنبول.

وفي تلك الأثناء بدأت النمسا الكاثوليكية في ممارسة ضغوط سياسية ودينية على المَجَريين البروتستانت المتحالفين مع السلطة العثمانية. ورغم أن فاضل أحمد كوبريلي كان قد رفض في السابق طلب المساعدة من جانب أمير ترانسيلفانيا بسبب إبرام معاهدة فاسفار مع النمسا، فقد وافق مرزيفونلو قَرَ مصطفى باشا هذه المرة على تلبية طلب الاستغاثة المجري. ورغم معارضة عدد من رجال الدولة للفكرة، تمكن مرزيفونلو قَرَه مصطفى باشا من إقناع السلطان، وسيّر حملة على النمسا. وفي عام ١٦٨٢ شارك السلطان محمد الرابع أيضا في تلك الحملة التي وصلت حتى بلجراد. وضرب الجيش العثماني حصارا على فيينا بشكل ناجح في عام ١٦٨٣ للمرة الثانية بعد السلطان سليمان، وكان معزّزا بقوات ترانسيلفانيا وولاشيا ومولدافيا والقرم.

فطلب الإمبراطور النمساوي دعم الصليبيين، وبتشجيع من البابا جاء الهابسبورجيون والفرنسيون والبولنديون لإنقاذ فيينا. وخلال الحصار الذي دام شهرين لم يقم مراد كيراي، خانُ القرم، بالحيلولة دون تقدم الجيش البولندي بقيادة جون سوبسكي (Jean Sobieski) وهو في طريقه إلى فيينا من خلال نهر الدانوب، في حين كانت فيينا على وشك السقوط. ووصلت القوات البولندية لتحيط بالجيش العثماني، الذي أصبح بين شقي الرحى. ووسط ذلك التحول غير المتوقع في الأحداث سحب مصطفى باشا قواته إلى بلجراد بنجاح كاف لتجنب الخسائر الفادحة في الأرواح، حيث قام بوضع إستراتيجية هجوم جديد. وفي الوطن شعر عدد من رجال الدولة بالغيرة تجاه تنامي شعبية مرزيفونلو قره مصطفى باشا، واشتهوا منصب الصدر الأعظم فأغروا صدر السلطان محمد الرابع عليه ونصحوه بالتخلص من الصدر الأعظم. وفي النهاية استلم مرزيفونلو قره مصطفى باشا مذكرة موته. ورغم أنه كان يبعد مئات الأميال عن العاصمة، وكان القائد العام لجيش عثماني قوي، استسلم مرزيفونلو قره مصطفى باشا للأمر، وصلى ركعتين، وطلب تنفيذ الأمر بطريقة مخلصة وعجيبة. ومثّل الفشل الثاني في حصار فيينا نقطة تحول في التاريخ العثماني، فقد تسبب في وقوع سلسلة متصلة من الهزائم المتعاقبة، مما يوحي بأن مسار الأحداث التي تلت كان يمكن أن يختلف تمام الاختلاف، لو كان مرزيفونلو قد أتيحت له فرصة أخرى.

وكان للفشل العثماني في حصار فيينا آثار أكثر اتساعا أيضا؛ فقد حفز الصليبيين وشجعهم على فكرة أنهم يستطيعون إخراج العثمانيين من وسط أوروبا. وعقدت بالفعل كل من النمسا وبولندا وروسيا والبندقية ومالطة "تحالفا مقدسا" بتشجيع البابا وبقيادته. ورغم أن الجيش العثماني هزم البولنديين في بادئ الأمر فإن الجيش النمساوي تقدم عبر نهر الدانوب وهاجم ترانسيلفانيا والمجر. فوقعت إسترجوم وبلجراد، وذُبح المسلمون المقيمون في بودا بشكل واسع ومؤسف بعد سقوط المدينة. وعلى جبهات أخرى للحرب استولت القوات البولندية على بودوليا وتسللت إلى مولدافيا، وهاجم البنادقة سواحل المورة ودالماشيا بدعم من أسبانيا ومالطة. وفي النهاية انفصلت المورة وسقطت أثينا في أيدي البنادقة.

وتسببت سلسلة الخسائر في إحداث موجة من السخط في المجتمع العثماني؛ وراجت الإشاعات التي تقول إن "السلطان شغل نفسه بحفلات الصيد بدلا من الاهتمام بأمور الدولة". وثار الجيش العثماني، الذي مُني بهزيمة ساحقة في موهاج، وبدأ في التحرك تجاه إسطنبول، مستغلا حجة الرواتب المتأخرة كذريعة للثورة. وكان هدفهم الأساسي هو خلع السلطان محمد الرابع. وفيما كان الجيش العثماني متوجها إلى عاصمته الأم إسطنبول استولى النمساويون بسهولة شديدة على الأراضي التي كان العثمانيون قد فتحوها بصعوبة بالغة وجهد جهيد. لم يتغير شيء حتى بعد أن أثبت السلطان محمد الرابع لجنوده الذين وصلوا إسطنبول أنه تم تغيير الصدر الأعظم بالفعل، وأقسم أنه لن يذهب للصيد مرة أخرى. واستصدر الجنود المتمردون فتوى تنفيذية تُخوّل لهم خلع السلطان محمد الرابع لانغماسه في الترويح عن نفسه بحفلات الصيد وإعاقته شؤون الدولة. وخلفه سليمان الثاني عام ١٦٨٧. وحُبس السلطان محمد الرابع في جناح شيمشرليك، أو جناح حدائق نبات البقس في قصر "طوب قابي"، ثم نُقل إلى مدينته المفضلة أدِرْنه. وفي تلك الفترة سيّر السلطان سليمان الثاني حملة على المجر. أما محمد الرابع، الذي عاصر أيضا حكم أخيه الآخر أحمد الثاني، فتوفي في أدِرْنه، ليكون ثاني سلطان يموت خارج إسطنبول بعد سليمان القانوني.

تولى السلطان محمد الرابع العرش في سن صغير جدا، ولذلك لم يتمكن من تلقي تعليم شامل كأمير شاب، بل يبدو أن معلميه ربّوه ليصبح صيادا لا سلطانا. وقد حرص المتصارعون على السلطة في القصر على إبقائه حبيس القصر على نحو صارم. لكن تعيين الصدور العظام الأكفاء من عائلة كوبريلى ساهم في إحياء الدولة من عدة وجوه. ولم تظهر عدم



حقيبة لحفظ القرآن يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر

صلاحية السلطان للحكم سوى بعد وفاة أُمّه تُرخان سلطان وانفصال عائلة كوبريلي عن الإدارة. ورغم أن أولاده كانوا يمتلكون حقا ثابتا في تولي العرش فقد أبقى على حياة إخوته، وهو ما مهد الطريق لهم لاعتلاء العرش بعد عزله.

كان محمد الرابع طيب القلب شديد الكرم. وعاش حياة عادية إلى حد كبير رغم امتلاكه كل الإمكانات لعيش حياة بذخ وترف باعتباره سلطان دولة عظمى. وكان يمتلك شغفا كبيرا بالتاريخ، ويرعى الفنون. وخلال عهده الطويل قام الرحالة المشهور أوليا جلبي بتأليف كتابه المعروف "سياحتنامة" في عشرة أجزاء، والذي يصف فيه رحلاته التي بدأت من مدينته الأم إسطنبول وشملت الأناضول والقوقاز والشرق الأوسط ومصر في شمال إفريقيا والروملي ووسط أوروبا وشرقها وشمالها وصولا إلى بحر البلطيق. وخلال عهده أيضا قام المؤلف التركي الكلاسيكي المشهور بـ"بُخوريزادة مصطفى عِطري" (توفي عام ١٧١٢) بتأليف العديد من مقطوعاته الدينية الموسيقية على عدة مقامات، ومنها التكبيرات الذي تقال أيام التشريق الذي مازال مشهورا في تركيا حتى اليوم. وقد قام السلطان محمد الرابع بعدة إصلاحات ضخمة في مكة وضواحيها، وبخاصة نظام المياه في وادي عرفة من أجل راحة الحجيج.



مرسوم السلطان محمد الرابع بمنح أراض في بعض القرى الخاضعة لولاية مقاطعة نيجروبونت المخصصة للمسجد الذي أنشأته السلطانة الوالدة في باهجة كابي، بإسطنبول.

# السلطان سليمان الثاني

## فترة الحكم: ١٦٨٧-١٦٩١

### السلطان العثماني العشرون

اسم الأب: السلطان إبراهيم

اسم الأم: السلطانة الوالدة صالحة ديلاشوب

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،

١٥ أبريل/نيسان سنة ١٦٤٢

العمر عند اعتلاء العرش: ٤٥ عاما

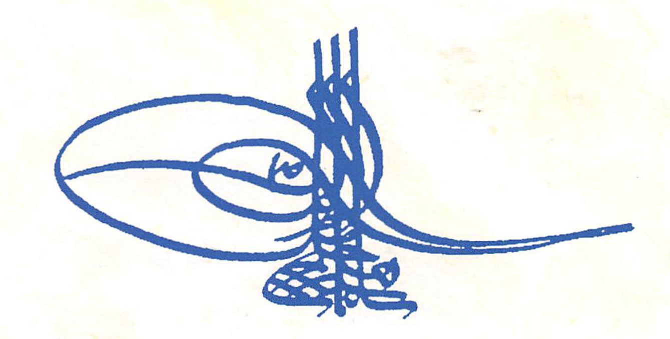
سبب وتاريخ الوفاة: الاستسقاء،

٢٢ يونيو/حزيران سنة ١٦٩١.

مكان الوفاة وموقع الضريح: أدِرْنه،

ودفن في مقبرة السلطان سليمان القانوني بإسطنبول

أبناؤه وبناته: لم يعقب ولدا





لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان سليمان الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".





اعتلى سليمان الثاني العرش عندما تمردت الانكشارية عام ١٦٨٧ وخلعت السلطان أخاه محمد الرابع الذي كان يكبره بعام. وكان سليمان الثاني قد فُرضت عليه الإقامة الجبرية في دائرة "شِمْشيرْليك" بالقصر خلال مدة سلطنة أخيه، التي دامت تسعا وثلاثين سنة. وعند إخراجه منها أقنعوه بصعوبة أنه أصبح سلطانا. وقد أمضى فترة سلطنته بالخوف من أن يقتل من قِبل أخيه. ولما أصبح هو سلطانا ساور هذه المرة الخوف نفسُه أخاه، لذا أراد أن يكون ابنه مصطفى هو السلطان بدلا من أخيه. ولكن لم يحدث أي شيء مزعج.

وقد اندلعت عدة ثورات خلال السنوات الأولى من حكمه في ميدانَيْ آق سراي والسلطان أحمد في العاصمة العثمانية، حتى إن السلطان الجديد اضطر إلى صهر المقتنيات الفضية الموجودة بالقصر كي يجمع المال الكافي لدفع عطايا الجلوس للانكشارية. وأصبح تمرد الانكشارية المتكرر شيئا معتادا بإسطنبول خلال تلك الفترة.

استأنف السلطان سليمان الثاني حروبه ضد المملكة البولندية والبندقية والنمسا، بالإضافة إلى محاربة روسيا أيضا. وكان السلطان أن قيادته للجيش بنفسه سوف تحدث تأثيرا إيجابيا لدى الجيش والشعب، ولذلك شارك في الحملة على المجر، غير أنه لم يتمكن من الذهاب أبعد من صوفيا لمرضه الشديد. وعندما وصلته أنباء الهزيمة عاد إلى أدِرْنه.

بعد الحصار الثاني الفاشل لفيينا خلال عهد أخيه استولى النمساويون على حصون إسترجون وبودين وبلجراد. وفي عام ١٦٨٩ قام السلطان سليمان الثاني بعزل الصدر الأعظم مصطفى بكر باشا؛ إذ رأى أن له إهمالا في تلك الهزائم، وعيّن فاضل مصطفى باشا -الذي كان ينتمي لعائلة كوبريلي- مكانه.

نجح فاضل مصطفى باشا في استعادة النظام في الشؤون الإدارية، وتحسين الاقتصاد، وتقوية الجيش، على غرار ما فعله في السابق والده وشقيقه الأكبر. وبعد ذلك أرسل السلطان سليمان الثاني صدره الأعظم المتألق فاضل مصطفى باشا في حملة على النمسا عام ١٦٩٠. ونجح فاضل مصطفى

قصر "طوب قابي"، بريشة الفنان لوس، عام ١٧١٠



مرسوم السلطان سليمان الثاني بشأن توزيع الإقطاعيات، يعود تاريخه إلى عام ١٦٨٨، ومحفوظ بسجلات المراسيم السلطانية العثمانية التابع لرئاسة الوزراء.



زخارف سقف مدرسة الأمراء بمتحف قصر "طوب قابي"

باشا مبدئيا في استعادة حصن نِيش، ثم تمكن من إعادة فتح حصون فيدين وسَمَنْدِيرَه وبلجراد وهزيمة النمساويين. وعند عودته استقبله السلطان سليمان وعيناه تدمعان من الفرحة عند منطقة "داوود باشا" وهي محطة مهمة بإسطنبول كان الجيش العثماني ينطلق منها في طريقه لشن الحملات في أوروبا. وخلع السلطان عليه عباءته كما منحه خنجره الشخصي.

وفي العام التالي أرسل السلطان سليمان الثاني صدره الأعظم فاضل مصطفى باشا كوبريلي من أدِرْنه للقيام بحملة أخرى. وكان السلطان في ذلك الوقت في حالة صحية متدهورة؛ حيث كان يعاني من مرض الاستسقاء منذ فترة طويلة، وأصبح جسده متورما بشكل كبير. وفي النهاية توفي السلطان يوم ٢٢ يونيو/حزيران عام ١٦٩١.

اتسم السلطان سليمان باللطف والهدوء والالتزام الديني. وكان ضعيفا من الناحية الجسدية بسبب حبسه بجناح "شيمشرليك" بالقصر خلال سنواته الطويلة كولي للعهد. وكان بارعا في فن الخط العربي، وخلال عهده قام الخطاط التركي البارع حافظ عثمان أفندي (١٦٤٢-١٦٩٨)، الذي يعد أعظم الخطاطين العثمانيين في القرن السابع عشر، بكتابة مخطوطات قرآنية مذهلة وبخاصة بخط النسخ، الأكثر ملاءمة لكتابة القرآن.

عني سليمان الثاني، مثل سليمان القانوني الذي سُمّي باسمه، عناية خاصة بمكة والمدينة؛ فزاد من حصة الميزانية السلطانية المخصصة لهاتين المدينتين من ٠,١٢ بالمائة إلى ٢ بالمائة وهو ما يدل، ضمن أعمال أخرى قام بها، على مدى أهمية المدينتين الكبيرة في نظره.



# السلطان أحمد الثاني



**فترة الحكم: ١٦٩١-١٦٩٥**

**السلطان العثماني الحادي والعشرون**

**اسم الأب:** السلطان إبراهيم

**اسم الأم:** السلطانة الوالدة معزز

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول،
٢٥ فبراير/شباط سنة ١٦٤٣

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٤٩ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** الاستسقاء،
٦ من فبراير/شباط سنة ١٦٩٥

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** أدِرْنه،
ودفن في مقبرة السلطان سليمان القانوني بإسطنبول

**أبناؤه:** إبراهيم، وسليم

**بناته:** عاتكة سلطان، وخديجة سلطان، وعائشة سلطان



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



في الوقت الذي خلف فيه أحمد الثالث أخاه الأكبر على العرش كان الصدر الأعظم فاضل مصطفى باشا كوبريلي يقود الجيش العثماني في حملة على النمسا. وأبقى السلطان الجديد الصدر الأعظم في منصبه، لكنه استشهد في "سلانكامين" عندما كان الجيش النمساوي على وشك الهزيمة. وتسببت وفاة الصدر الأعظم في تشتت الجيش وهزيمته هزيمة ساحقة في عام ١٦٩١. وبعد هزيمة العثمانيين في "سلانكامين" استولت النمسا على جميع الأراضي العثمانية بالمجر عدا "تيميشوار" عام ١٦٩٣. وفي نفس الأثناء استولت البندقية على المُورَة وحاصرت مدينة هانيا بجزيرة كِريت، لكن القوات العثمانية هناك دافعت عن المدينة بقوة.

ازداد احتياج الجيش العثماني للتجنيد بسبب الحملات على النمسا وبولندا. وتضاءل عدد الحراس في الجزر فيما عدا جزيرة كِريت. وقامت البندقية، التي فشلت منذ وقت قريب في هانيا، بالتحالف مع البابوية ومالطة، وغزت جزيرة شيوس (صاقيز) في بحر إيجة عام ١٦٩٤. وشعر السلطان أحمد الثاني بالأسي بسبب الأخبار السيئة من ميدان المعركة، وأمر جيشه بأن يفعل كل ما بوسعه للاستيلاء على الجزيرة. استولت بولندا على قصر "فاراد" بمدينة أوراديا، لكن الجيش العثماني صدّ البولنديين بُعيد اقتحامهم كامينيتس ببودوليا.

وفي ٦ فبراير/شباط من عام ١٦٩٥ تُوفّي السلطان أحمد الثاني في أدِرْنه بسبب مرض الاستسقاء مثل أخيه الأكبر السلطان سليمان الثاني، بعد سلطنة دامت ثلاث سنوات وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوما. وكان في الثانية والخمسين من عمره. ونُقل جثمان السلطان المتوفى إلى إسطنبول حيث دفن في مقبرة جده الأكبر السلطان سليمان القانوني.

كان السلطان أحمد الثاني رجلا عاطفيا لكنه كان حاد الطبع، وكان مهتما بفن الخط والشعر بالإضافة إلى الموسيقى. وقد عكست أوامره أنه كان يعطي الأولوية دائما لحقوق شعبه. وخلال عهده زاد عدد مرات انعقاد الديوان السلطاني من مرتين إلى أربع مرات في الأسبوع، تماما مثل عهد السلطان سليمان القانوني. وعلاوة على ذلك عوّد السلطان أحمد الثاني نفسه على مراقبة مناقشات المجلس بشكل مباشر. ولم يتوقف السلطان عن حضور الاجتماعات حتى عندما تدهورت صحته. وكان يهدف بشكل خاص إلى حماية حقوق رعاياه وتجنب الخسائر في مصادر الدخل.

نفّذ السلطان أحمد الأول عددا من الإصلاحات في مكة والمدينة، ووفر صيانة المجاري المائية والأحواض لتخزين مياه الشرب على سهل عرفات.





القاعة السلطانية بقصر "طوب قابي". استخدمت هذه القاعة الفسيحة لأغراض متنوعة مثل احتفالات التهنئة في المناسبات الدينية، والدروس الروحية، وحفلات الزواج، واستقبال الضيوف. وتوجد الأريكة ذات المظلة في الوسط، أما مقاعد النوافذ الثابتة فهي موجودة بجوار النوافذ.

# السلطان مصطفى الثاني

## فترة الحكم: ١٦٩٥- ١٧٠٣

### السلطان العثماني الثاني والعشرون

الألقاب، والأسماء الشعرية: الغازي وإقبالي ومفتوني

اسم الأب: السلطان محمد الرابع

اسم الأم: السلطانة الوالدة "ربيعة كُولْنوش أمة الله"

محل وتاريخ الميلاد: أدِرْنه،

٢ يونيو/حزيران سنة ١٦٦٤

العمر عند اعتلاء العرش: ٣١ عاما

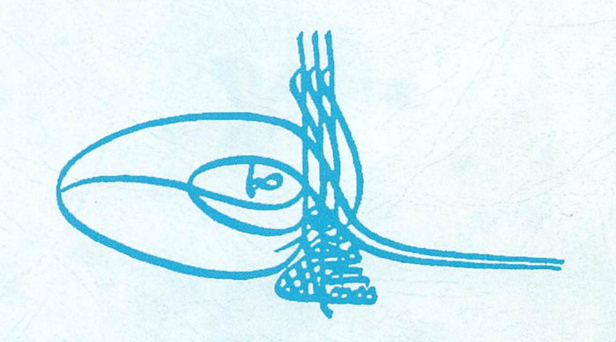
سبب وتاريخ الوفاة: الاستسقاء،

٢٩ من ديسمبر/كانون الأول سنة ١٧٠٣

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول، ودفن في مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بالقرب من المسجد الجديد بإسطنبول

أبناؤه: محمود الأول وعثمان الثالث ومحمود محمد وسليم ومراد وحسن وحسين وسليمان وأحمد

بناته: عائشة سلطان، وأمينة سلطان وصفية سلطان وأمة الله سلطان





لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مصطفى الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمى".



اعتلى السلطان مصطفى الثاني العرش خلفا لعمه السلطان أحمد الثاني. وفي تلك الأثناء كان الصليبيون يهاجمون العثمانيين بشكل خطير من عدة جبهات منذ حصار فيينا الفاشل. حاول مصطفى الثاني تولي السلطة الفعلية للدولة رغم صراع السلطة المستمر الذي تشنه أحزاب كثيرة مختلفة داخل الحكومة؛ فقام السلطان بالاستغناء عن كبار الموظفين وتعيين آخرين جدد ممن يثق بهم أكثر، ويعكس ذلك رؤيته لدولة مركزية قوية ومتسقة، ورغبته في تحقيق أهدافه التي وضعها خلال سنوات إمارته.

هزمت القوات البحرية العثمانية البندقية المدعومة من البابوية والمورة، واستعاد العثمانيون جزيرة شيوس (صافيز) في النهاية، التي كان قد اجتاحها البنادقة خلال حكم عمه أحمد الثاني. وفُسّر ذلك النصر المبكر باعتباره علامة على النجاحات المستقبلية، وأقيمت احتفالات النصر، ووزعت عطايا الجلوس. كما مثلت الغارات الناجحة التي شنها "شاهباز كِيرايْ"، خان تتار القرم، في الأراضي البولندية باسم العثمانيين، إلهاما وحافزا للسلطان.

أراد السلطان مصطفى الثاني أن يقود الحملات بنفسه مثل كثير من السلاطين السابقين. وكان يقول: "لقد أنعم الله تعالى علي بالخلافة، ولذلك فأنا ملتزم بالامتناع عن أي نوع من الراحة والترفيه". وكان يرى أن انغماس السلاطين في اللهو والتسلية وإهمالهم شؤون الدولة كان السبب الرئيسي وراء الهزائم المتلاحقة. فعزم مصطفى الثاني على شغل نفسه بالغزوات، وبهذه العزيمة مع عون الله سوف يستعيد العثمانيون الأراضي المسلمة التي استولت عليها القوى الأوروبية، ويعيدون فتح الأراضي التي خرجت من أيديهم.

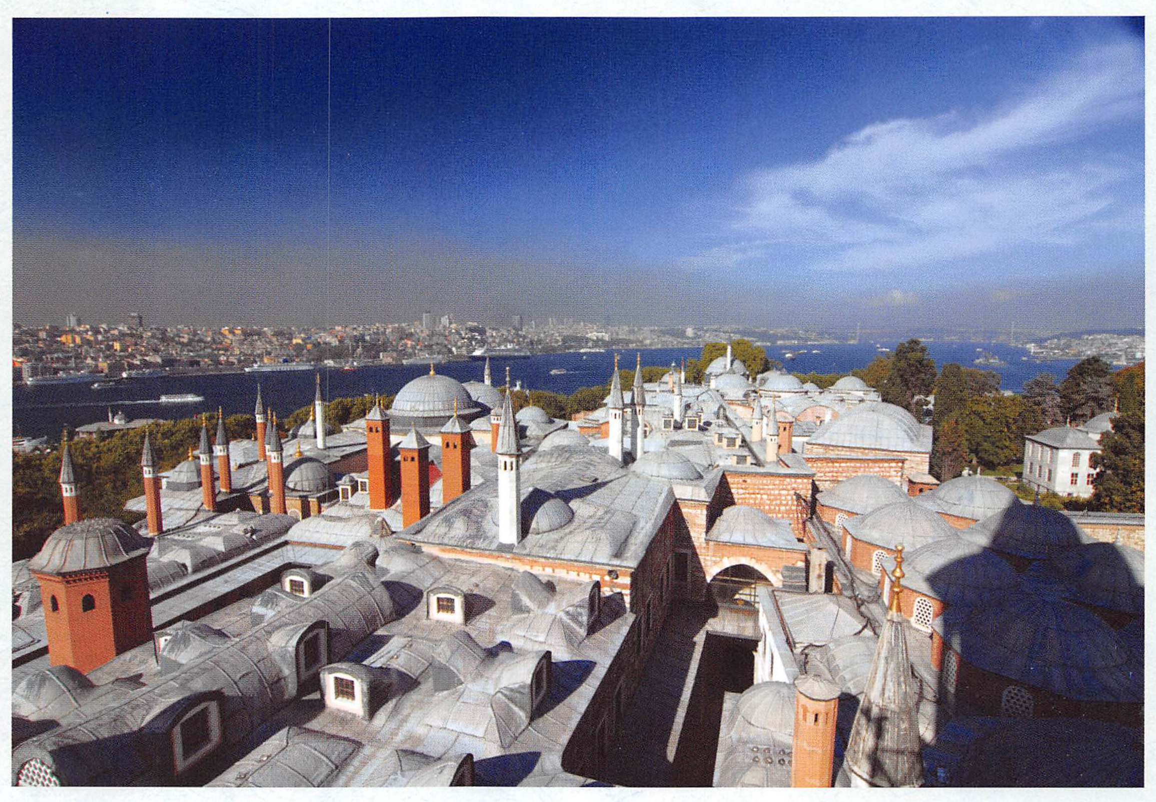
كان السلطان مصطفى الثاني معجبا بالسلطان سليمان القانوني، ولذلك أعرب لرجال الدولة عن رغبته في قيادة الجيش بشكل مباشر. لكن رجال الدولة – ومن بينهم الصدر الأعظم – عارضوا الفكرة وأوصوا بأن يبقى

السلطان بأدِرْنه، لأن اشتراكه في الحملات سوق يكلف الخزانة السلطانية كثيرا. فردّ السلطان مصطفى الثاني بأنه سوف يصرف ما يصرفه الجندي العادي، وسيأكل ويشرب مثلهم، ولا حاجة لتخصيص أموال إضافية له. وفي نهاية المطاف ارتدى السلطان درعه وتقلّد سيفه وامتطى فرسه وسار إلى النمسا في ٣٠ يونيو سنة ١٦٩٥. وتجمعت بعض القوات العثمانية في "تيميشوار" وبلجراد وتمكّنت أولا من فتح لِيبًا (Lippa) وقاد السلطان الجيش عندما واجهوا القوات النمساوية في منطقة غابات بولدور. وبتعزيز من القوات القرمية وتحفيز السلطان تمكن الجيش العثماني من سحق القوات النمساوية، لكن وفاة واليي الأناضول والروملي -شاهين محمد باشا ومحمود باشا- خلال الحرب أغمّت السلطان الذي اشتهر عنه قوله الحزين: "لقد شهدتُ النصر في بولدور، لكن الثمن كان فادحا فقد خسرت حبيبيّ شاهين ومحمود".

دارت جملة من المعارك الضارية بين العثمانيين والروس بسبب انضمام روسيا إلى "التحالف المقدس"، وحصارهم اللاحق لحصن آزاق، كجزء من هدفهم النهائي وهو الوصول إلى منطقة البحر الأسود. حاصر قيصر روسيا بيترو الأول آزاق من البر والنهر ولم يستطع العثمانيون الدفاع عن الحصن أكثر من ذلك. وسقطت المدينة في ٦ أغسطس/آب عام ١٦٩٦، مما تسبب في موجة من الحزن الهائل وسط الشعب وفي دوائر القصر، وأصدر السلطان – ردا على ذلك – مجموعة من التعليمات لاسترداد المدينة. وفي نفس الأثناء وصلت أنباء انتصارات القائد الأعلى للقوات البحرية العثمانية (قبطان البحر) حسين مزيمورتا باشا في المورة وبحر إيجة على البنادقة، وهو ما رفع الروح المعنوية ولو بشكل جزئي.

وما إن رجع السلطان مصطفى الثاني من أدِرْنه إلى إسطنبول، حتى أطلق الاستعدادات لحملة ثانية، وطلب من رجال الدولة المعنيين تعيين الجنود ودفع نفقاتهم. وصل الأمر إلى تجنيد الحراس المسؤولين عن أمن العاصمة العثمانية والقصر في الجيش، وذلك للمرة الأولى في التاريخ العثماني. وقبل الانطلاق من بلجراد للقيام بحملته الثانية على النمسا عام ١٦٩٦، وكان ذلك في شهر رمضان، فتح السلطان الخزانة الذهبية التي تحوي عباءة الرسول ﷺ أمام مجلس الحرب السلطاني، ودعا الله متضرعا ومتوسّلا أن يمن عليه بنصر يشبه نصر موهاج في عهد السلطان سليمان القانوني. وتغير سياق الحملة العثمانية بعد حصار النمسا لمدينة "تيميشوارا". وفي ٢٧ أغسطس/آب عام ١٦٩٦ انتصر العثمانيون انتصارا كبيرا بعد معركة ضارية، استجابة لدعاء السلطان. وفي نفس العام انتصر العثمانيون في معاركهم ضد البنادقة.

وأصبحت النمسا بين نارين؛ فقد كان عليها أن تحارب كلا من العثمانيين والفرنسيين، ولذلك عرضت السلام على العثمانيين. لكن مصطفى الثاني الذي أحرز نصرين متتاليين ضد النمساويين توقع انتصارات أخرى، ولذلك فقد أجل عرضهم انتظارا لعرض يتضمن مكاسب أكبر للعثمانيين. وفي العام التالي سيّر السلطان حملته الثالثة والأخيرة. واجتمع مرة أخرى بمجلس الحرب في

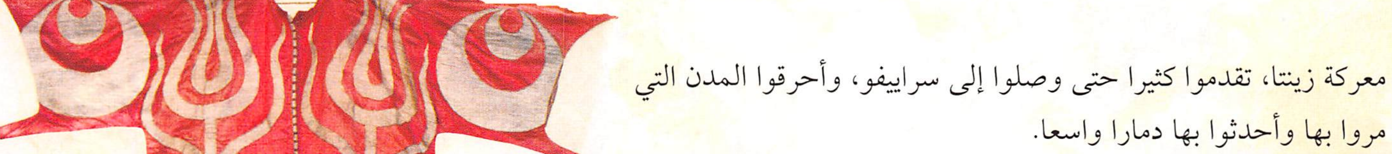


مشهد لمضيق البوسفور من برج العدالة بقصر "طوب قابي".

بلجراد حيث ناقش خطط الهجوم وتفاصيله. وظهر اقتراحان وجيهان في اجتماع المجلس فيما يخص خط سير الحملة؛ فبينما اقترح آمْجَازَادَه حسين باشا السير في اتجاه الشمال الشرقي نحو فارادين، اقترح عدد كبير من رجال الدولة الآخرين السير إلى تيميشوار. وهنا أقرّ السلطان رأي الأغلبية وأمر جيشه بالسير في اتجاه الشمال الشرقي نحو تيميشوار.

لكن اختيار العثمانيين لمدينة تيميشوار أدى إلى مشكلات كثيرة؛ فبدلا من فارادين القريبة من بلجراد، انطلق الجيش من بلجراد في اتجاه تيميشوار الأبعد، وفي طريقها الكثير من الأنهار والمستنقعات، وهو ما تطلب تشييد طرق مصنوعة من الألواح الخشبية من أجل العبور عليها. وكان الجيش العثماني يحاول عبور نهر أوسا عندما وصل إلى زينتا، لكن الجيش النمساوي الذي علم بالخطط العثمانية القتالية هاجم الجيش العثماني بأسلوب سريع وغير متوقع. وعندما لم تستطع القوات التي عبرت الجسر بالفعل المساعدة بأية طريقة، دب الذعر في بقية الجيش وتشتّت، واستشهد الصدر الأعظم ألماس محمد باشا. واغتمّ السلطان مصطفى الثاني غمّا شديدا بتلك الكارثة المفاجئة، وسار بالجيش إلى تيميشوار. وفي أعقاب انتصار القوات النمساوية في

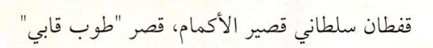

GUBARİ (TOZ HALİNDE)
YAZILAR



معركة زينتا، تقدموا كثيرا حتى وصلوا إلى سراييفو، وأحرقوا المدن التي مروا بها وأحدثوا بها دمارا واسعا.

خلفت هزيمة معركة زينتا أثرا عميقا على مصطفى الثاني، الذي كان يدرك تمام الإدراك أنه أصبح عليه الآن أن يطلب السلام من العدو، لكنه رأى أن ذلك الطلب سيكون مهينا جدا بالنسبة لسلطان عثماني. فقرر السلطان الاستمرار في الحرب رغم مطالبة رجال الدولة، ومن بينهم الصدر الأعظم آمْجَازَاده حسين باشا، بإنهاء سلسلة الحروب المتزامنة التي تستنزف الوقت والموارد.

اتخذت الحروب ضد النمسا وبولندا والبندقية وروسيا منحى هابطا خلال عهد السلطان مصطفى الثاني. وتدخل سفيرا بريطانيا وهولندا لإنهاء جميع الحروب. وفي عام ١٦٩٩ وُقّعت معاهدة كارلوفجا في كارلوفجا القريبة من بلجراد، فأنهت سلسلة الحروب العثمانية التي دامت ستة عشر عاما. وقد دلت تلك المعاهدة على بداية الخسائر المستمرة في الأراضي العثمانية. وبشكل خاص أُعطيت جميع الأراضي المجرية للنمسا فيما عدا تيميشوار، وأعطيت المورة وجزء من دلماشيا للبندقية، بينما ذهبت بودوليا لبولندا. وأخذت روسيا حصن آزاق بموجب اتفاقية إسطنبول التي أبرمت سنة ١٧٠٠.



قفطان سلطاني قصير الأكمام، قصر "طوب قابي"

أضعفت الحروب المستمرة على جبهات متعددة الهيكلَ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية إلى حد كبير، فقد فُرضت ضرائب جديدة وارتفعت الضرائب القديمة بسبب تكاليف الحرب الباهظة التي كانت تُدفع من الخزانة السلطانية مباشرة. ولإيجاد الموارد اللازمة للحروب قام السلطان مصطفى الثاني أيضا بمصادرة ممتلكات الأغنياء وجمع ضرائب السنوات المقبلة قبل وقت استحقاقها. ولاحظ السلطان مصطفى سوء النظام المتفشي في صفوف جنود "كابي كولو" و" السيباهي"، فجنّد عددا من الجنود من بين رعاياه، غير أن تلك القوات المجندة بشكل مؤقت، والتي تشبه وحدات المرتزقة، تَسببت لاحقا في أزمات أمنية شديدة بمجرد خروجهم من الجيش ورجوعهم إلى بيوتهم.

وردا على أنشطة اللصوص المتزايدة في الأناضول والروملي عيّن السلطان مصطفى الثاني ولاة محليين جددا، وألغى قوات "ساريجا" و"سَكبان"، وهي قوات غير نظامية تضم جنودا مسلحين في الأقاليم. وقام السلطان بإرسال قوات عسكرية ضد المتمردين الذين ثاروا في الأقاليم بعيدا عن المركز أو قدّم بعض التنازلات لهم في بعض الأحيان.

ورغم أن السلطان مارس كثيرا من الضغط على موظفي الدولة من أجل إصلاح الجيش والإدارة والمالية،

معرض لفنّ الخط عقد في الإسطبلات السلطانية للقصر خلال السنوات الأولى لمتحف قصر "طوب قابي".



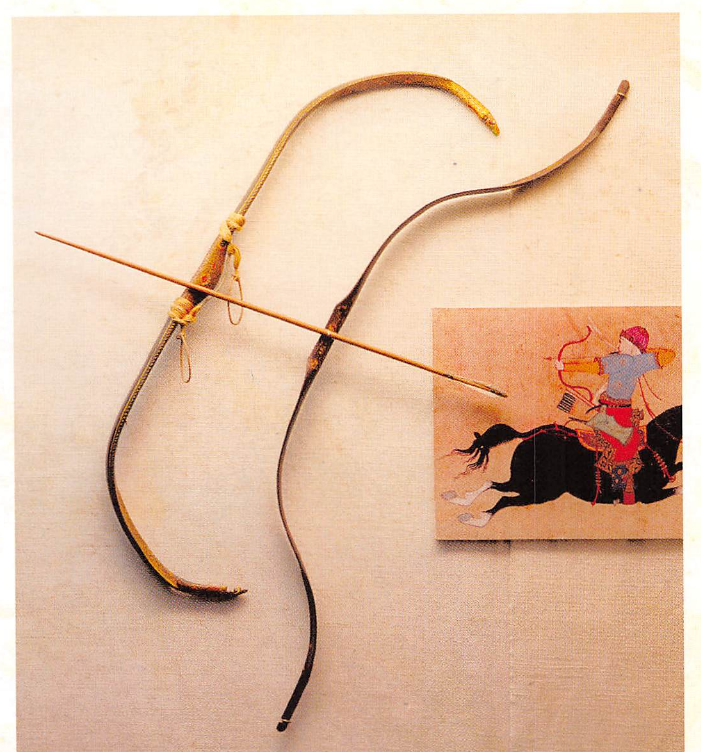

الخسائر في الأراضي بسبب معاهدتي كَارْلوفيتز (سنة ١٦٩٩) وإسطنبول (سنة ١٧٠٠).



Buda
Debrecen
Vasvár
Hungary
Zagreb
Karlowitz
Timişoara
Braşov
Belgrade
Sarajevo
Passarowitz
Bosnia
Herzegovina
Dalmatia
RUMELIA
Niš
Nikopol
Mostar
Ragusa
Sofia
Tarnovo
Plovdiv
Shkodra
Skopje
Kavala
Ohrid
Salonica
Vlorë
Otranto
Ioannina
Trikala
AEGEAN SEA
Naupactus
Kefalonia
Morea
Athens
Kalamata
Crete
MEDITERRANEAN SEA
Territories lost after the treaties of Karlowitz (1699) and Istanbul (1700)
Territory ceded to Austria
Territory ceded to Kingdom of Poland
Territory ceded to Venice
Territory ceded to Russia

بالإضافة إلى إحياء فيلقي الانكشارية والسباهي بشكل خاص، فقد ذهبت جميع المحاولات لتحقيق أهدافه دون جدوى.

سُكّت العملات الذهبية التي تحمل طغراء (الختم الخطي أو توقيع) أحد السلاطين العثمانيين لأول مرة في عهد مصطفى الثاني، وقد قدم ذلك معيارا لتمييز العملات ذات العملة الحقيقية من العملات الأقل قيمة، وخصوصا بعد أن جمع التجار كميات كبيرة من العملات الذهبية الحقيقية من سوق إسطنبول وطرحوها في أسواق الأقاليم، وبخاصة في مصر.



أقواس وأسهم عثمانية معروضة في معرض الأسلحة بمكتب الخزانة السابق بقصر "طوب قابي".

يبدو أن فترة السلام التي تلت معاهدة كارلوفجا قد أدت إلى استقرار وتحسين ميزانية الدولة العثمانية، بالإضافة إلى حدوث جملة واسعة من التغييرات. فعلى سبيل المثال أُلغيت ضرائب الطوارئ، وأرسلت مراسيم سلطانية للإدارات المحلية بعدم فرض ضرائب جديدة على الرعايا. لكن السلطان مصطفى الثاني دخل في عزلة، وفصل نفسه عن شؤون الدولة واختار أن يعيش في أدِرْنه. وبسبب تلك العزلة الذاتية من جانبه وجهت إليه العديد من الانتقادات من العلماء والجنود والشعب، وانتشرت الشائعات التي تقول بأنه يسير على خطا أبيه الآن، وأنه بدأ يحصر جل اهتمامه بالصيد. ورغم فترة السلام فإن الانتقادات بالإضافة إلى ردود الفعل على الحروب الخاسرة والأراضي الضائعة أدت إلى اندلاع تمرد سُمّي بـ"حادثة أدِرْنه". وقد استهدف التمرد أولا كبير القضاة سيد فيض الله أفندي، مُعلّم السلطان ومستشاره، لكنه تصاعد في وقت قصير ليصبح ثورة ضد السلطان نفسه. وفي تلك الأثناء صدرت فتوى لصالح المتمردين، وقادوا الأمير أحمد إلى العرش. وبفضل جهود أحمد باشا والصدر الثاني حسن باشا، تم تجنب وقوع صدام مفتوح بين القوات في أدِرْنه ونظيرتها في إسطنبول.

فقد السلطان مصطفى الثاني قواته عندما انضم جيشه في أدِرْنه إلى القوات القادمة من إسطنبول. وذهب مصطفى الثاني ليقابل شقيقه أحمد الثالث وقال له: "أخي الحبيب، رعايانا يريدونك سلطانا". وتنازل مصطفى عن العرش طواعية وأوصى أحمد بشدة أن يتأكد من معاقبة المتمردين لأنهم سيحاولون خلعه أيضا عاجلا أم آجلا. وبعد أربع سنوات من تنازله عن العرش، توفي مصطفى الثاني بسبب داء الاستسقاء في ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٧٠٣.



آيات قرآنية مع أسماء العشرة المبشرين بالجنة مطرّزة
على هذا القماش المصنوع من الساتان الأخضر المعروف
باسم سانجاق شريف. وكان السلطان محمود الثاني
هو آخر سلطان عثماني يأخذ معه سانجاق شريف في
الحملات العسكرية.



٢١٦ صورة للسلطانة الوالدة كولنوش سلطان (١٦٤٧-١٧١٥)

كان السلطان مصطفى الثاني السلطان الأخير الذي يقود الجيش العثماني بنفسه في ساحة المعركة. وفي اليوم الثالث من توليه قال: "أنا ملتزم بالامتناع عن أي نوع من الراحة والترفيه". وبقي السلطان متحمسا لشن الغزوات حتى وقعت هزيمة زينتا عام ١٦٩٧، لكن تلك الهزيمة الساحقة دمرت فلسفته وأجبرته على عزل نفسه وشغلها بالصيد مثلما كان يفعل أبوه كثيرا. وقد قضي أكثر أيامه بأدِرْنه بالفعل؛ لأن حملات أوروبا كانت تبدأ من هناك.

كتب السلطان مصطفى الثاني العديد من القصائد والأناشيد الدينية مستخدما اسمي إقبال والمفتون، ولُحن بعضها لاحقا. وكان مصطفى الثاني خطّاطا بارعا تعلم على أيدي حافظ عثمان وخوجازاده محمد أنوري، أبرز الخطاطين المشهورين في عهده. إلى جانب دقته في رمي السهام والرماح. وتروي السجلات التاريخية أن السلطان كان أكثر قوة ونضجا واتزانا من سابقيه.

اهتم السلطان مصطفى الثاني اهتماما كبيرا بالمدن المقدسة، حتى خلال سنوات المعارك الطوال ضد النمسا، واستمر في إرسال المساعدات المالية والحربية للحرمين بانتظام. وبدأ في خطة تجديد شاملة بالحرمين الشريفين بمكة والمدينة. ومن بين هذه الأعمال تجديد الأعمدة التي كانت تدعم سقف الكعبة بالإضافة إلى تجديد الإطار الذهبي حول الحجر الأسود بالكعبة بشكل دقيق.

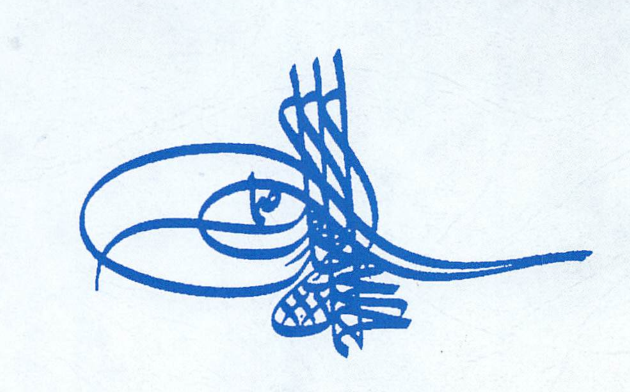
وقام مصطفى الثاني كذلك ببناء قبة على أربع دعامات ضخمة عند مبرك الناقة، وهي المكان الشهير بقباء في ضواحي المدينة حيث أنشأ الرسول ﷺ مسجده الأول، وتبرع بزمردة تزن ٤٠٠ قيراطا لدعم منطقة الروضة الشريفة بالمسجد النبوي بين قبر الرسول ﷺ ومنبره. وخلال عهده عكف المهندسون والحرفيون العثمانيون على إصلاح الآبار والسدود ومجاري المياه في الطريق الذي يربط بين دمشق والمدينة، كما حفروا عددا أكبر بكثير من الآبار، وجددوا محطات المياه بمكة، وكل ذلك لأجل راحة الحجيج.

كلف السلطان مصطفى الثاني سلاحدار محمد أغا فندقلي بتأليف كتاب حول الأحداث السياسية والعسكرية في عصره، حتى إنه اقترح جدول المحتويات. وفي النهاية نشر محمد أغا عمله العظيم تحت عنوان "نُصرت نامه". توفي أغلب أبناء السلطان في حياته، غير أن محمود الأول وعثمان الثالث -وهما ممن عاش من أبنائه- سوف يعتلون العرش فيما بعد.

الصفحة التالية: لوحة لموكب العطايا السلطانية، رسمها الفنان الإيطالي ستيفانو أوسي، وموجودة بقصر دولما باغجة بإسطنبول.







# السلطان أحمد الثالث

**فترة الحكم: ١٧٠٣- ١٧٣٠**

**السلطان العثماني الثالث والعشرون**

**الألقاب والأسماء الشعرية:** نجيب (بمعنى النبيل، شريف النسب)

**اسم الأب:** السلطان محمد الرابع

**اسم الأم:** السلطانة الوالدة ربيعة كُولْنُوش أمة الله

**محل وتاريخ الميلاد:** حاجي أغلو بازاري (دبروجا)، ٣١ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٦٧٣

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٣٠ عاما

**تاريخ الوفاة:** ٢٤ يونيو/حزيران سنة ١٧٣٦

**مكان الوفاة وموقع القبر:** إسطنبول، ودفن في مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بالقرب من المسجد الجديد بإسطنبول

**أبناؤه:** عبد الحميد الأول، ومصطفى الثالث، وسليمان، وبايزيد، ومحمد، وإبراهيم، ونعمان، وسليم، وعلي، وعيسى، ومراد، وسيف الدين، وعبد المجيد، وعبد الملك

**بناته:** أمينة (بنتان بنفس الاسم)، وربيعة (بنتان بنفس الاسم)، وحبيبة، وزُبَيدة، وأسماء، وخديجة، ورُقية، وصالحة، وعاتكة، وريحان، وأَسيمة، وفردانه، ونظيفة، ونائلة، وعائشة، وفاطمة، وأمة الله، وأم سلمة، وأمينة، ورقية (ثلاث بنات بنفس الاسم)، وزينب (ثلاث بنات بنفس الاسم)، وصبيحة، وأم كلثوم (ثلاث بنات بنفس الاسم)، ويَبهان.



جزء من لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الثالث جالسا على العرش، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمى".



احتُجز الأمير أحمد أولا بقصر "طوب قابي" ثم نُقل إلى أدِرْنه خلال عهد عمّه السلطان سليمان الثاني. وعندما وقعت حادثة أدِرْنه خلف الأمير أحمد شقيقه السلطان مصطفى الثاني على العرش في ١٧ أغسطس/ آب عام ١٧٠٣. ورغم أنه داهن هؤلاء الذين أجلسوه على العرش وعينهم في مناصب مؤقتة، فقد أخذ في نهاية الأمر بنصيحة أخيه وتفادى تسلطهم من خلال خلعهم من مناصبهم واحدا تلو الآخر.

بقي السلطان أحمد الثالث محايدا تجاه الحروب الروسية السويدية، التي نتجت عن أمور تتعلق بوضع مملكة بولندا في أوروبا. غير أن العلاقات العثمانية-الروسية تقطعت بعد ذلك عندما لجأ تشارلز السابع ملك السويد إلى العثمانيين بعد هزيمته أمام بيترو الأول قيصر روسيا. ولم يخبر الصدر الأعظم علي جُورْلُولو باشا السلطان بدخول تشارلز إلى البلاد. وهاجم بيترو الأول الأراضي العثمانية عام ١٧١٠ منتهكا معاهدة إسطنبول التي أنهت الحرب بين العثمانيين والروس عام ١٧٠٠، فأعلن السلطان أحمد الثالث الحرب على روسيا.

ونجح الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم بلتاجي محمد باشا في هزيمة الجيش الروسي بقيادة القيصر بيترو الأول بشكل ساحق بالقرب من نهر بروت، وذلك بالاتحاد مع القوات القرمية. ولما وقع الروس في مأزقِ بروت، طلبوا الهدنة. لم يكن بَلتاجي محمد باشا يستطيع الوثوق بمقدرة الانكشارية على مواصلة القتال ولذلك فقد قبل عرض روسيا ووقع معاهدة بروت عام ١٧١١. والواقع أن محمد باشا كان يستطيع توقيع معاهدة تحوي بنودا وشروطا أفضل بكثير لو أنه لم يقبل بالهدنة على الفور ويستأنف القتال.

دب النشاط والحماس في عروق العثمانيين لانتصار بروت بعد أن كانوا قد مروا بمرحلة من الإحباط الشديد والحزن بسبب سلسلة خسائر جيشهم المتوالية في الحروب. وأخلف الروس المعاهدة فتمت تنحية بَلتاجي محمد باشا. وحشد أحمد الثالث جيشه وتوجه لأدِرْنه لشن حملة أخرى ضد روسيا. لكن وساطة السفيرين البريطاني والهولندي حالت دون محاربة الروس مرة أخرى. وأعيدت منطقة آزاق للعثمانيين بموجب معاهدة بروت، التي كان الروس قد حصلوا عليها بموجب معاهدة إسطنبول.

وهذا النجاح الذي أحرزه العثمانيون بث فيهم روح الأمل وفكرة أن الأراضي التي فقدوها بموجب معاهدة كارلوفجا يمكن استرجاعها أيضا. وظلت تلك الفكرة مسيطرة حتى سقوط الدولة




تصميم بخط اليد لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) كتبه السلطان أحمد الثالث عند مدخل جناح الأمانات المقدسة بقصر "طوب قابي".

العثمانية. وانجرف العثمانيون في سلسلة من المعارك المتلاحقة لاستعادة الأراضي التي فقدوها، لكن ذلك لم يثمر في النهاية سوى خسارة أكبر وأكبر في الأراضي.

وانطلاقا من نتائج معاهدة بروت سعى العثمانيون لاستعادة شبه جزيرة المُورَة التي كانت قد حصلت عليها البندقية بموجب معاهدة كارلوفجا في عام ١٦٩٩. وبدءوا في تحين أفضل مناسبة لإعلان الحرب على البندقية. وجاءت المناسبة عندما استحث البندقية سكان الجبل الأسود على الثورة، وهاجم البنادقة الأسطول العثماني بقيادة أَنيشْته حسن باشا. ونتيجة لذلك كلف السلطان أحمد الثالث صدره الأعظم علي باشا بمهمة فتح جزر البنادقة في البحر المتوسط والمورة. وسار السلطان أحمد الثالث مع الجيش حتى أدِرْنه وودعه من هناك.

رحب العثمانيون بأنباء فتح القوات العثمانية للمورة، ولكن على الجانب الآخر أثار فتح العثمانيين للمورة غضب النمسا، فانضمت القوات النمساوية إلى صفوف العدو في الوقت الذي كان العثمانيون يحاصرون فيه جزيرة كورْفو في البحر الأيوني. وكان الصدر الأعظم داماد علي باشا قد استشهد في معارك بَترفارادين التي تبين صعوبتها الشديدة على الجيش العثماني. وفي نهاية المطاف أنهى السلطان حصار جزيرة كورفو. ولم يحرز الجيش العثماني أي نصر عسكري



نافورة في الجدار أمام مكتبة السلطان أحمد الثالث

مكتبة السلطان أحمد الثالث، التي أنشأها السلطان باسمه وسط الفناء الثالث في قصر "طوب قابي".

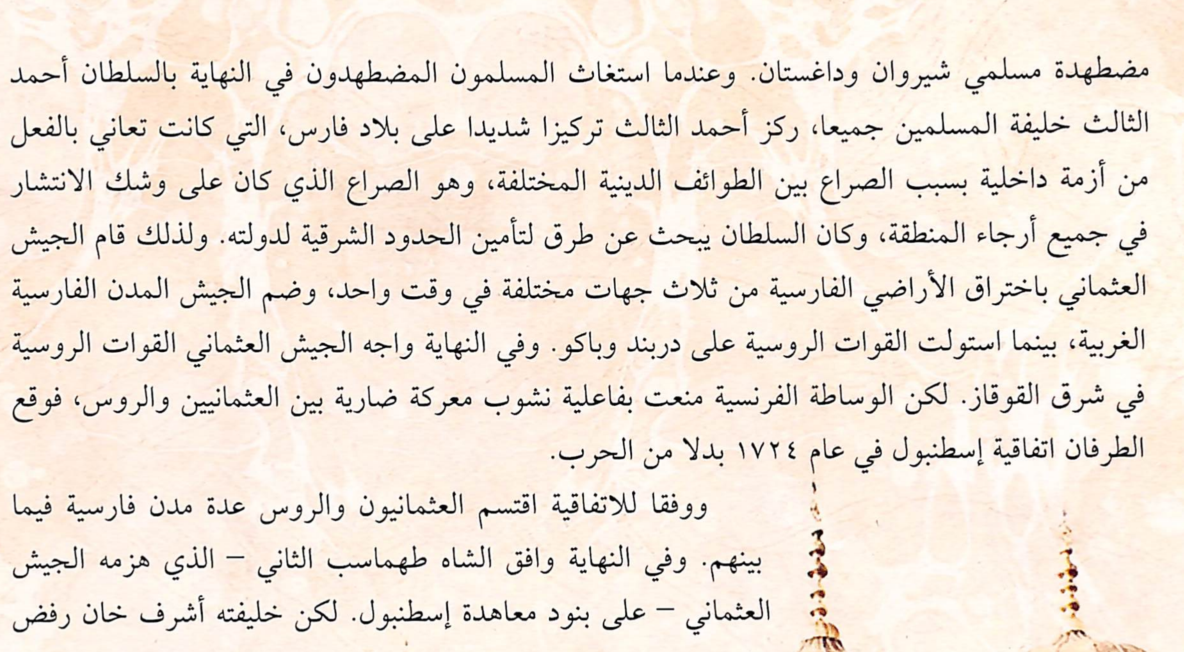
ضد النمساويين، كما تبيّن أن الحرب الأهلية في المجر -التي اندلعت عندما شجع العثمانيون ملك ترانسيلفانيا على الانقلاب على النمسا- لا طائل من ورائها. ولم تستطع القوات العثمانية زفّ أخبار الانتصار الذي طال انتظاره للسلطان. وعندما توجهت القوات النمساوية بفاعلية جنوبا إلى نيش، كان الصدر الأعظم "نَوْشَهِرْلِي داماد إبراهيم باشا" مجبرا على توقيع معاهدة بَسَاروفجا في عام ١٧١٨. ونصت تلك المعاهدة على سيطرة النمساويين على غرب والاشيا بما فيها بلجراد وأجزاء من صربيا الشمالية، بينما يستعيد العثمانيون سيطرتهم على المورة. وبذلك قل التهديد البندقي في البحر المتوسط لصالح الدولة العثمانية. ورغم أن معاهدة بساروفجا جنبت العثمانيين خسائر أكبر في الأراضي في صربيا وأدت إلى فترة سلام طويلة مع النمسا، فقد كانت علامة فارقة على نهاية التوسع العثماني باتجاه الغرب. ومنذ ذلك الحين سوف نشهد تغيرا في السياسة العثمانية تجاه أوروبا، حيث سينتقل العثمانيون من سياسة الفتوحات إلى سياسة دفاعية تهدف إلى الحفاظ على الأراضي التي يمتلكونها.

وقعت الأحداث الأكثر أهمية في السنوات الأخيرة لعهد السلطان أحمد الثالث في الشرق؛ حيث استولى الأفغان على أصفهان من فارس، وتوغلت روسيا خلال فارس بهدف التوسع جنوبا إلى الخليج العربي،



مضطهدة مسلمي شيروان وداغستان. وعندما استغاث المسلمون المضطهدون في النهاية بالسلطان أحمد الثالث خليفة المسلمين جميعا، ركز أحمد الثالث تركيزا شديدا على بلاد فارس، التي كانت تعاني بالفعل من أزمة داخلية بسبب الصراع بين الطوائف الدينية المختلفة، وهو الصراع الذي كان على وشك الانتشار في جميع أرجاء المنطقة، وكان السلطان يبحث عن طرق لتأمين الحدود الشرقية لدولته. ولذلك قام الجيش العثماني باختراق الأراضي الفارسية من ثلاث جهات مختلفة في وقت واحد، وضم الجيش المدن الفارسية الغربية، بينما استولت القوات الروسية على دربند وباكو. وفي النهاية واجه الجيش العثماني القوات الروسية في شرق القوقاز. لكن الوساطة الفرنسية منعت بفاعلية نشوب معركة ضارية بين العثمانيين والروس، فوقع الطرفان اتفاقية إسطنبول في عام ١٧٢٤ بدلا من الحرب.

ووفقا للاتفاقية اقتسم العثمانيون والروس عدة مدن فارسية فيما بينهم. وفي النهاية وافق الشاه طهماسب الثاني - الذي هزمه الجيش العثماني - على بنود معاهدة إسطنبول. لكن خليفته أشرف خان رفض



نافورة مياه السلطان أحمد الثالث أمام البوابة الرئيسية لقصر "طوب قابي"

بنود المعاهدة لاحقا. وواجهت القوات الفارسية الأفغانية المشتركة القوات العثمانية بالقرب من نهاوند وهزمتها هزيمة ساحقة. وتعد تلك الهزيمة نقطة تحول في سيادة السلطان أحمد الثالث؛ فرغم أن المعاهدة تضمنت بنودا في صالح العثمانيين، فإن العثمانيين في إسطنبول شعروا بسخط شديد بسبب الهزيمة. وتحولت الصورة الإيجابية السابقة للسلطان من وجهة نظر الشعب إلى صورة سلبية.

وجاءت الأعوام التالية مليئة بالأحداث السلبية؛ فقد استعاد القائد الأفغاني نادر شاه المدن الفارسية التي سيطر عليها العثمانيون وقتلوا الجنود العثمانيين الذين عاشوا في تلك المدن، كما فُرضت ضرائب جديدة لدفع المصاريف العسكرية التي استهلكت أساسا في الحملات على فارس، وأغرقت موجة من الهجرة الداخلية مدينة إسطنبول لأن المناطق الريفية في الأقاليم اندلعت فيها أعمال تمرد بالغة الخطورة. وبالإضافة إلى كل ذلك أدت مشكلات اقتصادية واجتماعية أخرى مختلفة إلى تضخيم رد فعل عنيف وعام تجاه الحكومة. سميت تلك الفترة بـ"حقبة التوليب" (Lâle Devri)(١٧١٨-١٧٣٠) حيث راجت زراعة تشكيلات غنية من زهرة التوليب في الكثير من حدائق إسطنبول، وانغمس السلطان ورجال الدولة في الترويح عن أنفسهم بإقامة الكثير من الحفلات. وبسبب تلك الحفلات بالإضافة إلى تعيين الصدر الأعظم وكبير القضاة أقاربهم في المناصب الإدارية العليا عانت الإدارة العثمانية من موجة انتقاد عنيفة من قبل كبار موظفي الدولة والعلماء والعامة. وبعد ضياع فترة من الصمت لم تفعل الحكومة العثمانية خلالها شيئا على الإطلاق لاستعادة الأراضي المفقودة في بلاد فارس حديثا، نشبت ثورة بدأها بَطْرونا خليل الألباني عام ١٧٣٠. وأُعدم الصدر الأعظم نَوْشَهرْلِي إبراهيم باشا، لكن إعدامه لم يهدئ المتمردين. وفي نهاية المطاف خُلع السلطان ونُصّب مكانه محمود الأول، ابن أخيه.



عمل بفن الخط بجامع أولو (المسجد الكبير) في بورصا

احتُجز أحمد الثالث وأبناؤه الأمراء في جناح الشِمشيرْليك بالقصر. وخلال نزوله عن العرش أوصى السلطان أحمد الثالث السلطان الجديد محمود الأول بأن يدير الدولة بنفسه وألا يثق بأحد أبدا. وعاش السلطان أحمد الثالث لِسِتّ سنوات أخرى ثم توفي في محبسه في ٢٤ يونيو/حزيران عام ١٧٣٦. ودُفن جنازته بالقرب من المسجد الجديد، بمقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان، جدته لأبيه.

أجمع المؤرخون على أن فترة حكم السلطان أحمد الثالث شهدت تنفيذ العديد من الإصلاحات ذات التوجه الغربي لأول مرة في التاريخ العثماني. وقد غيّرت الإصلاحات، التي بدأت خلال سنوات حكمه

السابعة والعشرين، أسلوب الحياة في إسطنبول بشكل كبير. ويرجع ذلك جزئيا إلى التقرير الذي كتبه يِرمِيسَكِيزْ شلبي محمد أفندي، السفير العثماني في باريس، والذي خدم بالكتيبة الثامنة والعشرين بفيلق الانكشارية وأصبح يلقب طوال حياته بلقب يِرْميسَيكِيز (أي ثمانية وعشرين). وقد تزامن مع حقبة التوليب إقامةُ العديد من حدائق التوليب والسرادقات الأنيقة وقصر سادآباد (كاغد خانه) على ضفاف نهر كاجيثان الذي يصب في القرن الذهبي. وأصبحت المنطقة بأسرها تعرف باسم "ساداباد".

كان السلطان محمد الثالث مهتما اهتماما شديدا بالزهور والحدائق، وساعد على ازدهار زراعة النباتات المزهرة، كما جعل بائعي الزهور مهنيين محترفين يتقاضون أجرا لائقا. وارتقت زهور التوليب على وجه الخصوص في نظر العثمانيين إلى مكانة عالية ومحترمة غير مألوفة بالنسبة لها في بلادها الأصلية. غير أن الإنجاز الحضاري الأجدر بالملاحظة كان افتتاح مطبعة لنشر الكتب باللغة التركية العثمانية لأول مرة في التاريخ العثماني. ورغم أن غير المسلمين كانوا يديرون عدة مطابع في جميع أنحاء الدولة -وبخاصة في إسطنبول وإزمير وسلانيك وحلب- فإن أيا منها لم يكن مملوكا لمسلمين. فتشارك إبراهيم متفرقة مع سعيد أفندي ابن يرميسيكز جلبي محمد أفندي، وقاما بإذن من السلطان أحمد الثالث بإنشاء أول مطبعة تنشر الكتب والكتيبات باللغة التركية العثمانية، وكان ذلك عام ١٧٢٧. كما افتُتح مصنع للورق في يَالُوَا جنوب بحر مرمرة، ومصنع خزف في قصر تكفور بإسطنبول، ومصنع نسيج بإسطنبول. وبالإضافة إلى ذلك طُبق نظام الحجر الصحي لأول مرة في تلك الفترة، حيث طبق الحجر الصحي على مسافري البحر لمنع انتشار الأمراض المعدية. وتم تنظيم وحدة لمكافحة الحرائق تابعة لفيلق الانكشارية لتسهيل إطفاء الحرائق بإسطنبول، والتي كانت أمرا مألوفا في ذلك الوقت، وكان ذلك عام ١٧٢٢.



كان السلطان أحمد الثالث خطاطا موهوبا درس هذا الفن بإشراف الفنان البارز حافظ عثمان. وخطّ أحمد الثالث أعمالا فنية كثيرة تزيّن اللوحات الموجودة أعلى نوافير المياه في أماكن شتّى بالعاصمة، بالإضافة إلى عدد ضخم من اللوحات بقصر "طوب قابي". وكان راميا بارعا أيضا، حيث تروي المصادر التاريخية أنه كان يستطيع إصابة عملة ذهبية على بعد خمسة وثمانين خطوة برمية دقيقة واحدة.

وخلال عهده رعى أحمد الثالث العديد من الشعراء ومن بينهم نديم الشاعر المشهور الذي يشار إلى شعره في كثير من الأحيان كمثال على روح حقبة التوليب. كما كتب السلطان نفسه قصائد شعرية باسم "نجيب". وتُرجم في عصره – للمرة الأولى في التاريخ العثماني – بعض الأعمال الفرنسية إلى اللغة التركية والعكس. واكتشف العثمانيون علاجا لمرض الجدري قبل الأوروبيين، بل نجح الأطباء العثمانيون في علاج السلطان منه ذات مرة.

افتتح السلطان أحمد الثالث عددا من المكتبات لتشجيع القراءة، وأقام واحدة باسمه في قصر "طوب قابي". كما شيد أسبلة ضخمة للشرب، أحدها بالقرب من أول البوابة الأولى للقصر (البوابة السلطانية)، والثانية في أوسكودار على السواحل الآسيوية لإسطنبول، والثالثة بالقرب من جاغَلَايان بإسطنبول. وتخليدا لذكرى والدته ربيعة أمة الله جولنوش سلطانة شيد السلطان أحمد الثالث سبيل مياه رائع يسمى "جامع الوالدة الجديد"، ومكتبة بجواره أيضا بالقرب من مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بإسطنبول. وكذلك شيد أحمد الثالث مسجدين آخرين، أحدهما خارج قصر "غَلَطَة" على الساحل الشمالي للقرن الذهبي، والآخر في "بَبَكْ" على السواحل الأوروبية للبوسفور.

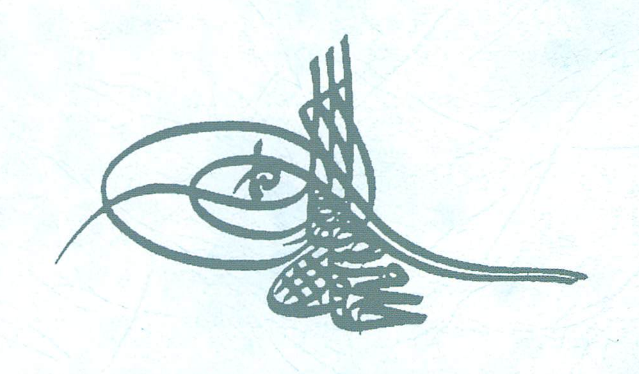
منذ عهد سليمان القانوني ظلت كسوة الكعبة الخارجية تصنع بمصر، وكسوتها الداخلية تصنع بإسطنبول. وبدءا من عهد السلطان أحمد الثالث بدأت تُغزل جميع الأقمشة بإسطنبول. وتولى السلطان إجراء أعمال إصلاحات وتجديدات بالمسجد النبوي في المدينة، مثله مثل أخيه السلطان مصطفى الثاني قبله، وكان يحب أن يرسل العطايا السلطانية بانتظام للمدينتين المقدستين.



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الثالث ومرافقيه، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الثالث وهو يشاهد احتفالا، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".



# السلطان محمود الأول

فترة الحكم: ١٧٣٠- ١٧٥٤

**السلطان العثماني الرابع والعشرون**

الألقاب والأسماء الشعرية: **الغازي، وكامْبُورْ، وسَبْكاتي**

اسم الأب: **مصطفى الثاني**

اسم الأم: **السلطانة الوالدة صالحة**

محل وتاريخ الميلاد: **أدِرْنه، ٢ أغسطس/آب سنة ١٦٩٦**

العمر عند اعتلاء العرش: **٣٤ عاما**

تاريخ الوفاة: **١٣ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٧٥٤**

**كان عقيما فلم يعقب أولادا**

مكان الوفاة وموقع الضريح: **إسطنبول، ودفن في مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بإسطنبول**





لوحة زيتية للسلطان محمود الأول.



أُحضر محمود الأول من أدِرْنه إلى إسطنبول بصحبة الأمراء الآخرين الذين كانوا قد نُقلوا إلى أدِرْنه مع أبيهم مصطفى الأول عندما خُلع بعد حادثة أدِرْنه عام ١٧٠٣. وقضى محمود سنوات إمارته في صياغة الذهب في أدِرْنه. ونتيجة لتمرد "بَطرونا خليل" خلَفَ محمود عمه أحمد الثالث على العرش، بعدما اضطر هذا الأخير إلى التخلي عن سلطته في ٢ أكتوبر/تشرين الثاني سنة ١٧٣٠.

وخلال سنوات حكم محمود الأول الأولى حاول تلبية طلبات المتمردين؛ فهُدمت السرادقات والمقصورات التي شيدت خلال فترة التوليب، وألغيت الضرائب التي كانت قد بدأت حديثا، وعُين الأشخاص المفضلون لدى المتمردين في مناصب إدارية. لكن السلطان محمود الأول ضاق ذرعا بتلاعب بطرونا خليل وأتباعه بشؤون الدولة كيفما شاؤوا، وحصل السلطان على دعم ضباط الجيش المؤثرين الذين أمدّوه لاحقا بالدعم العسكري ضد المتمردين، وقُضي على المحرض على الثورة بطرونا خليل ورجاله، كما طرد الألبان والانكشاريون الموالون له من إسطنبول إلى بلادهم الأصلية.الانكشارية كما تعامل السلطان شخصيا مع مظاهر الفساد الأخلاقية بشكل عام، ففتش على التجار، وطبق مبادرة حكومية لتثبيت أسعار السوق من أجل حماية مصالح المستهلكين.

وما إن نجح السلطان محمود الأول في قمع الثورة واستعادة النظام حتى حوّل تركيزه إلى العلاقات الخارجية؛ فأمر بشن حملة على الصفويين في عام ١٧٣١، واستطاعت القوات العثمانية المحتشدة في فارس تحقيق انتصار ساحق على قوات طهماسب الثاني بالقرب من همدان، واستعادت تبريز وهمدان. وعندما طلب الشاه طهماسب الهدنة وقَّع أحمد باشا والي بغداد -الذي ترقى لمنصب وزير الدفاع الشرقي- معاهدة معه في عام ١٧٣٢. ووفقا لمعاهدة أحمد باشا احتفظ العثمانيون بمناطق كنجه وتِفليس وروان وداغستان في القوقاز، بينما كان عليهم التخلي عن مناطق تبريز وهمدان وكِرمنشاه ولورستان. لكن السلطان محمود الأول عارض تسليم تبريز، واستغنى عن كبار الموظفين الذين يؤيدون السلام، وعين مكانَهم من لا يؤيدونه، ثم أعلن الحرب على الصفويين. وعلى الجانب الآخر، قام "نادر شاه" زعيم قبيلة آوشار التركمانية بعزل الشاه طهماسب وتعيين عباس الثالث صغير السنّ حاكما اسميا لبلاد فارس الصفوية، وتولى الإدارة كنائبٍ له في ١٧٣٢. ورفض "الشاه نادر" الاتفاقية وحاصر بغداد، لكنه خسر واستعاد العثمانيون مدينة تبريز، وهنا لُقّب السلطان بلقب "الغازي". غير أن العثمانيين لم يتمكنوا من



الاحتفاظ بتبريز لوقت طويل. فبعد أن هُزمت القوات العثمانية بقيادة عبد الله باشا في معركة "آرْبَاجَايِي" بجنوب القوقاز عام ١٧٣٥، وأصبح احتمال محاربة القوات الروسية واردا، وقَّع السلطان محمود معاهدة في عام ١٧٣٦ بناء على معاهدة قصر شيرين المبرمة عام ١٦٣٩. ورَفضت المعاهدةُ الجديدة اعترافَ العثمانيين بالجعفرية كمذهب خامس من مذاهب الإسلام، لكنها اعترفت بنادر شاه حاكما جديدا لبلاد فارس وبتصريحه الرسمي لممارسة الإسلام السني ببلاد فارس.

رفضت روسيا -الحليفةُ الرسمية للنمسا- السماح لقوات القرم بعبور منطقة قَبَارْتايْ بالقوقاز للوصول إلى فارس من أجل دعم الجيش العثماني. وبُعيد ذلك هاجم الروس حصن آزاق بالقرم في مارس/ آذار سنة ١٧٣٦؛ وفي ظل الهجمات الروسية توصّل المجلس السلطاني العثماني إلى قرار بشن الحرب على روسيا. وفي نفس الأثناء عزم النمساويون على مساعدة حلفائهم الروس وهاجموا العثمانيين عام ١٧٣٧ ليصبح هجوما ثلاثي الجوانب. واستولت روسيا على حصون آزاق وكِيلْبُورون وأوزي فيما استولت النمسا على نيش وبوخارست. وشَعَر السلطانُ محمود الأول بالحزن الشديد بعد سماعه أنباء الهزائم، لكنه كان عليه قتال كل من النمساويين والروس على جبهتين مختلفتين للحرب. فقسم جيشه إلى قسمين رئيسيين لقتال الروس والنمساويين في وقت واحد.

عين السلطان محمود الأول حافظ أحمد كوبريلي زاد واليا عاما على الروملي وأرسله في مهمة استعادة نيش، واتخذت الاستعدادات لاسترداد بلجراد، وتم



لوحة بفن المنمنمات تصوّر اجتماع الديوان (المجلس السلطاني) في قاعة المجلس.
ويظهر في اللوحة السلطان وهو يتابع اجتماع المجلس من خلف نافذة في الأعلى، فيما تجري الاستعدادات خارج ميدان الديوان.

استرداد نيش بالفعل. ونشبت معارك عنيفة بين العثمانيين والنمساويين الذين هاجموا من منطقة تيميشوارا، فعبر العثمانيون نهر الدانوب وشنوا غارات على تيميشوارا. وفي عام ١٧٣٨ استولى العثمانيون على آداقلعة على نهر الدانوب. ووصل الصدر الأعظم يَغَن (يكَنْ) محمد باشا إلى نيش لاحقا وانتقل من هناك إلى بلجراد.

وعلى الجبهة الروسية صد الجيش العثماني الروس الذين حاولوا عبور نهر دِنْيَسْتَر، وقام الأسطول العثماني بقيادة الأميرال العام سليمان باشا بتدمير الأسطول الروسي وإشعال النيران به.

بعد ذلك قام السلطان محمود الأول بتغيير موظفيه مرة أخرى، وأصبح آيواز محمد باشا الصدر الأعظم الجديد. وتحدد الهدف الجديد للجيش العثماني فكان بلجراد. وفي نهاية المطاف استرد العثمانيون بلجراد بعد سلسلة من المعارك الضارية، ورفعت النمسا راية الاستسلام. وأجبرت المعاهدة التي تلت ذلك النمساويين على تسليم جميع الأراضي التي حصلوا عليها بموجب معاهدة باسارُوفْجَه (پاساروويِچ) (Passarowitz) -عدا منطقة بانات-. وبعد معاهدة بلجراد انسحبت النمسا إلى شمال نهر الدانوب في ١٨ سبتمبر/أيلول سنة ١٧٣٩.



هذا العرش الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة كان هدية من نادر شاه، شاه فارس، إلى السلطان محمود الأول.

وفي هذه الأثناء أرادت روسيا شن هجوم من بيسارابيا. لكن الأسطول الفرنسي كان قد سار في بحر البلطيق بعد التحالف بين السويد وفرنسا، بعد أن توثقت العلاقات بين بروسيا والعثمانيين بشكل واضح، وبعد أن وقع العثمانيون معاهدة تجارية مع السويد. ونتيجة لكل ذلك أصبح الروس في حالة ذعر بسبب تلك الانتصارات بالإضافة إلى التطورات الدبلوماسية والاقتصادية غير المواتية بالنسبة لهم. وعندما أنهى الروس القتال كان عليهم التوصل لاتفاق سلام مع العثمانيين في عام ١٧٣٩. ونصت المعاهدة على الشروط التالية: ١- تستطيع روسيا الاحتفاظ بميناء شريطة أن تهدم حصن أزوف ٢- لا يكون هناك أسطول روسي في البحر الأسود ٣- أصبحت منطقة قابارْتايْ منطقة محايدة. وفي مقابل وساطة فرنسا المؤيدة للعثمانيين في محادثات السلام تمت مراجعة المعاهدات التي تحتوي على ميزات تجارية لفرنسا سابقا وتمديدها في عام ١٧٤٠. وفي نفس العام أبرم العثمانيون معاهدة دفاع مع السويد وأخرى تجارية مع أسبانيا. ونتيجة لتلك المعاهدات، توصل العثمانيون إلى توازن دبلوماسي للقوى فيما يتعلق بأوروبا. كما أدت معاهدة بلجراد أيضا لثلاثين عاما من السلام على الجبهة الغربية. وأثمرت الإصلاحات العسكرية التي أجراها السلطان محمود الأول عن نتائج ملموسة. وقد ثبت أن معاهدة بلجراد هي أكثر المعاهدات مكسبا للعثمانيين من بين كل المعاهدات التي وقعت الدولة العثمانية عليها.

وفي الشرق، ضرب الشاه نادر حصارا على بغداد في عام ١٧٤٣ مطالبا بتسليم المدينة له. فنشبت حرب عثمانية-فارسية جديدة بُعيد استيلاء نادر شاه على كركوك وحصاره لبغداد. ولم تسفر المعارك بالقرب من كارْسْ عن أية نتائج حاسمة. لكن استشهاد "يَغَن محمد باشا" قائد الجبهة الشرقية أحدث تغيرا جذريا في مسار المعركة بالقرب من يريفان. واستطاع الجيش العثماني هزيمة العدو وسقطت كارس. ونتيجة للغارات العثمانية المستمرة على همدان عرض نادر شاه الهدنة على العثمانيين. وأعقب ذلك توقيع معاهدة "كَرْدَنْ" في عام ١٧٤٦ (المعروفة أيضا باسم معاهدة قصر شيرين الثانية) حيث اعتمدت المعاهدة على معاهدة قصر شيرين لعام ١٦٣٩. وقد نصت الاتفاقية أيضا على وجوب احترام الإيرانيين للصحابة وتأمين طريق الحج عبر بلدهم. وأهدى نادر شاه عرشا ذهبيا للسلطان محمود كرمز للصداقة، ومازال هذا العرش

سارية العلم العثماني على شكل نعل الرسول ﷺ، متحف قصر "طوب قابي".

موجودا بقصر "طوب قابي". والغريب أن ذلك العرش المذهل بقي في بغداد لفترة طويلة من الوقت بعد اغتيال نادر شاه، ووصل إلى إسطنبول بعد وفاة السلطان محمود الأول، وكان الذي رآه هو السلطان مصطفى الثالث.

ولما كان السلطان وفيا بوعده ومحبا للسلام فإنه لم يرغب في استغلال حروب الخلافة التي هزّت أوروبا ولا تسيير حملة ضد فارس خلال الصراع الداخلي الذي نشب نتيجة اغتيال نادر شاه.

تعامل السلطان محمود الأول مع الشؤون الداخلية خلال فترة حكمه، كما كافح من أجل تقوية الجيش السلطاني وتحديثه. ولم يحاول السلطان التخلص من فيلق الانكشارية، وإنما اهتم اهتماما خاصا بدفع رواتبهم في ميعادها وأراد إبقائهم تحت سيطرته. واستشار السلطانُ "إبراهيم متفرقة" حول أسباب الهزائم العسكرية وكيفية التصرف حيالها. وردا على ذلك كتب "إبراهيم متفرقة" نصيحته في كتابه الشهير "أصول الحكم في نظام الأمم". وفي ضوء مقترحات "إبراهيم متفرقة" أوكل السلطان لأحمد باشا هُمْبَاراجِي (أي الجندي بسلاح المدفعية، وهو اسم "الكومت دي بونيفال" الفرنسي بعد اعتناقه الإسلام) مهمة تحديث وحدات المدفعية (همباراخانه). وبعدها افتتحت الكلية السلطانية التقنية (المعروفة أيضا باسم همبارخانه، أو بيت صنع القنابل) في أسكودار بإسطنبول، فكانت نواة لكليات الهندسة لاحقا.

خلال عهد السلطان محمود الأول اكتسب الأعيان أو الوجهاء المحليون سلطة كبيرة؛ فطغوا وتحكموا في سكان الأقاليم، فأصدر السلطان مرسوم عدالة للدفاع عن الشعب ضد الظلم. كما سعى السلطان أيضا للموازنة بين دخل ومصروفات خزانة الدولة، ومن أجل تحقيق هذا المشروع المالي قام السلطان بسداد الديون، وتأسيس السَّنَة المالية وفقا للتقويم الميلادي بدلا من التقويم الهجري. وشهدت الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الأول آخر فترات السلام والرخاء في القرن الثامن عشر. فقد سعى لإقامة علاقات دبلوماسية متماسكة ووقع في النهاية



خنجر "طوب قابي"، يعود تاريخه إلى عام ١٧٤١



مشهد لقصر كُوكْسو من البوسفور.

معاهدات ناجحة وحاسمة تركت لمن خلفه من السلاطين سنوات طويلة من السلام على الجبهتين الشرقية والغربية. وتوفي السلطان محمود الأول على فرسه بقصر "طوب قابي" وهو في طريق عودته من صلاة الجمعة يوم ١٣ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٧٥٤.

كان السلطان يهتم كثيرا بشؤون الدولة، واعتاد على حضور اجتماعات ديوان وزرائه الذي يعقد في "قُبَّه آلْتِي" (قاعة المجلس)، وكان يناقش شؤون الدولة مع أعضاء المجلس السلطاني[٢٦] وكذلك الشؤون العامة.

كان السلطان محمود الأول شخصا طيبا وعادلا وذكيا ومحبا للسلام وذا شخصية تحظى بالاحترام كما كان مسلما متدينا. كتب قصائد باللغتين التركية والعربية، ولحّن بعضا منها. وكان يستمتع برمي الرمح وسباقات الخيل. ومن بين عاداته المهمة خروجه إلى المضيق ليشاهد ضوء القمر؛ لأنه يذكره بالرسول ﷺ.

بدأ السلطان عدة مشروعات إنشائية في إسطنبول مثل مجمع المباني الخيري الضخم الذي يسمى "نور عثمانية" بالقرب من السوق الكبير، والذي استكمل في عهد أخيه وخلفه السلطان عثمان الثالث، فسمي باسم

---

[٢٦] كان المجلس السلطاني يضم كبار المسؤولين بالفروع المختلفة لطبقة الموظفين بالإضافة إلى الوزراء.

الأخير. وكان المجمع يسمى "العثمانية" في الأساس، لكنه أصبح "نور العثمانية" مع الوقت، وذلك لوجود نقش الآية القرآنية ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴾(النور:٣٥) داخل قبة المسجد بالإضافة إلى وجود قطع من الزجاج الملون المتشابك وشبابيك من الزجاج الشفاف، مما يسمح بدخول كمية كبيرة من الضوء داخل المسجد، كل ذلك أدى إلى تسميته بهذا الاسم. ويتكون مجمع المباني من مكتبة تحوي مخطوطات نادرة معظمها من المجموعات الشخصية للسلطان محمود الأول والسلطان عثمان الثالث، بالإضافة إلى مدرسة ومطعم للفقراء وسبيل مياه وبعض المتاجر وضريح السلطانة الوالدة شاه سوار والدة السلطان عثمان الثالث.

شيد السلطان محمود الأول "قصر "طوب قابي" الساحلي" على سواحل قصر "طوب قابي" الحالي. وأطلق اسم ذلك القصر لاحقا على مقر الحكومة الأكبر حجما وشهرة بعدما دمرت النيران قصر "طوب قابي" الساحلي.

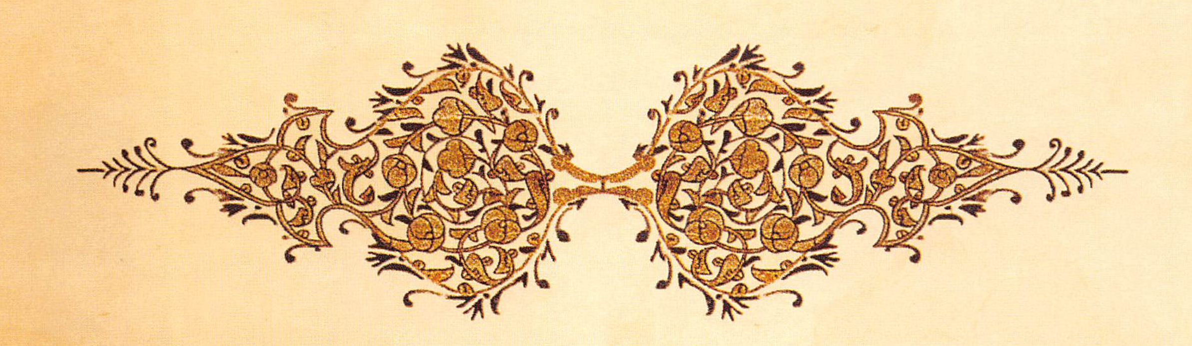
قام السلطان بترميم عدد كبير من المساجد الكبيرة والصغيرة في جميع أنحاء البلاد، كما شيد مسجد حاجي كمال الدين في روملي حصاري وميناء العرب في بَشِكْتَاشْ، وكلاهما على الجانب الأوروبي من نهر البوسفور، بالإضافة إلى مسجدي السلطان محمود وقَنْدِيلِّي في أوسكودار على الجانب الآسيوي. وحوّل مدفن كورْشُونْلُو إلى مسجد (يعرف اليوم باسم "يَرْآلْتِي" أو "المسجد تحت الأرض")، وأعاد رسم حدود المسجد ليشمل الأضرحة القريبة الخاصة ببعض صحابة الرسول ﷺ كما أشرف السلطان أيضا على إمدادات المياه بالحضر، وخصوصا السدود والقنوات المائية التي بناها ووجهت المياه الصالحة للشرب إلى شبكة من أسبلة المياه في جميع أنحاء المدينة. وأنشأ السلطان محمود الأول أيضا خزانا في الجزء الأوروبي من العاصمة، وقد اشتق اسم أكبر منطقة سياحية وتسويقية في إسطنبول اليوم، والتي يطلق عليها "تقسيم" (بمعنى "القسم" أو "التوزيع") من ذلك الخزان الحجري، حيث تتجمع خطوط المياه الرئيسية من شمال إسطنبول ثم تتفرع إلى أجزاء أخرى من المدينة.

ومما يُروى عن والدة السلطان محمود الأول السلطانة الوالدة صالحة أنها كسرت إبريق فخار لها لما أسقطته في الشارع عندما كانت فتاة صغيرة. ورأت امرأة من القصر الصغيرة صالحة سلطان منخرطة في البكاء فواستها وساعدتها على دخول القصر. وفي القصر تلقت صالحة سلطان تعليما ممتازا، وتدربت على الآداب العثمانية الرفيعة، وتزوجت أخيرا من مصطفى الثاني. وعندما أصبحت صالحة سلطان السلطانة الوالدة امتلكت الموارد لبناء سبيل مياه رائع سمي "سبيل السلطانة صالحة" بمنطقة "عذاب كابي" بإسطنبول، تماما حيث وقعت وانكسر منها إبريقها منذ فترة طويلة. وشاركت السلطان الوالدة صالحة سلطان في حفل افتتاح سبيل المياه وأمرت بمَلئه بالماء لأول مرة.

وفي عهد السلطان محمود الأول أيضا افتتحت دار الكتب، واحتوت تلك المكتبة على مجموعة غنية من المصادر، وبخاصة في التاريخ، للاستخدام في غرف الدولة لجناح ريفان بقصر "طوب قابي". وبمرور

الوقت جمعت المكتبة مجموعة غنية من المخطوطات النادرة التي قدمت للسلطان والتي لا توجد لها نسخ ثانية. وعلاوة على ذلك رعى السلطان بناء المكتبات في بلجراد وفِيدِين على نهر الدانوب، وكذلك المساجد السلطانية بإسطنبول، كما أشرف على نقل المخطوطات النادرة من الأقاليم لهذه المكتبات. وافتتح دارا للندوات بالقرب من مسجد الفاتح لدراسة صحيح البخاري.

كان السلطان رجلا محبا للخير، فقد أمر بإتاحة أثر قدم الرسول ﷺ التي كانت بجناح الآثار المقدسة بقصر "طوب قابي"، لزيارة الجمهور من خلال وضعها داخل حزام من الرخام في ضريح أبي أيوب الأنصاري، على الجدار الذي يواجه القبلة. وأهدى المسجد الحرام بمكة المكرمة شمعدانات وثُريّات قيمة، كما أجرى إصلاحات واسعة النطاق على أسوار المدينة المنورة.



# السلطان عثمان الثالث

**فترة الحكم: ١٧٥٤- ١٧٥٧**

**السلطان العثماني الخامس والعشرون**

**اسم الأب:** مصطفى الثاني

**اسم الأم:** السلطانة الوالدة شَهْسُوَار

**محل وتاريخ الميلاد:** أدِرْنه،

٢ يناير/كانون الثاني سنة ١٦٩٩

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٥٦ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** السرطان،

٣٠ أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٧٥٧

**أولاده:** كان عقيما فلم يعقب أولادا

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** إسطنبول،

ودفن في مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بالقرب من المسجد الجديد بإسطنبول





لوحة زيتية للسلطان عثمان الثالث.

بقي السلطان عثمان الثالث حبيس جناح "شِمشرليك" بقصر "طوب قابي" لسنوات طويلة، واعتلى العرشَ في السادسة والخمسين من عمره، ليصبح أكبر وريث للعرش العثماني حتى ذلك الوقت، وكان يتسلى بالنجارة خلال سنوات إمارته. وبسبب السنوات الطويلة التي قضاها عثمان الثالث محبوسا في القصر فقد كان سريع الغضب، يُصدر قرارات متسرعة، رغم ندمه في بعض الأحيان على بعض القرارات التي اتخذها.

اختار عثمان الثالث -كسلطان جديد- رجاله بدقة، ودأب على تغيير الصدور العظام بشكل متكرر. وقد تسبب التغيير المتكرر في الصدارة العظمى في حالة من عدم الاستقرار وتعطيل شؤون الدولة. ومن المحتمل جدا أن يكون السبب وراء تخلص عثمان الثالث المتكرر من الصدور العظام أنهم كانوا قد اكتسبوا مزيدا من النفوذ والسلطة خلال فترة حكمه، فأصبحوا يسيطرون على الإدارة.

وفي السنة الثانية من توليه الحكم توفيت والدته "شهسوار والدة سلطان" الشهيرةُ بورعها. وبعد ثمانية أشهر من ذلك توفي ولي العهد الأمير محمد بسب مرض أصابه.

واقتصاديا، قَدمت ميزانيةُ الدولة العثمانية فائضا خلال حكم عثمان الثالث كما كان الحال خلال الخمسين عاما السابقة. وخلال تلك الفترة كتب على العملة أنه تمّ سكّها في "إسلام بول" (والتي تعني حرفيا المكان الذي يسود فيه الإسلام)، وهو اسم آخر لإسطنبول.[٢٧]

وفي عهد السلطان عثمان الثالث أيضا تعرضت العاصمة العثمانية لكارثة سيل، وزلزالين طفيفين، وشتاء قارس البرودة لدرجة أن خليج القرن الذهبي تجمد في عام ١٧٥٥. وقام السلطان بزيارة الأماكن التي تضررت من تلك الكوارث بنفسه. وأمر موظفيه بتقدير الخسائر التي سببتها الحرائق الواسعة التي أصابت جزءا كبيرا من إسطنبول. واهتم السلطان اهتماما خاصا بتغطية الخسائر وتنفيذ جملة من التدابير لتجنب الحرائق مستقبلا.

لم تخض الدولة العثمانية في أية حروب خلال عهد السلطان عثمان الثالث الذي كرس وقته للقضايا الداخلية. وخلال تلك الفترة ضرب السلطان على أيدي

---

[٢٧] صك العثمانيون الكثير من الألقاب الرسمية لعاصمتهم ومنها: الباب العالي (أو لقب "الباب" فقط الذي استخدم بشكل واسع في الدبلوماسية الغربية)، والآستانة (بمعنى عتبة باب السلطان/ الحكومة)، وبايْتَخْتْ (أي مقعد العرش)، ومحروسة (أي العاصمة)، ودار سعادت (أي مكان السعادة).

جميع اللصوص في الأناضول والروملي، وأمر بتنفيذ عقوبات قاسية ضد قطاع الطرق الذين كانوا يهاجمون الحجاج في رحلاتهم، بالإضافة إلى الذين استغلوا مواقعهم الإدارية واستعملوا الممتلكات الوقفية المخصصة للأغراض الدينية أو الخيرية في سبيل منافعهم الشخصية. وأعطى السلطانُ الأولويةَ للتعامل مع شؤون الحُجّاج بمكة والمدينة.

وفي عهده صدر أمر بمنع الهجرة إلى إسطنبول، التي تضخمت واكتظت بالسكان. وقد سَمحت الحكومة عمليا بالدخول لأغراض العمل والتجارة فقط، وليس للشركات الكبيرة وإنما للأفراد فقط. وأصدر أوامر بمنع خروج النساء إلى الشوارع بلباس غير موافق للشريعة الإسلامية، كما منع من خروجهن إلى الأسواق إلا للحاجة. وطبقت هذه الأوامر نفسها في الحرم السلطاني.

كان السلطان عثمان الثالث يختلط كثيرا بالعامة متخفيا. وبذلك لم يتمكن من مراقبة المشكلات عن كثب فحسب، بل استطاع أيضا أن يعرف رأي العامة في الإدارة. ورغم أنه حَظر إظهار التبغ واستعماله علنا، فإنه لم تفرض أية قيود على من يدخّن بشكل مسؤول وشخصي.

ولأول مرة في التاريخ العثماني وقّع العثمانيون معاهدة صداقة وتجارة مع مملكة الدنمارك.

اشتد المرض على السلطان عثمان الثالث على نحو خطير قبل حضوره "سلام الجمعة" -وهو احتفال شعبي يقام عقب صلة الجمعة- وتوفي بعد ذلك بيومين. وتَذْكُر بعض المصادر أنه كان مصابا بالسرطان. وكان السلطانَ العثماني الخامس والأخير الذي يدفن في مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بالقرب من المسجد الجديد.

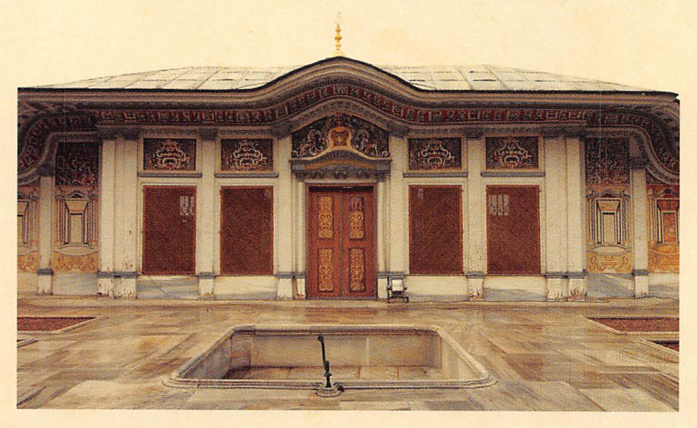
كانت والدة السلطان عثمان الثالث شهسوار، التي توفيت في السنة الثانية من حكم ابنها السلطان، تُعرف



منظر ليلي لمسجد نور العثمانية.



منظر لمسجد نور العثمانية ومسجد السلطان أحمد من برج بايزيد الذي كان مخصصا لاستكشاف الحرائق بمنطقة كاديكوي على الجانب الآخر من البوسفور (سيركا ١٩١٠).



مشهد لجناح السلطان عثمان الثالث والشرفة ذات الأرضية الرخامية في قصر "طوب قابي".



قبة مسجد "نور عثمانية" من الداخل، الذي بدأ بناءه السلطان محمود الأول وأُتم بناؤه في عهد السلطان عثمان الثالث.

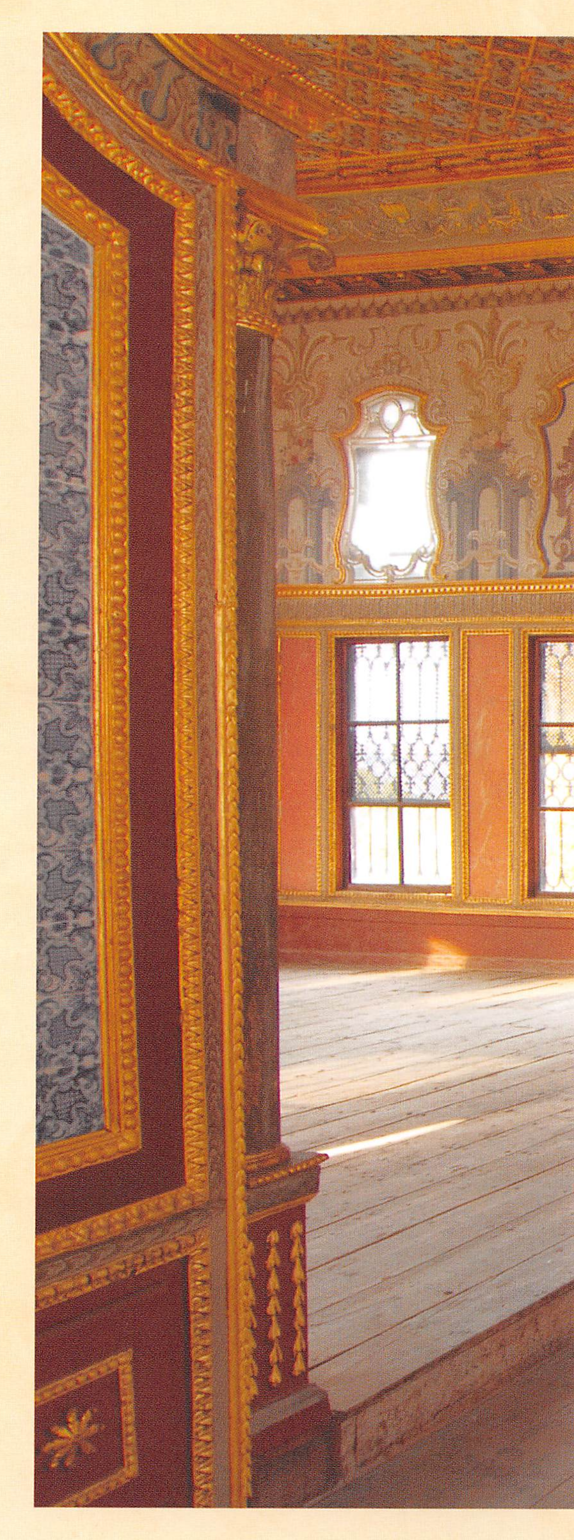


منظر من الداخل للجناح الذي أنشأه السلطان عثمان الثالث ويحمل اسمه في قصر "طوب قابي".

بورعها وتقواها. وبهذا تربّى السلطان في جو إيماني فأصبح مسلما متدينا. وكان يكره التبذير والكذب والرشوة، ويتعاطف مع عامة الشعب، ويقوم بجولاته بينهم متخفيا ويحاول تلبية احتياجاتهم.

كان عثمان الثالث خطاطا متميزا وفنانا، ومازالت بعض أعماله الفنية موجودة إلى اليوم بمتحف قصر "طوب قابي". وإلى جانب آثار أقدام الرسول ﷺ المحفوظة بقصر "طوب قابي" وبعض الأضرحة الأخرى كلّف عثمان الثالث الفنانين الموهوبين برسم لوحة من آثار الأقدام المقدسة كي يتم وضعها في ضريح السلطان أيوب. وشيد السلطان عثمان الثالث حي الإحسانية بمنطقة أسكودار بإسطنبول، وأنشأ هناك مسجد الإحسانية والكثير من المساجد الأصغر حجما التي مازالت موجودة إلى اليوم. وجدد عثمان الثالث كذلك مسجد المنارة المحترقة، واستكمل مجمع مسجد "نور عثمانية" الذي كان قد وضع محمود الأول أساساته.

وعندما اصطدمت قاعدة سفينة بالأرض بسبب ضحالة الماء على سواحل آهِركابي بإسطنبول في إحدى الليالي بدأ السلطان عثمان الثالث بإنشاء المنارة الأولى في المنطقة. وفي قصر "طوب قابي" أنشأ السلطان أيضا جناح عثمان الثالث الذي يطل على حديقة كولهانة ويتكون من حجرة رئيسية وحجرتين على الجانبين. وأجرى كذلك تجديدات شاملة على إدارة الشِّمشرليك التي سجن فيها سنوات طويلة، وأضاف مباني قريبة منها.





# السلطان مصطفى الثالث

**فترة الحكم: ١٧٥٧- ١٧٧٤**

**السلطان العثماني السادس والعشرون**



**الألقاب والأسماء الشعرية:** جهانْكير (فاتح العالم) والغازي

**اسم الأب:** السلطان أحمد الثالث

**اسم الأم:** مهري شاه أمينة سلطان

**محل وتاريخ الميلاد:** أدِرْنه،
٢٨ يناير/كانون الثاني سنة ١٧١٧

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٤٠ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** الاستسقاء،
والكرب الشديد/ ٢١ يناير/كانون الثاني سنة ١٧٧٤

**مكان الوفاة وموقع القبر:** إسطنبول، ودفن في مقبرة تحمل اسمه بالقرب من مسجد "لالَه لِي" (مسجد التوليب) بإسطنبول

**أبناؤه:** سليم الثالث، ومحمد

**بناته:** شاه سلطان، وفاطمة سلطان،
وبَكْهان سلطان، وهبة الله سلطان



السلطان مصطفى الثالث جالسا على العرش. لوحة من رسم الفنان العثماني الأرمني رافاييل، وهي موجودة بمتحف قصر "طوب قابي".

أصبح السلطان مصطفى الثالث السلطان العثماني الجديد بعد وفاة عثمان الثالث ابن عمه. وكان مصطفى الثالث محظوظا جدا حيث استفاد كثيرا من خبرة الصدر الأعظم الرائع "كوجا راغب باشا". وامتدت فترة السلام في عهده، والواقع أنه اتبع سياسة التسوية حتى يتمكن من الحفاظ على الدولة العثمانية من خوض الحروب بينما شُغلت أوروبا في حرب السنوات السبع، فلم تهاجم العثمانيين.

ثلاثون عاما من السلام مع روسيا تلت اتفاقية بلجراد لعام ١٧٣٩، لكن الطموحات الروسية المتعارضة مع المصالح العثمانية تسببت في جعل البلدين على حافة التقاتل عام ١٧٦٨.

حيث أرادت كاثرين الثانية ملكة روسيا أن تستولي على القرم والقوقاز، ترسلَ الأسطول الروسي جنوبا في البحر الأسود للمرور مجانا عبر مضيقي البوسفور والدَرْدَنِيل العثمانييْن، وتوسّعَ دائرة نفوذها في البلقان. وقد أظهرت في النهاية نيتها في القتال عندما تدخلت روسيا في شؤون بولندا الداخلية منتهكة بذلك معاهدة بروت. فرد العثمانيون بعد ذلك بفترة قصيرة.

استغاث البولنديون بالعثمانيين بعد أن نصّب الروس قائدا بولنديا يؤيدهم مكان الملك البولندي الراحل. وفي النهاية أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا بدعم صريح من الخان القرمي والفرنسيين عام ١٧٦٨. وعندما حاصرت روسيا قلعة خوتين عام ١٧٦٩ صدهم العثمانيون بفاعلية مما أكسب السلطان لقب "الغازي". ورغم ذلك فقد خسر الجيش العثماني المعارك التالية، وأصبح السلطان -الذي لقب بالسلطان الغازي في ذلك الوقت- محل انتقاد قاسٍ من جانب شعبه.

كان الرد الروسي على الإعلان العثماني للحرب سريعا؛ حيث اخترق الجيش الروسي والاشيا ومولدافيا واستولى على ميناءَي كيليا و"آقْ كَرْمان" اللذين يتحكمان في مصب نهري الدانوب ودنيستر، بينما أبحرت القوات البحرية الروسية من بحر البلطيق حتى مضيق جبل طارق وصولا إلى البحر المتوسط بفضل مساعدة البريطانيين.

وفي البحر المتوسط حرض الروس المورييين على التمرد ضد الدولة العثمانية. ورغم أن العثمانيين أخمدوا التمرد بنجاح أثار دهشة الروس فقد أحرق الروس الأسطول العثماني الراسي في مرفأ "جشمه ليماني" على الساحل الغربي الأناضولي. وكانت الأحداث نذيرة بما سيحدث لاحقا في عام ١٧٧٠.

وفي النهاية قام القائد الأعلى للبحرية العثمانية "حسن باشا جزايرلي (الجزائري)" بطرد الروس من البحر المتوسط وإجبارهم على تغيير مسار الحرب، لكن القوات الروسية استولت على القرم. ولم تتمكن القوات العثمانية من صد الروس في القرم، واضطُر السلطان إلى عرض الهدنة. وفي نفس الأثناء تسببت الانتصارات الروسية على



العثمانيين في إثارة غضب النمساويين كما مثلت تحذيرا لهم بسبب أهدافهم الإقليمية فيما يتعلق بوالاشيا ومولدافيا. غير أن الحرب استُؤنفت بعد أن أسفرت لقاءات السلام في بوخارست عن شروط بالغة الإجحاف لم يستطع السلطان قبولها. ثم استولت روسيا على سليسترا وروسجوق (Rusçuk). ولم تصل أية أنباء جيدة من ساحات المعارك، بل المزيد والمزيد من الخسائر، فأثَّر كل ذلك على صحة السلطان. وتوفي السلطان مصطفى الثالث يوم الجمعة ٢١ يناير/كانون الثاني عام ١٧٧٤ بمسجد آيا صوفيا أثناء استماعه لآذان صلاة الجمعة.

تصف السجلات التاريخية السلطان مصطفى الثالث بأنه كان شخصا نزيها وكريما ومهذبا وخيِّرا وسخيا. وكان مسلما ملتزما حيث كان يؤدي صلاة الفجر متنكرا بمسجد آيا صوفيا مع عموم المصلين. وكان مهتما تماما بمصلحة شعبه؛ فقام بتنظيم الضرائب المفروضة على رعاياه على نحو مريح بالنسبة إليهم. وكان منظَّما ومقتصدا للغاية؛ حيث واظب على التفتيش على جميع المصروفات بما فيها مصروفات القصر كي يحافظ على خزانة الدولة؛ وبصفة خاصة اتخذ تدابير غاية في الحزم لتوفير الأمن على طريق الحج، وقام بإعادة ترتيب هياكلِ أوقاف الحرمين. وبسبب سياسته المقتصدة بصفة عامة فيما يتعلق بالشؤون المالية بالإضافة إلى تفتيشه الدقيق على الفساد الإداري ارتفع دخل الدولة. كما تطور مكتب الإيراد السلطاني إلى وزارة مهمة في الدولة خلال عهده. ومن ناحية أخرى كان مصطفى خطيبا مفوها، وخطاطا بارعا، وقد حاول إتقان أدق تفاصيل شؤون دولته.

ولأن سابقيه محمود الأول وعثمان الثالث لم ينجبا أولادا فقد كان قدوم الابنة الأولى لمصطفى الثالث عام ١٧٥٩ وابنه الأول عام ١٧٦١ حدثا سعيدا مبهجا. ولما كانت السلالة العثمانية قد حرمت من إنجاب ورثة طوال أربعين عاما فقد كانت ولادة هذين الطفلين مناسبة لإقامة احتفالات دامت عدة أيام.

استمرت محاضرات "الحضور" (أي: حضور القلب مع الله) في عهد السلطان مصطفى الثالث، والتي كان قد بدأها

مسجد آيازْما في أوسكودار الذي أنشأه السلطان مصطفى الثالث.

والده السلطان أحمد الثالث. وكانت تلك المحاضرات عبارة عن دروس دينية من القرآن الكريم تنعقد في حضور السلطان خلال شهر رمضان من كل عام.

تروي المصادر أن السلطان مصطفى الثالث كان يجوب العاصمة متخفيا خلال الحرب مع روسيا، ليصغي لأفكار الناس وأمانيهم، ثم يبذل قصار جهده لتلبية احتياجاتهم. كما حشد جميع موارد الدولة لإعادة بناء المدينة والمناطق المجاورة لها عندما ضرب زلزال عنيف مدينة إسطنبول في آخر يوم من أيام عيد الأضحى الذي كان يوافق يوم ٢٢ مايو/ أيار عام ١٧٦٦. وتشير المصادر إلى أن النفقات الحكومية على ذلك المشروع الضخم تجاوزت اثنين وعشرين ألف كيس من العملات الذهبية، وهذا كان مبلغا هائلا في ذلك الوقت. وأحدث الزلزال أضرارا بالغة بمسجد الفاتح ومسجد أبي أيوب والسوق الكبير وأسوار المدينة وبرج العذراء ومباني أخرى كثيرة. غير أن السلطان قام بتضميد الكثير من الجراح وبناء المدينة من جديد بفضل خزانة الدولة الممتلئة عن آخرها بسبب الإنفاق المقتصد لحكومته.

مسجد لالَلي في أوائل القرن العشرين (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).

وكان لدى السلطان مصطفى الثالث مشروعان آخران؛ فقد أراد أن يربط بين بحيرة سابانْجا -شرقي خليج إزميت- بالبحر الأسود، بالإضافة إلى شق قناة في السويس. لكن هذين المشروعين لم يتحققا بسبب المعارضة الشديدة من جانب رجال الدولة والجمهور الأوسع.

وبنى السلطان مساجد كبيرة لكنه لم يَسمح بأن يوضع عليها اسمُه بينما لم يعارض تسمية صغار المساجد باسمه.

ومن بين المساجد التي رعاها السلطان مسجدُ "مِهري شاه" المعروف أيضا باسم مسجد أيازْما بأوسكودار، الذي شُيد استذكارا لروح والدته الراحلة مهري شاه أمينة سلطان وأخيه الأكبر سليمان. وأنشأ السلطان أيضا مجمع مسجد لالَلي على الجانب الأوروبي من المدينة

درع السلطان مصطفى الثالث في متحف قصر "طوب قابي".

تكريما لشخص يدعى "لالَلي بابا" وهو أحد الصالحين الذي كان يحظى باحترام كبير من جانب السلطان. ودُفن السلطان والولي في فناء مسجد لاليلي. كان السلطان محبا للشعر وكتب الكثير من القصائد بالاسم المستعار: "جهانكير.







نافورة مياه أنيقة في الشُرفة السلطانية بقصر "طوب قابي"



حفر يصوّر السلطان مصطفى الثالث ممتطيا صهوة جواده أمام باب السلام، يعود تاريخه لعام ١٧٦٢.
وعند المرور من هذا الباب اضطر الجميع ما عدا السلطان إلى النزول عن خيولهم في الفناء الأول من قصر "طوب قابي".

# السلطان عبد الحميد الأول

**فترة الحكم: ١٧٧٤- ١٧٨٩**

**السلطان العثماني السابع والعشرون**

**الألقاب والأسماء الشعرية:** الغازي والولي

**اسم الأب:** السلطان أحمد الثالث

**اسم الأم:** ربيعة شرمي سلطان

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول،
٢٠ من مارس/آذار سنة ١٧٢٥

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٤٩ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** الكربالشديد ٧ أبريل/نيسان سنة ١٧٨٩

**مكان الوفاة وموقع الضريح:** إسطنبول،
ودفن في مقبرة تحمل اسمه بالقرب
من "باهجه كابي" بإسطنبول

**أبناؤه:** مصطفى الرابع، ومحمود الثاني، ومراد،
ونصرت، ومحمد، وأحمد، وسليمان

**بناته:** أسماء سلطان، وأمينة سلطان، وربيعة سلطان،
وصالحة سلطان، وعليم شاه سلطان، ودورُّو شَهْوار سلطان،
وفاطمة سلطان، وملك شاه سلطان، وهبة الله سلطان،
وزكية سلطان



اعتلى السلطان عبد الحميد الأول العرش عام ١٧٧٠ تقريبا. وهذه اللوحة رسمها الفنان العثماني الأرمني رافاييل، وهي موجودة بمتحف قصر "طوب قابي".

اعتلى السلطان عبد الحميد الأول العرش وهو في التاسعة والأربعين من عمره مكان أخيه المتوفى في وقت كانت تعاني فيه الدولة العثمانية من مشكلات كثيرة. ولما كانت الدولة العثمانية في أمس الحاجة لسلطان كفء، فلم يكن من الملائم بالنسبة لكل من الدولة والسلطان أن يكون السلطان على تلك الدرجة من عدم الخبرة في إدارة الحكومة في وقت توليه السلطة.

في البداية كان التحدي الأكبر الذي واجه عبدَ الحميد الأولَ الحربُ الروسية–العثمانية التي اندلعت خلال عهد أخيه مصطفى الثالث وكانت ما تزال مستمرة منذ خمس سنوات. فحاول تحرير والاشيا ومولدافيا من الغزو، حيث اعتقد أن ذلك سوف يساعد على إبرامه معاهدة رابحة مع الروس. غير أن الجيش العثماني هُزم بالقرب من كوزْلوجا وشُومْنو. وبذلك وفي الشهر السادس فقط من توليه العرش، أُجبر السلطان على قبول شروط المعاهدة تماما كما أملاها الروس. وفي ٢١ يوليو/تموز عام ١٧٧٤ وقَّع الروس والعثمانيون معاهدة "كوجوك كايْنارْجا"، والتي تعد أجحف معاهدة وافق عليها العثمانيون؛ فقد نصّت على قبول العثمانيين بالاستقلال الاسمي للقرم؛ وبهذا خسر العثمانيون أول منطقة ذات أغلبية مسلمة. وبشكل خاص فَقَدَ العثمانيون منطقة قاباربا، وخصوصا أزوف الأكثر أهمية. كما أقام الروس حماية على المسيحيين الأرثوذكس وهي الحماية التي سوف يستغلونها للتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية. ومُنح الروس أيضا حق المرور المجاني عبر المضايق، بالإضافة إلى مزايا تجارية تماثل تلك التي أُعطيت للفرنسيين والبريطانيين في السابق.

حزن العثمانيون، وبخاصة السلطان عبد الحميد الأول، لخسارة القرم، وهي الأرض التي أصبحت بمثابة الوطن الثاني للأتراك بعد ١٥٠٠ سنة من الوجود هناك. وبعد معاهدة كوجوك كاينارجا، أخمد السلطان عدة ثورات في البحر المتوسط وسوريا والمورة ومصر، وكل ذلك بدعم من الأميرال العثماني العام حسن باشا غازي وأحمد باشا الجزار. وقام السلطان أيضا بإنهاء الاضطرابات التي سببتها قوات المشاة البحرية العثمانية في الأناضول. وكانت تلك الفترة هي فترة انتشار المذهب الوهابي بشبه الجزيرة العربية واستيلاء أمير نجد عبد العزيز بن سعود على وسط الجزيرة العربية.

ورغم انفصال منطقة القرم عن الحكم العثماني بناء على بنود معاهدة كوجوك كاينارجا الخاصة باستقلال القرم فإن الروس تحينوا الفرص المناسبة للاستيلاء عليها. وبدا الوقت مناسبا للروس عندما تبيّن أن الاضطرابات في الجزيرة العربية يصعب التعامل معها على نحو سريع. وعندما حاولت الإمبراطورة كاثرين الثانية تنصيب شاهين كِيرايْ خانا جديدا على القرم، لجأ القرميون إلى العثمانيين المرتبطين بهم برابطة الإسلام. وكان السلطان

يعرف تماما أن الروس يبحثون عن طرق لغزو القرم، فأصدر أوامره لإعداد الجيش في حالة غزو الروس للقرم. وبسبب ردود فعل السكان المحليين أراد شاهين كيراي هذه المرة أن يكون سليم كيراي الثالث الخان الجديد. وعندما أصبح الخلاف الدبلوماسي القائم على وشك أن يتحول إلى حرب روسية عثمانية خطيرة، تدخلت فرنسا وتوسطت بين الطرفين المقاتلين، والتقى الطرفان في النهاية بقصر "آيْنالي قاواق" من أجل اتفاقية "آيْنالي قاواق" في إسطنبول عام ١٧٧٩. ونصت تلك الاتفاقية على بقاء القرم مستقلة، وعلى انسحاب القوات الروسية من منطقة القرم، وعلى موافقة العثمانيين على تولي شاهين كيراي منصبَ الخان الجديد. وبالإضافة إلى ذلك، مُنحت حقوقٌ وحرياتٌ إضافية للمسيحيين العثمانيين.

عززت اتفاقية "آيْنالي قاواق" من دور روسيا الوصائي ليس فقط على القرم ولكن على جميع المسيحيين الأرثوذكس في البلقان أيضا. ولأن السلطان عبد الحميد الأول كان ضد الدبلوماسية الروسية في القرم فقد أراد أن يكون أكثر فاعلية في جنوب القوقاز. وعمليا تم تحصين قلعتي سُوغُوجَاك وآنابَا، وأقام علي باشا حاكم قلعة سُوغُوجَاك علاقات مع القبائل الشركسية، وطوّر العثمانيون علاقاتهم مع الداغستانيين. كما راسل السلطان عبد الحميد الأول أبا الغازي سيد محمد بهادر خان، حاكم بخارى، فكتب له هذا الأخير عددا من الرسائل يطلب فيها مساعدته عندما يسير الجيش العثماني إلى روسيا لتحرير القرم.

وفي تلك الأثناء، استخدم الخان القرمي الجديد شاهين كيراي دعم الروس له في تنفيذ إصلاحات أوروبية التوجه؛ فثار القرميون واضطر شاهين كيراي إلى الهروب من القرم. وعندما حدث ذلك هرع المارشال الروسي بوتَمْكِين إلى

مسجد عبد الحميد الأول الذي أنشأه السلطان عبد الحميد الأول في منطقة بيلربَيِي على الساحل الآسيوي لإسطنبول.



جزء من الغرفة الخاصة بالسلطان عبد الحميد الأول بقصر "طوب قابي"

القرم وقام بذبح قرابة ثلاثين ألف مسلم في القرم بوحشية، ثم أعاد شاهين كيراي إلى الحكم مرة أخرى. فهجر أغلبُ المسلمين المتبقين القرم، وقام شاهين كيراي بإعادة إسكان المدينة بالمهاجرين الروس. عاد بوتَمْكِين إلى القرم بعد فترة قصيرة لإلحاقها بروسيا هذه المرة وذلك في ٩ يناير/كانون الثاني عام ١٧٨٤. ولم تكن الدولة العثمانية مستعدة لمحاربة روسيا، فتقبلت على مضض غزوَها للقرم.

بعد عدة سنوات خالية من الحروب بين روسيا والنمسا، التقت الدولتان في سان بطرسبرج لمناقشة تقسيم الأراضي العثمانية. ولاحقا حرّض الروس بكوات المماليك الشراكسة على التمرد على السلطة العثمانية. وعند تلك النقطة أرسلت الدولة العثمانية إنذارا لروسيا أولا ثم أعلنت الحرب عليها. وكانت إعادة القرم للحكم العثماني هدفا آخر من أهداف الحرب. واضطر العثمانيون لقتال روسيا على جبهةٍ، وقتالِ النمسا حليفة روسيا على جبهة أخرى. ورغم أن القوات العثمانية انتصرت على النمساويين فإن الجيش الروسي هزم العثمانيين في النهاية. واستمرت صحة السلطان في التدهور خلال الحربين، وتأثر تأثرا شديدا باستيلاء الروس على قلعة أوتشاكوف (أُوزي) على نهر دنيستر، حتى إن هذا الأمر تسبب في إصابته بالشلل. وتوفي السلطان عبد الحميد الأول في نهاية الأمر في الغرفة الخاصة بقصر "طوب قابي" يوم ٧ أبريل/ نيسان عام ١٧٨٩.

تؤكد السجلات التاريخية أن السلطان عبد الحميد الأول كان رجلا رحيما وطيبا ومخلصا. وكان عليه مواجهة مشكلات عديدة داخل دولته وخارجها. وخلال عهده تم تطبيق جملة من الإصلاحات العسكرية التي كان الهدف منها أساسا هو تحديث ورفع كفاءة فيالق المدافع والمدفعية والانكشارية بالإضافة إلى البحرية السلطانية. وعلى صعيد الشؤون الخارجية أقام السلطان عبد الحميد الأول علاقات وثيقة مع الخانية الأوزبكية والولايات الإسلامية في المغرب والهند.

شيد السلطان عبد الحميد الأول مجمع مبانٍ خيري يضم ملجأ ومدرسة أطفال وكلية ومكتبة أبحاث في حي سِركجي بإسطنبول. وتوجد الكتب التي بقيت من عهد عبد الحميد الأول اليوم بمكتبة السليمانية. كما أنشأ السلطان، نيابة عن والدته ربيعة سلطان، مسجدا بالقرب من ساحل بَيْلَرْبَيِي، بالإضافة إلى أسبلة مياه كثيرة في جميع أنحاء إسطنبول، وبخاصة في بَيْلَرْبَيِي وجامليجا في الشطر الأناضولي من المدينة. وكان هو مَن أمر بإقامة الغرفة الخاصة التي سميت باسمه بعد ذلك، وكذلك المساكن السلطانية (المابَين).[٢٨]

تولى السلطان إصلاحات بئر زمزم ومجاري المياه بمكة، كما أجريت في عهده عملية صيانة

---

[٢٨] المابيـــن: هو القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين الحرم ( أي جناح الحريم ) وما بين الدوائر الخارجية. وهو المكان الذي يقضي فيه السلطان يومه، إن لم يكن يخرج من القصر. والأمور التي يتم عرضها عليه من لدن الصدر الأعظم ترفع إلى هذه الدائرة، فيطلع عليها السلطان، ويأمر بما يراه مناسباً.



مرسوم صادر عن السلطان عبد الحميد الأول بتجديد تعيين السيدة حنيفة، أم أحمد سعيد، وصية شرفية في ضريح الرسول ﷺ.



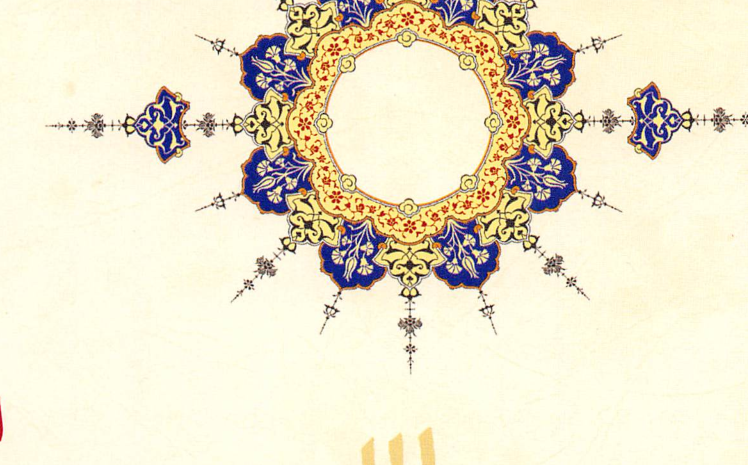
منظر جوي لقصر "طوب قابي"

شاملة لمقامَي إبراهيم عليه السلام والإمام الشافعي، وأعيد بناء البرجين حول مكة بعد تآكلهما بفعل الزمن. ولمِا أن السلطان عبد الحميد الأول كان نصيرا كريما للعلم والمعرفة فقد أمر بافتتاح مكتبة بالمدينة، وشحن من إسطنبول ١٦٦٩ مخطوطة ليتم استخدامها في المكتبة التي افتتحت حديثا بالمدينة. وأمر ببناء قلعة أجياد (التي ظلت قائمة حتى عام ٢٠٠١) على تلّة تطل على المسجد الحرام لحمايته من الغزاة.





منظر عام لقصر "طوب قابي" على رأس أو لسان صخري في البحر يُسمى "سراي بورنو" (قصر اللسان)، ممتدا من القرن الذهبي وحتى مضيق البوسفور وبحر مرمرة، ويمكن منه مشاهدة إسطنبول.



# السلطان سليم الثالث

## فترة الحكم: ١٧٨٩-١٨٠٧

### السلطان العثماني الثامن والعشرون

**الألقاب والأسماء الشعرية:** جهانْدار، غازي، حليم، إلهامي

**اسم الأب:** مصطفى الثالث

**اسم الأم:** السلطانة الوالدة مهري شاه

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول،

٢٤ ديسمبر/كانون الأول عام ١٧٦١

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٢٨ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** الاغتيال، ٢٨ يوليو/تموز ١٨٠٨

**مكان الوفاة وموقع القبر:** إسطنبول،

ودفن في مقبرة مصطفى الثالث في لَالَلِي بإسطنبول

**أولاده:** كان عقيما فلم يعقب أولادا



لوحة تصور السلطان سليم الثالث، رسمها الفنان قسطنطين الكابيداغي، وهي موجودة في متحف "طوب قابي".

لم تنجب السلالة العثمانية أي وريث بعد عام ١٧٢٥، ولهذا فقد كان ميلاد السلطان سليم الثالث مناسبة لاحتفال ضخم. كان سليم الثالث في سن الثالثة عشرة عندما تُوفي والده. وتلقى تعليما ممتازا، وسمح له عمه عبد الحميد الأول بأن ينشأ وسط بيئة متحررة. وكان سليم الأول على دراية بالأخبار العالمية، ويتمتع بعقلية إبداعية. وأدى اعتلاؤه العرش في سن صغيرة ولكن ناضجة، على عكس سابقيه، إلى إحداث تغييرات جذرية في مصير الدولة العثمانية.

استمرت الحروب مع روسيا والنمسا في السنوات الأولى من حكمه. ومن أجل ذلك قاد عددا من حملات جمع التبرعات لتغطية نفقات الجيش الذي يحارب على جبهتين. وفي عهده تحالفت السويد مع الدولة العثمانية وشنت حربا ضد روسيا، لكن الأنباء القادمة من جبهات القتال، والتي تحدثت عن خسائر في الأراضي، كانت مخيبة للآمال؛ حيث استولت روسيا على بندر على الضفة الغربية من نهر الدنيستر، وبلدة كِيليا وحصن "آق كِرمان"، في حين استولت النمسا على بوخارست وبلجراد.

تشير السجلات إلى أن السلطان سليم الثالث، الذي أحزنته الخسائر الهائلة في الأراضي، قام بزيارة إلى مسجد أبي أيوب الأنصاري وقام بالصلاة والدعاء طويلا هناك. وفي عهده تحالفت بروسيا مع الدولة العثمانية وحشدت بعض قواتها على حدودها مع النمسا. وشعرت النمسا بالقلق من انتشار أفكار الثورة الفرنسية في تلك الأراضي، فألغت تحالفها مع روسيا ووقعت على معاهدة زيشتوفي مع العثمانيين عام ١٧٩١. نصت المعاهدة على أن النمسا سوف تعيد الأراضي التي استولت عليها من العثمانيين خلال الحرب.

واصلت روسيا الحرب لمدة أطول، لكن شيئا غير متوقع حدث في ذلك الوقت؛ فلأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية قام القادة العثمانيون في الحرب بكتابة التماس للسلطان يطالبونه فيه بإنهاء الحرب الجارية، فكان ذلك مؤشرا على وجود مشكلات في سلسلة قيادة الجيش التي دُللت وأصبحت متغطرسة في نفس الوقت الذي كان الجيش يعاني فيه حالة من سوء الإدارة والفوضى. وفي الوقت الذي كانت للثورة الفرنسية آثار بعيدة المدى في جميع أنحاء أوروبا، وكانت السويد ملتزمة بتحالفها مع الدولة العثمانية، بات وجود إدارة فعالة وذات كفاءة للجيش أمرا يعد بتحقيق انتصارات حاسمة. غير أن السلطان سليم الثالث قرر توقيع معاهدة "ياش" مع الروس عام ١٧٩٢، وخسر المزيد من الأراضي. وأصبح نهر الدِّنَيْسْتَر يمثل الحدود الجديدة بين الدولة العثمانية وروسيا. ومن أهم نتائج هذه المعاهدة أن العثمانيين أدركوا أنه لا مجال لاستعادة القرم؛ فالحروب التي خاضها العثمانيون لاستعادة القرم لم تسفر عن أية نتائج إيجابية، بل أسفرت عن خسارة المزيد من الأراضي. واستقبل السلطان





جيشه العائد من الحرب التي دامت أربع سنوات.

حدثت في ذلك الوقت مشكلتان تمثلتا في الاضطراب السياسي والاجتماعي في الأناضول وارتفاع موجة الهجرة إلى إسطنبول. حيث تسببت ضغوط الأعيان المحليين في ترك الكثير من المزارعين أراضيهم وهجرتهم إلى العاصمة إسطنبول، فتسببوا في اضطراب مدني، ونقص في الغذاء، كما ساهموا في التضخم المتصاعد.

اهتم السلطان كثيرا بالمشكلات العديدة التي أصابت العاصمة، ولذلك بدأ بالعمل على تطبيق مجموعة من الإصلاحات عندما ظلت الأمور تسوء. ولإدراكه أن الدولة العثمانية تأخرت كثيرا عن أوروبا من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية فقد استشار رجال الدولة قبل البدء في إصلاحاته وطلب منهم أن يبدوا مقترحاتهم حول ما ينوي القيام به. وبشكل محدد تقدمت لجنة يرأسها أبو بكر راتب أفندي، السفير العثماني في باريس، وبرترانود الفرنسي، ودوهسون السويدي بتقرير شامل مكون من ٧٢ بندا بشأن تطبيق الإصلاحات وأساليب معالجة المشكلات في العاصمة.

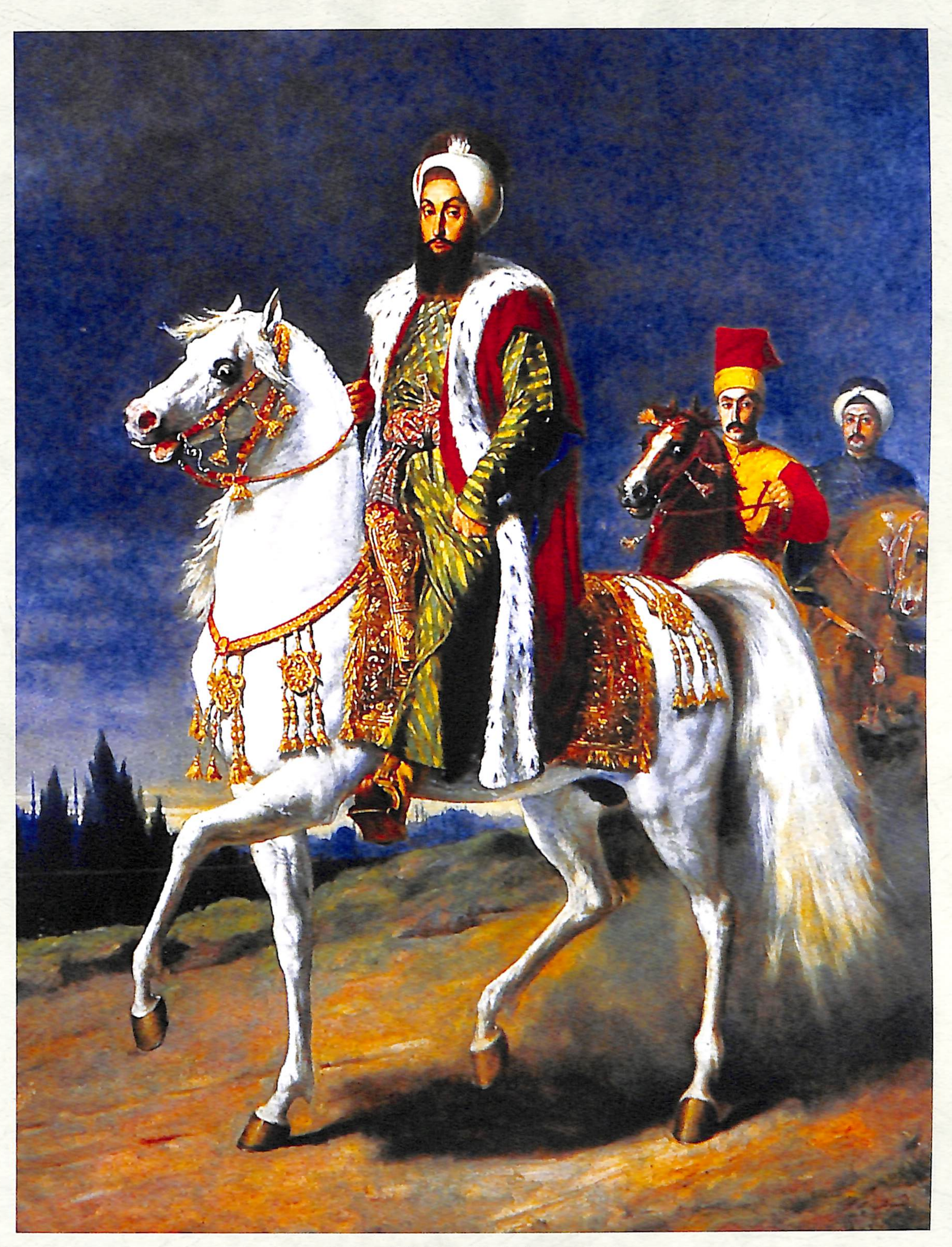
وردا على واقع الجيش العثماني الذي عانى من هزيمة تلو الأخرى، قام السلطان بإنشاء فيلق صغير من القوات أسماه "النظام الجديد" عام ١٧٩٣، وخصص للإنفاق عليه موردا سُمي "الإيراد الجديد"، وألبس القوات الجديدة زيا عسكريا على طريقة الجيوش الأوروبية.

وفيما بعد استخدم اسم "النظام الجديد"، الذي أطلق على القوات العسكرية الجديدة، ليشير بشكل أوسع إلى الحركة الإصلاحية التي قادها السلطان سليم الثالث. وشارك خبراء أوروبيون في تحديث المدفعية وقاذفات القنابل، ووحدات حفاري المناجم. وبالإضافة إلى هذا افتتحت مدرسة هندسة الأراضي (وهي كلية عسكرية جديدة)، وأعيد تنظيم ورش بناء السفن وضبطها؛ فنجحت هذه الورش في المقابل في بناء السفن الحديثة والسفن الحربية التي كانت الدولة في أمس الحاجة إليها. وفي نفس العام أقام العثمانيون سفارات دائمة في لندن وباريس وفيينا وبرلين بغرض تتبع التطورات في أوروبا.

وللوقاية من حدوث أي حرائق مدمرة في المستقبل أو الحد من تأثيرها في إسطنبول قام السلطان سليم الثالث بنشر "نظامْ نامه" (أي المراسيم التنظيمية) بهدف توحيد مواقع المباني وارتفاعاتها.

لقد استفادت فرنسا كثيرا جدا من الامتيازات الدبلوماسية والتجارية التي حصلت عليها من العثمانيين، بل إنهم حققوا ثروة من هذه الامتيازات، ولهذا السبب، شعر العثمانيون بالدهشة عندما قام القائد العسكري الفرنسي نابليون بونابرت بغزو مصر عام ١٧٩٨ خلال حكم السلطان سليم الثالث، بل كان الغزو شيئا مروعا بالنسبة للحكومة العثمانية. ثم حرق البريطانيون الأسطول الفرنسي الرابض في ميناء أبو قير لأن اختراق الفرنسيين للبحر المتوسط كان أمرا مزعجا بالنسبة لهم. فأدى هذا الحدث إلى تقارب بين بريطانيا والدولة العثمانية. وبدعم من بريطانيا وروسيا أعلن السلطان سليم الثالث الحرب على فرنسا، الصديق القديم.

لوحة زيتية تصوّر السلطان سليم الأول، رسمها الفنان العثماني اليوناني قسطنطين الكابيداغي عام ١٨٠٣، وهي موجودة بمتحف قصر "طوب قابي".



رسم زيتي يصوّر السلطان سليم الثالث ممتطيا جواده،
وهي من رسوم هيبولايت بيرتو(Hippolite Bertaux)، وموجودة حاليا بمتحف قصر "طوب قابي".

سار نابليون نحو سوريا لإجبار العثمانيين على الدخول في هدنة، وكذلك لكسب بعض الوقت لإعادة بناء أسطوله. واختبرت قوات النظام الخاص نفسها في المواجهة مع الفرنسيين، وفي النهاية حقق العثمانيون نصرا حاسما. واضطر نابليون، القائد العظيم للجيش الفرنسي، إلى مواجهة الهزيمة، وأخرج قواته من مصر وفقا لمعاهدة تم توقيعها في العريش على ساحل البحر المتوسط بشبه جزيرة سيناء عام ١٨٠١.

ثم بدأ الروس، الذين تحالفوا مع العثمانيين خلال الاحتلال الفرنسي لمصر، سريعا في إحداث مشكلات في البلقان، فرد العثمانيون على ذلك بعزل أمير والاشيا وأمير مولدافيا، اللذَين كانا مواليين لروسيا، كما منع العثمانيون السفن الروسية من المرور عبر المضايق. لكن الروس أرادوا إعادة الأميرين إلى منصبيهما، وتحركوا لضم والاشيا ومولدافيا. وشعر السلطان سليم الثالث بالفزع الشديد للمرة الثانية بعد الغزو الفرنسي لمصر، بسبب تجاهل الروس للتحالف الذي تم توقيعه مؤخرا مع العثمانيين، ولأن روسيا مازالت عازمة على أن تفعل أي شيء لغزو القسم الأعلى من البلقان. دخل العثمانيون في حرب جديدة ضد الروس، وهي حرب ستستمر حتى بعد حكم السلطان سليم الثالث.

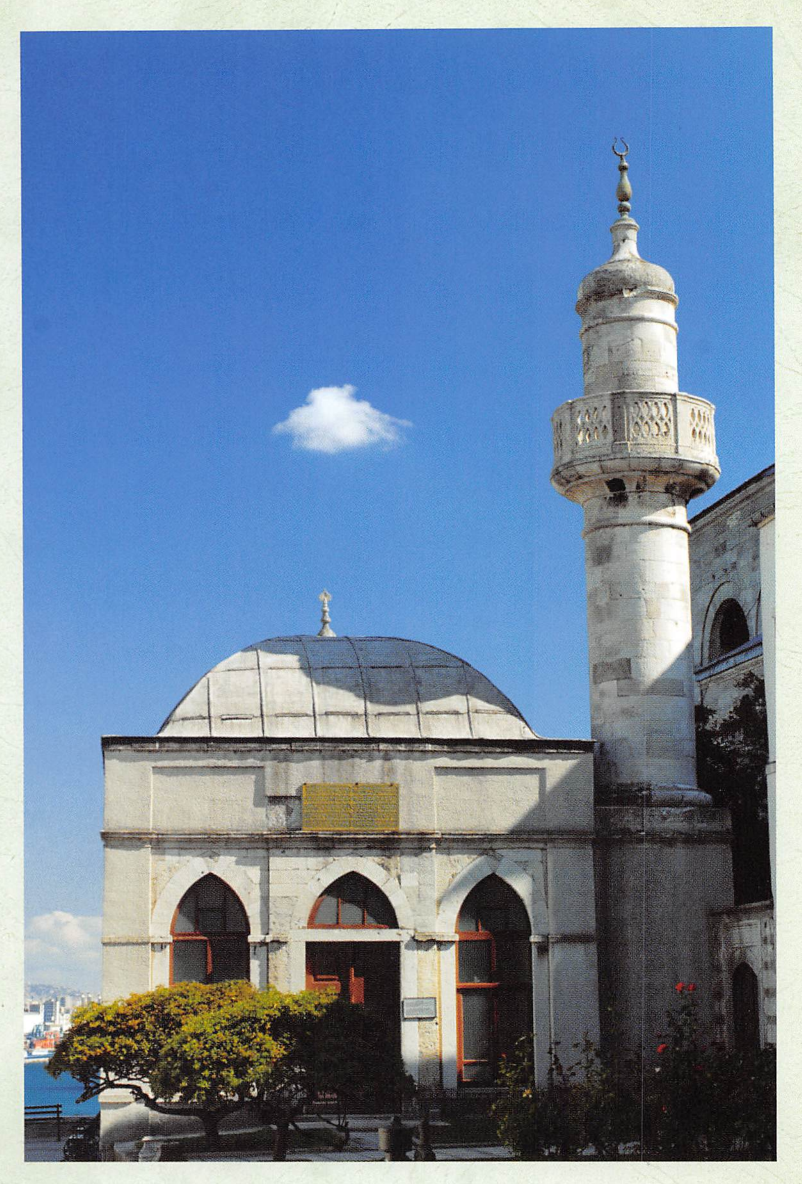
لم تحظ الحركة الإصلاحية التي قادها السلطان سليم الثالث تحت عنوان "النظام الجديد" بتأييد العلماء العثمانيين والتجار والأقليات والانكشارية والشعب بشكل عام. وكانت الكوارث الطبيعية التي ضربت الأراضي عام ١٨٠٥ مؤشرات سيئة بالنسبة لهم، كما ردوا بشكل فعلي على رغبة السلطان في إطلاق إصلاحاته من الروملي؛ فحدثت انتفاضة اجتماعية وانتشرت، ونتج في النهاية فوضى شديدة بسبب التمرد الذي قاده "قَبَاقْجِي مصطفى"، الذي كان يعمل متدربا في "روملي كواغي" على البوسفور.

كان بإمكان السلطان سليم الثالث إخماد التمرد بسهولة لو أنه استخدم قواته العسكرية الجديدة التي قام بتحديثها واستثمر فيها الكثير من الأموال وكان قويا بما يكفي لهزيمة جيش نابليون بونابرت، لكن السلطان اختار ألا يستخدم هذا الجيش كي لا يريق المزيد من الدماء. ورغم مقصده الإنساني فإن حالة الدولة كانت في غاية الوضوح. ودعا السلطان ابن أخيه الأمير مصطفى، وأبلغه أنه سيتخلى عن العرش له، وتمنى له التوفيق. وكان هذا يعني التخلي عن جميع الإصلاحات التي قضى فيها السلطان وقتا كبيرا، وبذل من أجلها الكثير من الوقت والجهد. فكانت انهزامية السلطان في نهاية المطاف عاملا ساهم في انسحاب الدولة العثمانية من مسرح التاريخ.

قبل نحو عام من اغتياله اعتزل السلطان سليم الثالث الناس واعتكف في قسم الحريم بالقصر (والذي يعني المكان الذي لا يجوز انتهاك حرمته)، وقضى أغلب وقته في قراءة القرآن والعزف على الناي لم يكن للسلطان سليم الثالث أي رغبة في العودة إلى العرش، ورغم ذلك فقد أمر السلطانُ مصطفى الرابع بقتل السلطان والأمير محمود بعدما قام أحد أتباعه، وهو "عَلَمْدار مصطفى باشا"، بتسيير قواته نحو إسطنبول، والقضاءِ على

المتمردين ومحاصرة قصر "طوب قابي". في ذلك الوقت استُدعي السلطان سليم الثالث للخروج من غرفته، وتم اغتياله. وألقيت جثة السلطان القتيل في مقدمة "قاعة الحضور" بقصر "طوب قابي". وهرع عَلَمْدار مصطفى باشا إلى القصر لإنقاذ السلطان سليم الثالث، وعندما رأى جنازة السلطان مخضبة بالدماء انخرط في بكاء شديد، ولم يستطع سوى إنقاذ وريث العرش الأمير محمود بمساعدة "جوري كالفا"، أحد المشرفين على القصر.

كان السلطان سليم الثالث شديد الاهتمام بالإصلاحات، التي كان يعتبرها دواء لعلاج أمراض الدولة. وكان أفراد الشعب العثماني يعرفونه تمام المعرفة، حتى إنهم كانوا يتعرفون عليه خلال الزيارات التي كان يقوم بها إلى العامة متنكرا في شكل جندي عادي من جنود سلاح المدفعية. وبالإضافة إلى هذا، علَّمته تلك الزيارات ما يشعر به الناس وما يعانونه. لقد أراد السلطان سليم الثالث حل المشكلات التي لاحظها في تلك الزيارات من خلال وضع العديد من القوانين والتنظيمات، مثل القوانين الخاصة باستخدام السلع المحلية، وتجنُّبِ الإسراف والتبذير، ووضع قواعد خاصة بملابس المرأة، وتقديم موارد الإعاشة للمحتاجين. كان السلطان يرتدي ملابس تمت حياكتها



جامع صوفا في الفناء الرابع لقصر "طوب قابي"، ويطل على البوسفور. وفي هذا المكان كان يوجد في السابق جناح حاملي السلاح؛ حيث كان رجال الدول يعقدون اجتماعا لخلع السلطان سليم الثالث بعد تمرد كاباكْجي مصطفى. وعجل قرارهم بِالتنفيذ سلسلة من الأحداث انتهت بمقتل السلطان سليم الثالث في القصر. وظل هذا الجناح يذكِر السلطان محمودِ الثاني بما حدث لعمه السلطان سليم الثالث، فقام بإزالة الجناح وأنشأ مكانه مسجدا، مازال يصلَّى فيه حتى اليوم.

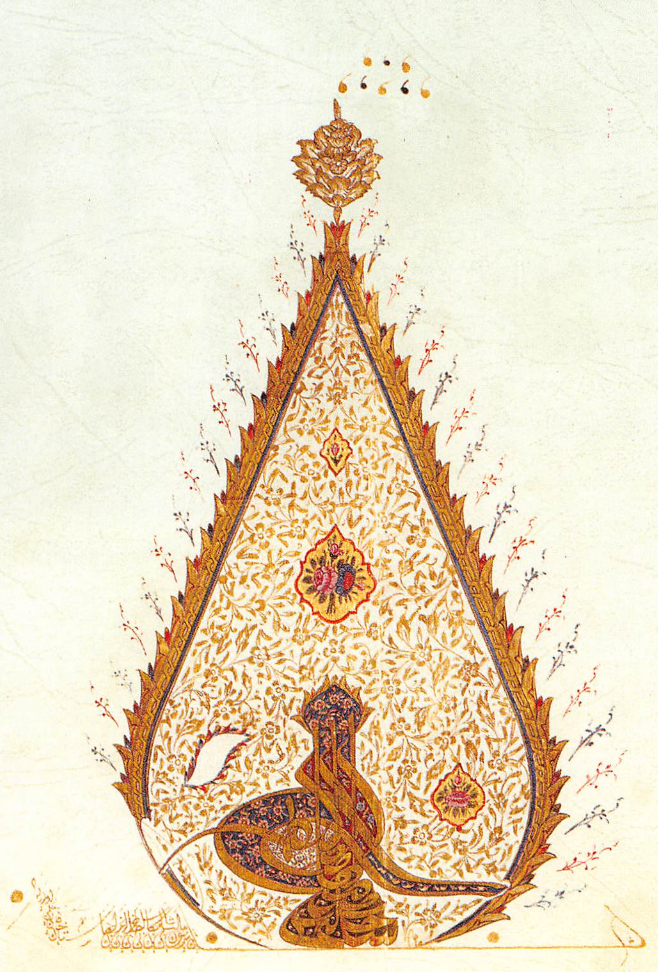


مسجد السليمية أنشأه السلطان سليم الثالث بجوار ثكنات السليمية في أوسكودار للجنود كي يتمكنوا من أداء الصلاة يوميا. تصوير علي رضا بك.

في المصانع المحلية والتي تجلب من إسطنبول وأنقرة، وليس من الهند أو فارس، بل كان السلطان يوبخ من لا يحذو حذوه في هذا الأمر.

كان السلطان سليم الثالث رجلا مولعا بالفنون، وكان موسيقيا موهوبا؛ حيث كان أحد أكبر رموز الموسيقى التركية الكلاسيكية، ومازالت مقطوعاته الموسيقية تعزف في تركيا حتى الآن. وفي نفس الوقت كان سليم الثالث شاعرا بارزا وخبيرا في فن الخط العثماني.

شهد عهد السلطان سليم الثالث إنشاء جامع أسكودار السليمية وثكنات السليمية، وكلاهما مازال موجودا ويعمل حتى الآن. كما تم كذلك في عهده إعادة بناء مسجد أبي أيوب الأنصاري، الذي كان قد تعرض لتدمير شديد. وأضاف السلطان لقصر "طوب قابي" غرفة خاصة تحمل اسمه، وغرفة مخصصة لأمه، كما قام بشحن قطع ثمينة من القماش إلى مكة والمدينة لتغطية وتزيين الأماكن المقدسة، وقبر الرسول ﷺ، وآل بيته، وأصحابه.



طغراء السلطان سليم الثالث

السلطان سليم الثالث في حفل المعايدة أمام بوابة السعادة في الفناء الثاني لقصر "طوب قابي"، رسمها الفنان قسطنطين الكابيداغي.




Ukrain
Donets
Russia
Dnieper
Don
Volga
Bender
Yedisan
Crimean Khanate
Azov
KABARDIN
Astrakhan
Kuban
Akkerman
Aral Sea
Akyar (Sevastopol)
Caucasia
Dagestan
CASPIAN SEA
BLACK SEA
Sinop
Samsun
Batumi
tanbul
Georgia
Kars
Shirvan
İznik
Bursa
Ankara
Trabzon
Erzurum
Erzincan
Otlukbeli
Yerevan
anisa
Azerbaijan
Van
Serav
Konya
Lake Urmia
Tebriz
Adana
Diyarbakır
Marj Dabik
Antakya
Aleppo
Mosul
Rhodes
Tehran
Cyprus
Tigris
Hamedan
Latakia
Syria
Qasr-e-Shirin
NEAN SEA
Beyrut
Euphrates
Safavid Persia
Baghdad
Damascus
Hafya
Isfahan
Jaffa
Dumyat
Jerusalem
Arabia
Ridanieh
Basra
Alexandria
Suez
Cairo
Shiraz
Sinai
Aqaba
Kuwait
PERSIAN GULF
Hijaz
RED SEA
Egypt
Al-Qatif
Medina
Mecca




Boundaries of the Ottoman Empire at the beginning of the 18th century





# السلطان مصطفى الرابع

**فترة الحكم: ١٨٠٧-١٨٠٨**

**السلطان العثماني التاسع والعشرون**

**اسم الأب:** عبد الحميد الأول

**اسم الأم:** السلطانة الوالدة عائشة سينه بَرْوَرْ

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول،
٨ سبتمبر/أيلول عام ١٧٧٩

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٢٨ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** الخنق،
١٧ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٨٠٨

**مكان الوفاة وموقع القبر:** إسطنبول،
ودفن في المقبرة الحميدية في "باهْجه كابِي"، بإسطنبول

**أبناؤه:** لم ينجب ذكرا

**بناته:** أمينة سلطان



لوحة بألوان الكواش (الغواش) تصوّر السلطان مراد الرابع جالسا على العرش.

اعتلى السلطان مصطفى الرابع العرش بعدما أطاح تمرد قَاباقْجِي بعمه السلطان سليم الثالث.

عاش مصطفى الرابع طفولة مريحة؛ فكان يطوف هو وشقيقه محمود الثاني جميع أنحاء إسطنبول متخفين بصحبة عمهما السلطان سليم الثالث، الذي لم يكن له أولاد، والذي كان شديد الرعاية والاعتناء بهما.

التقى السلطان مصطفى الرابع بالمتمردين بعد ذلك بوقت قصير. وعندما وعدوه بأن الانكشارية لن يتدخلوا بعد الآن في شؤون الدولة، تعهد لهم بإصدار عفو يستفيدون منه. غير أنه كان من المستحيل تصور أن هؤلاء الذين يتمتعون بالسلطة الكافية لاستبدال السلطان يمكن أن يتنحوا جانبا ولا يتدخلوا في شؤون الدولة. وقد تواصلت خلال فترة حكم السلطان مصطفى الرابع الفوضى السياسية والاضطراب الاجتماعي الناتج عن غطرسة المتمردين وتدخلهم في الشؤون الحكومية، وكذلك عن الصراع بين مؤيدي الإصلاحات ومعارضيها. وقد ظهر في النهاية شعور بالندم لإحلال السلطان مصطفى الرابع محل السلطان سليم الثالث.

وانتشرت الفوضى حتى في صفوف الجيش الذي كان يخوض الحرب الجارية ضد الروس، والتي بدأت خلال فترة حكم السلطان سليم الثالث. ونتيجة لهذا بدأت تظهر على الجيش علامات الضعف.

وكان موسى باشا، ممثل الصدر الأعظم في إسطنبول خلال وجوده الأخير في إحدى الحملات، وقاضي القضاة عطا الله محمد أفندي، متورطَين بالفعل في التمرد الذي قاده "قَاباقْجِي مصطفى"، ولهذا لم ينجحا في إحلال السلام والنظام في إسطنبول.

وساعد قدوم "عَلَمدار مصطفى باشا" وجيشِه من روسيا إلى إسطنبول في استعادة الأمن. فأُعدم "قَاباقْجِي مصطفى"، بينما عُزِل عطا الله محمد أفندي من منصبه.

وكان أتباع "عَلَمْدار مصطفى باشا" يريدون إعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش، في حين كان أتباع مصطفى الرابع يبحثون عن طريقة لقتله.

وعندما وصل مسار الأحداث إلى تعريض حياة سليم الثالث للخطر هرع عَلَمدار مصطفى باشا إلى الباب العالي،[٢٩] واعتقل الصدر الأعظم، وتحرك باتجاه القصر بهدف إعادة سليم الثالث إلى العرش.

وبعدما طالب عَلَمدار مصطفى باشا السلطان مصطفى الرابع بالتنحي عن العرش والسماح بعودة سليم الثالث، قام مصطفى الرابع بإغلاق بوابات القصر، وأمر بقتل سليم الثالث والأمير محمود لإنهاء الاضطراب الجاري. واستطاع عَلَمدار

---

(٢٩) استخدم تعبير "الباب العالي" للإشارة إلى العاصمة العثمانية والحكومة والمباني التابعة للحكومة العليا داخل القصر، حيث كان يجري هناك وضع سياسات الحكومة العثمانية.



طغراء السلطان مصطفى الرابع

مصطفى باشا دخول القصر بالقوة، لكنه لم يجد سوى جثة السلطان السابق، كما عثر على الأمير محمود الثاني جريحا، فأنقذه ودعمه. وتم خلع السلطان مصطفى الرابع وتولية الأمير محمود الثاني، الذي كان الوريث الوحيد للعرش في عام ١٨٠٨. وأصبح عَلَمدار مصطفى باشا الصدر الأعظم له.

كانت فترة حكم السلطان مصطفى الرابع من أقصر فترات الحكم في التاريخ العثماني حيث إنه حكم لمدة أربعة عشر شهرا فقط.

ورغم أنه احتُجز في غرفته بعد ذلك فإنه تطلع للعودة إلى العرش، وبعث برسائل إلى رجاله خارج القصر. وتعرض الصدر الأعظم عَلَمدار مصطفى باشا في أعقاب ذلك للاغتيال خلال غارة قام بها متمردون. وأراد المتمردون التحرك نحو القصر، ولكن حدث في ذلك الوقت أن صدر أمر بقتله مثلما فعل هو في السابق مع شقيقه وعمه سليم الثالث.

وتروي السجلات التاريخية أن مصطفى الرابع منذ سنوات إمارته، وكذلك شقيقته "أسماء سلطان"، كانا ضمن معسكر المعارضة الذي كان ينتقد السلطان سليم الثالث ويسعى لخلعه

وتذهب العديد من المصادر المعاصرة إلى استخدام كلمات مهينة واتهامات شديدة في دراستها للسلطان مصطفى الرابع. لكن الحرب الروسية استمرت خلال فترة حكمه، كما استمر تمرد قَاباقْجِي مصطفى قائما، وكانت الأنشطة السياسية والعسكرية لعَلَمدار مصطفى باشا قوية بدرجة لا يمكن تجاهلها. وإذا أُخذ كل هذا في الاعتبار سيبدو أن السلطان لم يكن لديه الوقت الكافي لتنفيذ الأجندة الإصلاحية التي كان قد بدأها عمه السلطان سليم الثالث.

كان السلطان مصطفى الرابع شديد الصرامة في معاقبة المذنبين بتهم إحداث الاضطراب أو إعلان مظاهر الفساد والفسوق في المدينة، حتى لو كان من جنود الانكشارية. وواصل مصطفى الرابع استخدام بعض رجال الدولة الجيدين الذين ظلوا بعد عهد عمه، وقد رجع ذلك في الأساس إلى أنه كان يفتقر إلى وجود الرجال القادرين ليعملوا إلى جواره. وبالإضافة إلى هذا فقد أعد مصطفى الرابع خططا لتدريب الجنود في ثكنات المدفعية بمنطقة تقسيم في إسطنبول بالطرق المناسبة والحديثة، كما أنه كان مهتما للغاية بوضع مدرسة الهندسة المؤسسة حديثا. وإذا وضع هذا جنبا إلى جنب فإن الأدلة ستشير بقوة إلى أن السلطان مصطفى الرابع كان قد خطط للمضي قدما في الإصلاحات التي مهد لها عمه السلطان سليم الثالث.

منظر للحجرة الخاصة بالسلطان سليم الأول من الشرفة الرخامية لجناح عثمان الثالث بقصر "طوب قابي"





# السلطان محمود الثاني

**فترة الحكم: ١٨٠٨-١٨٣٩**

**السلطان العثماني الثلاثون**

**الألقاب والأسماء الشعرية:** عدلي، وبويوك (الكبير)

**اسم الأب:** عبد الحميد الأول

**اسم الأم:** السلطانة الوالدة نَقْشِ دِلْ

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول،

٢٠ يوليو/تموز عام ١٧٨٥

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٢٣ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** مرض السّلّ (الدَرَن)،

٢٨ يونيو/حزيران ١٨٣٩

**مكان الوفاة وموقع القبر:** إسطنبول،

ودفن في مقبرة محمود الثاني في "ديوانْيولو" بإسطنبول

**أبناؤه:** عبد المجيد، وعبد العزيز

**بناته:** صالحة سلطان، وعطية سلطان،

وخديجة سلطان، وعادلة سلطان



لوحة بالألوان المائية تصوّر السلطان محمود الثاني جالسا على العرش (الرسام غير معروف).



طغراء السلطان محمود الثاني

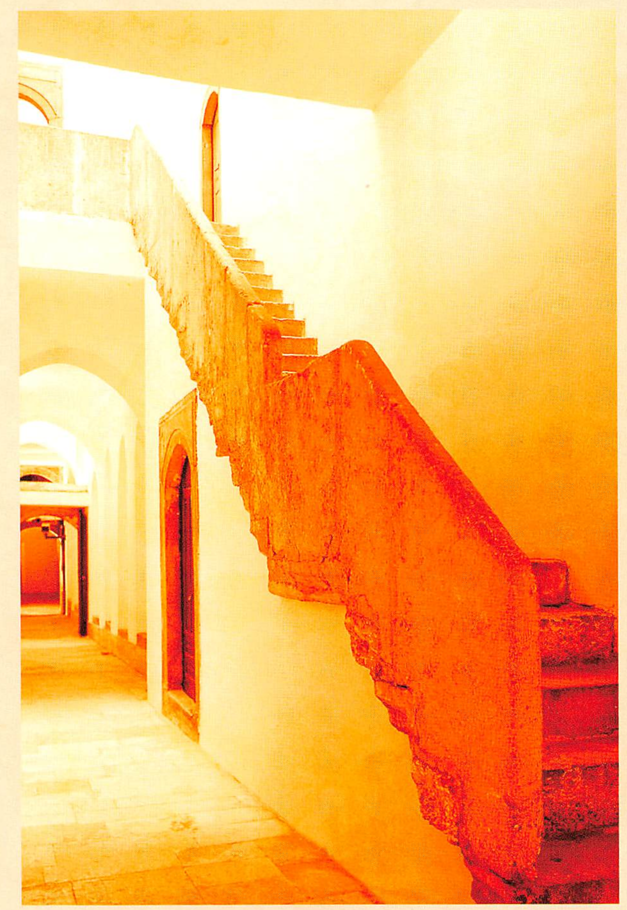


كان السلطان محمود قد شهد خلع عمه السلطان سليم الثالث عام ١٨٠٧، ثم قتله. وأعقب هذا جهود عَلَمدار مصطفى باشا لخلع شقيقه الأكبر، وهؤلاء الذين أرادوا قتله. ولهذا فقد اعتلى محمود الثاني العرش وهو مصاب ويعاني شعورا بالإحباط، وكان ذلك في ٢٨ يوليو/تموز عام ١٨٠٨. وبدأ حكمه وسط ثورات وثورات مضادة، واستمر وسط صراعات عنيفة، وانتهى بتسجيل العديد من الأمور التي حدثت للمرة الأولى في التاريخ العثماني. فبعد محمود الثاني تولى العرش ابناه وأحفاده الأربعة، كما أن السلالة العثمانية المتبقية حتى الآن جاءت من ذريته. ولهذا السبب فإن محمود الثاني يعتبر حامل السلالة العثمانية بعد عثمان غازي والسلطان إبراهيم.

كانت أكبر التحديات التي واجهت السلطان محمود الثاني هي: ثورات الانكشارية المستمرة، والحكام والوجهاء المحليين الفاسدين والظالمين في المحافظات، إضافة إلى ثورات الصِرب واليونانيين في منطقة البلقان، وتمرد محمد علي باشا في مصر، والحروب الطويلة مع بلاد فارس وروسيا. ورغم هذه



حفر يصوّر السلطان مصطفى الثاني مع حامل سيفه ومراقب قسم الحريم قُبيل إعلان القواعد الخاصة بالزّيّ.



جَوري كالْفا، أحد كبار خدم القصر، انتزع الأمير محمود من هذا الدّرَج الحجري الضيق بالقرب من الممر الذهبي عندما اقتحم المتمردون القصر لقتل الأمير، وبهذا أنقذ حياة السلطان القادم.

الظروف شديدة الصعوبة، فإن عهد محمود الثاني اتسم بسلسلة من الإصلاحات، سواء تلك التي بدأت في عهده أو التي استمرت خلاله.

كشفت قوات الانكشارية عن نفسها باعتبارها المحفز الرئيسي على الاضطرابات والفوضى في العاصمة؛ حيث تدخل الإنكشاريون بشكل مباشر ومستمر في المسائل الإدارية، وبشكل أكبر بكثير مما كان متوقعا من الجنود. والواقع أن الإنكشاريين كانوا وراء العديد من الانقلابات المكلفة والمزعجة، والتي كانت تنتهي بخلع عدد كبير من السلاطين. فقام السلطان محمود الثاني بإلغاء قوات الانكشارية، التي استمرت قرونا، وهو الحدث الذي تسجله السجلات التاريخية في عام ١٨٢٦ باسم "الحادث الميمون" (Vakay-ı Hayriye). وبهذا يكون السلطان قد كرَّس سيادته وتخلص من أقوى جماعة معارضة للسلاطين المتأخرين. وحتى ذلك التسريح القسري كان محمود الثاني قد سيطر تماما على الجيش وطبقة المثقفين، الذين كانوا يعارضون بشدة الإصلاحات التي تتعارض مع مصالحهم، فضلا عن الضغوط من الوجهاء والأعيان المحليين في المحافظات.

أكد ما يعرف باسم "سند الاتفاق"، الذي وُقع مع ممثلي المتمردين في أراضي المحافظات خلال فترة تولي الصدر الأعظم عَلَمدار مصطفى باشا، سلطة السلطان في المحافظات. لكنه كان يعني أيضا اعترافا من السلطان منذ ذلك الحين بسلطة الأعيان أو الوجهاء المحليين، وهو الأمر الذي بلغ ذروته بحالة استياء شعبي فيما بعد. وحاول عَلَمدار إنشاء جيش جديد باسم "الجنود الجدد"، وهو الأمر الذي كلفه حياته، وتسبب في حادثي تمرد قامت بهما قوات الانكشارية، قضيا على الجيش الجديد. وخاض السلطان محمود الثاني صراعا مع الأعيان في أعقاب "سند الاتفاق"، وقام بالقضاء على الأعيان المتمردين مثل "تَبَدَلَنْلِي علي باشا". وبعد أن وضع السلطان محمود الثاني نهاية لتهديدات الانكشارية والوجهاء، ركز جهوده على تجنيد جيش جديد، وكان هذا أول إصلاحاته. ومن أجل جلب موارد جديدة للإنفاق على الجيش عمل السلطان على



صورة لمسجد محمود الثاني (النصرتية)، طوبخانه، إسطنبول، بريشة توماس ألوم ١٨٣٩.

فرض سيطرة الدولة على الدخل الهائل للأوقاف، التي كانت تمثل المالك الأهم للعقارات. فعلى سبيل المثال أصبح السوق الكبير، الذي أنشئ بأمر من السلطان محمد الفاتح واتسع بشكل كبير خلال حكم السلطان سليمان القانوني، واحدا من أكبر الأسواق المغطاة في العالم، حيث كان يستخدم إيجار متاجره التي بلغ عددها ٣٦٠٠ متجرا وشوارعه الستين في دعم صيانة مسجد آيا صوفيا، باعتبار أن هذا السوق كان وقفا للمسجد. وفي عام ١٨٢٦ أسست الدولة العثمانية نظارة (وزارة) العقارات السلطانية للإشراف على هذه الأوقاف.

كان السلطان محمود الثاني، على خلاف السلاطين الإصلاحيين السابقين، مهتما بالحصول على دعم شعبي لإصلاحاته، كما استخدم وسائل الإعلام للتواصل مع الشعب. واستخدم صحيفة "تقويم الوقائع" في نشر تقارير مطولة عن الإصلاحات، كما ظهرت مقالات تدافع عن حل قوات الانكشارية.

وعندما اعتلى محمود الثاني العرش كانت الحرب الروسية، التي بدأت خلال فترة حكم عمه في ١٨٠٦، مازالت جارية. وكان العثمانيون أيضا في حالة حرب مع بريطانيا. وعندما اشترطت معاهدة "قلعة السلطان" (والتي تعرف أيضا باسم معاهدة الدَّرْدَنِيل) عام ١٨٠٦ أن العثمانيين لن يسمحوا للسفن الحربية الروسية بالمرور عبر مضايق الدَرْدَنِيل والبوسفور، انتهت الحرب مع بريطانيا. وعندما قامت فرنسا، التي اتبعت دبلوماسية مناهضة للعثمانيين، بمهاجمة القوات الروسية وهزيمتها انتهت الحرب مع روسيا، ووُقعت معاهدة بوخارست مع روسيا عام ١٨١٢. وتتفق هذه المعاهدة على تخلي الروس عن بيسارابيا ولكن مع استعادة السيطرة على والاشيا ومولدافيا، وعلى أن نهر البروث سيمثل الحدود بين البلدين. لكن المعاهدة تضمنت فقرة أخرى تنص على منح الاستقلال للصرب، على أن يبدأ تطبيقها بعد عام ١٨١٧، وكانت هذه إحدى الخطوات الأولى لفصل الأقليات عن النطاق العثماني.

مثّل التمرد اليوناني عام ١٨٢١ أول انتفاضة كبرى تقوم بها أقلية



النافورة الجدارية في الحجرة الخاصة بالسلطان عبد الحميد الأول

ضدالدولة العثمانية. وقد أخفقت الدولةالعثمانية في إخماد هذا التمرد في فترة قصيرة، ولهذا فقد اكتسب هذا التمرد تغطية واهتماما عالميين. ولم تستقبل أوروبا بحماس قيام محمد علي باشا، حاكم مصر، بمساعدة العثمانيين وإنهاء التمرد. حيث تعرض الأسطول العثماني-المصري الذي رسا في نافارينو لحريق في غارة سريعة عام ١٨٢٧. وعندئذ طالب السلطان محمود الثاني بتعويض، وقال إنه لا يسمح بحرق الأسطول الذين أرسله لإنهاء تمرد محلي، فقامت فرنسا وبريطانيا بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية، كما أعلن الروس الحرب على العثمانيين، مبررين ذلك بالتمرد اليوناني، وتقدموا حتى وصلوا إلى أدِرْنه. وبعد تعرض الجيش العثماني لهزائم بالقرب من نهر الدانوب والقوقاز، تم توقيع معاهدة أدِرْنه في ١٤ أغسطس/آب عام ١٨٢٩. ومهدت هذه المعاهدة الطريق لتأسيس دولة يونانية صغيرة، تمتد من موريا وحتى جزر إيجة، وتكون عاصمتها أثينا.

أدى حصول صربيا على الحكم الذاتي واستقلال اليونان إلى تحفيز المسيحيين الآخرين في البلقان على الانتفاض والتمرد ضد الدولة العثمانية. وحصلت سلسلة من الثورات المقبلة على دعم هائل من أوروبا المسيحية، وأدى التأثير المتزايد لهذه الثورات في الشؤون الداخلية العثمانية، مع التركيز على "المسيحية"، إلى إيجاد مشاعر من الكراهية والعداء على نطاق واسع تجاه المسلمين والأتراك. وفي السنوات القادمة، ساعد تدخل القوى الأوروبية العظمى المسيحيين العثمانيين على الاستقلال والانفصال عن الدولة.

وبعد مصر، قامت فرنسا، الصديق القديم للعثمانيين، بغزو الجزائر في عام ١٨٣٠. فقدم هذا الغزو درسا مبكرا حول السبل التي يتبعها المستعمرون لتقسيم وحلّ الدولة العثمانية. وأصبحت طريقة حدوث هذا التقسيم بين المسلمين العثمانيين واضحة من خلال تمرد محمد علي باشا.



فقد كان محمد علي باشا جنديا متميزا، وبعد نجاحه بشكل فعال في إخماد حركات التمرد وإرساء النظام في مصر، أصبح محمد علي حاكما لمصر، وأجرى فيها إصلاحات على الطريقة الفرنسية. ولم يدم تمرده ضد الدولة العثمانية طويلا. وعندما خسر العثمانيون موريا، التي منحوها لمحمد علي باشا في مقابل مساعدته ضد التمرد اليوناني، طلب محمد علي تولي الحكم على سوريا. لكنه تلقى ردا سلبيا على طلبه، فأرسل محمد علي باشا قواته بقيادة ابنه إبراهيم باشا إلى سوريا. وحقق إبراهيم باشا انتصارا تلو الانتصار،



رسم نافر في شكل رسم زيتي للسلطان محمود الثاني على العاج بعد إعلان القواعد الخاصة بالزّيّ.

وتقدم حتى اقترب من قُونية. وفي قُونية التقى جيش إبراهيم باشا بالجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم رشيد محمد باشا، واستطاع إبراهيم باشا هزيمة العثمانيين عام ١٨٣٢، وتحرك متقدما نحو كُوتَهيا ومعه الصدر الأعظم العثماني أسيرا.

وبموازاة هذا التمرد واجه السلطان محمود الثاني تهديدا أكبر كان يمكن أن يزيح السلالة العثمانية. فعندما طلب السلطان المساعدة من روسيا كحل أخير، وصلت القوات البرية والبحرية الروسية إلى بَيكُوز. وتحول تمرد محلي آخر إلى أزمة دولية، وخصوصا بعد تدخل البريطانيين والفرنسيين. ووفقا للاتفاق الذي تم التوصل إليه في كُوتَاهْيا تخلى محمود الثاني عن الأراضي التي فتحت خلال عهد السلطان ياووز سليم، وأعطاها لمحمد علي باشا. ووقع محمود الثاني أيضا على معاهدة "هُنكَارْ إيسْكَلَسِي" مع روسيا، والتي جعلت البلدين حليفين خلال السنوات الثماني التالية. ووفقا لهذا حصلت روسيا على حقوق استثنائية في المضايق. وفيما انتهت المرحلة الأولى من التمرد في مصر دون شروط أو مطالب خاصة، فإن الهيمنة الروسية على المضايق أثارت القلق والذعر لدى القوى الأوروبية.

شعر كل من العثمانيين والمصريين بخيبة أمل بسبب معاهدة كوتاهيا. وبعد استعدادات طويلة تواجه الجانبان في نِزيب جنوب شرق الأناضول عام ١٨٣٩. وتلقى الجيش العثماني هزيمة جديدة، واستمر التهديد المصري في الأناضول. لكن السلطان محمود الثاني لم يعش كي يتلقى الأخبار السيئة وتوفي في ٢٨ يونيو/ حزيران عام ١٨٣٩.

يعرف عن السلطان محمود الثاني قيامه بإصلاحات جذرية. فلإدراكه بأهمية إنشاء سلطة مركزية، قام السلطان بالتخلص من المعارضين لها، وخصوصا الانكشارية، والحكام الفاسدين والمستبدين والوجهاء والأعيان المحليين. وربما يكون محمد علي باشا هو الحاكم المستبد الوحيد الذي لم يستطع السلطان التخلص منه. لم يقم السلطان بإجراء إصلاحاته إلا بعد أن أرسى سيادة فعلية؛ فدرس جيدا حياة عمه وأوقاته، وقام بالفصل بين الجيش والمثقفين، حتى استطاع بنجاح أن يتجنب في نهاية المطاف الدخول في مواجهة مع الجهود المتضافرة للمعارضة. وأقنع السلطان رموز المثقفين بالحاجة إلى الإصلاحات، وبهذا فإنه لم يحصل فقط على الدعم اللازم منهم، لكنه تجنب أيضا معارضتهم. واختار السلطان محمود الثاني الوقت المناسب تماما لإلغاء قوات الانكشارية؛ حيث كانت الانكشارية قد أخفقت في قمع التمرد اليوناني طوال سنوات، لكن

القوات المصرية النظامية الحديثة استطاعت تحقيق هذا في وقت قصير للغاية. وقد قام السلطان بتوضيح هذه الفكرة لدى الشعب، وبيّن وجهة نظره، وأقنع الشعب أن قوات الانكشارية عديمة الفائدة. ورغم المحاولة الفاشلة لإنشاء جيش جديد باسم "الجنود الجدد"، فقد أطلق محمود الثاني مشروعا جديدا لإنشاء جيش يحمل اسم "إشكنسي أوكاغي" .(Eşkinci Ocağı) ويبدو أن هذا المشروع تبلور ليمثل دافعا للإنكشارية على التمرد. وفي نهاية المطاف حدث التمرد الأخير للإنكشارية فردّ السلطان عليه بإلغاء قواتهم.

خلال فترة حكم السلطان محمود الثاني بدأ تنفيذ قواعد خاصة بملابس الرجال؛ فأصبحت الشوارب أقصر، وأصبح طول اللحى أقل من إصبعين، وبدأ مسؤولو الدولة في ارتداء زي موحد يتكون من سروال وسترة وطربوش. وأغلقت دار الفرقة العسكرية السلطانية حتى لا تذكّر بالانكشارية. وحدثت بعد ذلك العودة إلى تشغيل موسيقى المارشات العسكرية خلال فترة السلطنة الدستورية الثانية (١٩٠٨-١٩٢٢).

كان السلطان محمود الثاني يحب أن يعش حياته اليومية ببساطة بعيدا عن البهرجة؛ ولهذا فإنه لم يكن يحب قصر "طوب قابي"، وكان يقيم بدلا من ذلك في قصره الخشبي المتواضع المطل على المياه في بيشكتاش. كما أنهى محمود الثاني أيضا بروتوكولات القصر، ولاحظ السفراء الأوروبيون الذين التقوا بالسلطان محمود الثاني أن قصر أي تاجر أوروبي كان أكثر فخامة من قصر السلطان المطل على المياه.

خلال فترة حكم السلطان محمود الثاني أنشأت الحكومة المركزية العثمانية مؤسسات جديدة لإصلاح وتيسير شؤون الدولة، كما أغلق الديوان الهمايوني (المجلس السلطاني) وحلت محله النظارات (الوزارات). وتم تعيين رئيس للوزراء يتولى تنظيم وقيادة شؤون الدولة، وتم إنهاء منصب الصدر الأعظم في عام ١٨٣٨.

ودفعت الحاجة الواضحة لطبقة متعلمة السلطان إلى فتح مدارس جديدة، كما بدأ المسلمون في تعلم لغات أجنبية، وهو ما عكس المحاولة لتحدي الاحتكار الذي كان يمارسه المترجمون غير المسلمين، وبشكل خاص اليونانيون الذين كانوا يعيشون في منطقة فنار في إسطنبول.







سعى السلطان محمود الثاني إلى تنفيذ أنشطة متعددة تشمل جميع رعاياه كوحدة واحدة، بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية؛ حيث عمل بجد لإراحة الفئات المهّمشة من بينهم؛ فحاول بشكل خاص أن يرعى غير المسلمين في الدولة، وأصلح عددا كبيرا من الكنائس، كما قام بإصلاح وتجديد عدد كبير من المساجد وبيوت الدراويش.

طبّق السلطان سياسة تعتمد على المشاركة المباشرة في شؤون الدولة؛ فقام على سبيل المثال بكتابة العديد من الوثائق الرسمية ذات الأهمية ووقع عليها بنفسه. وخلال الحروب التي اقتربت فيها روسيا من أدِرْنه (١٨٢٨-١٨٢٩) ظل السلطان موجودا في ثكنات رامي لأكثر من عام، وهو يرتدي زيه العسكري.

كان السلطان محمود الثاني هادئ الطباع وواسع الصدر، وكان معروفا بتسامحه في حياته الشخصية، لكنه كان يتصرف بقسوة مع المجرمين في الدولة.

قال السلطان في إحدى المرات "لقد سئمت غوائل السلطة. والواقع أن الصراعات التي خاضها السلطان داخل الدولة وخارجها أدت إلى تدهور حالته الصحية. واختطفه الموت في النهاية وهو في طريقه إلى تل تشامليجا على الجزء الواقع في الأناضول من العاصمة لاستنشاق بعض الهواء النقي، وكان ذلك في ٢٨ يونيو/حزيران عام ١٨٣٩. وفي مواجهة احتمالية قيام قوات الانكشارية التي تم حلها مؤخرا بتمرد عند إعلان أنباء وفاته، ظلت جثة السلطان المتوفى في مكان وفاته. وبعد اتخاذ الإجراءات العسكرية الاحترازية دفن جثمانه في جنازة حضرتها أعداد كبيرة من المسلمين وغير المسلمين.

كان السلطان محمود الثاني ملتزما ببذل ما يلزم للمدينتين المقدستين مكة والمدينة؛ فعندما أُبلغ أن المدينتين بحاجة إلى أعمال صيانة واسعة (وخصوصا أن بعض المساجد والمقابر في مكة والمدينة كانت في حالة مزرية) بدأ السلطان في إصلاحها بشكل عاجل. فقام بترميم المقابر في مقبرة جنة البقيع قبالة المسجد النبوي، إضافة إلى العديد من المقامات والأضرحة في مكة. وقام السلطان محمود الثاني خلال خلافته بإزالة الأرضيات المهترئة والأعمدة الرخامية القديمة حول الكعبة، ووضع محلها أرضيات وأعمدة جديدة تم شحنها من الأناضول.

لوحة زيتية تصوّر السلطان محمود الثاني، بريشة رسّام مجهول، بمتحف قصر "طوب قابي".



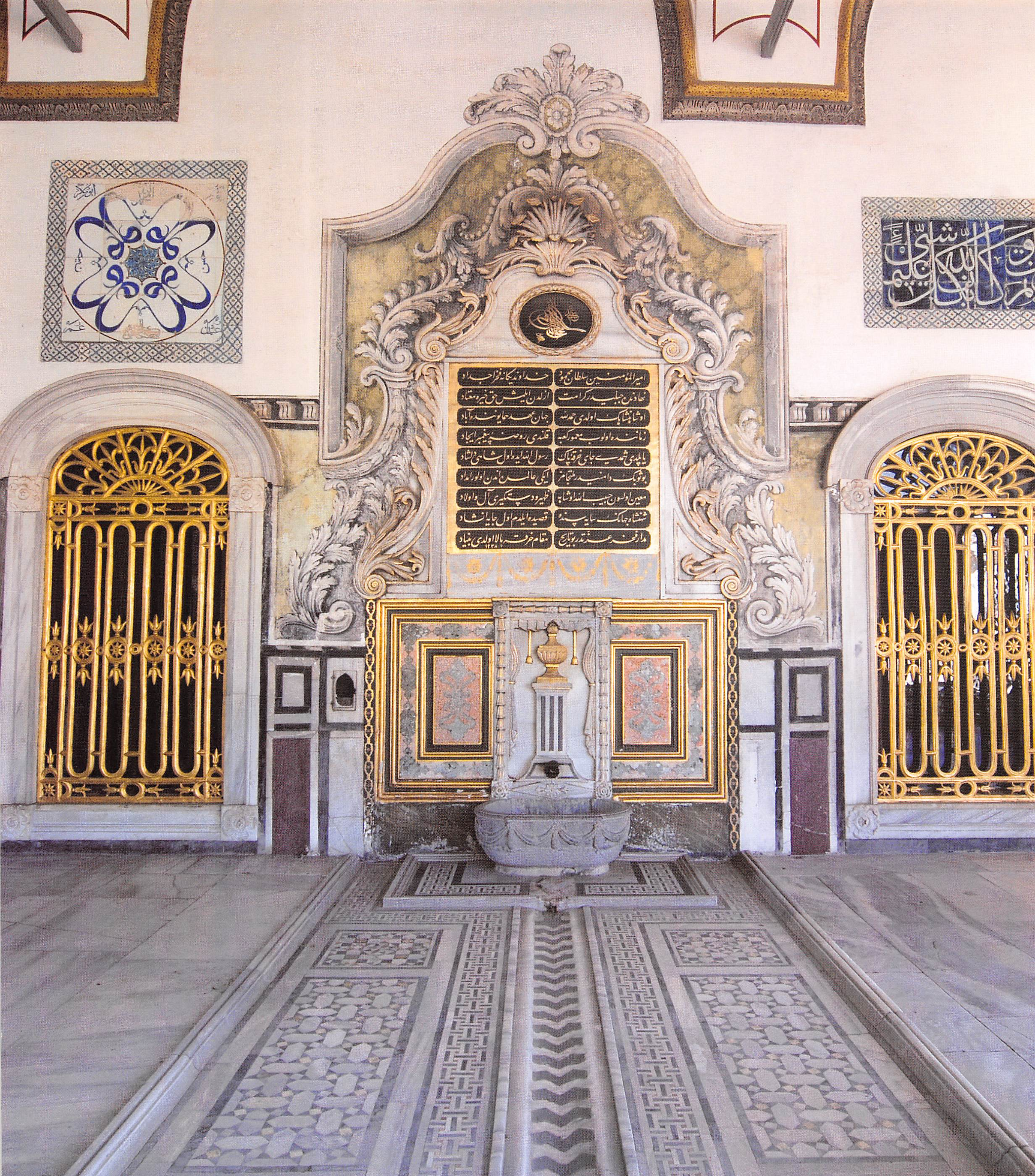

من خط السلطان محمود الثاني

وتم إجراء تجديدات واسعة في مساجد منى والمزدلفة وعرفات. وبالإضافة إلى ذلك قام السلطان محمود الثاني بإعادة تجديد بيوت الرسول ﷺ، وأصحابه، والخلفاء الأربعة.

وفي المدينة أنشأ السلطان محمود الثاني مكتبة وأسبلة مياه عامة إضافة إلى الكلية المحمودة. وتشير القناديل والثريات التي يزيد عددها عن الثمانين، والتي بعث بها السلطان محمود للمدينتين المقدستين إلى حبه تجاههما، ومسؤوليته تجاه لقب "الخليفة" الذي كان يحمله.

قام السلطان محمود الثاني بإرسال المهندسين والحرفيين من إسطنبول، إضافة إلى خبراء وعمال بناء من مصر، إلى المسجد النبوي في المدينة للقيام بأعمال تجديد واسعة. كما شحن العديد من المواد والمعدات من الأناضول. وبعد سنوات طويلة من العمل قام العثمانيون بنصب أعمدة حول المسجد النبوي، كما قاموا

نافورة للعباءة المقدسة أنشأها السلطان محمود الثاني خارج جدار الحجرة الخاصة في جناح الآثار المقدسة.
وقد تم هنا تغسيل جثامين السلاطين المتوفين.








لوحة بخط يد السلطان محمود الثاني



طغراء السلطان محمود الثاني (شعاره السلطاني) مكتوب على باب السعادة بقصر "طوب قابي".

برسم وتزيين العبارات المحفورة بفن الخط العربي على المسجد. والأهم من ذلك أن القبة القديمة المهترئة التي كان الحاكم المملوكي قايتباي قد أنشأها، قد أزيلت وحل محلها قبة جديدة صنعت من الحجارة، وغطيت بالرصاص، وطليت باللون الأخضر. وكانت هذه القبة الخضراء فوق قبر الرسول ﷺ، والتي مازالت تمثل رمزا للمدينة والمسجد النبوي حتى اليوم، تعبيرا عن حب السلطان محمود الثاني وعاطفته وارتباطه بالرسول ﷺ. وتوضح الكتابة على السبيل الموجود خارج جناح الآثار المقدسة بقصر "طوب قابي" طغراء السلطان، كما تشير إلى إنجازه للقبة الخضراء في المدينة. والجانب الأهم في هذا السبيل هو أن جثامين السلاطين المتوفين كان يجري تغسيلها فيه.

إحدى أقدم الصور للقبة الخضراء على قبر الرسول ﷺ التي بناها السلطان محمود الثاني (ترجع إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر تقريبا).

# السلطان عبد المجيد

## فترة الحكم: ١٨٣٩-١٨٦١

السلطان العثماني الحادي والثلاثون

**الألقاب والأسماء الشعرية:** الغازي، صَفْوَتي

**اسم الأب:** محمود الثاني

**اسم الأم:** السلطانة الوالدة "بَزْمِ عَالَم"

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول، ٢٥ أبريل/نيسان عام ١٨٢٣

**العمر عند اعتلاء العرش:** ١٦ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** مرض السُّل، ٢٥ يونيو/حزيران ١٨٦١

**مكان الوفاة وموقع القبر:** إسطنبول، ودفن في مقبرته بساحة مسجد السلطان ياووز سليم بمنطقة الفاتح في اسطنبول

أبناؤه: مراد الخامس، وعبد الحميد الثاني، ومحمد الخامس (محمد رشاد)، وأحمد كمال الدين، ومحمد برهان الدين، وأحمد نور الدين، وسليم سليمان، ومحمد وحيد الدين السادس

**بناته:** فاطمة سلطان، ورفيعة سلطان، وجميلة سلطان، ومنيرة سلطان، وسنيحة سلطان، ومديحة سلطان، ونائلة سلطان، وبهيجة سلطان



بورتريه للسلطان عبد المجيد، للفنان جوزيف مناس (Josef Manas)، عام ١٨٨٨.



الحقيبة الداخلية الذهبية لعباءة الرسول ﷺ.

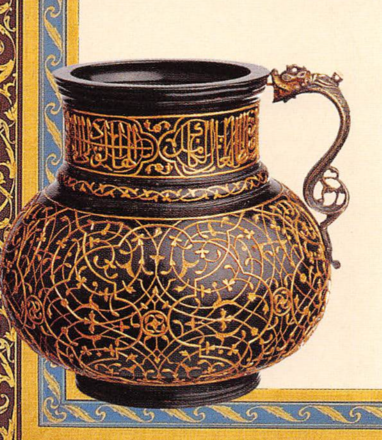
اعتلى السلطان عبد المجيد العرش بعد وفاة والده مباشرة، وكان آخر سلطان عثماني يعتلي العرش وهو في سن صغيرة. خلال فترة إمارته تلقى السلطان عبد المجيد تعليما ممتازا على النمط الغربي، وتعلم الفرنسية. ولأنه لم يكن لديه خبرة في شؤون الإدارة، وبسبب صعوبة الشؤون الداخلية والعلاقات الخارجية، فإنه كان يطمئن إلى كبار رجال الدولة ويقدر مقترحاتهم.

حاول السلطان عبد المجيد حل المسألة المصرية بإعفاء محمد علي باشا من منصبه، لكن خططه الخاصة بمحمد علي ألغيت تماما بعدما وصلت الأنباء للعاصمة أن الجيش العثماني مُني بهزيمة في نزيب (نُصَيبين). وكذلك قام الأدميرال أحمد فوزي باشا بتسليم الأسطول لمحمد علي باشا في الإسكندرية، انتقاما من وصول خصمه "خُسْرَوْ باشا" إلى منصب رئيس الوزراء بالقوة في ٣ يوليو/تموز ١٨٣٩. وبهذا أصبحت الدولة العثمانية الآن مجردة من جيشها وأسطولها، فأصبحت الطريقة الوحيدة للتعامل مع القضية المصرية هي الاتجاه إلى أوروبا طلبا للدعم.

لم يكن محمد علي باشا يريد عقد اتفاق مع السلطان الجديد، ولهذا فقد استدعت المسألة المصرية تدخلا فعليا من جانب بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا.

كان مصطفى رشاد باشا، الوزير العثماني للشؤون الخارجية، قد توجه إلى عدة عواصم أوروبية بشكل متكرر لملاحظة الأفكار والنصائح الخاصة بالإصلاحات القادمة وفوائدها. وفي إسطنبول أقنع مصطفى رشاد باشا السلطان الشاب أن الدعم الأوروبي في المسألة المصرية لن يأتي إلا إذا قاموا بإعداد حزمة إصلاحات أساسية ووضعوها قيد التنفيذ.

وقد أُعلن هذا البرنامج الإصلاحي بالفعل، والذي سجله التاريخ باسم "فرمان إعادة التنظيم"، للشعب في حديقة كُولْهانَة بإسطنبول، في جمع كبير ضم السلطان والسفراء الأجانب، وكان ذلك في ٣ نوفمبر/تشرين ثان عام ١٨٣٩. وكانت هذه الوثيقة المهمة، التي بدأت ما يعرف بـ"عصر التنظيمات" (١٨٣٩-١٨٧٦)، تعد بتوفير المزيد من الحريات المدنية والقوانين، شملت إصلاحات تعليمية وثقافية وقانونية، إضافة إلى إصلاحات لنظام التجنيد الإلزامي والضرائب.



ساعدت الإصلاحات التنظيمية على إيجاد حل للمسألة المصرية، التي كانت قد أصبحت شأنا دوليا. وأخذت بريطانيا زمام المبادرة، وفي مؤتمر لندن، الذي لم تحضره فرنسا بسبب تأييدها لمصر، وقعت أربع قوى أوروبية كبرى (هي بريطانيا وروسيا والنمسا




من اللوحات التي كتبها السلطان عبد المجيد

وبروسيا) بالإجماع على معاهدة في ١٥ يوليو/تموز ١٨٤٠. وتم حل المسألة المصرية وفقا للبنود التالية: أن تحتفظ أسرة محمد علي باشا بحكم مصر بالوراثة، وأن تحافظ مصر على ولائها للسلطان العثماني، وأن ترسل إلى السلطان ربع إجمالي الضرائب التي يتم جمعها سنويا.

لم يذعن محمد علي باشا سريعا، لكنه اضطر إلى القبول بهذا القرار عندما أنزلت بريطانيا والنمسا قواتهما في بيروت. وفي العام التالي التقت نفس الدول لعقد اتفاقية المضايق في لندن بعد انقضاء مدة الثمانية أعوام الخاصة بمعاهدة "هُنكَارْ إيسْكَلَسِي" التي كانت قد وقعت مع الروس عام ١٨٣٣، واتفقت هذه الدول على أن السلطة على المضايق تعود للدولة العثمانية، وأنه لا يجوز للسفن الحربية المرور عبرها.

خلال الثورات الأوروبية التي حدثت عام ١٨٤٨ وصاحبتها سلسلة من الاضطرابات السياسية في جميع أنحاء أوروبا خسر المجريون أمام قوات النمسا وروسيا، التي دخلت المجر خلال حرب المجريين مع النمسا للحصول على الاستقلال. وقد لجأ بعض المجريين لدى العثمانيين، وهو ما أدى إلى قطع العلاقات بين الدولة العثمانية من جانب والنمسا وروسيا من جانب آخر. ورغم كل الضغوط الدبلوماسية والتهديد بالحرب من جانب النمسا وروسيا، فإن السلطان أوضح أنه لن يعيد اللاجئين الذين وصلوا إلى الأراضي العثمانية. وللمرة الأولى أدى موقفه الإنساني إلى تغيير المشاعر الشعبية (تجاه الدولة العثمانية) في أوروبا من الكراهية إلى التعاطف. وفي الواقع أن هذا التغير في صورة العثمانيين لدى أوروبا أدى إلى تيسير مهمة بحث العثمانيين عن حلفاء بعد ذلك خلال حرب القرم.

عندما انتشرت ثورات عام ١٨٤٨ فيما كان يعرف لدى العثمانيين بالمملكتين (أو البلدين القيّمين) وهما والاشيا ومولدافيا، وقع الروس معاهدة "بالْطا لِيمَاني" مع العثمانيين في عام ١٨٤٩، والتي قدمت حلا قصير المدى للمشكلة. أما الموضوع الآخر على أجندة العلاقات الخارجية فكان قضية "الأرض المقدسة". فبعد أن تقدمت فرنسا بطلب لفرض الحماية على الكاثوليك في القدس، سلم الروس مذكرة للباب العالي، أي الحكومة العثمانية، يطالبون فيها بمنح المزيد من الحقوق للمواطنين الأرثوذكس في الدولة العثمانية، وتمكين روسيا من فرض الحماية عليهم. لكن الروس تلقوا ردا سلبيا من الحكومة العثمانية فقاموا بغزو والاشيا ومولدافيا، وأعقب ذلك قيام السلطان عبد المجيد بإعلان الحرب على روسيا عام ١٨٥٣. وبدأت الحرب، التي سجلها التاريخ باسم حرب القرم بسبب وقوع أغلب الصراع في القرم، بقيام الروس بحرق الأسطول العثماني في سِينُوب، جنوب البحر الأسود. وتحالفت بريطانيا وفرنسا ومملكة بييمونتي مع الدولة العثمانية، في حين قررت كل من النمسا وبروسيا، حليفتي روسيا المحتملين، أن تبقيا على الحياد. وفي نهاية المطاف مُنِيت روسيا بهزيمة ساحقة.

أقدم صور حرب في التاريخ التقطت أثناء حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦). وتُبيِّنُ الصورةُ إسماعيل باشا ومرافقيه.

قبل مؤتمر باريس، الذي كان بمثابة نهاية للحرب، طالب حلفاء العثمانيين السلطان عبد المجيد بإصدار مرسوم جديد يقضي بتأكيد وتمديد الحقوق التي أعلنت في مرسوم التنظيمات. واستجابة لهذا الطلب أعدّ الصدر الأعظم وقاضي القضاة والسفيران البريطاني والفرنسي ما سُمي بـ"فرمان الإصلاحات"، الذي أعلن في مرسوم في ١٨ فبراير/شباط عام ١٨٥٦ قبل بدء المؤتمر. لم يقم هذا المرسوم فقط بتمديد الحقوق الممنوحة في مرسوم التنظيمات، لكنه منح أيضا حقوقا أخرى لغير المسلمين أكثر جرأة مما كانت ترغب فيه روسيا، وهو ما أدى بعد ذلك إلى تدخل أكبر من جانب القوى الغربية في الشؤون العثمانية الداخلية. وقد أشارت معاهدة باريس، التي وقعت في ٣٠ مارس/آذار ١٨٥٦ بمؤتمر باريس بعد حرب القرم، إلى هذا المرسوم. وتقضي مواد المعاهدة بأن الدولة العثمانية دولة أوروبية، وأن الدول الأوروبية عليها تأمين سلامة أراضي الدولة العثمانية.

ومع الأخذ بعين الاعتبار أن الدولة العثمانية كانت الطرف المستفيد، فإن النص على إغلاق البحر الأسود أمام جميع السفن الحربية من أي نوع ألقى بقدر كبير من الشكوك في مدى إنصاف المعاهدة؛ حيث اضطر الأسطول العثماني أيضا إلى مغادرة البحر الأسود. وكان المرسوم الذي أعلنه السلطان عبد المجيد قد انطلق من جهوده لتوحيد رعاياه تحت فكرة "العثمانية"، التي تعتبر جميع الرعايا متساوين بغض النظر عن معتقداتهم الدينية. لكن الامتيازات الجديدة التي منحت لغير العثمانيين ساهمت في تعزيز الحركات القومية التي انتشرت يوما بعد يوم داخل الأراضي العثمانية، بدلا من أن تؤدي إلى وقف هذه الحركات. وبتحريض من الغربيين أصبح من المستحيل المحافظة على تماسك البناء العثماني متعدد القوميات.

أعطى "فرمان الإصلاحات" الدول الأوروبية مطلق التصرف للتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية، وعقب ذلك زعمت كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا أن الإصلاحات التي وعد بها المرسوم لم تدخل حيز التنفيذ، وأرسلوا مذكرة بذلك للحكومة العثمانية عام ١٨٥٩. وبتحريض من بريطانيا وفرنسا اندلع الصراع بين الدروز والمارونيين مجددا، واتسع الاضطراب المدني هذه المرة ليصل إلى دمشق. وواصلت أوروبا الضغط على السلطان والحكومة العثمانية، وتغير مسار الأحداث دراماتيكيا عندما أنزلت فرنسا قواتها في بيروت. ونتيجة للمحادثات مع أوروبا تم إنشاء إدارة في جبل لبنان تتمتع بحكم شبه ذاتي وتسمى "المتصرفية"، وتُركت المنطقة لإدارة حاكم مسيحي في عام ١٨٦١.

كان السلطان عبد المجيد يعاني، مثل والده، من مرض السُل، وتوفي وهو التاسعة والثلاثين من عمره في قصر إهلامور (الزَيزَفُون) في بيشكتاش بإسطنبول، وكان ذلك في ٢٥ يونيو/حزيران عام ١٨٦١.

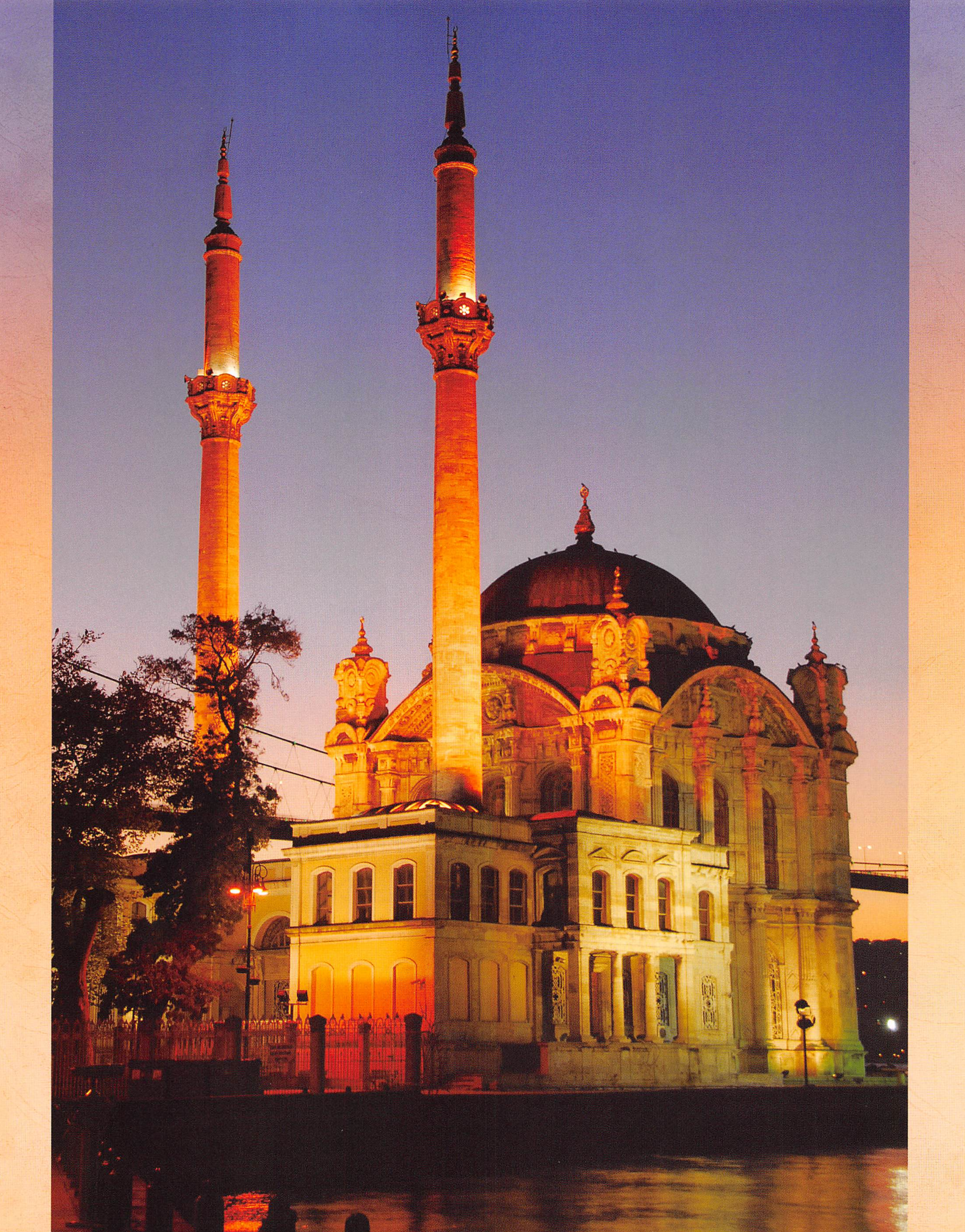
كان السلطان عبد المجيد يشبه سابقيه في الاعتراف بسلطة الدين فوق سلطته؛ فالإصلاحات التي سنّها كانت مبنية على الشريعة الإسلامية. كما أنه ألزم نفسه بإدخال التحديثات الغربية في الأراضي العثمانية، وكانت البداية بالسكك الحديدية.

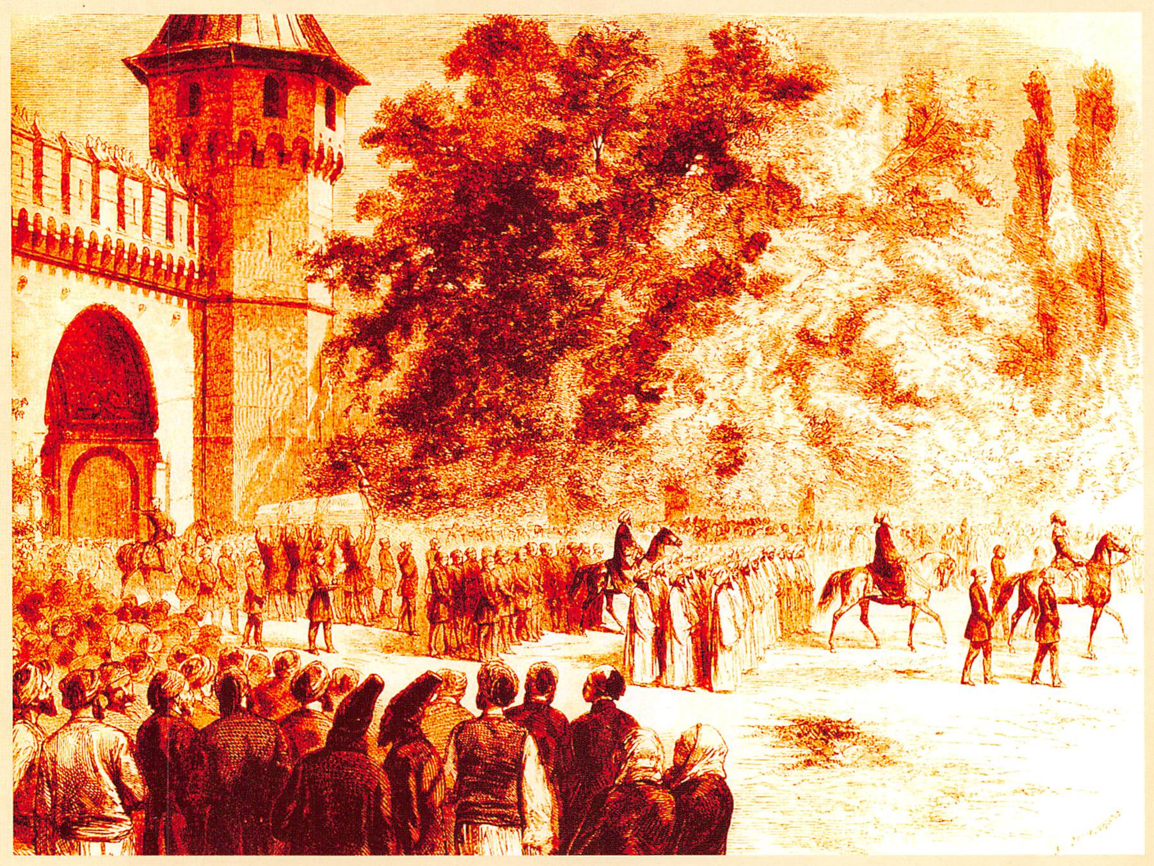
قام السلطان بزيارات ميدانية لمعرفة احتياجات الشعب بشكل مباشر، وأجرى تغييرات على إجراءات قبول السفراء، وبدأ في رؤية السفراء بشكل شخصي، كما قام بزيارة السفارة الفرنسية، وحضر إحدى الحفلات الفرنسية. وكان السلاطين السابقون يمنحون ميداليات ونياشين امتياز للأجانب، من دون أن يقبلوا شيئا في المقابل، لكن السلطان عبد المجيد ألغى هذا التقليد السلطاني وقبل ميدالية من الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث.

ألغى السلطان عبد المجيد منصب رئيس الوزراء، وأعاد منصب الصدر الأعظم، وبالإضافة إلى هذا ألحق السلطان المجلس التشريعي والوزارات التي أنشئت في عهد والده بوزارات ومجالس جديدة.

خلال السنوات التي أعقبت فترة التنظيمات أصدر السلطان في بعض الأحيان قرارات مبنية على اقتراحات

أمر السلطان عبد المجيد ببناء مسجد المجيدية في أورْتَاكُويْ على الساحل الأوروبي للبوسفور.





موكب جنازة السلطان عبد المجيد، من تصوير هنري بيير بلانشار مونتاني، سنة ١٨٦١.
ويظهر في الصورة الجماهير وهي تصاحب السلطان المتوفى لقبره فيما يُحمل تابوته ليمر عبر بوابة السلام بقصر "طوب قابي".

من زوجاته وأبنائه وأزواج بناته. لكن الأمر الأشد مرارة أن السفيرين البريطاني والفرنسي تنافسا في تقديم النصائح للسلطان؛ فأدى موقفهما إلى استقطاب رجال الدول العثمانيين إلى معسكرين متنافسين، أحدهما مؤيد للبريطانيين والآخر مؤيد للفرنسيين.

اتُخذت في عهده خطوات مهمة لإصلاح التعليم؛ فعلى سبيل المثال أصبح التعليم في المدارس الابتدائية إلزاميا. وبدأت طباعة أول صحيفة خاصة وهي "جريدة الحوادث"، وقام بطباعتها ناشر من أصل بريطاني. ولأول مرة في التاريخ العثمانية طبعت أول أوراق بنكنوت عثمانية، كما سُحب دين خارجي من بريطانيا لدفع النفقات خلال حرب القرم. وخلال حكم السلطان عبد المجيد ارتفع الدين الأجنبي، كما تم رهن مصادر عوائد مهمة في كل واحدة من تلك المناسبات الأربعة.

تسببت الصعوبات المالية والحقوق الموسعة التي حصل عليها غير المسلمين في إحداث حالة من الاستياء في المجتمع العثماني، كما أحدثت قدرا كبيرا من الاضطرابات. وأجبر التدخل الأوروبي في هذه

الأحداث على أساس مصالحها رجال الدولة العثمانيين على الخضوع للغربيين، وهو ما لم يتمكن السلطان عبد المجيد من صده.

وخلال السنوات الأخيرة للسلطان مثلت الديون الأجنبية عبئا ضخما على ميزانية الدولة وخصوصا الديون التي تم الحصول عليها من المقرضين غير المسلمين في منطقة بَيْ أوغلو بإسطنبول، وهي الديون التي تراكمت بقدر هائل. ولم يكن من الممكن استعادة المجوهرات والشيكات التي أُعطيت للمقرضين كضمانات.

وفيما كانت الدولة تتعثر في أزمة مالية حادة، وتقترض مبالغ ضخمة من الخارج، كان من المستغرب أن السلطان عبد المجيد قام في ذلك الوقت بإنشاء قصر "دولما باغجه" على الجانب الأوروبي من البوسفور، وقصري بَيكُوز وكُوجُوكْسُو على الجانب الآسيوي، إضافة إلى جناح مَجِيدِيَة في قصر "طوب قابي".

وأنشئ كذلك في عهد السلطان عبد المجيد مسجدا مجيدية وتَشوِيقِيَة وجسر غَلَطَة الذي يمتد عبر القرن الذهبي. كما قام السلطان عبد المجيد أيضا بأوسع عملية إصلاحات في المسجد النبوي في المدينة المنورة. وكان الشيخ داوود باشا حاكم المدينة المنورة قد أرسل خطابا للسلطان يبلغه فيه بأن المسجد لم يخضع لأي عملية صيانة شاملة منذ وقت طويل، فاهتم السلطان بالأمر شخصيا؛ حيث تلقى تقريرا مطولا عن حالة المسجد الحالية، وصمم على القيام بعملية إنشاءات وتجديد موسعة في المسجد. وفي النهاية كلف المهندس الشهير عبد الحليم أفندي بإدارة وتنسيق المشروع.

وعقد السلطان مسابقة في فن الخط في القصر، ومنح الفائز، عبد الله زهدي أفندي، مسؤولية كتابة الخطوط في المسجد النبوي. لكن عبد الله أفندي توفي في مكة خلال قيامه بالحج في نفس العام وهو يصطحب فريقه الإنشائي إلى المدينة؛ فعيّن السلطان مكانه محمد رائف باشا. وبعد عشر سنوات من العمل أخذ المسجد النبوي شكله الرائع في عام ١٨٦١. وفي وصفه لهذا قال الرحالة الفارسي سيف الدولة، الذي كان قد سافر إلى المدينة، إن "الترميمات كانت في النهاية سلطانية بحق". كما علق الرحالة أمين الدولة على هذه الترميمات بقوله إن "السلطان عبد المجيد خان زرع إحساسا بالامتنان تجاهه من جميع المسلمين. فروح هذا المسجد المقدس، الذي أثنى عليه الله عز وجل، لا تتجسد في أي معنى أفضل في أي مكان عبادة آخر". وقد قام السلطان أيضا بإنشاء مكتبة بالقرب من الكعبة، وملجأ للحجاج الفقراء الذين يأتون لزيارة مكة.





# السلطان عبد العزيز

**فترة الحكم: ١٨٦١-١٨٧٦**

**السلطان العثماني الثاني والثلاثون**

اسم الأب: **محمود الثاني**

اسم الأم: **السلطانة الوالدة بَرْتَوْ نِيفَالْ**

محل وتاريخ الميلاد: **إسطنبول،**
**٨ فبراير/شباط عام ١٨٣٠**

العمر عند اعتلاء العرش: **٣١ عاما**

سبب وتاريخ الوفاة: **الاغتيال،**
**٤ يونيو/حزيران ١٨٧٦**

مكان الوفاة وموقع القبر: **إسطنبول،**
**ودفن في مقبرة محمود الثاني في دِيوَانْيُولُو بإسطنبول**

أبناؤه: **يوسف عز الدين، ومحمود جلال الدين،**
**ومحمد سليم، ومحمد شَوكَتْ،**
**وعبد المجيد (الخليفة الأخير)، وسيف الدين**

بناته: **صالحة سلطان، ونظيمة سلطان،**
**وأَسْمَا سلطان، وأمينة سلطان**

لوحة زيتية للسلطان عبد العزيز، بريشة الفنان بيير ديزيريه جويليمي (Pierre Désiré Guillemet)، سنة ١٨٧٣.



قلادة من الزمرد

عاش السلطان عبد العزيز حياة مريحة خلال عهد السلطان عبد المجيد، شقيقه الأكبر. وخلال فترة إمارته عرفه العثمانيون باتزانه ورباطة جأشه ومظهره الرائع. وكان الناس ينظرون إليه بعد ذلك باعتباره مخرجا لهم من حالة اليأس التي كانوا يعيشونها بسبب الهوس بالتحديث الذي كان يستحوذ على السلطان عبد المجيد والذي وصل إلى درجة تقليد الغرب. كان الناس ينظرون إلى السلطان عبد العزيز باعتباره أشبه بالسلطان ياوُوز سليم، ولما خلف شقيقه الأكبر على العرش، وجد الدولة تمر بمرحلة صعبة؛ فالخزانة الدولة غارقة في الديون، والمشهد الاجتماعي العثماني مازال يضطرب لكنه مستعد للغليان.

أعلن السلطان أنه سيشارك في عملية الاقتصاد في الإنفاق، وهي ضرورة دعت إليها الأزمة المالية المتواصلة. فقام السلطان أولا بتقليص أعداد مسؤولي الدولة في القصر والمكاتب الإدارية الأخرى، بادئا بهؤلاء الذين كانوا يحصلون على رواتب عالية رغم عدم قيامهم بواجباتهم. وكي يقدم القدوة للآخرين قام السلطان بتقليص النفقات العامة للقصر، وتخلى عن ثلث دخله الشخصي. ورغم عدم تمكنه من حل الأزمة المالية فإن الإجراءات التي وضعها موضع التنفيذ يبدو أنها وفرت راحة وانتعاشا جزئيا.

اتبع السلطان عبد العزيز سياسة نشطة تتمثل في تطوير العلاقات داخل دولته وخارجها؛ فأصبح السلطان عبد العزيز أول سلطان بعد السلطان سليم يزور مصر، وكان ذلك في ٣ أبريل/نيسان عام ١٨٦٣، فاستقبله المصريون استقبالا حارا. وكان الغرض من الزيارة تعزيز ولاء هذه الأراضي للدولة العثمانية، بعد أن كانت قد عرفت بتمردها ضد الدولة. واستفاد إسماعيل باشا، حاكم مصر في ذلك الوقت، من زيارة السلطان، ومن ثم بدأ استخدام لقب الخديوي (السيد) للإشارة إلى إسماعيل باشا ومن خلفه من نفس الأسرة باعتبارهم نائبين عن السلطان العثماني في حكم مصر.

وتوجه السلطان عبد العزيز إلى فرنسا بدعوة من نابليون الثالث، إمبراطور فرنسا، وبهذا أصبح أول السلطان عثماني يسافر إلى الخارج من أجل الدبلوماسية، كما كان أول خليفة يزور العالم المسيحي. وغادر السلطان عبد العزيز بعد ذلك إلى لندن بعدما دعته ملكة بريطانيا العظمى للزيارة. وشملت رحلته إلى أوروبا، والتي بدأت في ٢١ يونيو/حزيران عام ١٨٦٧، زيارة إلى بَلْجِيكا وبُرُوسْيا والنمسا، وانتهت في ٧ أغسطس/آب عام ١٨٦٧. ورغم أن رحلة السلطان ساهمت بشكل إيجابي في تعزيز العلاقات الدبلوماسية فإن رؤيته المبنية على الاقتصاد في الإنفاق وموقفه الرافض للتبذير تغيرا بعد هذه الرحلة.

بالإضافة إلى الأزمة المالية كان أكبر تحد أمام السلطان عبد العزيز هو الثورات الداخلية التي حركتها التدخلات الأجنبية. وكان السبب الواضح لهذه الثورات هو أن غير المسلمين لم يكونوا سعداء بالحقوق التي

منحتها لهم المراسيم السلطانية. فاستغلت القوى الأوروبية العظمى هذا الاستياء بشكل كامل كوسيلة للتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية.

وبعد التمرد الذي قام به اليونانيون في جزيرة كِريتْ تحت شعار الاندماج مع اليونان، أجبرت الضغوط الأوروبية السلطانَ على إصدار مجموعة من القوانين أطلق عليها اسم "نِظامْ نامَهْ"، أجازت إنشاء إدارة خاصة في الجزيرة عام ١٨٦٧.

وقادت الحركةُ القومية السلافية، التي ابتدعها الروس كأداة سياسية للسيطرة على السلاف الأرثوذكس، إلى وقوع اضطرابات في البلقان. واندلع أول تمرد استغله الروس وفجروه في البلقان بين السكان المسيحيين في البوسنة والهرسك، وتبعه التمرد البلغاري.

وفيما كانت الدولة العثمانية مشغولة بإخماد هذه الثورات كانت روسيا تقوم بإثارة الصرب وسكان الجبل الأسود للثورة مثل الآخرين. لكن هذه الثورات تم قمعها في وقت قصير نسبيا. ومن المثير للاهتمام أن الثورات التي احتوتها الدولة العثمانية في أراضيها نقلت إلى أوروبا بطريقة متعمدة قادت الأوروبيين إلى الاعتقاد أن "العثمانيين شنوا غارات ومذابح ضد شعوب مسيحية".

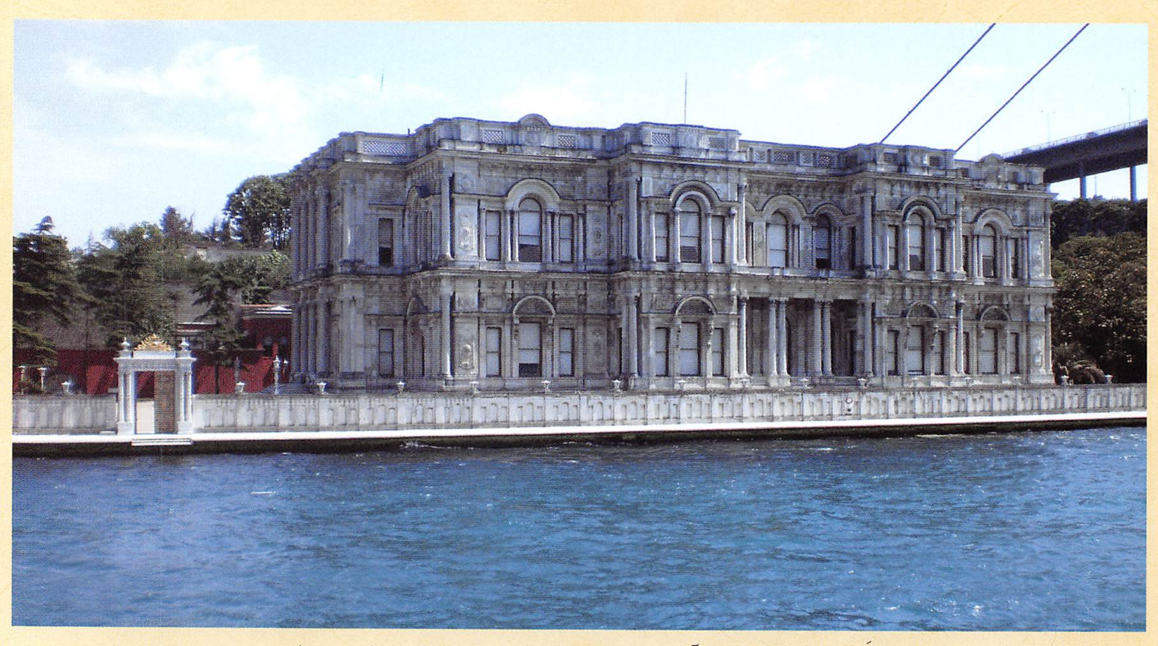
وفي إسطنبول سعى كل من مدحت باشا وحسين عوني باشا (قائد الجيش) -اللذان عزلهما السلطان عبد العزيز من منصبيهما لاعتبارهما خطرَيْن على مصالح الدولة- إلى إيجاد طرق للإطاحة بالسلطان. وكانت الخطوة الأولى هي تحريض طلاب الكليات في إسطنبول على الثورة.




الحلية الشريفة (وصف بالكلمات للرسول ﷺ)
نظمها يسري زاده مصطفى عزت، ويعود تاريخها إلى عام ١٨٢٢.



السلطان عبد العزيز يتخذ وضعية التصوير بجوار مكتبه، من سجلات يِتيك هزينة (الكنز المفقود)



قصر بَيْلَرْبَيِ على الساحل الآسيوي للبوسفور، والذي يقع حاليا شمال جسر البوسفور.

وفي المرحلة الثانية من مخططهما دبّر المترجم رشدي وحسين عوني باشا ومدحت باشا لكيفية الإطاحة بالسلطان عبد العزيز. وحصلوا على تصريح ديني من كبير القضاة بإعدام السلطان بذريعة أنه دمر الدولة والممتلكات، وأضاع كنوز المسلمين. وسرعان ما أصبح قصر دولما باغجه تحت الحصار في البر من قبل طلاب الأكاديمية العسكرية بقيادة سليمان باشا، وفي البحر بالسفن الحربية التابعة للأسطول العثماني، الذي كان السلطان قد استثمر به والتزم بإنشائه.

بعد ذلك قام "السرعسكر الحسين عوني باشا" بإحضار ابن شقيق السلطان الأمير مراد إلى "باب السرعسكرية"، وهو المقر العسكري لوزارة الحربية، وتنظيم احتفال لاعتلائه العرش. وأُخذ السلطان عبد العزيز مع عائلته إلى قصر "طوب قابي"، الذي كان في حالة مزرية بسبب عدم استخدامه لسنوات بعد انتقال مقر الحكومة العثمانية إلى قصر دولما باغجه خلال حكم شقيقه الأكبر السلطان عبد المجيد. وبعد نقله تحت المطر، وهو أمر لم يكن يتناسب مع مكانة السلطان، ثم نقل السلطان بناء على طلبه إلى قصرِ "فرعية" في إسطنبول. وبسبب قلقه طوال يومين من أنه يمكن أن يقتل هناك استغل السلطان معظم وقته في قراءة القرآن. ومما زاد من قلقه أن سيفه أُخذ منه. وفي ٤ يونيو/حزيران عام ١٨٧٦ عثر على السلطان عبد العزيز في قصرِ فرعية وقد قُطعت الأوردة عند معصميه، وعلى المنضدة الموجودة أمامه كان المصحف مفتوحا على سورة يوسف. وبعد فحص عابر لجسم السلطان رفض حسين عوني باشا السماح بفحص دقيق. وأشار تقرير الطبيب إلى أن وفاة السلطان عبد العزيز ناتجة عن انتحاره، مشيرا إلى وجود مقص في الغرفة.



السلطان عبد العزيز خلال سنوات حكمه الأخيرة (تصوير عبد الله بِرادَرْلَرْ).

وبعد أحد عشر يوما من وفاة السلطان قام الرائد شركس حسن، "شقيقُ نَشْأَرَكْ قَادِنْ"، زوجةِ السلطان بقتل حسين عوني باشا ورشيد باشا، وزير الشؤون الخارجية، الذي كان من المؤكد أنه هو من قام بقتل السلطان عبد العزيز. ثم أثيرت القضية مجددا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وقضت محكمة يلدز في ذلك الوقت أن السلطان عبد العزيز قُتل، وعوقب الأشخاص الذين أدينوا بمقتله.

يمكن دراسة عهد السلطان عبد العزيز من جانبين فيما يتعلق بمن شغلوا منصب الصدر الأعظم في عهده. ففترة علي باشا وفؤاد باشا كانت متميزة للغاية عن فترة محمود نديم باشا ومدحت باشا. وبشكل عام كانت الفترة الأولى من حكم السلطان أكثر نجاحا فيما يتعلق بالإصلاحات والدبلوماسية الأجنبية.

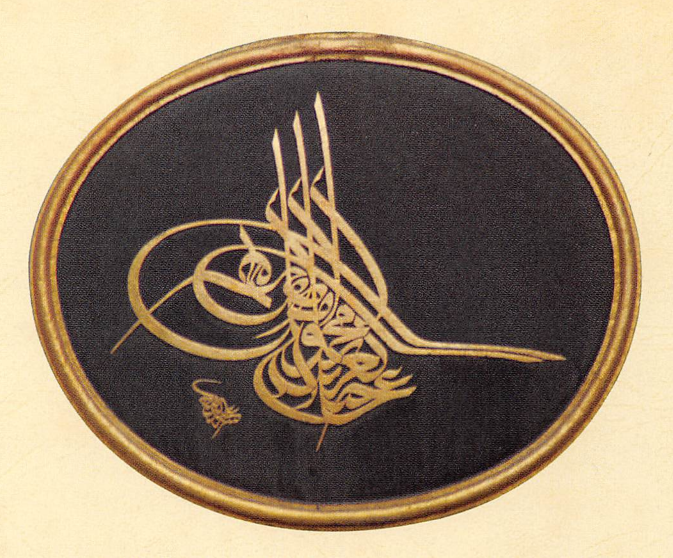
ورغم الأزمة المالية فقد افتتح السلطان كليات عسكرية جديدة وأنشأ ثالث أكبر أسطول بحري في العالم.

وامتد طول خطوط السكك الحديدية من ٢٨٠ ميلا إلى ٨٣٥ ميلا. وبدأ إنشاء خط سكك حديدية بين إسطنبول وباريس. وعندما أُبلغ السلطان أن خطوط السكك الحديدية يمكن أن تمر عبر حديقة قصر "طوب قابي" علق قائلا "يمكن للسكك الحديدية أن تمر فوق كتفيّ إذا لزم الأمر"، وهو ما يشير إلى الأهمية التي كان يوليها لخطوط السكك الحديدية والنقل عبرها.

وكان التلغراف، الذي كان أهم وسيلة اتصال في ذلك الوقت، قد انتشر في جميع أراضي الدولة وفي جميع المناطق، حتى في المقاطعات الصغيرة. وأصبح التعليم الأولي إلزاميا للجميع، كما افتتحت مدارس حكومية جديدة ومدارس للفنون للفتيان والفتيات.

واستجابة للضغوط المتزايدة من الدول الغربية قام السلطان عبد العزيز بتطبيق سياسة مبتكرة وجديدة منحت حق الملكية للأجانب، وفي نهاية المطاف حصل جميع الأجانب على الحق في امتلاك أراضٍ داخل جميع الحدود العثمانية، باستثناء الأراضي الحجازية المقدسة.

خلال عهد السلطان عبد العزيز أُنشئ قصرا جيراغان وبَيْلَرْبَيِي على البوسفور، وهو ما أثار رد فعل شعبيا كبيرا. ورعت السلطانة الوالدة بَرْتَوْ نِيفَالْ، والدة السلطان عبد العزيز، إنشاء مسجد الوالدة في آقْسَرَايْ بإسطنبول،



طغراء السلطان عبد العزيز (شعاره السلطاني) على بوابة السلام.

كما أعاد السلطان بناء الجامع الكبير الذي كان قد احترق في منطقة قاسم باشا.

كان السلطان عبد العزيز ماهرا في فن الخط، ومؤلفا موسيقيا ناجحا، وعازفا على الناي، وخبيرا في الموسيقى التركية، ومازال عدد من مؤلفاته الموسيقية موجودا حتى اليوم. كما كان السلطان مهتما بمصارعة "الكاراكُوجاك"، والواقع أن هذا النوع من المصارعة التركية التقليدية مورس في عهده بشكل كبير.

كان عبد العزيز يرى أن نمط الحياة الذي يرمز إلى مفهوم الفِرَنْجَة (أي نمط الحياة الأوروبي) علامة على عدم التقوى؛ وكان يواظب على قراءة القرآن الكريم كل صباح. وكان الشعب معجبا ببساطته وطريقة حياته؛ فكان على سبيل المثال يقوم، مثل أي شخص آخر، بتحية المارة وهو يجلس في مقهى محلي.

أنشئت في عهد السلطان عبد العزيز المئذنة الخامسة في المسجد النبوي، وكان يطلق عليها المئذنة العزيزية، لكنها غير قائمة الآن. كما أنشأ السلطان مسجدا على جبل النور في مكة، وعهد إلى مهندس ومسؤول مياه وأحد الموردين بتيسير توزيع المياه في المدينتين المقدستين، مكة والمدينة.

أجرى السلطان عبد العزيز إصلاحات واسعة في المستشفيات من أجل المحتاجين في مكة والمدينة، وقام بتوسعة هذه المستشفيات بإضافة مبانٍ جديدة إليها. ودفعت السلطانة الوالدة بَرْتَوْ نِيفَالْ، والدةُ السلطان عبد العزيز، نفقاتِ توظيف طقم طبي من الأطباء المهرة والصيادلة والجراحين في هذه المستشفيات. وبالإضافة إلى هذا تم إصلاح الحصون وأسوار المدينة المنورة، كما تم بناء مجلس للمدينة، وغرفتين ورديتين، وثكنة عسكرية في المدينة. وأنشئ حصن الطائف كذلك خلال عهد السلطان عبد العزيز.

كان قصر دُولْمَه باغجة المركز الإداري الرئيسي للدولة العثمانية في الفترة من عام١٨٥٦ إلى ١٩٢٢.
وكانت الغرفة الحمراء بالقصر تستخدم لاستقبال المبعوثين الأجانب.



# السلطان مراد الخامس

**فترة الحكم: ١٨٧٦**

**السلطان العثماني الثالث والثلاثون**

**اسم الأب:** عبد المجيد

**اسم الأم:** شَوقْ أَفْزا قادن أفندي

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول،
٢٢ سبتمبر/أيلول عام ١٨٤٠

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٣٦ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** مرض السكري،
٢٩ أغسطس/آب عام ١٩٠٤

**مكان الوفاة وموقع القبر:** إسطنبول،
ودفن في مقبرة تحمل اسمه في مسجد يَنِي
(المسجد الجديد) بإسطنبول

**أبناؤه:** سليمان أفندي، وسيف الدين أفندي،
ومحمد صلاح الدين أفندي

**بناته:** خديجة سلطان، وفهيمة سلطان، وفاطمة سلطان،
وعَلِيَة سلطان



لوحة زيتية للسلطان مراد الخامس.



بيانو السلطان مراد الخامس.
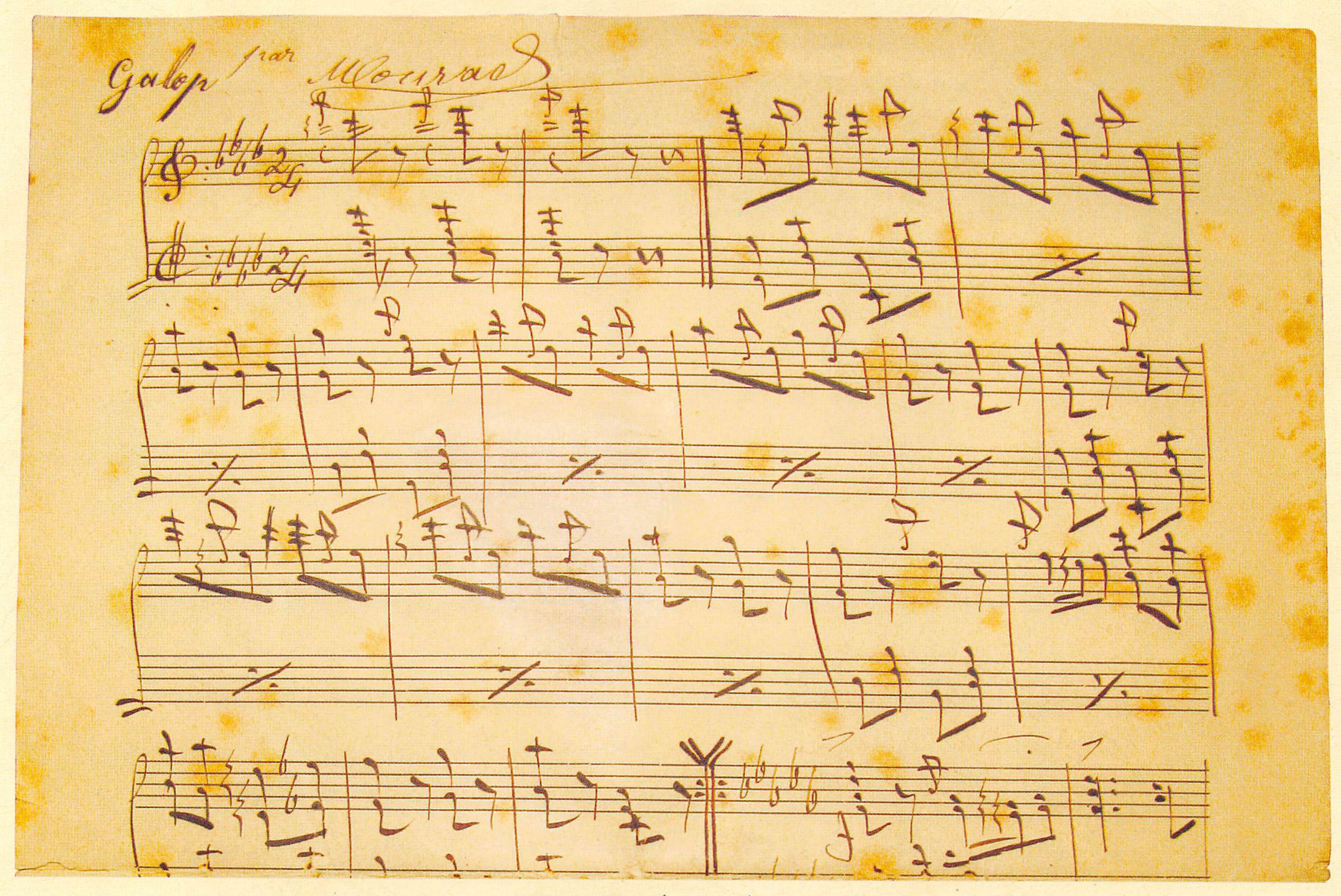
تلقى السلطان مراد الخامس، الذي كان اسمه عند ولادته محمد مراد، وهو أمير تربية ورعاية فائقة من والده. لكنه كان السلطان الذي حكم أقصر فترة في التاريخ العثماني. ولأنه كان ينظر إليه باعتباره السلطان القادم فقد تلقى مراد الخامس تعليما متميزا وشغل مواقع قيادية في المحافلالدولة. كما صحب مراد الخامس عمه في رحلاته إلى مصر وأوروبا، وظل على اتصال بمن كانوا يعرفون باسم "العثمانيون الجدد"، وهي جماعة من المثقفين الذين تأثروا بالمفكرين الغربيين والثورة الأوروبية، وكانوا يدافعون عن فكرة السلطنة الدستورية باعتبارها الشكل المثالي للحكم. والتقى مراد الخامس مع شِينَاسِي ونَامِقْ كمال، وضِيَاء باشا، وحصل على دعمهم المؤكد. وفي أحد المواقف تجمع شباب العثمانيين، بعد مغادرة مسرح كانوا يشاهدون به مسرحية نامق كمال "الوطن"، أمام منزل نامق كمال احتجاجا، ورفعوا شعارات استخدموا فيها التورية من قبيل "ما هو مرادك؟" (للإشارة إلى اسم الأمير مراد، وكلمة "مراد"، أي "رغبة"). وأخرى تقول "ما هو مرادك؟" عسى الله أن يعطيك مرادك؟ في إشارة إلى مناصرتهم لمراد الخامس.

خلال عهد السلطان عبد العزيز أدت الأحداث العنيفة التي وقعت في سلانيك، والتي راح ضحيتها اثنان من السفراء هناك، إلى إعطاء الأوروبيين الدافع للتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية. وبالإضافة إلى هذا أطاح خصوم السلطان عبد العزيز به، وأحلوا مراد الخامس محله. وعلى خلاف سابقيه لم يُحتفل باعتلاء مراد الخامس العرش في احتفال تتويج، أو بموكب لتقليده سيفه في مسجد السلطان أيوب.

وبدلا من ذلك تم على عجل إحضار السلطان مراد الخامس تحت المطر إلى بوابة مكتب القائد العام (البوابة الرئيسية لجامعة إسطنبول اليوم)، حيث بايعه هناك كبار رجال الدولة باعتباره السلطان الجديد. وتكرر نفس احتفال البيعة في قصر دولما باغجه.

وفي هذا الوقت نشأ صراع مرير فيما بين هؤلاء الذين أتوا بمراد الخامس إلى العرش، وخصوصا أن الأفكار التحررية لدى مدحت باشا لم تجذب اهتمام الآخرين.

ومن جانبه أمر القائد العام حسين عوني باشا، الذي ساعد السلطان مراد الخامس على اعتلاء العرش، بأنه سوف يختار بشكل حذر من يرون السلطان بشكل شخصي.




قطعة موسيقية أصلية من تأليف السلطان مراد الخامس.

وخلال تناوله إفطاره في اليوم الخامس من توليه منصب السلطنة تلقى السلطان مراد الخامس الأنباء بالعثور على السلطان السابق عبد العزيز قتيلا في غرفته بقصرِ "فرعية"، فأغشي على السلطان وهو مصدوم. وبعد أحد عشر يوما قام الرائد شركس حسن بيك، شقيق زوجة السلطان السابق عبد العزيز، باقتحام اجتماع لمجلس الوزراء، وقتل حسين عوني باشا، الذي كان يشتبه في قيامه بقتل السلطان عبد العزيز.

وتركت هذه الأحداث أثرها الحزين والعميق في السلطان مراد الخامس الذي كان مريضا أصلا. وعندما زاره أشقاؤه كشف لهم عن سوء حالته الصحية، وشكا لهم من شعوره بآلام صداع عنيفة بدأ يعاني منها مؤخرا.

وأظهرت الطريقة التي تصرف بها السلطان مراد الخامس في أول صلاة جمعة له أنه قد فقد وعيه. ورغم أن السلطان كان قد نُقل إلى قصر يِلدز بإسطنبول بناء على نصيحة الأطباء، فإنه ألقى بنفسه في إحدى المرات في حوض السباحة في لحظة جنون. وسريعا أصبح من الواضح أنه فقد قدرته العقلية. وبعد ذلك

توقف السلطان عن حضور صلاة الجمعة، كما توقف عن الالتقاء بأي شخص.

ورغم أن الحكومة أرادت التغطية على الحقيقة فإن الحديث انتشر بين الناس بأن السلطان قد جُنّ، كما انتقد الشعبُ الصدرَ الأعظم رشدي باشا لمحاولته حكم الدولة العثمانية في غياب سلطان.

في يوم عودته من أحد المراسم حطم السلطان زجاج نافذة في القصر، وحاول قتل نفسه. وجاء الأطباء وقاموا بفحصه، واتفقوا جميعا على أن فرصة تعافيه ضئيلة للغاية؛ فذهب مدحت باشا إلى عبد الحميد الثاني، الوريث الفعلي للسلطان، وأبلغه أنهم سوف يعلنونه سلطانا جديدا بشرط قيامه بإعلان الدستور الجديد، الذي يسمى "القانون الأساسي"، والذي صاغه أعضاء في جماعة "العثمانيون الجدد"، وخصوصا مدحت باشا.

وفي أعقاب الأمر الديني التنفيذي الصادر عن قاضي القضاة في ٣٠ أغسطس/آب ١٨٧٦، أمر البرلمان بخلع السلطان مراد الخامس، وتعيين عبد الحميد الثاني محله. وبهذا انتهت فترة خلافة السلطان مراد الخامس بعد ثلاثة وتسعين يوما.

وخلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني نُقل مراد الخامس وأسرته إلى قصر جيراغان، حيث خضع للعلاج هناك.

وبسبب الدعاية المتواصلة التي قام بها المحفل الماسوني وعدد من الجماعات المعارضة والتي زعمت أن السلطان السابق كان بصحة جيدة، وأنه عانى من الظلم والفساد قام السلطان عبد الحميد الثاني بعرض شقيقه مراد الخامس على لجنة طبية تضم أطباء أتراكا وأجانب. وأكدت اللجنة أن السلطان السابق مازال يعاني من خلل عقلي، وأن علاجه ليس ممكنا.

وتجرأت الجماعات المعارِضة ومن بينهم الماسونيون على القيام باختطاف السلطان السابق ثلاث مرات، وكانوا في كل مرة يُقبض عليهم ويتعرضون للعقاب. وكانت هذه المحاولات تمثل إزعاجا أكبر لمراد الخامس وأسرته. فاضطر أن يعيش حياة السجين خلال السنوات

السلطان مراد الخامس (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).



بطاقة بريدية تصور منظر قصر دولمة باغجة من البسفور

الثماني والعشرين الباقية من حياته، حيث كان يتعين إبقاؤه تحت مراقبة مشددة لحمايته من الخاطفين.

كان السلطان مراد الخامس، السلطان الذي أمضى أقصر وقت على العرش العثماني، مهتما للغاية بالرسم والنجارة وفن العمارة، كما كان مؤلفا موسيقيا عبقريا؛ حيث كتب أكثر من ٥٥٠ قطعة موسيقية على النمط الأوروبي. ومازال البيانو الذي كان يستخدمه خلال تأليفه لهذه المقطوعات موجودا حتى يومنا هذا. وكانت شخصيته وصورته مختلفة عن أشقائه من ناحية تشجيعه لنمط الحياة الأوروبي منذ كان أميرا. وأصبح مراد الخامس عضوا في المحفل الماسوني لاعتقاده أن سياسة الدولة يمكن أن تستفيد من الماسونية، ولكن يبدو أن مراد الخامس كان يعتبر المحفل الماسوني ناديا رياضيا من دون أن يعلم حقيقة هذه الجمعية السرية.



المدخل السلطاني لقصر دولمة باغجة





# السلطان عبد الحميد الثاني

**فترة الحكم: ١٨٧٦-١٩٠٩**

**السلطان العثماني الرابع والثلاثون**

**اسم الأب:** عبد المجيد

**اسم الأم:** تِيري موجْغانْ قادن أفندي

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول،

٢١ سبتمبر/أيلول عام ١٨٤٢

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٣٤ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** سكتة قلبية،

١٠ فبراير/شباط ١٩١٨

**مكان الوفاة وموقع القبر:** إسطنبول،

ودفن في مقبرة محمود الثاني

في "ديوان يولو" بإسطنبول

**أبناؤه:** محمد سليم، أحمد نوري،

محمد عبد القادر، محمد برهان الدين،

عبد الرحيم خيري، أحمد نور الدين، محمد عابد

**بناته:** زكية سلطان، نعمة سلطان، نائلة سلطان،

شادية سلطان، عائشة سلطان، رفيعة سلطان



لوحة زيتية للسلطان عبد الحميد الثاني بريشة فنان غير معروف.

رغم أنه كان من المستبعد أن يصبح عبد الحميد الثاني سلطانا، فإن مقتل عمه عبد العزيز وخلع أخيه الأكبر مراد الخامس، قاده إلى أن يكون السلطان الرابع والثلاثين على العرش العثماني.

وقد تركت وفاة أمه وهو في سن الحادية عشرة من عمره أثرا لا يُمحى من ذاكرته. وبالإضافة إلى هذا فقد تعود على العزلة، وخصوصا بعدما أظهر والدُه السلطان عبد المجيد اهتماما أكثر بشقيقه الأكبر مراد الخامس. وكان موظفو القصر أيضا لا يقدمون له الاحترام اللائق، وهو ما كان يعود بشكل أساسي إلى أن أحدا لم يكن يتوقع أنه سيصبح سلطانا في يوم من الأيام. لم يكن هذا الأمير الانطوائي يستمتع بحياة القصر، ولا يحب موظفيه.

وكان عبد الحميد في التاسعة عشرة من عمره عندما مات والده. وكان وهو صغير يتلقى دروسا في اللغات التركية والعربية والفارسية والفرنسية. وكان عمه السلطان عبد العزيز أول من أدرك ذكاءه الفائق ومواهبه الإدارية؛ فتركه عبد العزيز يكبر في بيئة مريحة، وكان يصطحبه معه في رحلاته إلى الخارج. وفيما كان شقيقه الأكبر مراد الخامس يحب اللهو وطراز الحياة الأوروبية كان عبد الحميد، الأميرُ الأصغر، يفضل الجلوس في ركن، بعيدا عن المشهد الاجتماعي. وقد لفت نظرَه إلى حد بعيد خطوطُ السكك الحديدية التي لاحظها في بريطانيا. ولم يكن عبد الحميد يستمتع بالمعيشة في القصر، إضافة إلى أنه كان يعمل في مزرعته في حي "مَسْلَخ" بإسطنبول، يربي الخِرَاف، ويقوم بالتعدين، ويتعامل في البُورْصة. وكان من الواضح أنه لو لم يكن سلطانا فإن ثروته الشخصية، التي تجاوزت حينئذ ١٠٠ ألف قطعة ذهبية وجمعها بعرق جبينه، كانت كفيلة بتوفير مستوى معيشة مريح بالنسبة له.

وبعد اعتلائه العرش تبرع السلطان عبد الحميد الثاني بالأموال التي كان يمتلكها للجيش. ومن المثير للاهتمام أنه بسبب ابتعاد السلطان عبد الحميد الثاني عن القصر، ووجوده بين الشعب، وانخراطه الكامل في الاقتصاد خلال فترة الإمارة، فإنه تربى تربية موازية لتربية الأمراء السابقين، من خلال الحصول على خبرة إدارية كحاكم لإحدى الولايات قبل اعتلاء العرش.

وخلال فترة السلطان عبد الحميد الثاني بذل مدحت باشا وأصدقاؤه جهودهم من أجل تأسيس سلطنة دستورية، وهو الأمر الذي لم يستطيعوا تنفيذه خلال فترة حكم مراد الخامس. والواقع أن وعد عبد الحميد بشأن هذا الأمر جعلهم يعلنونه السلطان الجديد في ٣١ أغسطس/آب عام ١٨٧٦.

تولى عبد الحميد العرش خلال السنوات المضطربة للدولة العثمانية؛ حيث كان يتعين عليه التعامل مع الثورات في البلقان، و"المسألة الشرقية" المتعلقة بروسيا، ورفض المصارف الأوروبية إقراض الدولة العثمانية الأموال اللازمة. وقد أدت هذه المصاعب المالية إلى عرقلة إخماد حركات الثورة.



المحمل الشريف (مواكب الصرة) قافلة الإبل التي تحمل العطايا الضخمة التي يقدمها السلطان سنويا للحرمين الشريفين، خارجا من قصر يِلدِزْ قبل أن تبدأ القافلة رحلتها إلى البلاد المقدسة.

كان السلطان يقوم بزيارة الجنود في ثكناتهم ويأكل معهم، كما كان يفعل الشيء نفسه مع البحارة في ورش بناء السفن، وكان يستضيف العلماء والقادة والجنود للإفطار في شهر رمضان. وكان يصلي في مساجد مختلفة مع العامة، ويزور المستشفيات والمحاربين القدماء الذين أصيبوا في حروب البلقان. وكان يمنح الجنود الذين فقدوا سيقانهم عصيا يستندون عليها من صنع يده. أوجدت تلك اللفتات البسيطة والعاطفية عواطف حارة من جانب الجيش والشعب تجاه السلطان الجديد، فارتفعت الروح المعنوية للجيش، وأشعل في الشعب شموع الأمل من جديد.

انتصر العثمانيون في الحروب ضد الصرب في البلقان، لكنهم وافقوا على التوقيع على هدنة لمدة ثلاثة أشهر مع الصرب نتيجة للضغوط الهائلة التي مورست عليهم من الروس. وبالإضافة إلى هذا فقد كان من المقرر عقد مؤتمر في إسطنبول، ترأسه بريطانيا، حيث كان من المفترض أن تناقش الدول المشاركة فيه طرق تهدئة الأحداث المضطربة في البلقان، وتحسين العلاقات الروسية العثمانية.

وفي غضون هذا خَططت عصابةٌ مناهِضة للسلام مع الصرب لاغتيال مدحت باشا ورجاله، وخَلْعِ السلطان، لكن خطتهم كُشفت في وقت مبكر، وأُلقي القبض على المتآمرين.

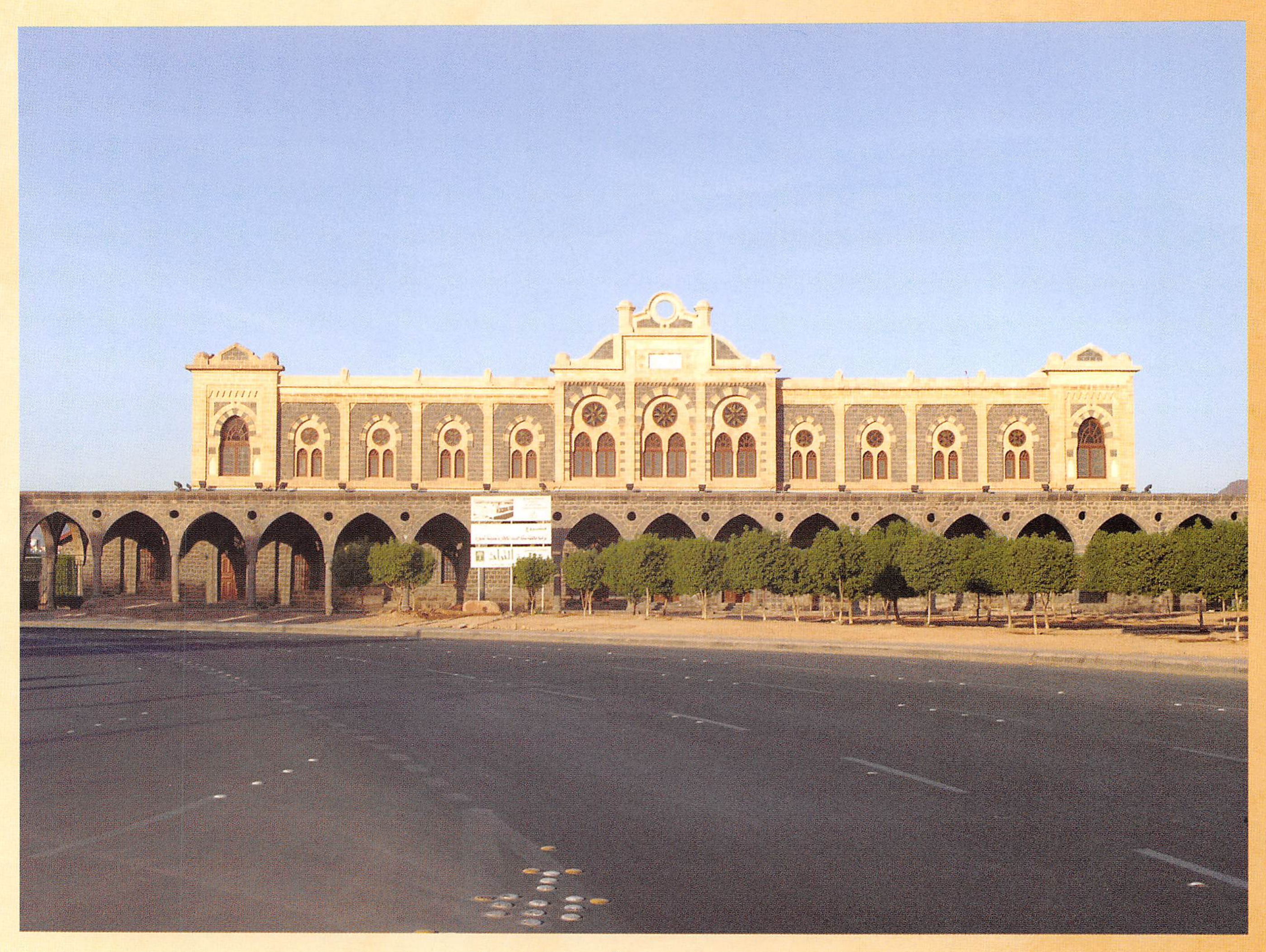
كان من المقرر تشريع أول دستور في التاريخ التركي، ولهذا الغرض شُكلت لجنة من المسلمين وغير المسلمين. وأصبح مدحت باشا الصدرَ الأعظم الجديد ليحل محل رشدي باشا الذي استقال.

ركز اليوم الأول من مؤتمر إسطنبول على الوضع السياسي في البلقان، وأعلن الدستور، أو القانون الأساسي، في ٢٣ ديسمبر/كانون الأول عام ١٨٧٦، ومنذ ذلك الحين بدأ عصر أول سلطنة دستورية.

أُعلن الدستور على عجل في مؤتمر إسطنبول، وكان مرجع هذا التعجل أساسا إلى أن العثمانيين اعتقدوا أن الدول الغربية سوف ترى الدستور وتمتنع عن تقديم مطالب كبيرة، لكن الحقيقة أن الدول الغربية لم تهتم بالدستور. وأعد الأوروبيون في السفارة الروسية قائمة بالمطالب الآتية: البوسنة وبلغاريا يجب أن يحصلا على الاستقلال، ويجب على الجيش العثماني أن يخرج من صربيا والجبل الأسود، ويجب تنفيذ عشرات الإصلاحات في البلقان. اجتمعت الجمعية العثمانية العامة بأمر من السلطان، وناقشت محتويات القائمة، ورَفضت المطالبَ بالإجماع على أساسِ أن العبارات الواردة في هذه القائمة تمثل انتهاكا للسيادة العثمانية الداخلية. وانتقلت بريطانيا لتنظم مؤتمرا آخر في لندن هذه المرة. وفي ١٢ أبريل/نيسان عام ١٨٧٧ رفضت الجمعية العثمانية العامة مجددا القرارات التي اتخذت في لندن؛ لأن العبارات الواردة فيها كانت تمثل انتهاكا مباشرا لحقوق السيادة العثمانية.

مارس مدحت باشا، الذي كان يمثل القوة الحقيقية التي جاءت بالسلطان عبد الحميد الثاني إلى العرش، ضغوطا مستمرة على السلطان. واتساقا مع متاجرته بالحرب حاول مدحت باشا تجنيد جيش تحت قيادته أُطلق عليه اسم "مِلَّةْ عسكري" (أي جيش الأمة). وبعد ذلك أضاف علامة الصليب على العلم التركي في البوسنة والهرسك، ونظم عرضا عسكريا لجيش يضم مسلمين ومسيحيين في إسطنبول يحملون نفس العلم. وبالإضافة إلى هذا قال مدحت باشا في حفلات شراب إنه سيلغي السلالة العثمانية وينشئ سلالة "مِدْحتية"، نسبة إليه. وتسببت هذه الأمور مجتمعة في رد فعل كبير على ما فعله مدحت باشا. وكان مدحت باشا قد نجح قبل ذلك في سَنّ قانون للنفي، كان يسمح بنفي مذنبين في جرائم معينة، وكان من الغريب أنه أصبح أول شخص يُنفى وفقا لهذا القانون.

وبعد وقت قصير من إعلان الحكومة العثمانية عدم اعترافها بقرارات مؤتمر لندن، وَجدت روسيا الفرصةَ التي كانت تنتظرها، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ٢٤ أبريل/نيسان عام ١٨٧٧، كما تحالف مع روسيا في هذه الحرب كل من رومانيا وصربيا وبلغاريا والجبل الأسود، وكان الجيش العثماني في حالة سيئة كما كانت الأوضاع المالية للدولة العثمانية أيضا سيئة، والأسوأ من ذلك أن الدولة فشلت في الحصول على أية



محطة قطار المدينة آخر محطة على سكة حديد الحجاز

مساعدة خارجية. ولم تستطع المقاومةُ البطولية التي أبداها غازي عثمان باشا في بلَوْنَه ببلاد الرومَلِي، و"غازي أحمد مختار باشا" في أَرْضُرُومْ بالأناضول ضد الغزاة، في تغيير النهاية المحتومة؛ حيث اضطر الجيش العثماني إلى الانسحاب في يأس، بعد أن عجز عن صد الهجمات القادمة من الشرق والغرب. وتتابعت سلسلة من الأحداث المثيرة في أعقاب الحروب الخاسرة، تمثلت في اضطرار آلاف المسلمين الذين كانوا يعيشون في الأراضي التي تعرضت للغزو مؤخرا إلى الفرار إلى الأناضول، وخصوصا إلى إسطنبول.

ورغم مرور الدولة العثمانية بفترة اضطراب بسبب النتائج المعقدة لحرب كبرى مع الروس، فإن ممثلي الخلفيات العرقية المختلفة شغلوا أنفسهم بأجندة مختلفة في التجمع النيابي، الذي كان يمثل الهيئة التنفيذية



قطار عثماني مسافر على الطريق إلى المدينة عبر سكة حديد الحجاز، والذي اعتبره السلطان عبد الحميد الثاني أعظم إنجاز له.

الكبرى للدولة. فبدلا من اتخاذ قرارات بشأن الحرب الروسية التركية (١٨٧٧-١٨٧٨) ناقش التجمع بشكل ساحق استقلال حركات الأقليات والرغبة في إعطاء لغات الأقليات صفة رسمية، وهو الأمر الذي أزعج السلطان.

وقّع العثمانيون اتفاق هدنة مع الروس في أدِرْنه. وفي الاجتماع الذي عقد في القصر لمناقشة بنود السلام تحدث "آسْتَارْجِيلَارْ كَتْخُداسِي أحمد أفندي"، أحد ممثلي الحاضرين، قائلا إن الجمعية ليست مسؤولة عن حالة التراجع والانتكاس التي تمثلت في الأحداث الأخيرة، ومحملا السلطان مسؤولية ذلك. وردا على هذه النغمة الشاذة، أكد السلطان عبد الحميد الثاني أنه ليس مخطئا؛ لأنه قام بأفضل ما في وسعه. وعندما زاد أحمد

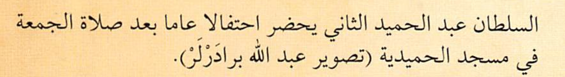




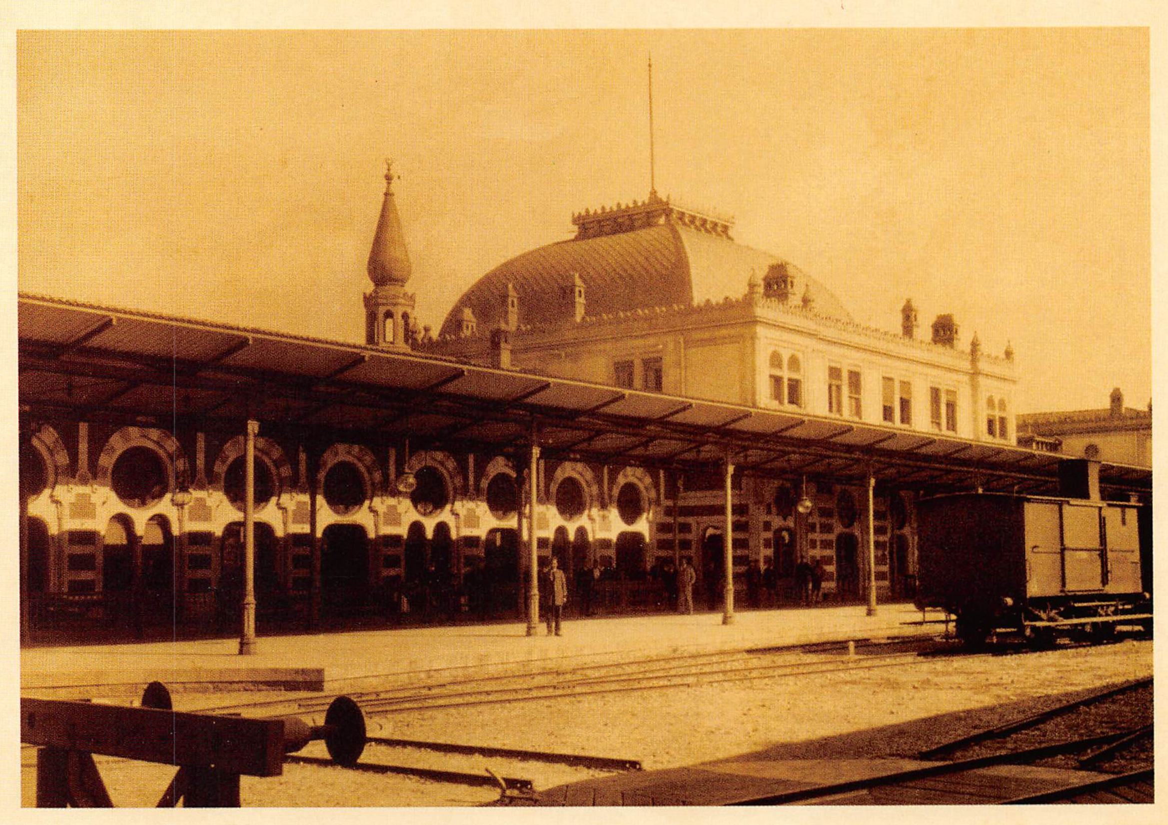
أفندي من حدة نغمته الاتهامية أوضح السلطان أنه مستعد لمواصلة القتال ضد روسيا بقية حياته إذا اضطر لذلك، وأَوكل إلى الجمعية وقف أحمد أفندي عند حده بسبب سلوكه الذي ينم عن احتقار لمقام السلطان.

لم يشأ السلطان أن يسلم السيادة لرجال الدولة الذين اتضح بجلاء أنهم يتصرفون وفقا لمصالحهم الخاصة. وكانت كلماته نصا هي "أنا الآن ملتزم بمواصلة السير على خطا السلطان محمود"، والتي كانت نذيرا بما سيحدث. ووفقا للسلطة الممنوحة له من الدستور قام السلطان عبد الحميد الثاني بحل الجمعية في ١٣ فبراير/شباط عام ١٨٧٨ تماما مثلما فعل جده السلطان محمود الثاني عندما قام بحل قوات الانكشارية.





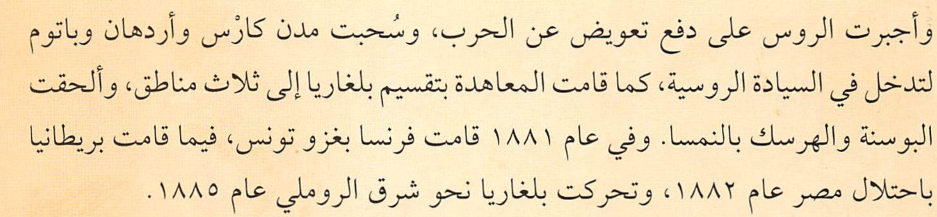
السلطان عبد الحميد الثاني يحضر احتفالا عاما بعد صلاة الجمعة في مسجد الحميدية (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).



محطة قطار سِركَجي في أمينُونُو بإسطنبول (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).

وفي أعقاب الحرب الروسية التركية عامي ١٨٧٧ و١٨٧٨ وقع العثمانيون على معاهدة أيا ستيفانوس، المعروفة أيضا باسم معاهدة "يَشِيلْ كُوي"، مع الروس. لكن بريطانيا ودولا أوروبية أخرى أعلنت اعتراضها بعد اكتشافها أن روسيا قررت من جانبها تقسيم الأراضي العثمانية (وهو ما يعرف باسم "المسألة الشرقية" في التاريخ الأوروبي). وفي النهاية أرادت الأطراف المعنية مناقشة الأمور بشكل أكبر، وحددت موعدا لعقد مؤتمر في برلين. وفي غضون ذلك، وفي ٤ يونيو/حزيران عام ١٨٧٨ وقع العثمانيون على اتفاق سري مع روسيا، في حين استحوذت روسيا على إدارة قبرص من الدولة العثمانية مع وعد للعثمانيين بأن تساعدهم في المفاوضات. ولم يكن السلطان عبد الحميد الثاني راغبا في التصديق على المعاهدة، التي كان البريطانيون قد اعتبروا توقيع الحكومة العثمانية عليها أمرا واقعا، لكن ضغوط الجيش أجبرته على التصديق عليها.

وتخلت الحكومة العثمانية عن قبرص، مفترضة أن البريطانيين سوف يدعمونهم في مؤتمر برلين، لكن هذا لم يحدث. وكان السلطان عبد الحميد الثاني واعيا تماما لحقيقة أن المؤتمر عُقد بهدف تقسيم الأراضي العثمانية. واعترفت معاهدة برلين في ١٣ يوليو/تموز عام ١٨٧٨ باستقلال صربيا ورومانيا والجبل الأسود،

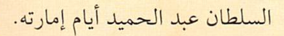


وأجبرت الروس على دفع تعويض عن الحرب، وسُحبت مدن كارْس وأردهان وباتوم لتدخل في السيادة الروسية، كما قامت المعاهدة بتقسيم بلغاريا إلى ثلاث مناطق، وألحقت البوسنة والهرسك بالنمسا. وفي عام ١٨٨١ قامت فرنسا بغزو تونس، فيما قامت بريطانيا باحتلال مصر عام ١٨٨٢، وتحركت بلغاريا نحو شرق الروملي عام ١٨٨٥.

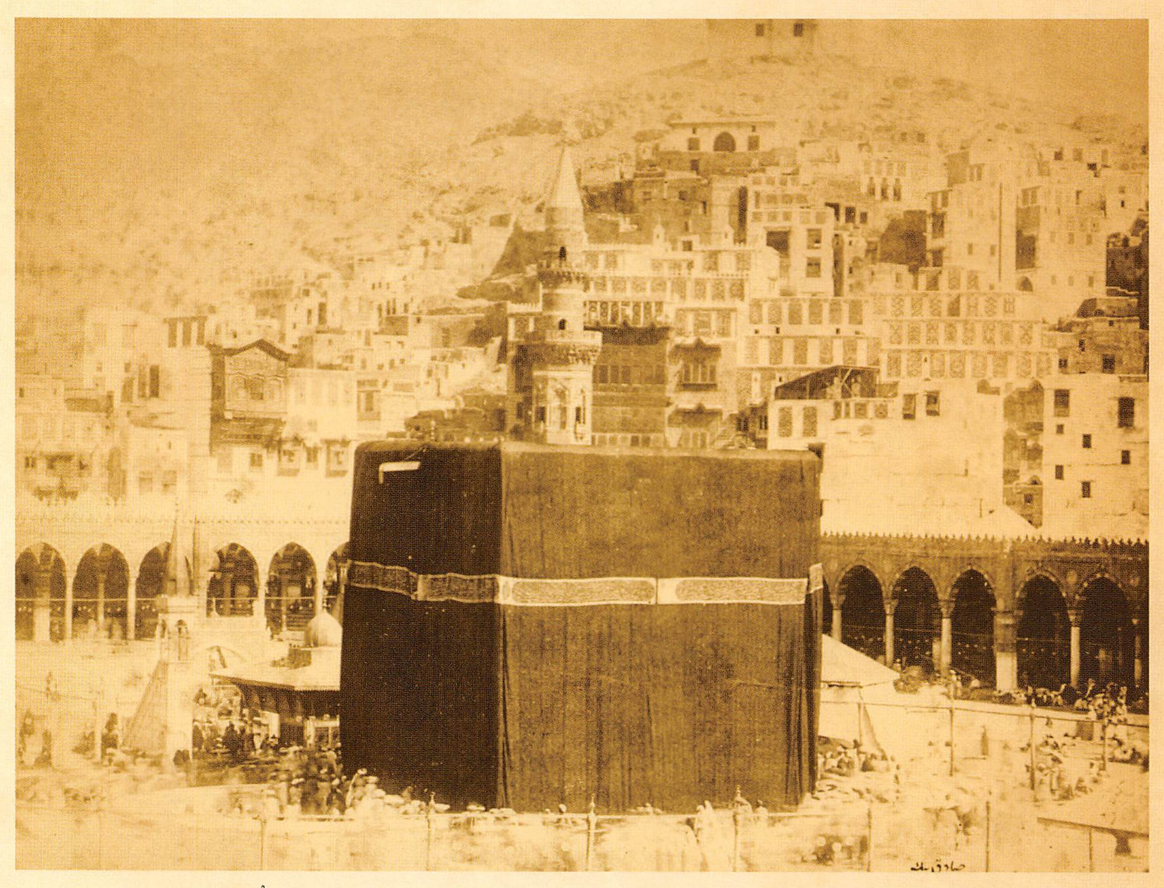
وهنا تجدر الإشارة إلى أن السلطان عبد الحميد الثاني عندما تولى السلطنة كان قد وجد الدولة في حالة حرب من عدة جبهات. وخلال أشهر من توليه بدأت الدولة في التعرض لخسائر هائلة، وفي النهاية التزم السلطان بالتركيز على السياسة الدولية، وعمل على ممارسة سياسة خارجية متسقة ومبنية على المعرفة. واضطر السلطان بعد تعرض الدولة العثمانية للإذلال والتشهير في "مؤتمر التَرْسَانَة" بإسطنبول وفي مؤتمر برلين إلى تطبيق دبلوماسية ثابتة قائمة على احترام الذات.

ولأول مرة في تاريخها بدأت الدولة العثمانية تسعى إلى أن يكون لها دور بارز في السياسة الدولية، وذلك خلال حكم السلطان عبد الحميد الثاني؛ حيث وضع السلطان إستراتيجية قائمة على توازن السلطات، ولعب على تعارض المصالح بين الدول الأوروبية التي تتنافس فيما بينها بلا رحمة، وبالتالي فقد استطاع حماية دولته في عالم متنافس.

ومن هنا قام السلطان بإنشاء مركز استخباراتي في القصر، فكان على شكل إدارة للعلاقات الخارجية يقوم فريق العمل فيها بجمع وتحليل المنشورات والإصدارات والمطبوعات الدولية وتقارير السفراء. وكان السلطان يلتقي كذلك بالعلماء الأجانب والأتراك، ويناقش معهم الدبلوماسية الخارجية. وكان الأساس المنطقي وراء سياسة توازن السلطة هذه واضحا وبسيطا، ويعتمد على الاستفادة من تعارض المصالح بين الدول، لكنه كان عملا في غاية الصعوبة عند وضعه موضع التنفيذ. وكان الفاعل الرئيسي في سياسته هذه هي بريطانيا، التي كان يمقتها، ولا يثق بها على الإطلاق. ووفقا لسياسته هذه فإن روسيا كانت تقف ضد بريطانيا، ولهذا فقد كان السلطان يقترب من روسيا ضد بريطانيا كلما لزم الأمر. وعندما احتلت بريطانيا مصر، اتجه السلطان إلى فرنسا. وبعد ذلك ساعد السلطان في حدوث المواجهة الفرنسية الإيطالية في شمال إفريقيا. والواقع أن السلطان عبد الحميد الثاني لم يعقد تحالفا أو اتفاقا طويل المدى مع أي من هذه الدول.



السلطان عبد الحميد أيام إمارته.



إحدى أقدم صور الكعبة المشرفة في ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني "ألبومات يلدز" (تصوير آلْبايْ صادق بك).

وطبق السلطان سياسة مشابهة في البلقان؛ حيث ساعد على وجود صراع بين دول البلقان، ومنعها من الاتحاد ضد الدولة العثمانية. وبالإضافة إلى هذا فقد كان يذكِّر السفراء الذين يزورونه ملوحا بأنه سيستغل منصبه كخليفة للمسلمين إذا اقتضى الأمر، بالإضافة إلى أنه كان يعمد إلى الدعاية لدى الدول الكبرى بما يرسله من مشاهد التقدم والرقي في بلاده من خلال ألبومات الصور. واتضح فيما بعد أن هذه الممارسات الدعائية قد أُعدت ببراعة وأنها عملت بشكل فعال.

فصل السلطان عددا من رجال الدولة الفاسدين، الذين اعتادوا على تلقي الأوامر والهدايا من السفارات الأجنبية، ومنح مسؤوليات جديدة لرجاله الثقات مثل غازي عثمان باشا وجَوْدَتْ باشا ضد الأشخاص الخائنين في الحكومة. وكان دائما يستعين بالحيطة والحذر، ويتنبأ بأنه سيسير على طريق عمه وشقيقه الأكبر، اللذين عانيا كثيرا من عواقب عدم اتخاذهما هذه الخطوات.

كانت هناك دوائر سرية نافذة ترغب في إعادة مراد الخامس إلى العرش، لتحقيق مصالحهم الخاصة، وحاولوا اختطافه عدة مرات من قصر جيراغان. وجرت محاولات عديدة للقيام بثورات وانقلابات، كما حاولت الدول الأجنبية تنفيذ عدة مخططات. ونتيجة لهذا اضطر السلطان إلى إنشاء مكتب تحقيقات، وأمر بإعطاء أقصى اهتمام بالنشرات والمطبوعات الأجنبية من أجل تجنب الفوضى الداخلية التي ربما تسعى أطراف أجنبية إلى إثارتها.

اعتقد السلطان عبد الحميد الثاني أن الدولة بحاجة إلى استعادة عافيتها، ولهذا الغرض سعى بتصميم إلى إبعادها عن الحروب. وكانت الحرب الوحيدة التي خاضها السلطان المسالم ضد اليونانيين وجزيرة كريت. فبعد أن اتضح أنه لا يمكن قمع الثورة في جزيرة كريت، وبعد إعلان اليونان ضمها الجزيرة، أعلن السلطان الحرب على اليونان في ١٨ أبريل/نيسان عام ١٨٩٧. واستطاعت القوات العثمانية سحق الجيش اليوناني في لاريسا وفي المعركة الضارية التي جرت في دوموكوس. وكانت هذه أول إنجازات عسكرية للسلطان عبد الحميد الثاني. وفي النهاية استسلم اليونانيون وطلبوا عقد هدنة. ورفرف العلم العثماني على كريت لعشر سنوات أخرى، لكن كريت انضمت إلى اليونان خلال السنوات المعقدة التي أعقبت إعلان السلطنة الدستورية الثانية.

أدرك السلطان أن الدولة العثمانية خسرت سمعتها في الغرب، بسبب ديونها المتراكمة المستحقة للدول الأوروبية؛ حيث كان سداد هذه الديون وفوائدها يشكل أكثر من نصف الدخل السنوي للدولة. ولهذا فقد أصدر السلطان مرسوما للدول الدائنة أطلق عليه "مرسوم محرم" في ٢٠ ديسمبر/كانون الأول عام ١٨٨١. وقامت إدارة الديون العثمانية العامة، التي تأسست وفقا لهذا المرسوم، بإحالة السيطرة على الاقتصاد العثماني إلى الدول الأجنبية التي كانت الدولة مدينة لها. وجرى خلال تلك الفترة، سحب الأرصدة الأجنبية، حتى وإن كانت بمبالغ صغيرة، لكن إجمالي الديون الأجنبية تضاءل تدريجيا بشكل ملحوظ بسبب سداد مبلغ أكبر مما تم اقتراضه مؤخرا.

كان السلطان عبد الحميد الثاني الأكثر تواضعا والأقل تفاخرا بين جميع السلاطين العثمانيين في طريقة حياته ومَلْبسه؛ حيث خفَض إنفاق القصر، واختصر قائمة الطعام في القصر، وخفّض عدد موظفي القصر. وتبلورت في عهده أيضا المنافسات التجارية بين الأجانب في الأراضي العثمانية، وفاز الألمان في الجولة الأولى وحصلوا على عقد لمشروع ضخم لإنشاء سكك حديدية، حيث مُنحوا مشروع خط السكك الحديدية الذي يربط بين محطة حيدر باشا- إِزْمِيت ووصولا إلى أنقرة، وكذلك إنشاء خط جديد للسكة الحديدية في بغداد.

كان السلطان عبد الحميد الثاني أول سلطان عثماني يضع سلطاته كخليفة موضع التنفيذ؛ حيث كان يرى أن الرعايا المسلمين يجب أن يأتوا دائما في المقام الأول. وفي مواجهة التحريض على الفتنة الذي

كانت تمارسه بريطانيا في الأراضي الإسلامية تحت زعم أن الخلافة ليست من حق العثمانيين استشار الخليفة العلماء المسلمين وحصل على تأييدهم، وقدم المفكرون المسلمون قدرا كبيرا من الأدلة الدينية والتاريخية التي توضح أن الخلافة لا علاقة لها بعِرق أو جنس.

لكن العملاء البريطانيين لم يتوقفوا عند هذا الحد؛ حيث أعلنوا خديوي مصر خليفة جديدا بهدف إضعاف سلطات الخليفة في المنطقة. ولمواجهة المخطط البريطاني أعطى الخليفة أولوية للوحدة الإسلامية. ولم يرغب السلطان في أن يرى الأجانب وهم يزرعون بذور الشقاق التي بثها البريطانيون، ولهذا فقد جمع مجموعة من القيادات الدينية وزعماء القبائل وأرسلهم بهدف التواصل مع الشعب. وبعث الخليفة أكثر حكام البلاد الذين يثق بهم لإدارة الولايات ذات الأغلبية المسلمة، كما رعى العلماء المسلمين لنشر الإسلام في الدول البعيدة مثل جنوب إفريقيا واليابان. وكان تأثير الخليفة في الصين هائلا؛ حيث افتتحت جامعة إسلامية في العاصمة بكين، وكان العَلَم العثماني يرفرف على بوابتها الرئيسية.

وفي شهر أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٠٠ أطلق السلطان عبد الحميد الثاني عملية إنشاء خط السكك الحديدية الذي عرف باسم خط الحجاز، لربط دمشق ومكة، وهو المشروع الذي كان يعتبره أعظم أعماله. فرغم العوائق التي كانت تضعها القوى الأوروبية، والهجمات المتواصلة من البدو، والمشكلات العديدة، وصعوبات المناخ، فإن الطريق اكتمل ووصل إلى المدينة في ١ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٠٨.

وخوفا من الأحداث التي وقعت في المنطقة مارست

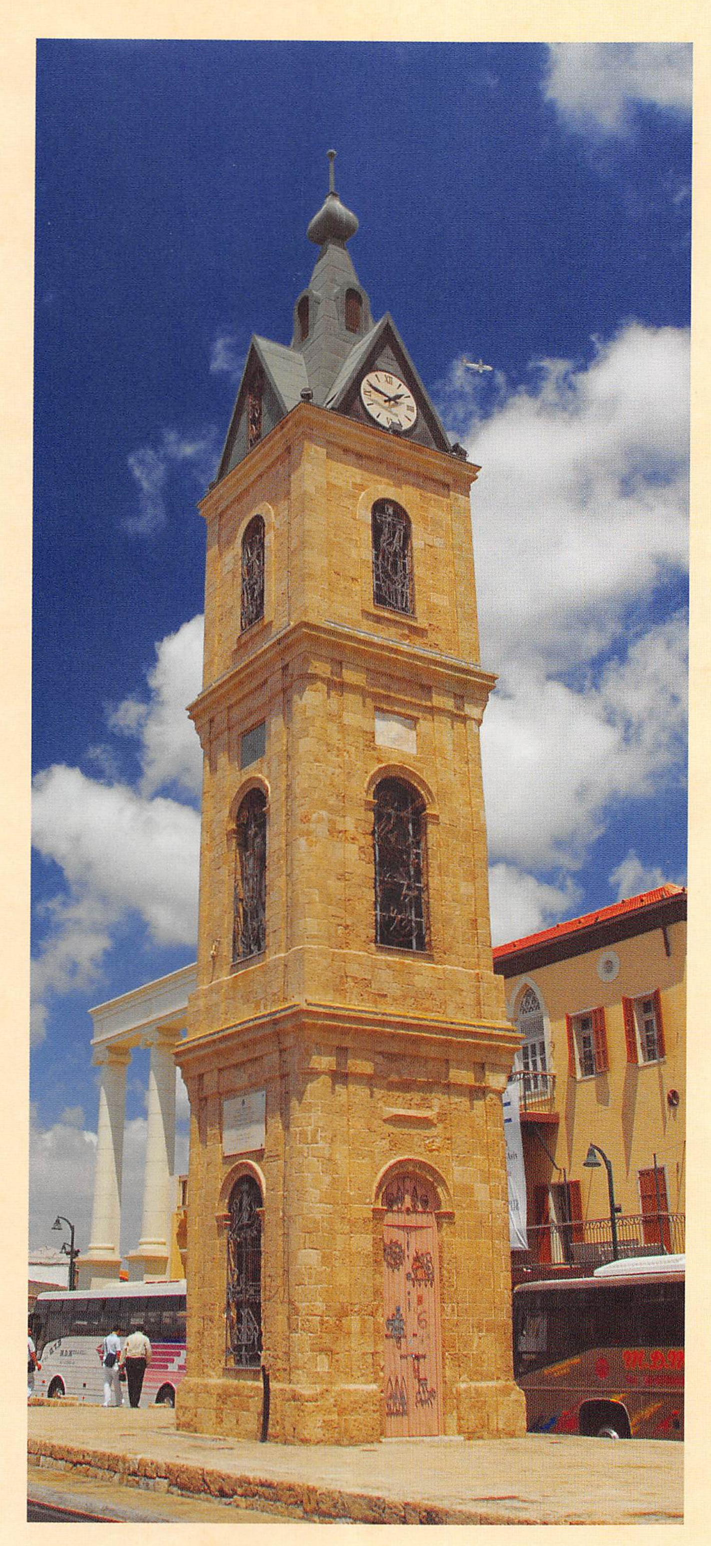


برج الساعة في إزمير على بحر إيجة بُني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

القوى الأوروبية (وخصوصا بريطانيا وفرنسا) ضغوطا أكبر على الدولة العثمانية من خلال مواصلة الزعم أن غير المسلمين يتعرضون للتمييز وعدم المساواة في ظل الحكومة العثمانية. وأدت هذه الضغوط إلى جعل السلطان عبد الحميد الثاني يتراجع في بعض القضايا، لكنه حافظ على نزاهته ودفاعه في القضية الأرمنية حتى نهاية حكمه. وقاوم السلطان بشكل خاص الضغوط الرامية إلى إجباره على إجراء إصلاحات في الأراضي التي يسكن بها الأرمن، وهو ما كان ينص عليه أحد البنود في معاهدة برلين. ولم يقدم السلطان أية تنازلات في مواجهة أساليب الضغط والتهديدات التي مارسها الغرب، لإدراكه أن هذه الضغوط بشكل خاص يمكن أن تؤدي إلى منح استقلال ذاتي للأرمن.

وأكد السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا توجد ولاية يعيش بها عدد من الأرمن يفوق عدد المسلمين؛ وبالتالي فإنه لن يقوم بإصلاحات تركز على الأرمن فقط. وبدأ الأرمن يشوهون اسم السلطان، وأطلقوا عليه اسم "السلطان الأحمر". ولأول مرة في التاريخ العثماني حاول إرهابيون من الأرمن اغتيال السلطان بواسطة قنبلة موقوتة في ٢١ يوليو/تموز عام ١٩٠٥.

وكانت هذه الخطة تقضي بوضع قنبلة تزن ٢٢٠ رطلا (نحو ١٠٠ كيلوجرام) لتنفجر في أعقاب صلاة الجمعة وتقتل السلطان ورجال الدولة، ومن هنا سيسود الإرهاب في إسطنبول بسلسلة من التفجيرات في المواقع الحساسة. ولكن على غير المتوقع أوقف كبير القضاة السلطان وناقش معه بعض الأمور وهو في طريقه للخروج من مسجد الحميدية، وأدى تأخره لبضع دقائق إلى إنقاذ حياته. لكن انفجارا رهيبا وقع، متسببا في مقتل



برج الساعة في "يافا" على البحر المتوسط بُني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

٢٦ شخصا، وإصابة ٥٨، ومقتل عشرين فرسا. وبدا أن الشخص الوحيد الهادئ في هذه اللحظات المروعة هو السلطان؛ حيث ركب عربته ذات الحصان كما لو أن شيئا لم يحدث، ولجّم أحصنته، وقادها باتجاه القصر. وعندما ألقي القبض على العقول المدبرة وراء هذا المخطط أعلن السلطان عفوه عنهم؛ حيث عملوا بعد ذلك لصالح الدولة.

كان الصهاينة قد ظلوا لوقت طويل يعملون لإنشاء دولة يهودية فيما يسمونه "أرض الميعاد" في فلسطين. وقد اقتربوا من السلطان عبد الحميد الثاني وأخبروه أنهم مستعدون لسداد جميع ديون الدولة إذا سمح لهم بالاستقرار في فلسطين. لم يرفض السلطان عرضهم السخي فقط، بل إنه اتخذ أيضا إجراءات لمنع توطنهم في فلسطين.

وبسبب الانتكاسات المالية تراجع السلطان عبد الحميد الثاني عن سياسته الانعزالية بعد ذلك، لكنه ظل يحجم عن الدخول في تحالفات طويلة المدى؛ حيث أنشأ، على سبيل المثال، تحالفا تجاريا مع ألمانيا. وكان ذلك لعدة أسباب أولها أن ألمانيا، بخلاف الدول الأوروبية الأخرى، لم تحاول احتلال أراضٍ إسلامية، كما أنها دعمت الموقف العثماني بشأن القضية الأرمنية، إضافة إلى أن السلطان عبد الحميد الثاني كان يقدّر أخلاق العمل والنظام والانضباط لدى الألمان.

كان السلطان يعلم أن سياسة توازن القوى لا يمكن أن تساند السيادة العثمانية على المدى الطويل، والواقع أن هدفه الرئيسي من تطبيق هذه السياسة كان يتمثل في كسب بعض الوقت لتحصين دولته. لكن الديون الخارجية التي تراكمت خلال ما يعرف بـ"عهد التنظيمات"، وسيطرة إدارة الدَّين العام في العديد من فروع الاقتصاد، وإنفاق رأس المال الإمبراطوري، الذي تم ادخاره بصعوبة، على قمع الثورات الداخلية، كل هذا أعاق خطط السلطان عبد الحميد الثاني الأوسع لإجراء إصلاحات شاملة. ورغم كل شيء فقد اتخذت خطوات إصلاحية مهمة، وخصوصا في مجال التعليم.

كان السلطان عبد الحميد الثاني مهتما للغاية بالكليات التي تعلّم رجال الدولة والعسكريين. وقد افتتح مدارس للفتيات، ورفع عدد المدارس الابتدائية والإعدادية. وقد تَعلّم في هذه المدارس التي أسسها السلطان عبد الحميد الثاني أبرز السياسيين والقادة العسكريين الذين قادوا تركيا بعد ذلك، مثل مصطفى كمال، مؤسس الجمهورية التركية.

ورغم أن السلطان قد فرض رقابة على العديد من مصادر النشر، فإنه ساعد على توسع ونمو قطاع النشر، ومازال هناك أعداد كبيرة من الكتب والكتيبات والمجلات والصحف التي نشرت في عهده باقية حتى يومنا هذا.

كان السلطان مغرما بالتصوير؛ حيث كان لديه مصورون يلتقطون صورا للأراضي العثمانية على اتساعها، وقد رجع هذا أساسا إلى أنه كان يفتقد فرصة القيام بزيارات عامة، والإشراف على المشروعات الجارية. فأعد



قبة مسجد الحميدية من الداخل، والمسجد أنشأه السلطان عبد الحميد الثاني.

السلطان عبد الحميد الثاني ٩١١ ألبوم صور، عُرف باسم مجموعة "ألبومات يلدز"، تضم نحو ٣٦ ألف صورة أخذت من مئات المدن في جميع الأراضي العثمانية، وتُصور العديد من المشاهد والأحداث في عهده، من بينها المدارس التي افتتحت حديثا، والمستشفيات، والسكك الحديدية، والجسور، وكذلك رجال الدولة العاملون في عهده، وتدريبات الميدان في الكليات العسكرية، والطلاب، والأراضي المقدسة، إضافة إلى المزارع التي تربي الماشية. كان السلطان عبد الحميد الثاني راعيا عظيما لفن التصوير، وتمثل مجموعة ألبومات يلدز واحدة من أكبر مجموعات الصور في العالم، حيث ساهمت في توثيق عهده بشكل أرشيفي فريد.

أنفق السلطان من مدخراته الشخصية على إنشاء مستشفى للأطفال، وتكيّة لكبار السن والفقراء والمحتاجين في ضاحية شيشلي في إسطنبول.

وكانت شبكة السكك الحديدية على رأس أجندة السلطان؛ حيث أتم خطوط الأناضول والروملي وبغداد. وتجدر الإشارة إلى أن نحو نصف السكك الحديدية الموجودة في تركيا اليوم أُنشئت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، كما أن البنية التحتية للسكك الحديدية التي تأسست في ذلك الوقت مازالت تُستخدم في تركيا. وأسس شبكة تلغراف موسعة على طول السكك الحديدية.

أولى السلطان اهتماما بتطوير العلاقات مع الشعوب التركية؛ حيث اتصل بالأتراك في وسط آسيا من خلال الشيخ سليمان أفندي البخاري. وكان الشيخ سليمان أفندي ممثلا للسلطان أيضا في المؤتمر الذي عقد في مدينة بست في المجر.

وفي غضون هذا بدأ معسكر معارض في الظهور، وتحدي السلطان. وكان هذا المعسكر بزعامة لجنة الاتحاد والترقي، التي كانت تعتقد أن إعلان السلطنة الدستورية هي الدواء الناجع لحالة الركود التي تعاني منها الدولة في الداخل والخارج. وقد تلقى هذا المعسكر دعما من الأعضاء غير المسلمين في اللجنة، وقام بتمرد في الروملي. وفي النهاية أعلن السلطان الدستور مجددا في ٢٣ يوليو/تموز عام ١٩٠٨، ومن هنا بدأ عهد السلطنة الدستورية الثانية. وعلى المدى الطويل لم تقم الحكومة الدستورية بشيء لتجنب الركود الذي عانت منه الدولة بل على العكس أدت هذه الحكومة إلى التعجيل بعملية زوال الدولة. وفي ذلك الوقت قامت الإمبراطورية النمساوية المجرية باحتلال البوسنة والهرسك لمنع إرسال ممثل البوسنة للبرلمان الجديد في ١٥ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٠٨. وأعلنت بلغاريا استقلالها، بينما أعلنت كريت التحاقها باليونان.

وفي أعقاب الانتخابات استقبل البرلمان الجديد النواب المنتخبين حديثا، وكان الأمر الشاذ أن الأتراك أصبحوا أقلية في هذا البرلمان؛ وبهذا تحقق ما كان يخشاه السلطان.

وتسببت العمليات غير المسؤولة التي قامت بها الحكومة الاتحادية في تفاقم الاستياء، كما حدث العديد

خريطة عثمانية تظهر حدود الدولة خلال زمن السلطان عبد الحميد الثاني


عموم ممالك محروسهٔ شاهانه
خريطه‌سى
سنه ١٣١٧
بحر سياه
بحر سفيد
صحراى كبير



مشهد للبرلمان العثماني حيث يقرأ أحد أعضاء البرلمان رسالة السلطان عبد الحميد الثاني للبرلمان.

من الانشقاقات داخل الجيش. وفي تلك الأثناء تأسست لجنة معارضة للاتحاديين؛ حيث تجمع معارضو الاتحاديين فيما عرف باسم "جمعية الاتحاد المحمدي"، ونشروا مقالات مستفزة في صحيفتي "وُولْقَانْ" و"ميزان"، وهما الصحيفتان الرئيسيتان لهذه الجمعية، ودعوا إلى العنف، وطالبوا بتعطيل البرلمان. ووسط كل هذا التوتر اندلع تمرد في إسطنبول، عرف باسم "ثورة ٣١ مارس"، وتسبب هذا التمرد في سقوط قتلى في ١٣ أبريل/نيسان عام ١٩٠٩، وهو اليوم المقابل ليوم ٣١ مارس/آذار في التقويم اليوليوسي الذي كان مستخدما في ذلك الوقت.

وفي غضون هذا انتفض الأرمن أيضا في تمرد ضخم، وقتلوا الكثير من المسلمين في أَضَنة في أبريل/نيسان عام ١٩٠٩. وانتهت الأحداث المضطربة في إسطنبول عندما اقترب "جيش العمليات" من منطقة يَشِيلْ كُويْ في إسطنبول قادما من سلانيك، التي كانت تمثل قاعدة لجنة الاتحاد والترقي. وقام عدد من أعضاء البرلمان بزيارة الجيش.

وانتشرت شائعات بأن السلطان هو السبب وراء اندلاع التمرد، ولهذا ينبغي عزله عن العرش. وفي المقابل

قال السلطان للصدر الأعظم توفيق باشا إنه مستعد للتنازل عن العرش لكنه يريد أن يكشف ما إذا كان لعب دورا في التمرد أم لا. وعندما سمع سعيد باشا بهذا رفض طلب السلطان بإجراء تحقيق واحتج قائلا: "ماذا سنحقق نحن إذا ثبتت براءته؟"

أُبلغ السلطان عبد الحميد الثاني أن الجيش الأول المخلص مازال في انتظار أوامره ليواجه جيش العمليات، لكن السلطان قال إنه خليفة المسلمين، وإنه لا يمكن أن يترك المسلمين ليقتلوا إخوانهم المسلمين، وعندئذ وعد قائد الجيش الأول أن جيشه لن يحمل السلاح ضد جيش العمليات.

ودخل جيش العمليات بقيادة محمود شَوْكَتْ باشا إلى إسطنبول واحتل المدينة، وبعد فترة قصيرة نصبت المشانق، التي شُنق عليها العديد من الأبرياء الذين لم يشاركوا في التمرد. واندلعت موجة من العنف في سماء إسطنبول بسبب جمعية الاتحاد والترقي. كما نُفي الجيش الأول إلى الروملي، ووضعت الصحافة تحت رقابة صارمة. ورغم وجود برلمان من الناحية النظرية، فإن الإدارة كانت ترتكز فعليا على الاستبداد، وليس على ملكية دستورية.

وصدرت في ذلك الوقت فتوى ضد السلطان عبد الحميد الثاني بناء على اتهامات زائفة وجهت لشخصه وإدارته. واُتهم السلطان بالتحريض على حادث ٣١ مارس/آذار، وتشويه الكتب الدينية وحرقها، وتبديد خزانة الدولة.

وانقلب سعيد باشا، رئيس البرلمان، على السلطان، رغم أن السلطان كان قد عينه رئيسا للوزراء سبع مرات، ودافع عنه مرات عديدة. وأصدر سعيد باشا بموافقة الأغلبية أمرا من البرلمان بخلع السلطان.

وتوجه وفد يضم أرام، وهو أرمني، وعارف حكمت، وهو بحّار جورجي (ومن المساعدين السابقين للسلطان)، واليهودي إيمانويل قراصو، وهو ممثل سلانيك في البرلمان، والألباني أسعد توبتاني، وجاء الوفد إلى القصر لإبلاغ السلطان بالقرار النهائي للبرلمان. وقد حياهم السلطان، لكنه قال: "ألم يجد البرلمان رسلا أفضل من يهودي وأرمني وألباني وشخص ملحد لنقل القرار إلى سلطان الأتراك وخليفة جميع المسلمين؟" ولم يجب أعضاء الوفد سوى بالصمت.

أراد السلطان الإقامة في قصر جيراغان بعد إجباره على التقاعد، لكن محمود شوكت باشا، قائد جيش العمليات، والمعروف بقسوته، جمع السلطان وأسرته وأمر بترحيلهم عبر السكك الحديدية إلى سلانيك. وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ العثماني التي يُنفى فيها سلطان بعد خلعه عن العرش إلى مكان خارج إسطنبول.

وفي سلانيك شغل السلطان نفسه بأعمال النجارة والحدادة، ولم يكن يعلم أن التوازن الدبلوماسي الدقيق الذي استطاع ضبطه بحرص في البلقان قد تفكك بشكل أخرق. وسنت جمعية الاتحاد والترقي قانونا بإذابة وجهات النظر الخلافية لشعوب البلقان، وأعقب ذلك قيام دول البلقان بتشكيل جبهة موحدة لمواجهة الدولة العثمانية فيما عرف بحروب البلقان. غادر السلطان سلانيك بشكل فوري؛ حيث أصبحت حياته مهددة هناك.



مستشفى "الغرباء" الذي بُني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في بورصا.

وقد عبر السلطان فيما بعد أنه لم يكن يرغب في مغادرة سلانيك، وإنه كان مستعدا لحمل السلاح دفاعا عن نفسه إذا اضطر لذلك. وعندما تصاعدت الأوضاع واقتربت من حافة الحرب، أعيد السلطان إلى إسطنبول، حيث استقر في قصر بَيْلَرْبَيِي في ١ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩١٢.

قضى السلطان السنوات الأخيرة من حياته يشاهد من بعيد المعضلة الكبرى التي تعيشها الدولة العثمانية. وتوفي السلطان في قصر بَيْلَرْبَيِي في ١٠ فبراير/شباط عام ١٩١٨، قبل أن يرى المآسي القادمة، أو عواقب الحرب العالمية الأولى. ودفن جثمان السلطان في مقبرة جده محمود الثاني في "ديوانْ يُولُو" بإسطنبول.

عُرفت القيمة الحقيقية للسلطان عبد الحميد الثاني خلال السنوات الأخيرة المضطربة من عمر الدولة، وكان هناك شعور واضح بغيابه. أما هؤلاء الذين عارضوه بشدة خلال حكمه، فقد عادوا إلى صوابهم، ولكن بعد فوات الأوان. فلو أن السلطان عبد الحميد الثاني ظل على عرشه دون أن يُخلع بتدبير من دول عدة، فربما كان قد منع هذا مشكلات عدة، مثل اندلاع حروب البلقان، وربما كان قد أنقذ رعيته من ويلات الحرب العالمية الأولى. وبناء على هذا كانت أراضي الجمهورية التركية ستصبح أكبر مما هي عليه اليوم.

لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني واحدا من أبرز وأعظم السلاطين في التاريخ العثماني. وكان يتمتع

بشخصية هادئة، لكنه كان يتسم بالتشكك إلى حد ما. وكانت الطيبة التي يظهرها لمحدثيه والوجه المبتسم حتى لهؤلاء الذين يبغضونه، من أبرز ملامحه اللافتة للنظر. وكان ذكيا عميق التأثير. وفي العلاقات الإنسانية كان يتنبأ بحواسه بالأفكار والعواطف التي يحملها محدثوه من خلال الملاحظة الدقيقة لحركاتهم ولغة أجسادهم. وعرف عن السلطان أنه كان يتمتع بذاكرة مدهشة؛ حيث لم يكن ينسى الوجوه على الإطلاق.

كان بعيدا كل البعد عن حياة الفسق والمجون؛ حيث كانت طريقة أكله وملبسه بسيطة، وكان يعيش حياة عادية، كما كان شديد الاهتمام بالرياضة، وبارعا في المبارزة بالسيف، وماهرا في التصويب بالبندقية. وكان السلطان محبا للفنون أيضا؛ حيث كان يستمع للموسيقى الغربية، ويذهب إلى المسارح، ويقوم بأعمال النجارة في محاولة للتنفيس عن سنوات التوتر والضغط التي عاشها خلال فترة حكمه. ويمكن القول إنه كان عبقريا في النجارة؛ حيث مازالت بعض أفضل أعماله باقية حتى الآن.

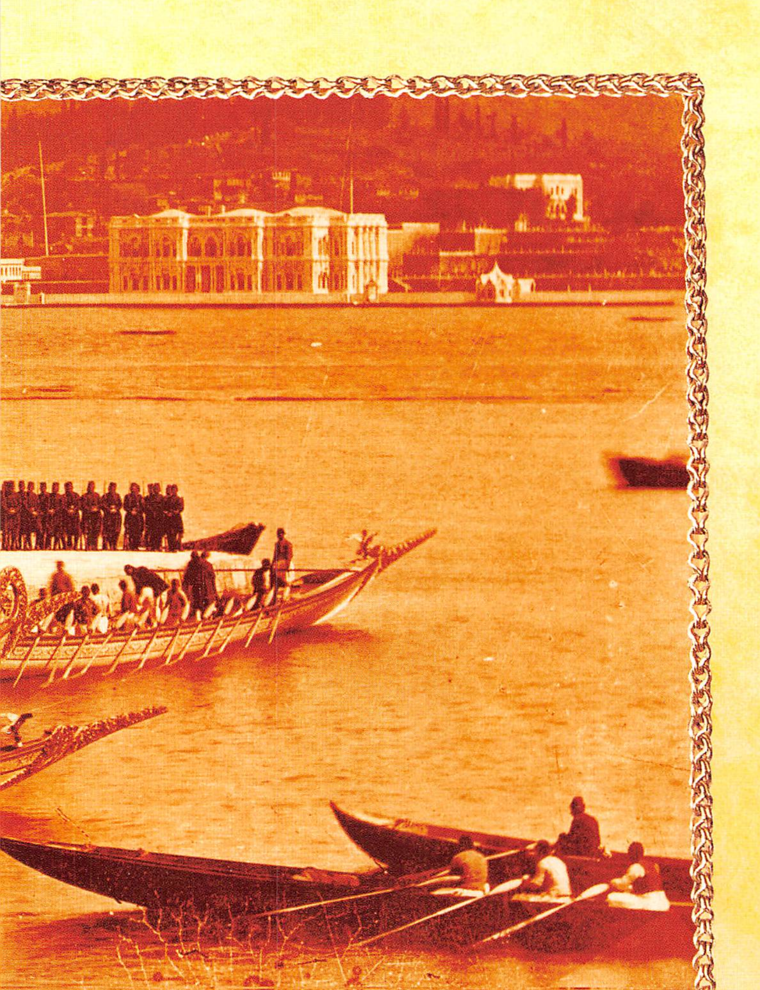
كان يلزم نفسه بالسلوك الرفيع المتوقع من خليفة مثله؛ حيث كان مسلما ملتزما، وحريصا على أداء أعمال الخير. وكان ينظر إلى الخلافة ليس فقط باعتبارها واجبا سياسيا، ولكن باعتبارها أيضا مسؤولية هائلة، حيث قام كخليفة بالعديد من الأنشطة الخيرية في الحرمين الشريفين، والتي لا يتسع المقام لذكرها بسبب كثرتها، ومن بينها مشروعات إنشاء مجلس للمدينة، ومقر للشرطة، وحصن للدفاع عن مكة، وتجهيزات مقابر الصحابة والأجيال التالية من المسلمين، وإنشاء مجارٍ مائية، وإنشاء بيت ضيافة كبير للحجاج الفقراء، وشبكة تلغراف، وتوفير العمل والخدمات العسكرية للثكنات العسكرية الموجودة في المدن المقدسة. فكل هذه المشروعات تشير إلى أن السلطان سار على نهج أسلافه وأصبح بحق "خادما لتلك المدن المقدسة". وقد أضيفت صور مكة والمدينة، التي التقطها الكولونيل صادق بيك، إلى مجموعات ألبومات السلطان عبد الحميد الثاني.

لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني محبا للسلام، وشديد الكراهية للحرب وإراقة الدماء، لكنه رغم ذلك خاض الحروب عندما لزم الأمر، مثلما حدث في اليونان، التي انتصر عليها العثمانيون في نهاية المطاف. وكان شديد التقدير للكفاءات، حتى إنه كان يخصص رواتب لأشد معارضيه الذين جرى نفيهم إلى خارج البلاد.

وبفضل خط السكك الحديدية الحميدية-الحجاز، الذي اكتمل إنشاؤه خلال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني استطاع الحجاج القيام برحلتهم المقدسة إلى الحج بتكلفة أقل بكثير، مع تمتعهم بقدر أكبر من الراحة والأمان. كما وفرت السكك الحديدية إمكانية تعبئة الجيش وإرساله إلى اليمن والجزيرة العربية بشكل أسرع كثيرا. ورغم عدم استمراره طويلا فقد أظهر خط سكك حديد الحجاز للعالم كله سلطة الخليفة التي لا يمكن تجاهلها؛ حيث أمكن تحقيق هذا المشروع العملاق بتبرعات المسلمين حول العالم.

وقد ساهم في المشروع بعزم وتصميم مسلمون من الهند وحتى الولايات المتحدة ومن فارس حتى الجزائر، ومن السودان حتى روسيا، وذلك رغم كل الارتباك والقيود والعقبات الأخرى، لكنهم في النهاية

استطاعوا تحقيق هذا. وكان العديد من رجال الدولة في أوروبا يسخرون من السلطان بسبب مشروعه الذي اعتبروه حلما كاذبا، وحاولوا إعاقته وتعطيله بشتى الطرق عندما بدأ يتجسد على أرض الواقع. ولكن في نهاية المطاف امتد خط السكك الحديدية الذي بلغ طوله نحو (١٤٠٠ كيلومترا)، وافتتح للعمل، ليمثل دلالة على منزلة وكرامة المسلمين. وبهذا توحد المسلمون من جميع أنحاء العالم على هدف واحد في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.



السلطان عبد الحميد الثاني يحضر احتفالا عاما بعد صلاة الجمعة في جامع المجيدية بالجانب الأوروبي من إسطنبول، وفي الخلفية قصر "بَيْلَرْبَيِي" وتلّ جَامْلِيجَا على الجانب الآخر من البوسفورَ.





# السلطان محمد الخامس

## (محمد رشاد)

**فترة الحكم: ١٩٠٩-١٩١٨**

**السلطان العثماني الخامس والثلاثون**

**اللقب: الغازي**

**اسم الأب: عبد المجيد**

**اسم الأم: كُلجَمال قادن أفندي**

**محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول،**
**٢ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٨٤٤**

**العمر عند اعتلاء العرش: ٦٥ عاما**

**سبب وتاريخ الوفاة: سكتة قلبية،**
**٤ يوليو/تموز ١٩١٨**

**مكان الوفاة وموقع القبر: إسطنبول،**
**ودفن في مقبرة تحمل اسمه**
**في منطقة أيوب في إسطنبول**

**أبناؤه: محمد ضياء الدين،**
**ومحمود نجم الدين، وعمر حلمي**

لوحة زيتية للسلطان محمد رشاد، بريشة الفنان أنترانيك.

تولى السلطان محمد رشاد العرش في أعقاب انقلاب عسكري مثل شقيقه الأكبر منه. وفي حين كان جده السلطان محمد الرابع، أحدُ أجداده العظماء في سن السابعة عندما تولى السلطنة، وبهذا كان أصغر سلطان في تاريخ السلالة العثمانية، فإن محمد رشاد كان أكبرهم سنا عندما جلس على العرش العثماني.

في الفترة التي تلت الثورة المضادة التي وقعت في٣١ مارس/آذار قرر البرلمان الخاضع لسيطرة جمعية الاتحاد والترقي خلع السلطان عبد الحميد الثاني وتولية شقيقه محمد رشاد. واعتُبر وصول جيش العمليات إلى إسطنبول وقمعه لثورة ٣١ مارس/آذار الفتح الثاني لإسطنبول، وهذه المرة على أيدي أعضاء جمعية الاتحاد والترقي. أطلقت الجمعية على محمد رشاد اسم السلطان محمد الخامس، في حين عرف الشعب السلطان غالبا باسم السلطان رشاد.

تولى السلطان محمد رشاد العرش في سن كبيرة، ولو كان الأمر بيده لظل بعيدا عن العرش ملتزما بأداء الصلواة؛ فقد أنهكت السنوات المضطربة السلطانَ الذي كان قليل الخبرة وكبير السن. وكان المحركُ الأول للحكومة هو الصدر الأعظم؛ حيث كان النظام ما يزال السلطنة الدستورية. وكان للخليفة سلطة تعيين الصدر الأعظم، لكنه لم يكن مسموحا له إصدار قرارات سيادية؛ وبهذا انخفض بشكل كبير تأثير السلطان على الإدارة، وذهبت السيطرة الواقعية على الإدارة لجمعية الاتحاد والترقي، والصدر الأعظم، والحكومة. وقد اكتشف السلطان هذا بعد أيام قليلة من قيام محمود شوكت باشا، القائد القاسي لجيش العمليات، بنقل شقيقه الأكبر عبد الحميد الثاني إلى سلانيك.

أراد السلطان محمد رشاد أن يعرف المزيد عن الأراضي العثمانية، فقام بزيارات للمدن في الأناضول. في ذلك الوقت لم يكن حزب الاتحاد والترقي، الذي كان قد أعلن السلطنة الدستورية وأصبح نافذا للغاية في الإدارة المركزية، مستعدا لإدارة الدولة، كما أنه لم تكن لديه الخبرة للقيام بهذا. وكان هناك في الحزب من قاموا باستغلال الدستور لمصالحهم الخاصة، وكانت علاقاتهم الوثيقة بالحكومة الفعلية نذيرا بالمظالم وأيام الحكم غير المستقر القادمة.

وأدى تدخل الاتحاد والترقي في جميع فروع الإدارة، وإحلال أشخاص من مؤيدي الاتحاديين محل المسؤولين المعارضين للاتحاديين، إلى سقوط قطاعات الإدارة في أيدي مجموعة حزبية غير ناضجة وغير متعلمة وليس لديها الخبرة.

حدثت العديد من أعمال التمرد في أعقاب العمليات السياسية الغريبة والمتناقضة التي قام بها الاتحاديون. ودخلت أساليب الإكراه في حيز التنفيذ، في الوقت الذي تم فيه قمع التمرد في ألبانيا. وفي نهاية المطاف أدت الأساليب العنيفة التي مارستها الحكومة إلى تفاقم الاستياء الشعبي. وفي ذلك الوقت كان ما يُعرف

بـ"قضية الكنيسة" مازال سائدا في البلقان، وأصدر الاتحاديون قانونا جديدا لتسوية الأمر. وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد عمل بشكل متواصل لمنع توحيد دول البلقان ضد الدولة العثمانية، لكن السلطان محمد رشاد صادق على القانون، وأخفق في أن يأخذ بعين الاعتبار التحذيرات التي أصدرها البطريك اليوناني في إسطنبول عن علم واطلاع.

ولم يستغرق الأمر طويلا كي تتجمع دول البلقان ضد الدولة العثمانية، وفي نفس الوقت لم يفلح سفر السلطان إلى الروملي في التخفيف من حدة الاضطرابات في المنطقة.

وفي ذلك الوقت قام حقي باشا، رئيس الحكومة والسفير العثماني السابق إلى روما، بنقل القوات العثمانية من طرابلس وبِنْغَازي إلى مناطق أخرى، والتي كان قد نشرها عبد الحميد الثاني لصد الهجمات الإيطالية المحتملة. واستغلت إيطاليا الأمر فنشرت قواتها سريعا. وكانت إيطاليا تسعى إلى استسلام طرابلس، فأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ٢٩ سبتمبر/أيلول عام ١٩١١.

وفي غضون هذا تشكل حزب جديد باسم "الحرية والائتلاف"، وكان معارضا لحزب الاتحاد والترقي. واندلعت صراعات بين الحزبين في البرلمان. وعندئذ تم حل البرلمان بموافقة مجلس الأعيان (مجلس الشيوخ)، وذلك في ١٨ يناير/كانون الثاني عام ١٩١٢. واستُبعد حزب الحرية والائتلاف بعد ذلك من الانتخابات التي جرت تحت سيطرة حزب الاتحاد والترقي، وبهذا تشكل البرلمان الجديد وكان أغلبه من الاتحاديين، باستثناء خمسة عشر عضوا.

وفيما كانت الانتخابات البرلمانية والتغييرات الدستورية جارية، قام الإيطاليون باحتلال الجزر الدودكانية (والتي تعرف أيضا باسم الجزر الاثني عشرة) الواقعة جنوب شرق بحر إيجة، كما قصفت القوات الإيطالية الدَرْدَنِيل وتقدمت نحو إسطنبول، فيما كانت قواتها

خزانة مجوهرات، قصر دولما باهجة

صورة للسفن العثمانية وقوارب التجديف في البوسفور مع منظر لمنطقة غَلَطة في الخلفية

تواصل الحرب ضد القوات العثمانية في طرابلس. وذهب بعض ضباط الجيش من الاتحادين إلى طرابلس وبدءوا مقاومة شعبية محلية. ونجحت المقاومة في إعاقة تقدم الإيطاليين على طول الخليج، لكنها أخفقت في إخراجهم من المنطقة.

وفي الروملي كانت دول البلقان الصغيرة حديثة التأسيس تستعد للحرب ضد الإمبراطورية العثمانية، ومن المثير للاهتمام أن بعض ضباط الجيش، الذين كانوا قد انتقلوا إلى البلقان لقمع تمرد الألبان، تمردوا هم أنفسهم ضد حكومة الاتحاديين. وبهذا فقد قام هؤلاء الضباط، الذين أطلقوا على أنفسهم اسم "المخلِّصون"، بنفس ما قامت به حكومة الاتحاديين ضد السلطة العثمانية. وقد أُجيبت مطالب هؤلاء الضباط بعد أن أرسلوا تحذيرا للحكومة. وباستقالة الصدر الأعظم سعيد باشا أصبح حزب الاتحاد والترقي خارج السلطة.

أعلن السلطان رشاد أن مشاركة القوات المسلحة في السياسة يعد خيانة، وفي ٢٢ يوليو/تموز عام ١٩١٢ قام السلطان بتعيين غازي أحمد مختار باشا، الذي كان يتمتع بشعبية بين الجنود، في منصب الصدر الأعظم. وأصبح هناك تكوين غريب داخل الحكومة العثمانية؛ ففيما كان مجلس الوزراء يتشكل من وزراء محايدين، كان حزب الاتحاد والترقي يهيمن على البرلمان، ويقود معارضة قوية ضد مجلس الوزراء. وقد أدت هذه الثنائية إلى زعزعة استقرار المؤسسة السياسية والإدارية. وعندئذ قام السلطان محمد رشاد بإلغاء البرلمان، بناء على طلب الصدر الأعظم الجديد.

وفي البلقان كان عملاء روسيا السريون يعملون بفاعلية، فيما قامت اليونان وبلغاريا وصربيا والجبل الأسود بتوحيد قواتهم ضد الدولة العثمانية، التي كانت تمثل عدوهم المشترك. واندلعت حرب البلقان الأولى عندما أعلنت دولة




أعلن السلطان محمد رشاد "الجهاد الأكبر" من مسجد الفاتح، نقلا عن نيفي جورنال (مجلة البحرية).



الخنادق العثمانية في كَلِيبُولي خلال معركة كَلِيبُولي عام ١٩١٥.

الجبل الأسود الحرب على الدولة، وتبعها الآخرون في ٨ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩١٢. وبالنسبة للجيش العثماني كان من المستحيل مواصلة القتال في حرب طرابلس، في حين كان يتعين عليهم الحشد والتعبئة في البلقان أيضا. ولهذا فقد اضطر العثمانيون إلى الاستسلام، ووقعوا معاهدة أُوشِي مع إيطاليا في ١٨ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩١٢، رغم أنه كان بالإمكان التوصل إلى اتفاق أفضل بكثير لو لم تكن حرب البلقان قائمة. ووفقا للمعاهدة حصلت إيطاليا على طرابلس وبنغازي، كما ظلت الجزر الدودكانية بشكل مؤقت تحت سيطرة الإيطاليين، ولم تعد ضمن أراضي الدولة العثمانية.

كان الجيش منخرطا بشكل غير عادي في السياسة، وتملؤه الحزبية، كما كان الصراع بين الضباط المتعلمين والجنود سببا في خلق الفوضى داخل فرق الجيش. وفي النهاية تفتت التسلسل الهرمي الذي كان قائما في الجيش على نحو مملوء بالكراهية، وتعرضت القوات العثمانية لهزيمة ساحقة من شعوب البلقان، بعد أن ظلوا يعيشون تحت حكم العثمانيين لعصور طويلة. وخسرت الدولة العثمانية جميع أراضيها في البلقان، واستقال الصدر الأعظم غازي أحمد مختار باشا، وحل محله كامل باشا القبرصي. وبدأ المسلمون المرحّلون من الأراضي المفقودة في البلقان يتدفقون على الأناضول. وكان الهدف الرئيسي للصدر الأعظم الجديد هو تقليل تكلفة الحرب. وفي ذلك الوقت قامت مجموعة من الاتحاديين بقيادة أَنْوَرْ باشا، الشاب في ذلك الوقت، بنشر شائعة تقول إن الصدر الأعظم سيسلم أدِرْنه للبلغاريين، وسار بقواته نحو الباب العالي، مقر الحكومة العثمانية. وشارك أنور باشا وقواته في انقلاب عسكري، وقتلوا الكثير من الناس في طريقهم، واستطاعوا الحصول على استقالة الصدر الأعظم كامل باشا في ٢٣ يناير/كانون الثاني عام ١٩١٣. وضغط هؤلاء على السلطان وأقنعوه بتعيين محمود شوكت باشا ليكون هو الصدر الأعظم الجديد. وأُطلق على هذا الانقلاب اسم "انقلاب القصر العالي"؛ حيث مثّل أول انقلاب للإطاحة بالصدر الأعظم والحكومة، على عكس الانقلابات الأخرى التي كانت تُنفذ ضد السلطان.

لقد أطاح الاتحاديون بالصدر الأعظم بذريعة أن أدِرْنه سيتم التضحية بها سريعا، لكنهم رغم ذلك وقعوا على معاهدة لندن في ٣٠ مايو/أيار عام ١٩١٣ عندما وصلوا إلى السلطة، وسلموا كامل منطقة الروملي، بما فيها العاصمة السابقة أدِرْنه. وأدت خسارة أراضي الروملي، التي كانت جزءا من قلب الأراضي العثمانية طوال قرون، إلى انتشار شعور بالنقمة بين الشعب، نتج عنه اضطراب اجتماعي اغتيل فيه قائد جيش العمليات محمود شوكت باشا في إسطنبول، الذي لعب دورا مهما في إنهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، ونفى السلطان عبد الحميد الثاني إلى خارج إسطنبول.

واستغل الاتحاديون اغتيال محمود شوكت باشا كذريعة لإرهاب إسطنبول؛ ففي غضون أيام اعتُقل مئات الأشخاص، وشُنق ٢٩ شخصا، وكان من بينهم صالح باشا، زوج منيرة سلطان، ابنة شقيق السلطان. ولم يستطع السلطان نفسه استخدام سلطته في العفو عنه لأنه كان ينأى بنفسه عن خسة ونذالة الاتحاديين.

خرج البلغار من حرب البلقان الأولى كأكبر دولة في البلقان، ولهذا فقد وحدت دول البلقان الأخرى سلطاتها ضد بلغاريا في ذلك الوقت. واستغلت الدولة العثمانية هذه الفرصة لاستعادة أدِرْنه في ٢١ يوليو/تموز عام ١٩١٣. وأصبح أنور باشا وزير الحرب الجديد، بينما أصبح كمال باشا وزيرا للبحرية، وتولى طلعت باشا منصب وزير الشؤون الداخلية. وأصبحت الحكومة الثلاثية المكونة من أنور وكمال وطلعت الهيئة الوحيدة المتصلة مع السلطان والحكومة.

وكان الصدر الأعظم حليم باشا قد فقد سلطاته، وفي ٢ أغسطس/آب عام ١٩١٤ وقّعت الحكومة الثلاثية اتفاقا سريا مع الألمان، معتقدين أن العثمانيين يمكنهم استعادة الأراضي التي خسروها في البلقان في حرب محتملة، واعتقدوا أن الألمان سوف يفوزون في هذه الحرب دون شك. ووُقع الاتفاق خلال عطلة البرلمان. وبعد أربعة أشهر، وفي ١١ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩١٤ وجدت الدولة العثمانية نفسها في حرب، ستكون على يديها نهايتها. ولإدراكه أن الاتفاق مع الألمان لا رجعة فيه، كما أنه لا يمكن التراجع عن الحرب الناتجة عنه، اضطر السلطان رشاد إلى إعلان الحرب، كأمر واقع، على الحلفاء (وهم بريطانيا وروسيا وفرنسا). ولكونه خليفة لجميع المسلمين، فقد حث السلطان رعاياه على الانضمام لجهود الحرب، على اعتبار أن الجيش العثماني يخوض جهادا أكبر.





موكب جنازة السلطان محمد رشاد، نقلا عن وور جورنال (مجلة الحرب).

ألقى السلطان خطابا معبرا عن الأمل في افتتاح البرلمان عام ١٩١٦، وذلك لسعادته بالانتصارات التي حققها الجيش في الدَرْدَنيل والعراق. كما نظم السلطان قصيدة متفائلة نشرت في مجلة الحرب "حَرْبْ مَجْمُوعَه سِي". لكنه توقف عن الإشارة إلى الانتصارات بعد سلسلة من المعارك الخاسرة. وفي غضون هذا عثر على يوسف عز الدين أفندي، ابن السلطان عبد العزيز ووريثه في العرش، قتيلا. وتقول السجلات إنه مات منتحرا، لكن وفاته مازالت تمثل لغزا غامضا مثل وفاة والده. وقد أغلقت القضية.

وبعد استقالة سعيد حليم باشا، الذي توترت علاقته مع الاتحاديين، تولى طلعت باشا، وزير الشؤون الداخلية، منصب الصدر الأعظم، وذلك في ٣ فبراير/شباط عام ١٩١٧.

أصبح السلطان في ذلك الوقت مثقلا بالعواقب الوخيمة للحرب العالمية الأولى، فأصابه كرب عظيم بسبب أخبار الهزائم المتواصلة فتقاعد في قصره. لكنه ظهر في الاحتفالات السلطانية لتحية إمبراطور ألمانيا وإمبراطور النمسا والمجر.

واستطاع السلطان العجوز المصاب بمرض السكر، والمنهك بعد بروتوكول تكريم إمبراطور النمسا، بالكاد أن يكمل زيارته إلى العباءة الشريفة للرّسول ﷺ، في شهر رمضان. وبعد ثلاثة أيام من هذه الزيارة توفي السلطان فجر ليلة القدر من شهر رمضان، والتي وافقت يوم ٣ يوليو/تموز عام ١٩١٨.

شهد السلطان عبد الحميد الثاني والسلطان محمد رشاد هزائم الجيش العثماني في الحرب الأخيرة، لكنهما توفيا قبل أن يشهدا نتائج "معاهدة مونترو" التي عُقدت في نفس العام، بعد خمسة أشهر فقط.

كان السلطان محمد رشاد قبل وفاته قد كلف المهندس كمال الدين بك بإنشاء مقبرته في منطقة أيوب. وكان السلطان هو الوحيد بين السلاطين العثمانيين الذي يدفن في إسطنبول خارج أسوار المدينة، وربما كان أيضا السلطان الوحيد الذي تولى الخلافة على مضض. فلو كان الأمر بيديه لكان من المرجح أنه سيكرس نفسه للصلاة، وما كان ليقضي أيامه الباقية في منصب السلطنة. تصفه المصادر بأنه كان مسلما ورعا تقيا، وسلطانا كريما رحيما.

كان السلطان قد انضم خلال شبابه إلى الطريقة المولوية الصوفية، وقرأ كثيرا في كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي خلال السنوات الطويلة التي كان فيها أميرا. وكان السلطان مفتونا بالتاريخ العثماني فكان يزور مقابر السلطان محمد الفاتح والسلطان ياووز سليم كلما أتيحت الفرصة. وكان مهتما بالصوفية والأدب، كما أنشأ مسجدا يحمل اسمه في منطقة كَارَابِنَارْ بمدينة قونية.

كانت فترة خلافة السلطان محمد رشاد مقيدة بسبب أنشطة حزب الاتحاد والترقي، الذي كان يفسر الدستور بطريقة تمنع السلطان من التدخل في شؤون الدولة. وكان السلطان يمقت الحزبية والاتحاديين، لكنه لم يكن بيده شيء يفعله حيال هذا. ويبدو أن شخصيته الهادئة والمتزنة جنبته صدامات شديدة مع معارضيه، وهو ما جنب الدولة حدوث نزاعات داخلية محتملة. وكان معروفا عن السلطان اقتصاده في النفقات؛ وكان إنفاقه بسخاء يقتصر على القصر والحرمين الشريفين.

انجرفت الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى خلال فترة حكم السلطان محمد رشاد، وكانت الحرب بالنسبة للدولة تعني الحياة أو الموت، وقد حدث الأمر الثاني. ورغم ذلك فإن الإصلاحات المهمة التي تحققت في عهده مثلت نقطة الانطلاق لتأسيس الجمهورية التركية.

# السلطان محمد السادس

## (محمد وحيد الدين)

**فترة الحكم: ١٩١٨-١٩٢٢**

**السلطان السادس والثلاثون**



**لقبه:** قارا

**اسم الأب:** عبد المجيد

**اسم الأم:** كُولُسْتُو قَادِنْ أفندي

**محل وتاريخ الميلاد:** إسطنبول، ٤ يناير/كانون الثاني عام ١٨٦١

**العمر عند اعتلاء العرش:** ٥٧ عاما

**سبب وتاريخ الوفاة:** الشلل، ١٦ مايو/أيار ١٩٢٦

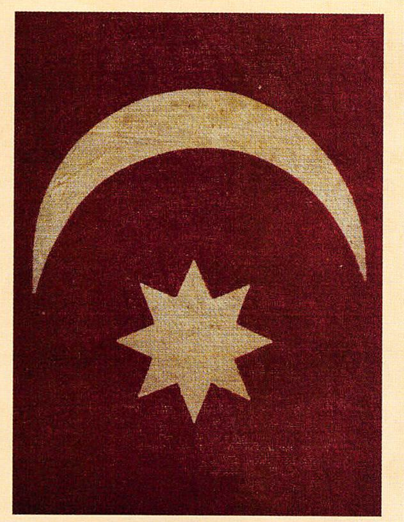
**مكان الوفاة وموقع القبر:** سان ريمو، إيطاليا، وتقع مقبرته في حديقة مسجد سليمان شاه الذي بناه السلطان سليمان (القانوني) في دمشق

**أبناؤه:** شاه زاده أُرْطُغْرُلْ محمد أفندي

**بناته:** منيرة سلطان، وفاطمة علوية سلطان، ورقية صبيحة سلطان



لوحة زيتية للسلطان وحيد الدين، بريشة أنترانيك.



اعتلى السلطان محمد وحيد الدين، آخر السلاطين العثمانيين، العرش على نحو غير متوقع تماما كما حدث مع أشقائه الثلاثة الأكبر منه الذين سبقوه. وقد أصبح وحيد الدين وريث العرش بعد الوفاة المفاجئة للأمير يوسف عز الدين أفندي، الابن الأكبر للسلطان عبد العزيز، في ١ فبراير/شباط عام ١٩١٦، وبعد وفاة شقيقه السلطان رشاد.

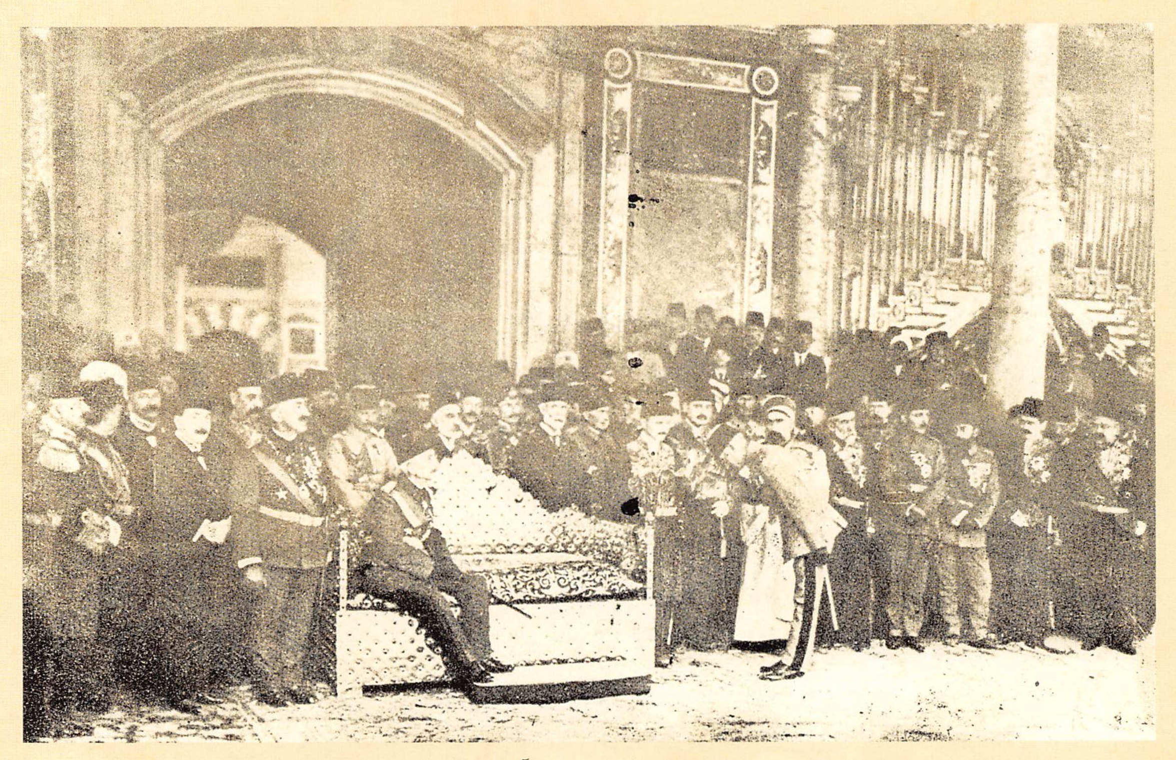
توفيت أمه وعمره ستة أشهر، وتوفي أبوه وهو في سن الرابعة من عمره. وقد اعتنى به شقيقه السلطان عبد الحميد الثاني (الذي يكبره بتسع عشرة سنة)، حتى أصبح عبد الحميد الثاني في مقام أبيه بالنسبة له. وكان وحيد الدين مؤلّفا موسيقيا جيدا، وكان يعزف البيانو والقانون. ومع صعود السلطان وحيد الدين ليكون وريث العرش كانت الحرب العالمية الأولى قد اندلعت، وانجرفت الدولة العثمانية إلى الحرب. وقد قام وحيد الدين، الذي كان وريثا للعرش في ذلك الوقت، بزيارة رسمية إلى ألمانيا في الفترة من ١٥ ديسمبر/كانون الأول عام ١٩١٧ وحتى ٤ يناير/كانون الثاني ١٩١٨. وقد صحبه مصطفى كمال، مؤسس الجمهورية التركية بعد ذلك، في هذه الرحلة ليكون مساعدا له خلال فترة إقامته هناك.

جاءت فترة تولي السلطان وحيد الدين في أسوأ أوقات الدولة؛ فالأنباء القادمة من ساحات المعارك كانت جميعها تتحدث عن هزائم وخسائر. خسر العثمانيون فلسطين وسوريا، وحتى الأناضول كانت تحت تهديد الأعداء. وقد لخص السلطان الخطأ المتمثل في إجبار الدولة على دخول الحرب بقوله:"لقد جرفتنا حماقة الحكومة إلى الدخول في هذا المستنقع وجعلتنا نسقط". وفي نهاية الأمر اضطر الخليفة إلى أن يدفع عواقب حرب لم يختر الدخول فيها من الأصل.

وقامت لجنة يرأسها وزير البحرية رؤوف أورْبَايْ بك بالتوقيع على هدنة مُونْدرُوس بميناء موندروس شمال جزيرة ليمنوس ببحر إيجه في ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩١٨.

وخلال أقل من أربعة أشهر من توليه العرش شهد السلطان وحيد الدين توقيع هدنة مودروس، التي فرضت عقوبات قاسية للغاية، وبالتالي أدت إلى شلل الدولة العثمانية. وكان السلطان يعتقد أن الدولة وجيشها يستطيعان استجماع قواهما من جديد إذا استطاع كسب بعض الوقت. واعتقد أيضا أن توقيع اتفاق سلام لا يمكن أن ينتج عنه أوضاع بائسة مع دعم بريطانيا وفرنسا.

وفي غضون هذا فرّ الأعضاء القياديون في حزب الاتحاد والترقي من البلاد خلال يومي ٢و٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٨، وبعد عشرة أيام رسا أسطول الحلفاء المكون من ستين سفينة حربية على سواحل إسطنبول في ١٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٨.



مراسم اعتلاء السلطان وحيد الدين على العرش، وهي آخر اعتلاء العرش في التاريخ العثماني.

وأعلن السلطان أن مسؤولية خسارة الحرب تقع على عاتق حزب الاتحاد والترقي وحده، وإنه سيسعى إلى المحافظة على علاقات وثيقة مع بريطانيا. ومع دخول الحكومة والبرلمان في صراع مرير حول محاكمة الاتحاديين استخدم السلطان وحيد الدين سلطته التنفيذية وفقا للدستور، وأنهى عمل البرلمان في ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨.

حاول السلطان إنقاذ دولته والمحافظة على إسطنبول من خلال السعي لدعم بريطانيا. وفي المقابل ضغطت بريطانيا وفرنسا على الحكومة العثمانية لتسليم الاتحاديين لهم، لكن توفيق باشا لم يستطع الصمود أمام الضغوط واستقال، وعين السلطان محله ضماد فريد باشا ليكون الصدر الأعظم الجديد. وبدأت عملية اعتقال الاتحاديين ومعاقبتهم.

وأدى الغزو اليوناني لمدينة إزمير على الساحل الغربي للأناضول إلى اندلاع اضطرابات في ١٥ مايو/أيار ١٩١٩. وتقدم دامَادْ فريد باستقالته للسلطان عندما حدث الغزو، لكن السلطان أبقاه في منصبه.

وعين السلطان مصطفى كمال باشا، مساعده السابق، ليكون الضابط المسؤول عن التحقيق في تمرد اليونانيين في البنطس بمنطقة البحر الأسود. ووفقا لما أكدته الوثائق الأرشيفية البريطانية أيضا فقد جاء هذا التعيين بعد لقاء جمع بين السلطان ومصطفى كمال قال فيه السلطان لكمال إنه يستطيع إنقاذ وطن الأجداد.



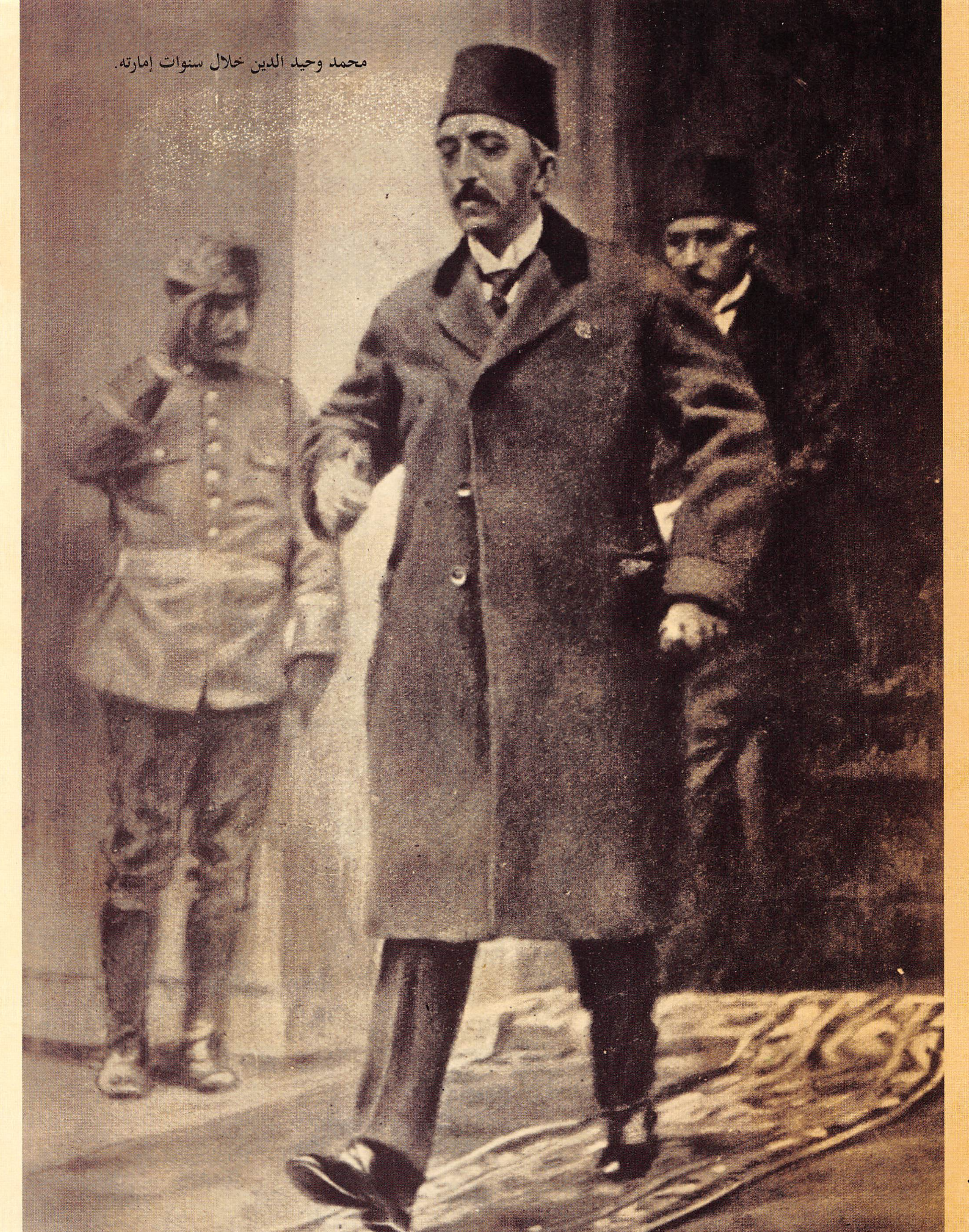
ومُنح مصطفى كمال سلطات استثنائية تتمثل في إعطاء الأوامر للجيش والسلطة القضائية والهيئات الإدارية في جميع الأناضول. وفي النهاية استقر مصطفى كمال في مدينة سمسون على الساحل الشمالي للأناضول.

التقى السلطان بمجلس السلطنة في ٢٦ مايو/أيار ١٩١٩، ووافق المجلس على مبدأ الاستقلال من جانب واحد وقرر إنشاء مجلس قومي بشكل فوري ليترك الأمة تحدد مصيرها. وقد رد الحلفاء بقوة على هذه الأنشطة.

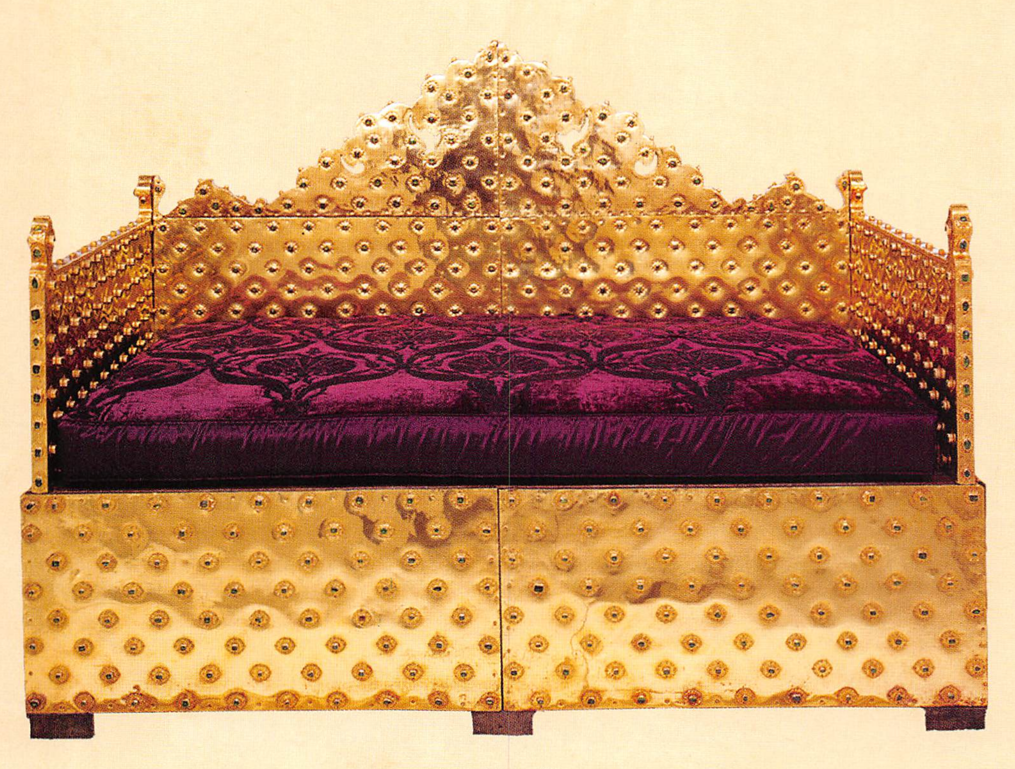
لم يكن السلطان يثق بضماد فريد باشا، ولهذا فقد اصطحب توفيق باشا إلى الوفد العثماني الذي سيمثل الدولة العثمانية في مؤتمر باريس للسلام، وهو الحدث الرئيسي الذي سيصوغ تفاصيل الهدنة.

وبدأ العثمانيون القيام بمقاومة مسلحة في أجزاء كبيرة من الأناضول ضد الاعتداءات القائمة، وخصوصا الغزو اليوناني لإزمير. وكان البريطانيون يضغطون على السلطان والحكومة لإعادة مصطفى كمال باشا، الذي لعب دورا كبيرا في حركات المقاومة الواسعة في الأناضول، لكن السلطان لم يستجب لهذه الضغوط. ورغم أن الحكومة عممت ملحوظة تشير إلى أن مصطفى كمال قد أعفي من مسؤولياته، فإنها التزمت الصمت بشكل عام. وبعث مصطفى كمال باشا تلغرافا إلى السلطان شكا فيه من موقف الحكومة العدائي تجاهه، وأبلغ السلطان أنه مستعد للاستقالة إذا اضطر لهذا، لكنه مستعد لمواصلة كفاحه من أجل الأمة. وكان رد السلطان متعاطفا معه، فلم يطلب منه أن يعود إلى إسطنبول، كما لم يطلب منه الاستقالة من منصبه، لكنه نصحه فقط بأن يأخذ إجازة لمدة شهرين يستريح فيهما ريثما تتضح الأمور.

أعلن البريطانيون أن السلطان وحكومته يقفون وراء حركة المقاومة في الأناضول، كما أصدروا إنذارا رسميا للسلطان يطالبونه فيه باعتقال مصطفى كمال وإعادته إلى إسطنبول. وعندئذ أبرق السلطان إلى مصطفى كمال باشا في ٩ يوليو/تموز ١٩١٩، حيث كان موجودا في أرضروم، وأبلغه بفصله من منصبه، وأن البريطانيين



محمد وحيد الدين خلال سنوات إمارته.



عرش الاحتفالات الذهبي

يريدون منه العودة إلى إسطنبول بشكل فوري. وكي لا يتسبب في أية مشكلات للسلطان وحيد الدين والحكومة، استقال مصطفى كمال من مهامه الرسمية، وواصل العمل بشكل فردي من أجل السلطان والدولة.

أوضح السلطان وحيد الدين للبريطانيين أنه لا علاقة له بالمقاومة، كما أعلمهم أنه لا يستطيع، بسبب تسريح الجيش، قمع الاضطراب الداخلي، الذي بدأ بسبب قمع اليونانيين للمواطنين في أراضي الدولة، وأنه من المستحيل إيقاف الناس في الأناضول ما لم يتوقف جنون اليونانيين.

اجتمع مجلس أرضروم بقيادة مصطفى كمال باشا في ٢٣ يوليو/تموز ١٩١٩. وأظهرت مراسلات المجلس الذي عُقد في أرضروم شرقي الأناضول ولاءا واضحا للسلطان ورد فعل ضد الحكومة. وعندما طلب البريطانيون من الحكومة معاملة مصطفى كمال باعتباره متمردا، دعت الحكومة إلى إحضار مصطفى كمال باشا ورؤوف بك إلى إسطنبول للقبض عليهم. لكن الوزراء الوطنيين، الذين انتقدوا الحكومة في هذا الأمر وأيدوا الكفاح الوطني، استقالوا من الحكومة.

وسار مجلس سِيوَاس على نفس منوال هذه الأحداث؛ حيث انعقد في سيواس بوسط الأناضول في ٤ سبتمبر/أيلول ١٩١٩، ومنعت الحكومة مصطفى كمال باشا والسلطان من الاتصال ببعضهما من خلال التلغراف، وعندما أرسل الباشا خطابا إلى السلطان وطلب منه تشكيل حكومة وطنية، طالب السلطان وحيد الدين باستقالة الحكومة الحالية، وقام بتعيين علي رضا باشا صدرا أعظم جديدا.

ودعمت الحكومة الجديدة القوات القومية، والتقت بمصطفى كمال في مدينة أماسيا، وتوصلوا معه إلى اتفاق عام، ووقعوا بروتوكولا معه في ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٩.

وفي أعقاب الانتخابات بدأ البرلمان الجديد في إسطنبول في ١٢ يناير/كانون الثاني ١٩٢٢. وقد أفادت الاستخبارات البريطانية أن السلطان التقى أولا مع "قَرَه واصف"، وهو عميل لحساب مصطفى كمال، ثم أمر السلطان بافتتاح البرلمان، لكنه لم يحضر الاحتفال بشكل شخصي كي لا يقوم البريطانيون بإغلاقه. وأعلن السلطان أن مرضه لم يسمح له بحضور افتتاح البرلمان. كذلك لم يستطع مصطفى كمال باشا حضور الاجتماع الأول للبرلمان بسبب الأمر الصادر باعتقاله. وأبرق الباشا للسلطان معبرا له عن أطيب الأمنيات له، ورد السلطان عليه بالتحية.

التقى "مَظْهَرْ مُفِيدْ كَانْصُو" بالسلطان بالنيابة عن لجنة النواب، وأفاد كانصو أن السلطان سأل عن مصطفى كمال وشبهه بالجواهر الموجودة في تاجه، وأنه يفتقد الحديث معه.

والتقى السلطان أيضا بوفد من البرلمان، ونصحهم السلطان بالانتباه لما يقولون؛ لأن البريطانيين قساة ومتلاعبون ويمكن أن يستغلوا كلمات أعضاء البرلمان ضدهم. فقال النواب للسلطان إن الأمة على ولائها للسلطان، وإن البريطانيين لا يستطيعون فعل شيء حيال هذا، فأجاب السلطان عليهم بأن البريطانيين يستطيعون التقدم حتى يصلوا إلى أنقرة خلال يوم واحد إذا أرادوا ذلك.

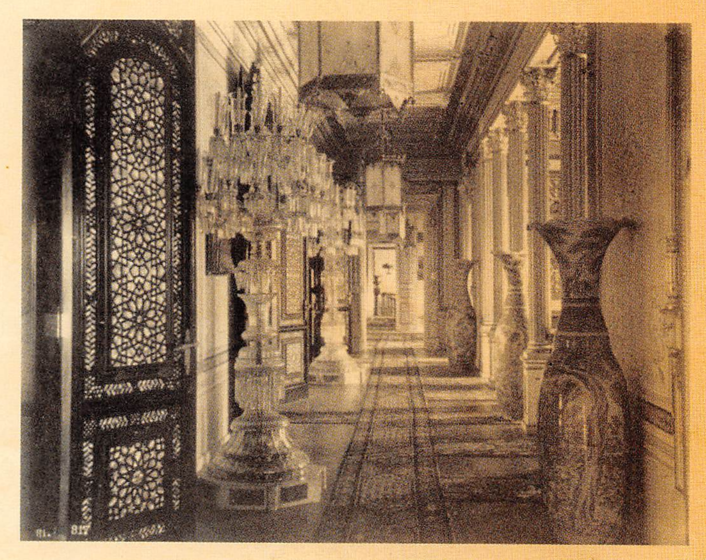
وضع الحلفاء السلطان تحت مراقبة مشددة في قصر يلدز بسبب قلقهم من حركة المقاومة في الأناضول، وكانوا يهدفون إلى حمايته من حدوث انقلاب، ومنعه كذلك من التحرك إلى الأناضول للانضمام إلى المقاومة.

اعترف آخر برلمان عثماني بالميثاق المِلّي (الوطني) في ١٧ فبراير/شباط. وبهذا الميثاق أعلن البرلمان موقفه من حدود الدولة، وحقوق الأقليات، وموقع المسلمين، والمضايق. واعتبر البرلمان أن الحدود السابقة على عقد هدنة موندروس هي الحدود الفعلية للدولة. لكن الحلفاء أظهروا رد فعل عنيفا على الميثاق الملي، فاحتلوا إسطنبول رسميا، واستولوا على جميع المؤسسات الرسمية بهدف تضييق الخناق على السلطان، وكان ذلك في ١٦ مارس/آذار ١٩٢٠. وأُبلغ السلطان أن الاحتلال مسألة مؤقتة، لكن مدته يمكن أن تتغير في ضوء الاضطراب الذي يعم الأناضول. وفي غضون هذا اعتُقل العديد من المواطنين وأُرسلوا إلى المنفى.

قطع الاحتلال الصلة بين إسطنبول والأناضول، وأمر "داماد فريد" الذي ضغط البريطانيون من أجل إعادة تعيينه صدرا أعظم، القضاةَ بإصدار فتوى تجيز الأمر بقتل المواطنين باعتبارهم كفارا وخونة. وطبعت الفتاوى في أوراق، ألقتها الطائرات البريطانية من الجو إلى الشعب. أما السلطان محمد وحيد الدين فقد أغلق البرلمان مجددا في أعقاب الاحتلال.



الجامع الجديد بـ"أمينونو". (تصوير عبد الله برادرلر)



جزء من قصر يِلْدِز، مقر السلاطين العثمانيين خلال فترة أواخر القرن التاسع عشر.

وبعد وقف البرلمان في إسطنبول افتتحت لجنة النواب المجلس الوطني التركي الأعلى في ٢٣ أبريل/نيسان ١٩٢٠ وكان يوم جمعة في أعقاب صلاة الجمعة. وبدأ هذا المجلس تعزيز الوحدة الوطنية وقيادة الكفاح الوطني بشكل فعلي. وأبرق المجلس رسالة تعبر عن الولاء للسلطان، وأوضح أن الكفاح الوطني مستمر لتحرير السلطان.

في نهاية الحرب العالمية الأولى أُجبرت الدولة العثمانية على التوقيع على معاهدة سيفر في ١٠ أغسطس/آب ١٩٢٠، والتي وضعت بنودا وشروطا غير مقبولة بالنسبة للدولة العثمانية. وكان السلطان قد وصف بنود المعاهدة بأنها "تركيبة من الشرور". واجتمع مجلس السلطنة لمناقشة بنود المعاهدة وشروطها. ورغم أن المجلس وقع على المعاهدة خوفا من احتلال اليونانيين لإسطنبول في حال عدم التوقيع عليها وإقرار الأغلبية بها، فإن السلطان لم يصادق عليها على الإطلاق. وجاء رد الفعل الأكبر على توقيع معاهدة سيفر من المجلس الوطني التركي الأعلى في أنقرة.

أدرك الحلفاء أن تطبيق معاهدة سيفر سيكون صعبا للغاية في مواجهة المقاومة العنيفة في الأناضول، ولهذا فقد طلبوا من السلطان إنشاء حكومة يمكن أن تصل إلى اتفاق مع الأناضول؛ فقام السلطان بتعيين توفيق باشا صدرا أعظم مرة أخرى. وعقدت الحكومة الجديدة لقاءات في أنقرة. وفي غضون هذا، وبعد الانتصار الساحق للأتراك على القوات اليونانية في معركة إينونو بالقرب من أَسْكِي شَهِير في ١٠ يناير/كانون الثاني ١٩٢١، دعا الحلفاء حكومة إسطنبول والمجلس الوطني التركي الأعلى إلى إعادة النظر في بنود معاهدة سيفر في مؤتمر لندن، لكن المؤتمر لم يتمخض عن أي نتائج ملموسة.

في أعقاب الإنجازات التي حققها الكفاح الوطني وتوقيع هدنة مُودَانْيا في ١١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٢ جاء رفعت باشا إلى إسطنبول بالنيابة عن المجلس الوطني التركي الأعلى والتقى بالسلطان وحيد الدين. وطلب رفعت باشا من السلطان إرسال وفد من إسطنبول إلى مؤتمر السلام القادم، وحلَّ الحكومة، وإصدار إشعار رسمي بأن السلطان يعترف بالمجلس الوطني التركي الأعلى. ورد السلطان على رفعت باشا بقوله إن الحكومة العثمانية هي الممثل الفعلي للقصر، وأنه سلطان في سلطنة دستورية، ولا يستطيع حل الحكومة. وكان هذا رفضا لمطالب رفعت باشا.




جزء تفصيلي من قاعة الصلاة في قصر دُولْمَه باغجة.

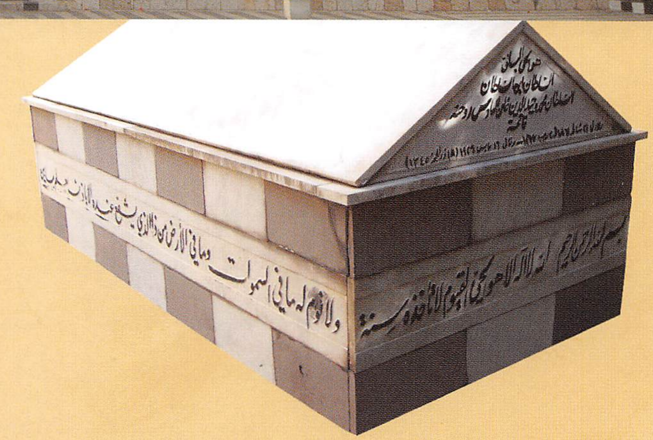
وعندما أعلنت حكومة إسطنبول أنها ستحضر مؤتمر لوزان في نوفمبر/تشرين الثاني قام المجلس الوطني التركي الأعلى بإلغاء السلطنة في ١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٢، كما أعلن المجلس أنه سيقوم بتعيين الخليفة. وتم إقرار يوم ٢ نوفمبر/تشرين الثاني باعتباره عيدا قوميا. ورد السلطان على هذه الفكرة بقوله إن الخلافة لا تكون بدون السلطنة، وأيده في ذلك أعضاء العائلة العثمانية. وقرر المجلس الوطني التركي الأعلى محاكمة السلطان، وبدأت وسائل الإعلام تنشر أخبارا عن السلطان "الخائن"، وبدأت احتجاجات تنطلق ضد السلطان. واستقال توفيق باشا في ٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٢، وقال إن السلطان من حقه الدفاع عن نفسه أمام الأمة. لكن السلطان اعتبر –في الأعوام التالية- أن توفيق باشا استقال وتركه وحده في أصعب أيامه.

وفي هذه الأثناء اغتيل وزير الداخلية الأسبق وأحد أبرز المعارضين لحركة الكفاح الوطني الكاتب والصحفي "عَلِي كمال" أثناء نقله إلى أنقرة لمحاكمته، مما أذهل إسطنبول. فقام مَن لديهم تأشيرة سفر بالهرب، فيما احتمى آخرون بالجنود البريطانيين. أما من لا يملكون مالا للهرب فقد جاؤوا إلى السلطان وطلبوا منه مساعدتهم في الخروج، وهو ما أشعر السلطان بإحباط شديد.

بعد إلغاء السلطنة ظهر السلطان فيما يعرف باحتفال تحية الجمعة، وهو احتفال شعبي يتم كل جمعة. وكانت

مسجد السليمانية (سليمان شاه)
الذي بناه سليمان العظيم في دمشق

هذه هي المرة الأولى التي لا يُذكر فيها اسم السلطان في خطبة الجمعة. وقد بدأ السلطان في التفكير في قضية مقتل علي كمال، وتركه وحده في احتفال يوم الجمعة المزدحم، والهجوم اليومي عليه في الصحف، والاحتمال القوي لتعرض حياته للخطر، ولهذا فقد قرر في النهاية مغادرة إسطنبول. وأرسل السلطان مساعده الشخصي الكولونيل زكي بك إلى الجنرال هارينجتون حاملا رسالة من السلطان مفادها أنه يرى أن حياته مهددة، وأنه يتوقع من البريطانيين حمايته بشرط المحافظة على جميع حقوقه في السلطنة والخلافة. ولم يوقع الخليفة على الطلب بوصفه سلطانا، لكنه كتب "محمد وحيد الدين، خليفة المسلمين".



السلطان وحيد الدين هو السلطان العثماني الوحيد الذي دفن خارج حدود تركيا اليوم. ويقع قبره في حديقة مسجد سليمان شاه بدمشق.

حزم السلطان أمتعته الخاصة فقط من القصر، وعندما أوصاه أحد الأشخاص بأن يأخذ الودائع الإسلامية المقدسة معه رفض السلطان بلطف قائلا إنها هدايا من أجداده إلى الأمة التركية. ونُقل السلطان من قصر يلدز في احتفال قامت به القوات البريطانية، وغادرت سفينته إسطنبول متجهة إلى مالطة.

كتبت الصحف البريطانية أن السلطان وحيد الدين كان رجلا عاقلا ورزينا أتم صلاة الجمعة الأخيرة وحده رغم المظاهرات ضده، لكنه اضطر إلى الهرب؛ لأنه يمكن أن يُغتال خلال الاحتفال القادم في ١٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٢. لكن الأمر التنفيذي الذي أطلق عليه "خيانة الأمة" والذي أصدره المجلس الوطني التركي الأعلى قدّم سببا آخر لرحيل السلطان.

أما السلطان محمد وحيد الدين فقد كتب في مذكراته يقول: "لقد تُركت كي أُضطر إلى قبول خلافة من دون سلطنة، ولم أكن قادرا على الاعتراض على هذا. وكان المحيطون بي من العميان والجاحدين، ولهذا فقد قررت المغادرة إلى أن تتضح الأمور. أنا لم أهرب لكنني هاجرت، وقد اخترت مالطة باعتبارها الخيار الأقل سوءا حيث يمكن منها أن أذهب إلى الأراضي المقدسة. لقد سرت على خطى الرسول ﷺ، ولم أتخلّ على الإطلاق عن حقي في السلطنة والخلافة الذي ورثته عن أسلافي".

وأعلن المجلس الوطني التركي الأعلى في ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٢ أن عبد المجيد أفندي، ابن السلطان عبد العزيز ووريثه، هو الخليفة المنتخب. واتهم الخليفة الجديد السلطان وحيد الدين بخيانة بلاده، وتلطيخ سمعة السلالة العثمانية.

توجه محمد وحيد الدين من مالطة إلى مكة، ورغم أنه قال إنه يرغب في الذهاب إلى قبرص أو حَيْفا، فإن البريطانيين أمروا الشريف بأن يجعل إقامة وحيد الدين في الطائف، ولهذا فقد ذهب وحيد الدين إلى هناك. وأصدر بيانا من هناك خضع للرقابة من قِبل الشريف، لكن وسائل الإعلام في ذلك الوقت اهتمت به اهتماما شديدا ونشرته. وأوضح السلطان السابق سبب رحيله قائلا: "إن سبب تَركي للسلطنة ومغادرة بلادي لم يكن الخوف من المسؤولية أمام هؤلاء الذين يتعين محاكمتهم هم على ما فعلوه بعد الحرب العالمية، وخصوصا في أعقابها. إنني، على العكس، غادرت كي أمنع وضع حياتي بين أيدي هؤلاء القساة الذين لا يحكمهم قانون، والمحرومين حتى من فضيلة الاعتراف بالحق في الدفاع (عن النفس)". ولإدراكه أنه لا يستطيع أن يمكث في الحجاز، أراد وحيد الدين أن يذهب إلى فلسطين، لكن البريطانيين رفضوا طلبه، كما رُفض طلبه الذهاب إلى قبرص. وأراد البريطانيون أن يذهب إلى سويسرا، مع دفع نفقات سفره، لكن مؤتمر لوزان كان منعقدا في ذلك الوقت، وكان من الممكن إساءة تفسير وجوده في سويسرا في ذلك الوقت. وفي النهاية عرض البريطانيون عليه الذهاب إلى إيطاليا كأفضل خيار.



استقر محمد وحيد الدين بمنطقة فيلا ماجنوليا بمدينة سان ريمو. ورُفضت طلباته المتكررة للبريطانيين بالذهاب إلى أرض مسلمة مثل قبرص أو حيفا، وكان سبب الرفض في الأساس هو أن البريطانيين كانوا يعتقدون أن إصرار السلطان السابق على أنه الخليفة يمكن أن يسبب مشكلات إذا عاش في أرض إسلامية. وبالإضافة إلى هذا فقد رفض أيضا طلبه بمنح جوازات سفر له ولاثني عشر شخصا من أسرته، بحجة أن جوازات السفر يمكن منحها فقط للمواطنين البريطانيين، أو الأشخاص الخاضعين لحماية البريطانيين.

عاش السلطان وحده لمدة ستة عشر شهرا، وكان الشخص الوحيد من أسرته الذي كان يقيم معه هو الأمير محمد أرطغرل أفندي. ولم يجتمع السلطان بأسرته إلا بعد موافقة المجلس الوطني التركي الأعلى في ٣ مارس/آذار ١٩٢٤، عندما تم ترحيل جميع أفراد السلالة العثمانية. لكن تجمع أفراد الأسرة العثمانية في سان ريمو استنفد جميع مدخرات وحيد الدين، الذي كان يمر أصلا بضائقة مالية.

وبعد إلغاء الخلافة في ٣ مارس/آذار ١٩٢٤ وجد محمد وحيد الدين أنه من الممكن عقد مجلس للخلافة في مصر، فكتب خطابا إلى شيخ الأزهر في القاهرة، وقال إنه مازال على قيد الحياة، وإنه لم يتخلّ عن حقه في الخلافة، كما طالب الشيخَ بإيجاد محل إقامة للخليفة الموجود بالفعل في بلد إسلامي، بدلا من البحث عن خليفة جديد. وأرسل محمد وحيد الدين بيانا للجنة التوجيهية لمؤتمر الخلافة، وأعلن احتجاجه على ترتيباتهم. وأوضح وحيد الدين مجددا أنه لم يتخل ولن يتخلى عن حقه في السلطنة والخلافة. وخلال أيام انعقاد مؤتمر الخلافة توفي محمد وحيد الدين، آخر خليفة عثماني في ١٦ مايو/أيار ١٩٢٦.

كان السلطان قد غادر إسطنبول ومعه ٢٠ ألف جنيه إسترليني، وقد تمكن من أن يعيش بهذه الأموال لمدة ثلاث سنوات كاملة، لكنه مر بضائقة مالية شديدة، وخصوصا عندما جاءت عائلته إلى سان ريمو؛ فخلال فترة قصيرة بدأ وحيد الدين في بيع جميع ممتلكاته، حتى اضطر في النهاية إلى عرض شارة السلطنة الذهبية للبيع، واكتشف عندئذ أن هذه الشارة كانت مزيفة، وهو ما أصابه بغمّ شديد، عندما تذكر هؤلاء الذين فعلوا هذا به.

بعد وفاة محمد وحيد الدين تقدم تجار سان ريمو لمصادرة قيمة الديون التي تركها وراءه بقيمة ٢٠٠ ألف فرنك، وجاء الضباط المسؤولون عن المصادرة إلى منزله، وحبسوا جميع الممتلكات مع جسد السلطان المحنط في غرفة، وأغلقوا المنزل. ولم يسمح الإيطاليون بإقامة جنازة له حتى تم تسديد جميع ديونه، وأعادوا بعد ذلك جسد السلطان إلى أسرته بعد شهر.

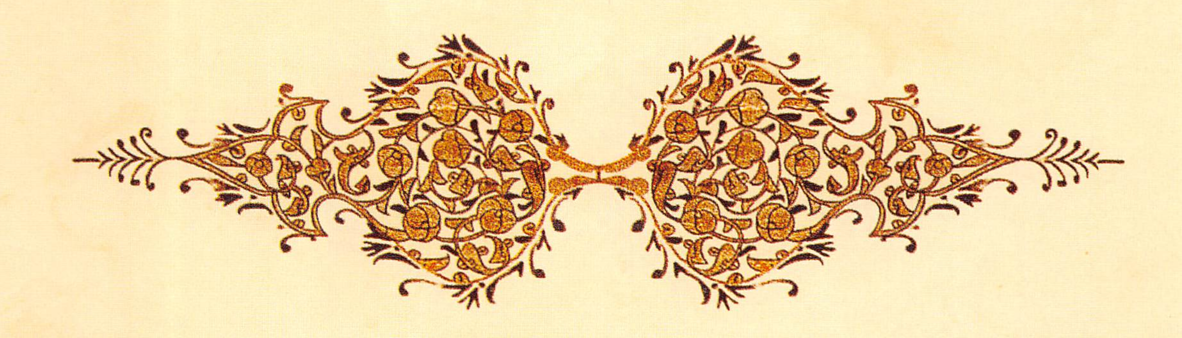
وفي غضون هذا اختير مسجد سليمان شاه في دمشق ليكون مكانا لدفن السلطان، باعتبار دمشق أرضا

إسلامية. وتحت إشراف الأمير عمر فاروق أفندي حُمل جثمان السلطان على متن سفينة إلى بيروت، ثم نقل بالسكك الحديدية من هناك إلى دمشق، ووصل إلى مثواه الأخير في ٣ يوليو/تموز ١٩٢٦، أي بعد ٤٨ يوما من وفاته.

قضى السلطان محمد وحيد الدين سنوات حكمه يعاني من العواقب المريرة للحرب العالمية الأولى التي اعتاد أن يقول دائما إنه كان خطأ فاحشا من العثمانيين أنهم شاركوا فيها من الأصل. لقد كان آخر السلاطين العثمانيين يعتقد أن بإمكانه إنقاذ دولته من خلال دبلوماسية تميل إلى بريطانيا، في وقت تعرضت فيه الدولة العثمانية للغزو والتمزق، وتشتت جيوشها، وضعف القوة العاملة بشكل دراماتيكي، فيما كان يعاني شعبها الفقر والإنهاك بسبب الحروب المتواصلة.

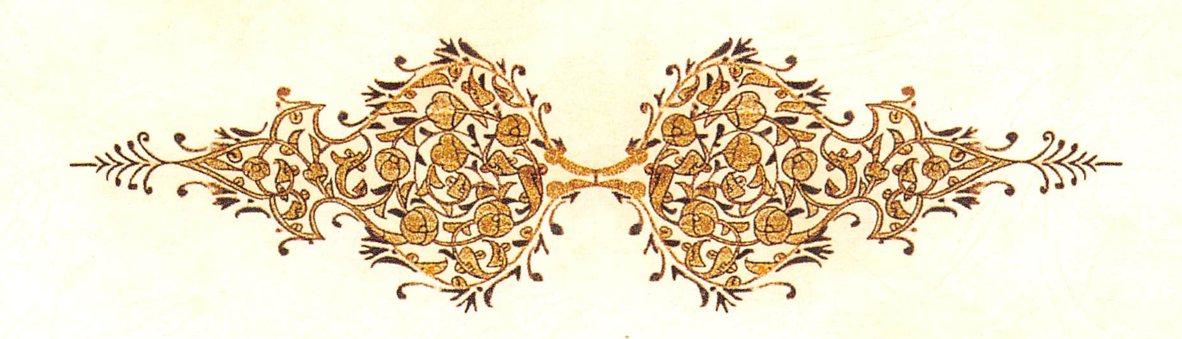
كان السلطان محمد وحيد الدين متوسط الطول نحيفا فاتح البشرة، ذا وجه شاحب. وكان ذكيا واسع الإدراك. وكان ذا مزاج معتدل، وصريحا في التعبير عن عواطفه. وكان يتمتع بشخصية كريمة وصبورة. كما كان يمقت الوشاية والنميمة، ولم يكن يسمح بحدوثها من حوله. لم يكن السلطان وحيد الدين كثير الحديث، حيث كان يفضل الاستماع إلى الآخرين. وكان يظهر عادة مقطب الحاجبين، وهو ما كان يضفي على تعبيرات وجهه جدية وصرامة.

كان يعزف على البيانو والقانون، وألَّف أغنيات تم نشرها في الأعوام اللاحقة..



**قائمة بأسماء رؤساء الأسرة العثمانية منذ إلغاء الخلافة وحتى اليوم:**

- السلطان محمد وحيد الدين، السلطان الأخير: من ٣ مارس/آذار ١٩٢٤ إلى ١٦ مايو/أيار ١٩٢٦
- عبد المجيد أفندي، آخر خليفة: من ١٦ مايو/أيار ١٩٢٦ إلى ٢٣ أغسطس/آب ١٩٤٤
- أحمد نهاد أفندي: من ٢٣ أغسطس/آب ١٩٤٤ – إلى ٤ يونيو/حزيران ١٩٥٤
- عثمان فؤاد أفندي: من ٤ يونيو/حزيران ١٩٥٤ إلى ١٩ مايو/أيار ١٩٧٥
- محمد عبد العزيز أفندي: من ١٩ مايو/أيار ١٩٧٥ إلى ١٩ يناير/كانون الثاني ١٩٧٧
- علي واصب أفندي: من ١٩ يناير/كانون الثاني ١٩٧٧ إلى ٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٣
- محمد أورخان أفندي: من ٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٣ إلى ١٢ مارس/آذار ١٩٩٤
- عثمان أرطغرل أفندي: من ١٢ مارس/آذار ١٩٩٤ إلى ٢٣ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٩
- عثمان بايزيد أفندي: من ٢٣ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٩ وحتى الآن



# المصادر

Abdurrahman Şeref Efendi. Osmanlı Devleti Tarihi (History of the Ottoman State). Vol. I. İzmir, 1995.

Aktepe, Münir. "Ahmed III." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. II. Istanbul, 1989.

---. "Abdülhamid I." Vol. I. Istanbul, 1988.

Atsız, Nihal, (ed.) AŞıkpaşaoğlu Tarihi (Ottoman History by Aşıkpaşaoğlu). Originally published in Ottoman Turkish as Tevârîh-i Al-i Osman (Histories of the House of Osman). Ankara, 1985.

---. (ed.) Oruç Beğ Tarihi (Ottoman History by Oruç Bey). Undated.

Beydilli, Kemal. "Mustafa III." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. XXXI. Istanbul, 2006.

---. "Mustafa IV."Vol. XXXI. Istanbul, 2006.

---. "Osmanlılar." Vol. I. Istanbul, 2007.

---. "Mahmud II." Vol. XXVII. Istanbul, 2003.

Çağlar, Yusuf and Salih Gülen. Dersaadet'ten Haremeyn'e Surre-i Hümayun (Ottoman Imperial Gifts to the Haramayn from the Place of Felicity). Istanbul, 2008.

Dördüncü, Mehmed Bahadır. The Yıldız Albums of Sultan Abdülhamid II, Mecca–Medina. Istanbul, 2006.

---. II. Abdülhamid Devri Osmanlı Coğrafyası (Ottoman Geography during the Reign of Abdülhamid II). Istanbul, 2007.

Dânişmend, İsmail Hâmi. İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi (An Annotated Chronology of Ottoman History). Vols. 1–6. Istanbul, 1972.

Eldem, Edhem. İstanbul'da Ölüm (Death in Istanbul). Istanbul, 2005.

Emecen, Feridun. "Osmanlılar." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam).Vol. I. Istanbul, 2007.

---. "Osman II." Vol. XXXIII. Istanbul, 2007.

---. "Mehmed III." Vol. XXVIII. Ankara, 2003.

---. "Mustafa I." Vol. XXXI. Istanbul, 2006.

Es'ad Efendi. Teşrifât-ı Kadime, Osmanlılarda Töre ve Törenler (Ottoman Ceremonies and Traditions). Istanbul, 1979.

Eyüp Sabri Pasha. Miratü'l Haremeyn (Mirror of the Haramayn), Vols. I-V. Istanbul, A.H. 1306 [CE 1889].

Halaçoğlu, Yusuf. XIV-XVII. Yüzyıllarda Osmanlılarda Devlet Teşkilâtı ve Sosyal Yapı (State Organization and Social Structure of the Ottomans between the 14th and 17th Centuries). Ankara, 2003.

Bilkan, A. Fuat and Ömer Çakır, (eds.) Harp Mecmuası (Journal of War). Istanbul, 2005..

Hoca Sadeddin Efendi. Tâcü't-Tevârîh (The Crown of Histories), Vols. I–V. (edition critique by İsmet Parmaksızoğlu). Ankara, 1992.

Hülagü, Metin. Panİslamizm Osmanlının Son Umudu (Pan-Islamism: the Last Hope of the Ottomans). Istanbul, 2006.

---. Osmanlı Yunan Harbi Abdülhamid'in Zaferi (The Ottoman-Greek War: the Victory of Abdülhamid II). Istanbul, 2008.

---. Bir Umudun İnşası Hicaz Demiryolu (Building Hope: the Hijaz Railway). Istanbul, 2008.

---. Yurtsuz İmparator Vahdeddin (The Stateless Emperor Vahdeddin). Istanbul, 2008.

İbrahim Rifat Paşa. Miratü'l Haremeyn (Mirror of the Haramayn). Undated.

İlgürel, Mücteba. "Ahmed I." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam).Vol. II. Istanbul, 1989.

---. "Ahmed III." Vol. II. Istanbul, 1989.

İhsanoğlu, E. (ed.) Osmanlı Devleti Tarihi (Ottoman History). Istanbul, 1999.

İnalcık, Halil. "Bayezid I." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious

Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. 5. Istanbul, 1992.
---. "Mehmed I." Vol. XXVIII. Ankara, 2003.
---. "Mehmed II." Vol. XXVIII. Ankara, 2003.
---. "Murad I." Vol. XXVIII. Istanbul, 2006.
---. "Murad II." Vol. XXVIII. Istanbul, 2006.
---. "Osman I." Vol. XXXIII. Istanbul, 2007.
---. "Orhan." Vol. XXXIII. Istanbul, 2007.
---. Fatih Devri Üzerine Tetkikler ve Vesikalar (Historic Documents and the Analysis of the Era of the Conqueror). Ankara, 1987.
---. Osmanlı İmparatorluğu Klasik Çağ (The Classical Age of the Ottoman Empire). Istanbul, 2003.
İnalcık, Halil and Günsel Renda. Osmanlı Uygarlığı (Ottoman Civilization). Ankara, 2003.
İnalcık, Halil and Mevlüd Oğuz. Gazavât-ı Sultân Murâd b. Mehemmed Hân (The Battles of Sultan Murad, the Son of Mehmed Khan). Ankara, 1989.
Kafesoğlu, İbrahim. Türk Milli Kültürü, Boğaziçi (Turkish National History and the Bosphorus). Istanbul, 1991.
Kazancıgil, Aykut. Osmanlılarda Bilim ve Teknoloji (Science and Technology in the Ottoman Era). Istanbul, 2000.
Kinross, P. Balfour. Osmanlı Tarihi (Turkish translation of Ottoman Centuries: the Rise and Fall of the Turkish Empire). 1979.
Kurşun, Zekeriya. Necid ve Ahsa'da Osmanlı Hâkimiyeti (Ottoman Rule in Najd and Ahsa). Ankara, 1998.
Küçük, Cevdet. "Abdülaziz." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. I. Istanbul, 1988.
---. " Abdülhamid II." Vol. I. Istanbul, 1988.
---. "Abdülmecid." Vol. I. Istanbul, 1988.
---. "Mehmed V."Vol. XXVIII. Ankara, 2003.

---. "Mehmed VI." Vol. XXVIII. Ankara, 2003.

Kütükoğlu, Bekir. "Murad III." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. XXXI. Istanbul, 2006.

Mustafa Nuri Paşa. Netayic ül-Vukuat (Consequences of Incidents). Edition critique by N. Çağatay. Ankara, 1979–1980.

Neşrî. Kitab-ı Cihan-Nüma (Book of the Global Geography). Vols. I–II. Eds. Faik Reşit Unat and Mehmet Altay Köymen. Ankara, 1987.

Ortaylı, İlber. İstanbul'dan Sayfalar (Pages from Istanbul). Istanbul, 2003.

---. Osmanlı İmparatorluğunda İktisadi ve Sosyal Değişim Makaleler (Essays on Economic and Social Change in the Ottoman Empire). Vol. I. Ankara, 2000.

---. Osmanlı Sarayında Hayat (Life in the Ottoman Palace). Istanbul, 2008.

---. Topkapı Palace, Milestones in the Ottoman History. 2008.

Osmanoğlu, Osman Selaheddin; Ali Vâsıb Efendi Bir Şehzadenin Hâtırâtı (Memoirs of an Ottoman Şehzade: Ali Vasıb Efendi). Istanbul, 2005.

---. Osmanlı Hanedanı (The Ottoman Dynasty). Istanbul, 1999.

Ottoman Imperial Edicts. Başbakanlık Osmanlı Arşivleri (Turkish premiership of Ottoman Archieves). Ankara, 2003.

Öke, M. Kemal.Hilafet Hareketleri (Caliphate Movements). Ankara, 1991.

Öz, Tahsin. İstanbul Camileri (Mosques of Istanbul). Ankara, 1997.

Özcan, Abdülkadir. "Mahmud I." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. XXVII. Ankara, 2003.

---."Mehmed IV." Vol. XXVIII. Ankara, 2003.

---. "Mustafa II." Vol. XXXI. Istanbul, 2006.

Özdemir, Hüseyin. Osmanlı Yönetiminin Dinî Temelleri Kılıç Kalem ve İlim (Religious Foundations of the Ottoman Governance: Power, Knowledge, and Science). Istanbul, 2006.

Pakalın, M.Zeki. Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü (Ottoman Turkish Dictionary of Historical Terms and Idioms). Ankara, 1971.

Sakaoğlu, Necdet. Saray-ı Hümâyûn Topkapı Sarayı (The Imperial Court: Topkapı Palace). Istanbul, 2002.

---. Bu Mülkün Sultanları. Istanbul, 2004.

Sarıcaoğlu, Fikret. "Osman III." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. XXXIII. Istanbul, 2007.

Sarıyıldız, Gülden. Hicaz Karantina Teşkilatı (The Hijaz Quarantine Organization). Ankara, 1996.

Silâhdar Mehmed Ağa. Silâhdar Tarihi XVII. Asır Saray Hayatı (Ottoman Palace Life in the 17th Century). Edition critique by M. N. Özen. Ankara.

Sözen, Metin. Devletin Evi Saray (The Imperial Palace, the Ottoman Seat of Government). Istanbul, 1990.

Sülün, Murat. San'at Eserine Vurulan Kur'an Mührü (The Qur'anic Seal Stamped on Works of Arts). Istanbul, 2006.

Turan, Osman. Türk Cihan Hakimiyeti Mefkûresi Tarihi (The History of the Turkish Ideal of Global Supremacy). Istanbul, 2003.

Turan, Şerafettin. "Beyazid II." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. V. Istanbul, 1992.

Uluçay, Çağatay. Padişahların Kadınları ve Kızları (The Daughters and Wives of Ottoman Sultans). Ankara, 2001.

---. Harem (Living Quarters of the Imperial Palace), Vol. II.

Uzunçarşılı, İsmail Hakkı. Osmanlı Tarihi (Ottoman History). Vols. I–V. Ankara, 1988.

---. Osmanlı Devletinin Saray Teşkilatı (Palace Organization of the Ottoman State). Ankara, 1945.

---. Osmanlı Devleti'nin Merkez ve Bahriye Teşkilatı (Central and Naval Organizations of the Ottoman State). Ankara, 1988.

---. Osmanlı Devletinin İlmiye Teşkilatı (Legal and Scientific Organizations of the Ottoman State). Ankara, 1988.

Yılmazer, Ziya. "Murad IV." TDV İslâm Ansiklopedisi (The Turkish Religious Foundation's Encyclopedia of Islam). Vol. XXXI. Istanbul, 2006.
Yücel Yaşar. Kanuni İle 46 Yıl (Forty-Six Years with the Magnificent). Ankara, 1991.

# قراءات يُنصح بها


Ágoston, Gábor and Bruce Masters. Encyclopedia of the Ottoman Empire.Facts on File, 2009.

Aksan, Virginia H. Ottoman Wars 1700–1870: An Empire Besieged. Harlow, England: Longman/Pearson, 2007.

Finkel, Caroline. Osman's Dream: The Story of the Ottoman Empire, 1300–1923. New York: Basic Books, 2006.

Hanioğlu, M. Şükrü. A Brief History of the Late Ottoman Empire. Princeton: Princeton University Press, 2008.

İnalcık, Halil and Donald Quataert. An Economic and Social history of the Ottoman Empire, 1300–1914. Cambridge, New York: Cambridge University Press, 1994.

Kafadar, Cemal. Between Two Worlds: the Construction of the Ottoman State. Berkeley: University of California Press, 1995.

Lewis, Bernard. Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire. Norman: University of Oklahoma Press, 1963.

Shaw, Stanford Jay.History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, 2 vols., Cambridge: Cambridge University Press, 1976–1977.

